المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

جون أبدايك

الإرهـــابـــي

ترجمة وتقديم: أحمد الشيمي

1324

الإبداع القصصي

إهـــــــداء ٢٠١٠
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

الإرهابي

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصي
المشرف على السلسلة: خيري دومة

- العدد: ١٣٢٤
- الإرهابي
- جون أبدايك
- أحمد الشيمي
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية
Terrorist
By: John Updike

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

إرهـــابي

تأليف: جون أبدايك

ترجمة وتقديم: أحمد الشيمي



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أبدايك، جون
الإرهابى/ تأليف: جون أبدايك؛ ترجمة وتقديم: أحمد الشيمى.
ط ١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٣٨٨ ص، ٢٠ سم
١- القصص الأمريكية
٢- الأدب الأمريكى
أ- الشيمى، أحمد (مترجم ومقدم)
ب- العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٥٤٣
الترقيم الدولى: 8 - 203 - 479 - 977 -978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

هذه ترجمة الرواية التي صدرت في يونيو من عام (٢٠٠٦) عن دار نوبف للنشر في الولايات المتحدة، وصدرت منها طبعة أخرى، في الوقت نفسه تقريبًا، في المملكة المتحدة عن دار بنجوين للنشر؛ أي أن كثيرًا من القراء يقرؤونها في أمريكا وأوروبا. وهي رواية أراد بها كاتبها (جون أبدايك) أن يشارك في الحرب على الإرهاب التي بدأها جورج بوش في أعقاب هجوم الحادي عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١. كتب أبدايك هذه الرواية (وهي روايته الثانية والعشرون) ليجاري الأحداث التاريخية التي تمر بها الولايات المتحدة الأمريكية، وحتى لا تفوته المشاركة في الحملة التي قادها الساسة ضد ما يسمونه بالإرهاب.. الإسلامي هذه المرة!! وقد أكد أبدايك نفسه ذلك في حديث لــه مع وكالة رويترز قبل نشر الرواية ببضعة أشهر: "أردت أن أجاري الأحداث وأتسق مع عالم اليوم. والإرهاب كما تعرفون يفرض نفسه على حياتنا. وأظن أن تناولي للموضوع في هذه الرواية سيكون مختلفاً؛ فقد سعيت إلى فهم الأمر من خلال وجهة نظر الإرهابي نفسه؛ وسعيت إلى تقديمه على أنه شخصية متورطة إلى حد بعيد."

وليس جون أبدايك وحده الذي يشارك في الحرب على الإرهاب بالكتابة في هذه القضية؛ إذ شاع هذا اللون من الأدب بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وكتب كثيرٌ من الشعراء وكتاب الرواية والمسرح والقصة القصيرة مؤلفات كثيرة، حتى تَكَوَّن ما يطلق عليه النقاد اليوم أدب ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، أو أدب ما بعد الهجمة، بل إن هناك من النقاد من يزعم أن الأدب الأمريكي بعد الحادي عشر من سبتمبر قد تغير، وهم

يقصدون التغيير الذي نلحظه عادة في آداب الشعوب بعد حدوث صدمة عنيفة تزلزل الأرض من تحت الأقدام المطمئنة مثلما حدث للأدب الأوربي بعد اندلاع ثورة العلم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبعد اندلاع الحربين العالميتين في القرن العشرين، حين تساءل الناس عن جدوى الحياة، وشكُّوا في وضوح المستقبل، واضطربت نفوسهم بعد استقرار، وأصبح الماضي زادًا للحاضر أو عبئًا عليه. وقد ينشأ من رحم الأزمات أدب عظيم كالذي كتبه وردزورث وكوليردج وكيتس وشلي وعبروا به عن ثورة الطبقة المتوسطة، أو كالذي كتبه كافكا وهمنجواي وجويس وإليوت وييتس وعبروا به عن الاضطراب الذي حدث بعد الحرب العالمية الأولى فيما بات يعرف بالحداثة، أو كالذي كتبه الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية وعبروا به عما بات يعرف بما بعد الحداثة وضياع الحدود التي ظنوا أن العلم قد وصل إليها. أو قد يصبح الأدب أداة من أدوات الدعاية التي لا تعبر عن نفس الإنسان التواقة إلى العدل، وبوقًا من أبواق السياسة لا يرجع إلا صدى الغالبين. أو قد يضطرب الناس بعد الأزمات فلا ينتجون أدبًا ذا قيمة حقيقية، كما حدث في أمريكا وإنجلترا بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

والمتتبع للأدب الذي كتبه الأمريكيون بعد الحادي عشر من سبتمبر يلمس فيه اضطرابًا ملحوظًا يشبه اضطراب رجال السياسة بعيد الهجوم، حين تظاهروا بالمفاجأة، وعصف بهم الغضب، وإذا هذا الغضب يتمخض عن حرب سماها "بوش" الحرب الصليبية الجديدة على الإرهاب، وإذا الطائرات والبوارج تتجه إلى أفغانستان ثم العراق، ويظهر "بوش" مصممًا على قيادة العالم في حرب طويلة الأمد، وعلى العودة بالمسيحية من التسامح الذي عبر عنه العهد الجديد إلى الانتقام الذي عبر عنه العهد القديم، وعلى

العودة بالعالم من الاستعمار الجديد القائم على الهيمنة الاقتصادية والسياسية إلى الاستعمار القديم القائم على احتلال البلاد وإذلال العباد.

كذلك بدأ الأدب الأمريكي بعد الحادي عشر من سبتمبر غاضبًا متوترًا تارة، وناقمًا محرضًا تارة أخرى، وإنسانيًا مشفقًا تارة ثالثة. وسرعان ما أدرك الأدباء، أو أكثر الأدباء، مع الأيام، أنهم يتحولون إلى أبواق للدعاية لما أصبح يسمى بالحرب العالمية على الإرهاب، وأدركوا أنها حرب لا تقاوم الإرهاب في الواقع، وإنما هي وسيلة لتمهيد الطريق أمام أمريكا لتأخذ مكانها في عالم اليوم كإمبراطورية وليس كدولة بين الدول. ولذلك نجد أن صوت الأدباء الذين أخذهم الحماس بعيد الهجوم قد خبا، ولم يبق غير صوت المؤيدين للحرب المفتعلة، وهؤلاء ساسة أكثر منهم أدباء، أو قل أدباء يتخذون من السياسة معبرًا لتحقيق الأمجاد والانتصارات الشخصية. نراهم يضطربون فيما يكتبون بين الحق والوهم، وبين الظلم والعدل، وبين الإنسانية والقسوة. ولا نكاد نظفر فيما يكتبون بموقف واضح، وإنما نراهم يحرضون تارة، ويلتمسون الأعذار تارة ثانية، وينحون باللائمة على السياسات الأمريكية تارة ثالثة.

إن القارئ عندما يفرغ من قراءة هذه الرواية لن يجد فرقًا كبيرًا بين ما كتبه أبدايك وما فعله الساسة الأمريكيون في سعيهم لخداع الناس عن الأهداف المضمرة؛ وأن الكاتب لم يحسن رسم شخصية بطل روايته الإرهابي الأمريكي المصري!! وأن هدفه الأهم هو لي ذراع الشخصيات كي تناسب ما يرمي إليه من اتهام المسلمين عامة والعرب بصفة خاصة بالإرهاب ومعاداة الحضارة الغربية لأنها حضارة مادية ملحدة، وأن هذا المسلم لا يكتفي بالعداء، بل يريد أن يقتل أعداءه لأنهم يختلفون عنه في

اللون والدين وجوانب كثيرة من جوانب الحياة، وحين يزعم أن هذا المسلم إنما يقتبس هذه النزعة التدميرية من العقيدة نفسها التي يدين بها والتي تدفعه في الواقع إلى الموت لنيل الشهادة وملاقاة الحور العين في الدار الآخرة.

إننا نرى أبدايك يورد آيات من القرآن الكريم دون مناسبة، أو قل دون حاجة الحوار أو الأحداث إليها، أو هو يلوي أعناق الآيات لكي تتسق مع ما يريد. وهو يريد أن يمدح اليهود فيأتي مدحه مباشرًا فجًا متملقاً. يصور لنا الكاتب شابًا يسميه أحمد من أصل مصري لأن أباه، كما يقول، قدم إلى الولايات المتحدة في أواخر الثمانينيات ضمن وفد للتبادل الطلابي، وتزوج من سيدة أمريكية من أصل أيرلندي سرعان ما هجرها ولم يتم أحمد العام الأول من عمره. وينشأ هذا الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره في حضن التطرف الديني الذي صادفه في مسجد صغير في الحي الذي يسكن فيه. هناك يبذر الشيخ رشيد، إمام المسجد، في نفس الشاب بذور التطرف، ويوحى لـــه بكراهية الآخر. ويقرر الشاب الصغير دون وعي تلقين "الكفار" درسًا لن ينسوه، تكون نتيجته أن تصعد روحه إلى جنات الخلد حيث الحور العين وأنهار العسل المصفى. ولكن اليهودي جاك ليفي هو الذي يقنع الشاب بالتخلي عن هذه الفعلة، والعدول عن تلك العملية الإرهابية التي كان يريد القيام بها. فجاك ليفي هو الذي يتبنى هداية الشاب أحمد إلى الصواب، وهو من ينقذ أحمد من التورط في عملية إرهابية كان يريد من خلالها تدمير نفق لنكولن. ويلح أبدايك طوال الرواية على أن بطله إرهابي لأنه يقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار حتى ليظن القارئ الأوربي أن القرآن هو السبب وراء هذه النزعة الإرهابية التي يتبناها الشاب، وتلك الرغبة في الموت دون سبب معقول. وأبدايك يجهل قضية الإرهاب، أو يريد أن يجهلها، فهو يريد أن يلقي في روعنا أن الإرهابيين مراهقون وقعوا تحت

تأثير من هم أكبر منهم سناً، وهم من الذين يستخدمون الدين لتحقيق مآرب سياسية ليس لها صلة بالدين.

وأبدايك من مؤيدي الحرب التي يشنها الأمريكيون اليوم على العالم الإسلامي، وكان في السابق من مؤيدي الحرب الفيتنامية، وعبر عن موقفه حينئذٍ في رده على سؤال لصحفيي النيويوركر عام ١٩٦٧ فأوضح لهم أنه يؤيد الحرب، ولا يؤيد التفاوض، وكان ذلك على غير ما كان عليه إجماع الشعب الأمريكي الذي كان يقف ضد الحرب في فيتنام. وهو يزعم أنه يمارس دور الراصد للحياة الاجتماعية والسياسية في أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية، أو يؤدي دور المؤرخ للحياة الاجتماعية والسياسية في أمريكا كما تقول جويس كارول أوتس: "لا أتخيل أمريكا دون أن يؤرخ لها أبدايك." وهذا قول قد يكون صحيحًا إلى حد ما؛ فقد شارك أبدايك حين رصدت كتاباته تقلبات الحياة الاجتماعية أثناء الحرب الباردة بما ميزها من توتر بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وذلك الهاجس الذي كان يقض مضجع الأمريكيين من ضربة نووية مباغتة تأكل الأخضر واليابس. نقرأ ذلك في روايته الضربة الموفقة (١٩٧٨)، وفي رواية في جمال أزهار السوسن (١٩٩٤) وأعمال أخرى. في هذه الأعمال يكشف أبدايك عن وعي عميق بظروف الأزمة التي كانت قائمة بين القطبين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

لم يحرز أبدايك تقدمًا كبيرًا في الشعر والنقد وكتابة المسرحيات، وإنما حقق نجاحًا ملحوظًا في مجالي الرواية والقصة القصيرة. ومن ذلك نجاحه الملفت حين نشر روايته الأولى في عام ١٩٦٨ التي سماها "أزواج"، وكانت من أكثر الكتب مبيعًا لمدة تزيد على العام، ثم باعها لدور السينما

بمبلغ يزيد على ثلاثمائة وستين ألفًا من الدولارات. وكتب أبدايك القصة القصيرة فنجح في كتابتها نجاحًا واضحًا حتى إنه ليُعرف بها دون أن يسعى إلى ذلك سعيه إلى المسرح والرواية الطويلة والشعر، ونشر الكثير من قصصه القصيرة في مجلة النيويوركر ومجلة القصة، وظهرت قصصه القصيرة أكثر من مرة في الكتاب السنوي الذي تصدره دار هوتون مفلن ويضم أفضل القصص الأمريكية القصيرة كل عام، بل لقد كلفته الدار نفسها – مع كاترينا كينسون – باختيار وتحرير كتاب "أفضل القصص الأمريكية القصيرة في القرن العشرين" الذي أصدرته الدار عام ١٩٩٩، كما تُرجم بعض قصصه القصيرة ونُشِرت في مجلة القصة والثقافة الجديدة ومجلة العصور الجديدة، وترجمت طائفة من كتاب "أفضل القصص الأمريكية القصيرة في القرن العشرين،" وضمها كتاب قام بمراجعته وتحريره الأستاذ طلعت الشايب، وصدر عن المشروع القومي للترجمة بعنوان "ربما في حلب ذات يوم وقصص أخرى: مختارات من القصة الأمريكية القصيرة في القرن العشرين."

والواضح أن كثيرًا من قصص أبدايك القصيرة أفضل من كثير من رواياته الطويلة، والواضح أيضًا أن التاريخ الأدبي في الوقت الراهن يحفل بقصصه القصيرة أكثر مما يحفل برواياته الطويلة أو دواوينه الشعرية أو مسرحياته، وأن التاريخ الأدبي في المستقبل سوف يذكر لــه إنجازه كواحد من كبار كتاب القصة القصيرة في القرن العشرين دون أن يعترف لــه بشيء ذي بال في مجالات الشعر والمسرح والنقد، وقد يوجد من مؤرخي الأدب من يسجل لــه نجاحًا ما في مجال الرواية، ويشيد بجهده في هذا الفن، ولكن هذا الناقد نفسه لن يقارنه بآخرين من الروائيين الأمريكيين

الراسخين ممن لهم في بعد الصيت وقوة الفن باع طويل أمثال همنجواي وجون شتاينبك وفوكنر ومارك توين، والمعاصرين أمثال توماس بنشن وجون فولز وأليس مونرو وفيليب روث ودون ديللو وإسماعيل ريد وجون أشبري وجور فيدال وأليس ووكر ومارجريت آتوود وستيفن كنج وراي برادبري و ج. د. سالنجر وجويس كارول أوتس وآخرين كثيرين.

فى النهاية أريد أن أتوجه بالشكر للأستاذ طلعت الشايب الذى كان أول من تنبه لأهمية الرواية فور صدورها ولفت الانتباه إلى ترجمتها، وكذلك للدكتور أحمد عبد الفتاح الليثى الذى قرأ الرواية مترجمة وكان لتعليقاته فائدة كبيرة، .....

أحمد الشيمى

أبها - فبراير ٢٠٠٧م

"فالآن أيها الرب خذ حياتي مني، فخير لي أن أموت من أن أحيا."

فقال لــه الرب: "أيحق لك أن ... ؟"

العهد القديم

(سفر يونان، الإصحاح الرابع، الأعدد ٣ – ٤)

قد يكون الكفر أعلى صوتًا من الإيمان لأن الكفر محفوف بالشهوات.

غابرييل غارثيا ماركيز

(في الحب وعفاريت أخرى)

الفصل الأول

وقف أحمد يحدِّث نفسه:

"هؤلاء الشياطين يريدون أن يبعدوني عن إلهي."

البنات لا يتوقفن طيلة اليوم عن التمايل والترنح وإظهار دلالهن، وعرض أجسادهن الناعمة، وشعورهن المسدلة، وبطونهن العارية وقد ضربن حولها بأطواق تزينها أزرار لامعة، تستقر فوق السرر التي تألقت بدقات الوشم الأرجوانية.

يسأل أحمد نفسه: "وماذا بقى لم نره؟"

أما الفتيان فيختالون في مشيتهم، ويسيرون في هوادة بعيون جامدة، ونظرات مجهدة. تنبئ نظراتهم وحركاتهم وضحكاتهم الهازئة اللامبالية بإحساسهم أنهم ملكوا العالم، وأن العالم لا يتجاوز هذه المدرسة فارغة الأناقة التي تكثر فيها الأدراج والمكاتب، وتحيط بها جدران صماء نقش عليها الطلاب بأقلامهم ألوانًا من الشتائم، وأنواعًا من السب.

وهؤلاء المعلمون، من ضعفاء النصارى أو اليهود الذاهلين، يتشدقون برفعة مهنتهم واستقامة شخصياتهم، ولكن الخبـث الذي يطل من عيونهم، والخواء الذي تحس به من أصواتهم، يشي بنقص إيمانهم. إنهم يقولون ما يقولون من أجل المال الذي تدفعه لهم مدينة نيوبروسبكت وولاية نيوجرسي، والبيت الأبيض، بينما تنقصهم العقيدة الحقيقية، فهم لا يعرفون الطريق المستقيم. إنهم أبعد ما يكونون عن الطهارة والنقاء.

كان أحمد وجميع طلاب المدرسة يراقبون المعلمين وهم يغادرون المدرسة مسرعين بعد انتهاء اليوم الدراسي إلى سياراتهم المركونة بالمواقف

ذات الأرضيات المتكسرة والتي تنتشر في جنباتها القمامة، وهم في عدوهم أشبه ما يكونون بأسماك الكابوريا (السرطان) شاحبة اللون أو السوداء وقد عادت إلى محارها للتقوقع من جديد.

ينطلق المدرسون بسياراتهم كأنهم في عجلة من أمرهم، ذاهلين كأنهم سكارى. كانوا رجالاً ونساءً مثل سائر الرجال والنساء، تمتلئ نفوسهم بالرغبة والخوف، وتفتنهم أمور هذا العالم المادية كما هو الحال مع غيرهم من الناس. يظنون أن السعادة في هذه الأشياء التافهة التي يجمعونها من حطام هذه الحياة، وأن المتعة الحقيقية لا تتجاوز تلك البرامج الخليعة التي يعرضها عليهم جهاز التلفاز. كفار! يعبدون صورًا زائفة لا تعكس واقعاً، ولا تشي بحقيقة. وهل كانت الصور إلا تقليدًا زائفًا لما خلق الله القادر على الخلق والتصوير؟ إن الراحة التي يحس بها أولئك المدرسون كلما انتهى يوم دراسي نجوا فيه من أذى الطلاب، تغريهم بمزيد من الثرثرة واللغو عند الخروج عبر الردهات والممرات، وعند موقف السيارات، كأنهم سكارى خارجين من حانات. يزداد مرحهم وصخبهم كلما ابتعدوا عن المدرسة كمن نجا من موت محقق. أما أجفانهم القرنفلية، وأنفاسهم المتقطعة، وأجسامهم المنتفخة فلا يمكن إلا أن تكون لأناس يشربون ويسرفون، أناس تغص حياتهم خارج أسوار المدرسة باللهو والعبث والسكر حتى الثمالة، والانغماس في الملذات حتى الجنون. منهم من يعيش وحيدًا لأنه طلق زوجته، ومنهم من يعيش مع امرأة أخرى دون زواج. يأخذون المال لقاء تعليمنا قيم الفضيلة والديمقراطية! ذلك المال الذي تدفعه لهم حكومة شريرة تتخذ من واشنطن مقرًا لها. يعلموننا الإحياء والكيمياء والفيزياء، ولكنهم يعلموننا من خلالها الكفر والإلحاد. يقولون لنا: إن كل شيء نشأ من ذرات

عمياء لا تعرف طريقها، وإن هذه الذرات هي التي يتكون منها الحديد الثقيل، والزجاج الشفاف، والطين الساكن، واللحم الذي دبت فيه الحياة! ويقولون لنا أيضًا: إن الإلكترونات تسري في أوتار النحاس ودوائر الحاسوب، وتسري في الهواء نفسه حين يصطدم بقطرات الماء فينبعث برق السماء. لا يعرفون من الحقيقة إلا ما يخضع للوزن والقياس، ولا يصدقون إلا ما يستنبطونه مما قاسوه أو وزنوه. وما سوى ذلك ليس إلا أحلامًا أو أضغاث أحلام. وحتى نفوسنا التي بين جوانحنا ليست إلا أوهامًا لا أساس لها من منطق.

أحمد الآن في الثامنة عشرة من عمره. يهل أبريل فتدب الحياة في البذور التي شقت طريقها إلى جوف التربة. يتطلع أحمد الآن من قامته المديدة، يرمق الهوام والحشرات الصغيرة التي لا تكاد ترى وسط العشب، ويقول لنفسه:

- لعل هذه الكائنات الصغيرة تظنني إلهًا وهي لا تعلم.

زاد طوله في السنة الأخيرة أكثر من ثلاثة بوصات إضافة إلى الستة أقدام الأولى. تتولاه قوى مادية لا مرئية بالرعاية والحدب. يقول في نفسه إنه استوفى حقه من الطول ولن يزيد بوصة واحدة في هذه الحياة الدنيا، وأغلب الظن أنه لن يزيد بوصة واحدة في الحياة الآخرة، إذا كانت هناك حياة آخرة! ولكنه لا يستسلم لوسوسة الشيطان، ويقول لنفسه: إن الدليل الذي جاء به الرسول على وجود الآخرة دليل ساطع لا يحتاج إلى برهان. ولكن الشيطان لا يزال يلح عليه: ترى أين تقع الآخرة؟ ومن هؤلاء القائمون على النار يرفدونها باللهب إلى الأبد؟ ومن أي نبع خالد لانهائي تستمد الجنة طاقاتها العجيبة على العطاء؟ ومن أي مصدر سماوي لا ينضب تأخذ

الحور العين جمالهن الخلاب؟ وكيف تستدير الفاكهة على أشجارها فتنضج دون انقطاع؟ وأي عين سرمدية تلك التي ترفد الأنهار الجارية أبداً، والينابيع الممتلئة، بالماء القراح؟ وأين القانون الثاني للديناميكا الحرارية من ذلك كله؟[1]

وكأن الشيطان لا يريد أن يفارق أذنيه، يتساءل: ما الفرق بين الموت الذي يلاقيه الإنسان وموت الحشرات والديدان؟ ألا تموت هذه المخلوقات الضعيفة مثلما نموت؟ ألا تتحلل أجسادها في التربة مثلما تتحلل أجسادنا في التربة مع الأعشاب الضارة وقطران الطريق؟ هل سيكون موتنا إلا موتاً حقيرًا لا رجعة بعده كشأن تلك المخلوقات الضعيفة؟

ذات مرة في طريقه إلى المدرسة رأى آية تدله على ما كان يدور بخلده! رأى خيطًا حلزونيًا على الرصيف لدم فاتح لزج يبدو أنه كل ما بقي من جسد مخلوق من تلك المخلوقات الدنيا، دودة أو قوقع صغير. إلى أين كانت وجهة ذلك المخلوق الضعيف في سعيه اللولبي إلى جهة مجهولة، وهدف بعيد؟ هل كان يريد النأي بنفسه عن الشمس المحرقة التي تصب حرارتها على الطريق، ولم يوفق إلى ما يريد، فدار حول نفسه إلى أن لقي حتفه؟ ولكن أين ذهب جسده؟

أين ذهب ذلك الجسد الضئيل؟ ربما اختطفته يد الله القدير وكان مصيره الجنة في الحال؟ كان الشيخ رشيد– إمام مسجد شارع غرب مين – يخبر أحمد أن المخلوقات يمكن أن تصعد إلى السماء بإرادة الله كما جاء في الحديث القدسي، وأن الرسول ركب جوادًا أبيض ذا جناحين، يقال له البراق وذهب به في رحلة إلى السماء السابعة في صحبة جبريل إلى مكان معلوم حيث صلى مع عيسى وموسى وإبراهيم قبل أن يُسلِّم خاتم النبوة

ويعود إلى الأرض ويصبح آخر الأنبياء. وكانت العلامات التي تركتها حوافر البراق على قبة الصخرة دليلاً لا يقبل الشك على رحلة الرسول تلك الليلة. وتوجد قبة الصخرة هذه بمدينة القدس التي يسميها الكفار والصهاينة "أورشليم" أولئك الذين سيحترقون في نار جهنم التي وصفها القرآن بأنها "الحطمة." وكان الشيخ رشيد يتلو آيات من سورة "الهمزة"(٢) بصوت رخيم غاية في الجمال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾

وعندما أراد أحمد أن يفهم من الشيخ رشيد تصوير القرآن لنار الله الموقدة، وكيف تَطَّلِعُ على الأفئدة، وكيف يطل عليها الكافرون وهم في عمد ممددة، وكيف لا يلوح أي أمل للكافرين في رحمة الله من عذاب هذه الحطمة، نظر الشيخ رشيد إلى الأرض بعينين هزيلتين يطل منهما -مع ذلك- دهاء كالذي يطل من عيون نساء الكفار، وقال -بعد فترة طالت أو قصرت- إن هذا التصوير القرآني تصوير مجازي لا يُقْصَد به إلا إلى تصوير الشقاء الذي نلقاه حين تنقطع صلتنا بخالقنا، والعنت الذي تعاني منه ضمائرنا لما نقترفه من خطايا ومعاصٍ لأوامر الله ونواهيه. ولكن تفسير الشيخ رشيد لم يعجب أحمد؛ لأنه كان يُذَكِّره بآراء معلميه التي لم يكن يقتنع بها في المدرسة الثانوية، وهي آراء يسمع فيها صوت الشيطان جلياً؛ فالقرآن يقصد نارًا حقيقية لا ريب فيها، وهي نار لا تلين للكفار الذين سوف يُخَلَدون فيها أبداً.

لم يكن الشيخ رشيد أكبر سنًا كثيرًا من أحمد؛ كان الفرق بينهما عشر سنين، وربما عشرين. استقرت بعض التجاعيد القليلة على وجهه الأبيض بفعل السنين وأعباء الحياة. كان حريصًا في مشيه، ومع ذلك لا تبدو عليه

الثقة في نفسه. كان الشيطان أحيانًا يحرض أحمد على إيقاع الأذى بالشيخ رشيد، أو سحقه كما سحق الله تلك الدودة الضعيفة وهي تتلمس طريقها وسط الطريق. يرى أحمد الحق فيما يعتقد ويؤمن، ويسمع همس الشيطان فيما يقوله الشيخ رشيد. من شأن الشيخ رشيد إذًا أن يخشى امتطاء البراق، جواد الإسلام الأبيض المجنح، وألا يطيق اندفاعه العظيم الذي لا يقاوم في الفضاء. فالشيخ رشيد يسعى في الواقع إلى إضعاف الأخبار التي ينبئنا بها القرآن، ويريد أن يقربها إلى البشر، ويخلط بينها وبين المعقول. ولكن القرآن لا يسعى في الواقع إلى هذا التقريب ولا يقصد إليه؛ وإنما يقصد إلى الحق الذي لا شك فيه. إن الكلمات واضحة صريحة كالسيف الباتر، والله غني عن العالمين؛ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد. إنه النور الذي تبدو الشمس إزاءه ظلمة حالكة. هو في عليائه لا يهمه أن يقترب كلامه من عقولنا، ولكن عقولنا هي التي ينبغي أن تذعن، وجباهنا هي التي يجب أن تنحني حتى تمس الأرض، وتصيب من التراب. كان محمد بشرًا من لحم ودم، يفنى كما يفنى البشر، ولكنه صعد إلى السماوات العلى، ورأى الجنة رأي العين، وشهد الكثير من المشاهد الحقيقية، وقد طبعت أفعالنا ونوايانا على صفحة وعيه مثلما تنقش الحروف نقاطًا ضوئية على صفحة الكمبيوتر عندما ندق على لوحة المفاتيح.

كانت تفوح من ردهات مدرسة سنترال الثانوية رائحة العطور، وعبق الأجساد، واللبان الممضوغ، وطعام المقصف الذي لم ينضج. وكانت تفوح منها أيضًا رائحة الملابس التي كان يرتديها الطلبة والطالبات، وهي ملابس من القطن، أو الصوف، أو من أقمشة اصطناعية أخرى، تدخل حتى في نسيج أحذيتهم التي تسير على عجلات، وتشم منها رائحة اللحم البشري الذي

يعبق بالعافية والشباب. وفي الفترات بين الحصص تسمع دويًا كبيرًا من النشاط والحركة التي تُحدث ضوضاءً تداري عنفًا لا يسهل كبح جماحه.

كانت جورلين غرانت تأتي أحيانًا إلى أحمد، بعد انصراف الطلاب في نهاية اليوم الدراسي حين تهدأ العاصفة، وتهمد الجلبة، ويخلو المبنى الكبير إلا من عدد قليل ممن يقومون بأنشطة زائدة عن المقرر الدراسي. كان يحب ممارسة رياضة الجري في الربيع، وكانت هي تغني في نادي الفتيات للغناء. كان أحمد طالبًا جيدًا متدينًا حماه دينه من تعاطي المخدرات واقتراف الرذيلة، ولكنه نأى به قليلاً عن زملائه، وحرضه على الشك في المقررات التي يدرسها. وكانت جورلين طالبة مجتهدة قصيرة القامة، ملفوفة القوام، تتحدث في الفصل بنعومة تريد أن تفتن بها المدرسين. تمنحها استدارة جسدها المكتنز الذي تضيق به ملابسها ثقة في النفس محببة لديها. كان لونها بنيًا كلون الكاكاو، ترتدي الجينز الذي يرتديه اليوم الأولاد والبنات وقد كثرت رقعه، وزينته بعض الثقوب، وبهت لونه عند موضع جلوسها، وكان يعلوه قميص أرجواني قصير يطول من ناحية أكثر من اللازم، ويقصر من ناحية أخرى أكثر من اللازم أيضاً. ردت شعرها المتألق إلى الوراء بمشابك من البلاستك، وزينت شحمة أذنها اليمني الممتلئة أقراط فضية نحيلة. كانت تغني مع كورس المدرسة أغنيات في مدح المسيح أحياناً، وتعبيرًا عن الشهوة أحيانًا أخرى، وكان أحمد يمقت الأمرين كليهما. ولكنه كان سعيدًا باهتمامها به، فكان يهش لها كلما أقبلت عليه بين الحين والحين.

تداعبه هذه المرة وهي تميل قليلاً بمنكب نصف عار تهزه مازحة:

- هون عليك يا أحمد، الدنيا ليست بهذا السوء.

- أعرف أن الدنيا ليست بهذا السوء. ومن قال إني مهموم؟

يضطرب جسده الطويل تحت قميصه الأبيض، وسرواله الجينز الأسود الضيق. كان قد فرغ لتوه من الاستحمام بعد تمرين الجري.

– تبدو جادًا ومسرفًا في الوقار طوال الوقت. ابتسم يا رجل.

– ولماذا أبتسم يا جورلين؟

– حتى يحبك الناس.

– لا يهم أن يحبني أحد، لا أريد أن أكون محبوبًا من الناس.

– بالعكس، أنت تريد والناس جميعًا يريدون أن يحبهم الناس.

– أنتِ فقط التي تهتمين بهذه الأمور.

يرميها بنظرة قاسية من ارتفاعه الجديد. ويتخيل حلمتي ثدييها مثل قروح كبيرة على قميصها الذي ظهرت منه معالم بطنها الممتلئ، وسرتها الغائرة. يتخيل جسدها الناعم، المائل إلى اللون البني، وهو يحترق في تلك النار الموقدة، وتنتشر على صفحته الدمامل. يشفق عليها قليلاً لأنها أظهرت لــه شيئًا من الود اتباعًا لعادة ألزمت بها نفسها، يقول لها بشيء من الازدراء:

– أنت دمية الميلاد الصغيرة.

تؤذيها مقولته، فتتحول عنه، وتعمد إلى كتبها المدرسية الثقيلة فتضعها بين ثدييها فتزداد حولهما التجاعيد، ثم تقول بشيء من الرقة أيضًا:

– يا لك من سخيف!

كانت لم تزل تحتفظ لــه بشيء من الود. تتدلى شفتها السفلى الرقيقة قليلاً، ويلمع لعابها أسفل اللثة تحت ضوء لمبات الفلوريسنت المعلقة في السقف، ورغم رغبتها إنهاء الحديث إلا أنها تقول:

– لا أدري كيف ترتدي قميصًا نظيفًا أبيض كل يوم كما يفعل وعاظ الكنائس؟ كيف تطيق أمك "كَيَّ" كل هذا كل يوم؟

لم يكلف أحمد نفسه أن يشرح لها كيف أن هذه الملابس الوقورة ما هي إلا رسالة تنأى به عن الدخول في أي صراع. فهو بذلك يتجنب اللون الأزرق الذي يتخذه فريق من الطلاب السود في المدرسة يسمون أنفسهم فريق الثوار، ويتجنب اللون الأحمر الذي يرتديه فريق آخر سموا أنفسهم فريق الشياطين، وهم الطلبة المنحدرون من أصول أسبانية. لم يشأ أن يخبرها أيضًا أن أمه نادرًا ما تقوم بكي ملابسه، أو أي ملابس على الإطلاق؛ لأنها تعمل مساعدة ممرضة في مستشفى القديس فرانسيس، كما تمارس الرسم لبعض الوقت، وأنها لا ترى ابنها إلا أقل من ساعة واحدة في الأربع والعشرين ساعة، وأنها تبعث بقمصانه إلى محال الغسيل فتعود إليهما مشدودة في ورق كرتون، ويسدد هو الفاتورة من عمله بائعًا في محل "شوب أسِك" – الذي يقع في الشارع العاشر – ليلتين في عطلة نهاية الأسبوع، وإجازات الأعياد النصرانية، عندما يكون أغلب أقرانه يهيمون على وجوههم في الشوارع والطرقات، يبحثون عن أذى خلق الله. ولكن أحمد يعرف أن في لباسه تيهًا وخيلاءً وتفاخرًا لا يليق بمخلوق أمام خالقه.

يشعر أحمد أن جورلين لا تريد أن تكون لطيفة معه فحسب، وإنما تريد أيضًا أن تشبع حب استطلاع لديها. تريد أن تقترب منه كي تألف رائحته، رغم أن لديها صديقًا شريرًا سيئ السمعة. حذره الشيخ رشيد ذات مرة من أن النساء حيوانات سهلة القياد. وها هو الآن يرى بنفسه كيف أن المدرسة الثانوية والعالم خلف أسوارها يمتلئان بالحيوانات المسكينة العمياء، التي تتدافع كقطيع واحد يؤذي بعضه بعضًا دون أن تهتدي إلى الطريق المستقيم الذي يعصم من الزلل. تذكر أن القرآن قرر أن راحة المؤمن لا

تكون إلا في الجنة التي لم يرها أحد من الأحياء، وهي مدخرة للذين يحافظون على صلواتهم الخمس في اليوم والليلة، وهو العدد الذي جاء به الرسول من رحلته على ظهر البراق العريض الأبيض، بعد أن عرج به إلى السماوات العلى.

تصر جورلين على الوقوف قريبًا منه حتى يمتلئ أنفه بعطرها. يضايقه نهود ثدييها. تنقل كتبها المدرسية بين ذراعيها فيقرأ أحمد اسمها "جورلين غرانت" مكتوبًا بحروف بارزة على حافة كتاب كبير من تلك الكتب. شفتاها مطليتان بلون قرنفلي ظاهر سعيًا منها لإظهارهما أكثر نحولاً، وهو ما يزيد من خجله وارتباكه. تميل إليه قليلاً حتى يسمعها، وتقول:

- أردت أن أدعوك لزيارة الكنيسة هذا الأحد كي تسمعني وأنا أغنى لحنًا منفردًا مع الكورس.

يصدمه كلامها، ويرد على الفور بصوت وقور:

- أنا لست على ملتكم.

وتجيء إجابتها مرحة لطيفة لامبالية:

- حتى أنا لا آخذ هذه الأمور مأخذ الجد. كل ما في الأمر أنني أريد أن أغني فحسب.

- أنتِ تحيرينني، إذا كنتِ لا تأخذين ديانتك مأخذ الجد فلماذا تذهبين إلى الكنيسة؟

يغلق باب درجه وكأنه غاضب من نفسه؛ لأنه لامها ورفض دعوتها؛ ولأنها حين دعته إلى الكنيسة أبدت شيئًا من الضعف أمامه فانتفع بالفرصة. يتقد وجهه اضطرابًا، ويبتعد عن درجه المغلق، ثم يرميها بنظرة سريعة

ليرى أثر كلامه عليها. ويسمع صوت احتكاك بنطلونها الجينز وهي في طريقها إلى الردهة، فيهمس في نفسه:

– العالم اليوم لا يسر أحداً؛ لأن الشياطين تعبث به وتدفعه إلى الفوضى فيضطرب المؤمن ويحيد عن الطريق المستقيم.

بُنِيَتْ المدرسة على مكان مرتفع يشرف على المدينة في القرن العشرين الميلادي والرابع عشر الهجري؛ أي من هجرة الرسول من مكة إلى المدينة. أريد لها أن تكون قلعة للتعليم في المدينة، أو قصرًا فاخرًا يتعلم فيه أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، أبناء العمال في المصانع و أبناء رؤسائهم أيضاً. ازدانت بأعمدة وأفاريز مزخرفة، وشعار منقوش على الجرانيت بحروف كبيرة بارزة يقول: "المعرفة حرية." ضُرِبت على نوافذها الطويلة قضبان الحديد، وتعلو جدرانها ندوب تطفح بالإسبستوس المفتت، وحتى الطلاء بدأ ينهار. تقع المدرسة على حافة بحيرة من الركام، كانت في الماضي جزءًا من وسط المدينة الذي كان يزدان بمرور عربات المترو الكهربية. لم يبق على جانبي تلك الطرقات غير الصور الفوتوغرافية القديمة لأناس يغطون رؤوسهم بقبعات القش وأربطة العنق وسيارات في لون عربات الموتى. كانت السرادقات تنتشر في الماضي على جانبيه، تعلن فيها شركات هوليود عن آخر أفلامها السينمائية، وكان بوسع المرء أن ينتقل من سرادق إلى سرادق، تحت المطر المنهمر دون أن تطاله نقطة ماء واحدة. في الماضي أيضًا كانت هناك دورة مياه عامة مكتوب عليها بالخط العريض "للرجال والنساء،" يدخلها الناس من مدخلين، يبدآن من رصيف شارع "شرق مين" الفاصل بينه وبين طريق "تِلْدِن" الكبير. وكان لكل مدخل حارس كهل يقوم على نظافة الحمامات والأحواض بالإضافة إلى الحراسة. أُغْلِقَتْ هذه الحمامات في الستينيات بعد أن أصبحت مأوى لتجار المخدرات والشواذ جنسيًا وسماسرة الدعارة واللصوص.

تسمى المدينة، منذ قرنين من الزمان، نيوبروسبكت[٣] لأنها كانت مبنية على ارتفاع تشرف به على مشهد مهيب من شلالات بديعة، وأيضًا بسبب ما كان يتوقعه الناس لها من مستقبل مشرق. كان النهر الذي يجري بين شعابها بشلالاته الهادرة ومنحدراته الرائعة، يغري المستثمرين من أرباب الصناعة باتخاذها موقعًا حين كانت أمتنا في أول شبابها. وفعلاً بعد أن أخفق البعض وأفلس البعض الآخر انتشرت مصانع الغزل، والصباغة، ومدابغ الجلود، ومصانع القاطرات والحافلات، والكابلات الكهربية التي شُدت بين الجسور الكبيرة التي كانت تصل بين أنهار ومرافئ منطقة وسط الأطلنطي. وعندما انصرم القرن التاسع عشر وحل القرن العشرون، زادت إضرابات العمال والصراعات الدامية التي كانت تطول أكثر مما ينبغي، ولم يتعاف الاقتصاد من تلك الصدمات، وضاع التفاؤل القديم الذي كان يغري المهاجرين من أوروبا الغربية ودول حوض البحر الأبيض والشرق الأوسط على تحمل عبء ساعات العمل الطويلة التي كانت تصل أحيانًا إلى أربع عشرة ساعة يوميًا من العمل الشاق والجهد الجهيد تحت ضجيج الآلات الذي يصم الآذان، وأثناء تسرب الغازات. انتقلت المصانع إلى الجنوب والغرب حيث العمالة الرخيصة سهلة الانقياد، وحيث يتوفر فحم الكوك وخام الحديد وغيره من المعادن الأخرى.

كان أغلب الذين يقطنون وسط البلد يتميزون بلونهم الأسمر، بجميع درجاته المختلفة، أو بقايا من ذوي البشرة الفاتحة، وعدد قليل من الأنجلوسكاسون الذين كانوا يصيبون قليلاً من الربح من بيع البيتزا والفلفل، والسجائر، وكوبونات اليانصيب، وأطعمة أخرى رخيصة ملفوفة بعناية في ورق مصقول. ولكنهم بدأوا يغادرون الحي مع قدوم الهنود والكوريين. كان

المكر وسوء الطبع يظهران على وجوه البيض هناك. وفي الليل، بعد أن تخلو بعض مطاعم الأقليات الممتازة من زبائنها القادمين من الضواحي القريبة، كانت تقف سيارة شرطة على قارعة الطريق، وتبدأ في استجواب المارة من البيض بحثًا عن مخدرات، أو تحذيرهم من مخاطر المكان. جاء أحمد نفسه إلى هذه الدنيا نتيجة زواج بين أمريكية حمراء الشعر، أيرلندية الأصل، وطالب مصري جاء إلى الولايات المتحدة ضمن أحد برامج التبادل الطلابي. منذ أيام الفراعنة وبشرة أجداده تتعرض للشمس وهم يعملون دون كلل في حقول الأرز والكتان التي تغمرها مياه النيل الفائض. ويمكن وصف البشرة التي نتجت عن ذلك الزواج المختلط بأنها أقرب إلى اللون البني، أو درجة من درجات اللون الأسمر الفاتح تقترب من لون الصوف الطبيعي. وأما الشيخ رشيد، الذي لقنه الإسلام، فبشرته بيضاء بياض الشمع، وهو لون يتقاسمه مع أجيال من محاربي اليمن القدامى.

كانت المدينة تزدان بالأسواق الضخمة ذات الطوابق الستة، والمكاتب المصطفة ذات الواجهات المتألقة من الزجاج والطوب الأحمر والجرانيت، لمستثمرين يهود ونصارى بروتستانت. هنالك تجد الممرات المردومة، ونوافذ العرض التي غطتها ألواح الأبلكاش، تزدحم صفحاتها بالكتابات والرسوم، خُطَّت برذاذ آلة رشاشة. بدت الحروف المنتفخة لتلك الكتابات، في عيني أحمد، وسائل من كتبوها في التعبير عن التباهي والانتماء إلى عصابة ما بحثًا عن دور في هذا العالم. هؤلاء الشباب صغار السن غرقوا في الإلحاد وضاعوا في غياهب الضلال، يدلون على هويتهم الجديدة بتشويه ممتلكات الغير. قامت وسط الخرائب أكشاك من الألومونيوم والزجاج الأزرق، منافذَ عطايا أمراء الرأسمالية الغربية: فروع لبنوك تتخذ مقارها

الرئيسية في كاليفورنيا ونورث كارولينا، مراكز أمامية لحكومة فيدرالية يسيطر عليها الصهاينة في واشنطن، سعيًا منها، من خلال هذه العطايا، وفتح باب التطوع في الجيش، لمنع الفقراء والمعدمين من التسبب في الشغب واللجوء إلى السرقة.

على أن النهار في وسط البلد يمنحك إحساسًا بالزحمة والبهجة حيث يصبح شارع غرب مين، بجوار العمارات المتاخمة لحي تِلْدِن، مهرجانًا للبطالة والكسل، يحتشد بجمهور متدفق من مواطنين داكني اللون في ملابس تؤذي الأبصار ببهرجتها الخالية من الذوق. سوق ماردي جراس لأزياء قام على عرضها أناس لا تتجاوز شرعية وجودهم في المدينة أجسامهم، يعرضون كل ما لديهم من حطام الدنيا على مرأى ومسمع من الجميع، يجدون بعض السعادة في التحدي لا أكثر. إن أصواتهم العالية ونعيقهم المتصل وصخبهم المستمر دعوة للقادمين من القرى المجاورة لشراء شيء من أولئك العاطلين عن العمل، الذين لا يجدون مكانًا ينامون فيه.

شهدت مدينة نيوبروسبكت بعض الترف بعد الحرب الأهلية مع إنشاء مبنى مجلس المدينة المهيب، وهو عبارة عن عدد من المباني الفخمة، تعلوها أبراج تمنحك انطباعًا بالطراز الإسلامي، تؤمها قناطر مستديرة على أعمدة حديدية عليها زخارف مختلفة مفرطة في الألوان، يعلوها جميعًا برج واحد ذو منحدرين، يغطي كل منحدر ألواح خشبية متعددة الألوان ومربعة الأشكال تلتصق بها أربع ساعات بيضاء؛ كل واحدة منها في حجم حمام السباحة الصغير المخصص للأطفال. ومع كر الأيام، تحولت ألوان البالوعات النحاسية الواسعة، بأنابيبها الحديدية العريضة، التي تعد بمثابة آثار تشي بمهارة الحدادين في تلك الأيام الخوالي، إلى اللون الأخضر

الأقرب إلى لون النعناع. هذا المبنى الحكومي الفخم الذي فقدت خدماته البيروقراطية أبهة الماضي، وانتقلت إلى حجرات جديدة أقل فخامة واتساعاً، وإن كثرت خلفه الأبنية الضيقة مكيفة الهواء، حصل أخيرًا على اعتراف، بعد كثير من المساعي لدى الهيئات التشريعية، يضعه في مكانة الكنز المعماري القومي. يقف المبنى على مرأى من مدرسة سنترال الثانوية على بعد عمارة من ناحية الغرب، يطل على مساحات كبيرة كانت من منافع المدرسة اقتطع منها، في غفلة، لتوسعة الشوارع، وسلبت منها أجزاء لدعم عقارات بناها أصحابها برشوة الموظفين في مبنى مجلس المدينة.

وعند الطرف الشرقي من بحيرة الركام، حيث مواقف السيارات الواقعة على مقربة من أمواج متلاطمة من طوب متهدم، نجد كنيسة ذات جدران سميكة من طوب صخري، يعلوها برج ثقيل يظهر على ذؤابته إعلان كبير على لوح مكسور عن فرقة الترتيل الإنجيلية. وعلى نوافذ هذه الكنيسة رسوم مارقة تصور لله وجهًا ويدين وقدمين، ويلبس صندلاً وثوبًا ملونًا لونًا خفيفًا – جسم بشري بكل ما يثقل الجسم البشري من حاجة للنظافة وافتقار للطهارة. تكاثفت على تلك النوافذ طبقة سوداء تكونت عبر السنين من سخام المصانع، زاد من وطأتها صعوبة الوصول إليها بسبب شبكة كثيفة من أسلاك الحديد التي تحميها. أصبحت الصور الدينية الآن مدعاة للكراهية مثلما كان الحال أثناء حروب الإصلاح الديني. ولى زمان كانت تزدان فيه الكنيسة بروادها الأتقياء من البيض الذين كانوا يجلسون على مقاعد تزدان بها المقصورات المتدرجة. أما اليوم فتزدحم الكنائس بالأمريكيين الأفارقة الذين جلبوا إليها عقائد غريبة تقوم على الصياح، تؤديها فرق تحصد الجوائز، ويبذل المغنون فيها عرقهم في ترديد أنغام في

بهجة خادعة تشبه – كما يقول الشيخ رشيد بشيء من السخرية – الأصوات المختلطة والنشوة الفارغة التي نجدها في الكاندومبليه البرازيلية.[٤] هذا هو المكان الذي تغني فيه جورلين.

وفي اليوم الذي دعت فيه جورلين أحمد لسماع غنائها مع كورس الكنيسة، التقى صاحبها تايلنول جونز أحمد في الردهة. رأت أمه الاسم على شاشة التلفاز وهي تلده. كان إعلانًا عن مهدئ للصداع، فأطلقته على رضيعها الذي تجاوز وزنه عشرة أرطال. قال لـــه تايلنول:

– أنت أيها العربي، سمعت أنك تتحرش بجورلين.

أجاب أحمد وهو يريد أن يجاريه في طريقة حديثه:

– لا تحرش و لا يحزنون. تحدثنا قليلاً وانتهى الأمر، وهي التي جاءت إليَّ حيث أجلس.

تقدم منه تايلنول، وكان أحمد أنحف منه، وراح يضغط بإبهامه على تجويف منكبه، وقال وهو يزيد من ضغطه:

– أخبرتني جورلين أنك لا تحترم ديانتها.

كان وجه تايلنول مستديراً، ولونه كلون قطعة من حرير الساتان المبتل. كان مدافعًا في فريق كرة القدم بمدرسة سنترال الثانوية، ورياضيًا معروفًا في حلبات الشتاء، ولذا كانت يداه في قوة الفولاذ. ظل يضغط على تجويف منكب أحمد حتى بانت التجاعيد على قميصه الناصع البياض. وصدرت عن الفتى الطويل حركة عنيفة نافدة الصبر أراد أن يتخلص بها من قبضة تايلنول القاسية، وقال لـــه:

– دينها هو الباطل بعينه، وعلى كل حال أخبرتني أنها لا تذهب إلى الكنيسة إلا من أجل الغناء مع هذا الكورس الأحمق.

يواصل تايلنول الضغط على هذا المكان الحساس من منكب أحمد بإبهامه الحديدي فيعصف الغضب بأحمد ويضربه ضربة عنيفة على ذراعه الممسك به.

ويأخذ الغضب من تايلنول مأخذه، ويحمر وجهه، ويرد بوجه متشنج:

– لا تحدثني عن الحماقة، فلا يوجد من هو أكثر منك حمقاً، ومن يعيرك انتباهًا أنت أيها العربي الوضيع؟

– إلا جورلين.

تأتي إجابة أحمد سريعة وحادة، ومع احتدامه يشعر بالخوف من جبروت ذلك الشاب القوي، ولكنه يمتلئ مع ذلك بالثقة في أن الله سيعينه عليه فيقول متحدياً:

– ليست علاقتي بها شيئًا بغيضاً؛ إنها لون من الصداقة لا يفهمه أمثالك.

– أمثالي!! ماذا تقصد؟ مثلي لا يعير اهتمامًا لمثلك. هذه هي الحقيقة. أنت مجرد غبي أحمق، غريب مريب عديم النفع.

كان وجه تايلنول قريبًا من وجه أحمد، فتضايق أحمد من رائحته ودفعه دفعة قوية على صدره ليبعده عنه. ويجتمع حولهما بالردهة حشد من طلاب المدرسة المتطلعين إلى حادث مثير يتسلون به، أو مشهد غريب يحطمون به رتابة الحياة. ولكن تايلنول يتحول إلى المحتشدين يخاطبهم بعبارات فيها الكثير من التحدي:

– أيها المسلمون السود، أنا لا أتحداكم، ولكنكم لا شيء، ما أنتم إلا دواب حقيرة تمشي على الأرض.

يدق جرس المدرسة إيذانًا بانتهاء الفسحة، ويؤثر أحمد التوقف والانسحاب بعد أن كتم دفعة قوية رد بها تايلنول على دفعته، ولكن تايلنول لا يقبل الهدنة ولا يؤثر التوقف بل يتبع دفعته بضربة قوية من قبضته على بطن أحمد، فيفاجأ بها أحمد، ويبتلع ريقه بصعوبة مما يجعل منه مادة لسخرية المتفرجين، ومن بينهم من يسمون أنفسهم بالقوطيين، الذين يغطون وجوههم بالطباشير أحياناً، ويتباهون بعدم اكتراثهم بمشاعر الناس أحيانًا أخرى، وهناك الذين لا يقلون استهتارًا بالحياة عن القوطيين، ويعبثون في أوقات الجد.

يسمع أحمد ضحكات أشبه بالصفير من فتيات ممتلئات الأجسام سمراوات الوجوه كان أحمد يحسبهن أكثر رقيًا وأسمى عاطفة. هؤلاء العاهرات سيُصبحن أمهات في يوم من الأيام. يحس أحمد بكرامته تُمتَهَن، فيضطر إلى أن يدفع عن نفسه الهوان الكامل وسط أقرانه، فلا يجد بدًا من أن يتحول إلى ذراع تايلنول الفولاذي لتجد قبضته طريقها إلى صدره الذي يشبه دروع المحاربين القدامى، ويسدد إليه ضربة عنيفة مدوية يضطرب لها الفتى وتحدث من الصخب ما ينبه إليهما المدرسين وحراس الأمن. وحين يدق الجرس ينفض الحشد ويعود كلٌ إلى فصله. في تلك الأثناء يلقي أحمد باللائمة على جورلين لما حدث؛ فلم يكن الذنب كله ذنب صاحبها البغيض، وإنما هو أداة عمياء تستخدمها حين تشاء. لماذا أخبرته بما حدث بينه وبينها من حوار؟ إنهن يصررن على الحديث عن كل شيء دون أن يتركن شيئاً، يُرِدن أن يلفتن الانتباه إلى موقعهن في هذا العالم. إنهن أشبه بأولئك الفتية والفتيات الذين يريدون لفت الانتباه إليهم فينقشون ذكرياتهم على جدران لا

تملك لنفسها ضرًا ولا نفعاً. إن جورلين هي التي تحدثت معه في أمور الدين، وهي التي دعته إلى الكنيسة ليجلس بين نفر من أولئك الكفار ذوي الشعور المجعدة، والسحن الغريبة التي تظهر عليها علامات أهل النار، الخالدين فيها. كان الشيطان يستحوذ على أحمد حين أمسك بتلابيب تايلنول، فما زال به حتى ألقى في روعه أن الله هو الذي أنشأ الأديان التي زينت الضلال للناس، وهو القادر على هدايتهم جميعًا لو أراد؛ فهو القادر على كل شيء، والمحيط بكل شيء، وهو الرحمن الرحيم، ويوشك أحمد أن ييأس من رحمة الله، وأن يظن بالله الظنون.

يدق جرس الدخول، ويظهر السيد ليفي بمعطفه الذي لا يتناسق ولون بنطلونه، ويلقي نظرة فيها الكثير من الريبة والحذر على الحشد الطلابي، فإذا الطلاب قد لاذوا بالصمت المطبق، وإذا أحمد وتايلنول يفترقان ويوقفان شجارهما. كان السيد ليفي يهوديًا قضى جل حياته في هذه المدرسة، وتبدو عليه علامات التقدم في السن والتعب الذي يطل من عينيه المتدليتين وشعره الأبيض الذي استقر على رأسه في فوضى واضحة ما خلا خصلة أو خصلتين ضلتا الطريق. كان لظهوره المفاجئ وقع المفاجأة في نفس أحمد. فقد كان أحمد يجله ويهابه ويخشاه. كما كان أحمد على موعد معه هذا الأسبوع ليتحدث عن مستقبله بعد التخرج من هذه المدرسة الثانوية. يعرف أحمد أن لـــه مستقبلاً، ولكنه لم يكن يعرف ما هو هذا المستقبل. وهو لا يهتم به، ولا يعول عليه، وإنما يردد ما يتذكره من سورة آل عمران بأن الهدى هدى الله.

كان أحمد يعرف أن تايلنول لن يتركه يذهب إلى بيته بسلام، بل سيتربص به أو يقطع عليه طريق العودة بعد أن اضطر إلى التوقف عن القتال وهو راغب عن ذلك. لن يُرضي ذلك الثور شيء أقل من عين

متورمة، أو سن مكسورة، أو إصبع محطم- شيء يتباهى به أمام صاحبته وأقرانه. لم يكن أحمد يحب الخيلاء أو التعالي على الناس بمظهره؛ لأن ذلك ليس من طبع المسلم. ولكنه تساءل كيف لم ينتبه تايلنول لرجولته المتوثبة؟ وقامته المديدة، وشعره المتموج الأسمر الذي ورثه عن أبيه المصري أكثر مما ورثه عن أمه الأيرلندية الشقراء؟ كان يراقب إعجاب الفتيات في المدرسة بجمال شعره ولون بشرته، مما زاده إعجابًا بجسده، وملأه رغبة في الاحتفاظ به صحيحًا معافًى. ولكن كيف يتسنى له ذلك والفتية يتشاجرون في هذه القلعة اللعينة بسبب وبدون سبب، والعداء بينهم لا ينتهي إلا ليبدأ من جديد؟ وكيف يطيق هؤلاء الفتيات اللائي يرتدين القمصان الضيقة، والبنطلونات القصيرة التي تظهر منها عوراتهن دون مشقة؟ وكيف يحتمل العيش مع هؤلاء الساقطات اللاتي ضربن بالوشم على مواضع العورة في أجسادهن؟ كيف يطيق العيش مع هؤلاء الفتيات اللاتي لا يقنعن بما أعطاهن الله، ويردن تبديل خلقه؟

لم يبق إلا شهران على انتهاء السنة الدراسية. والربيع يتربص خلف النوافذ والأبواب. تطأ قدماه طرقات المدرسة في تؤدة وحذر. يتوقف بين الحين والحين ليتأمل الطريق الذي قطعته تلك الدودة المسكينة التي أحرقتها أشعة الشمس الحامية، وأرسلت بها إلى العدم. تزدان الأرض من حوله بالزرع الجديد، وبراعم المروج، والثوم، والهندباء، والبرسيم، والعشب الذي يكسوها من كل ناحية. الطيور من حوله مرحة جذلة كأنها تريد أن تعرف ذلك المعطي الوهاب الذي لا يضن عليها بأسباب الحياة مع إطلالة كل صباح.

يقوم جاك ليفي، ذو الأعوام الثلاثة بعد الستين، كل صباح، فزعًا من نومه بين الثالثة والرابعة، يشعر بجفاف حلقه لأن الهواء اتخذه معبرًا إلى

رئتيه طوال الليل، وهو مشغول بأحلامه المشئومة المشبعة بما يضطرب في هذا العالم من ألم وبؤس. و يتصفح جاك ليفي جرائد أخبار نيوبروسبكت اليومية المحلية التي تضج بالإعلانات، وجريدتي النيويورك تايمز والنيويورك بوست كلما رآهما ملقاتين في حجرة المدرسين، يطالع فيهما أخبار بوش والعراق، وأطفال قتلهم آباؤهم في مدينتي كوينز وإيست إورانج. أطفال لم يتجاوزوا الثانية أو الرابعة أو السادسة، لو عادوا إلى الحياة لقبلوا جباه قاتليهم – آبائهم – ولظنوا أن الاعتراض كفر؛ لأن إسحاق لم يعترض على رغبة إبراهيم في ذبحه.(٥) وكأن هذه الأخبار لا تشبع فضول جاك ليفي فيعمد، عندما يحل المساء – أي بين السادسة والسابعة – إلى جهاز التلفاز يلتقط الأخبار من هنا وهناك، حتى إذا سئم الإعلانات التجارية الساذجة قام إلى جهاز التلفاز الأحمق وأغلقه، بينما تسعى زوجته البدينة في المطبخ تنقل طعامًا من الثلاجة لتضعه في الميكروويف. ويذهب جاك ليفي إلى مخدعه مثقلاً بهموم اليوم القادم وهو غير مصدق أن نهارًا محملاً بالضياء سوف يشق طريقه عبر هذه الظلمة الحالكة. هنالك يرقد جاك ليفي على سريره وصدره يختلج بمزيج غريب من مشاعر الخوف والاشمئزاز من هذا العالم، مزيج أشبه بطعام جيء به من مطعم سيئ السمعة، وضعف الكمية التي تريدها. الأكثر من ذلك أن جاك ليفي يفكر في الموت أكثر مما يفكر في الحياة، وهذا هو ما يحول بينه وبين النوم العميق. يزداد لديه الإحساس، يومًا بعد يوم، بأن الحياة لم تترك لـــه شيئًا يفعله خلا الاستعداد ليوم الرحيل. أحب وتزوج كما يفعل الناس، ولـــه من الذرية ابن قام على تربيته كما ينبغي لأب عصري أن يفعل، فنشأ مارك كما ينشأ أبناء هذه الأيام رقيق الطبع، لا يبالي بشيء كبر أو صغر. وفَّرَ لـــه كل ما يعينه على حياة العصر فلم يترك لـــه سببًا لشكوى أو مدعاة لتهمة نقص أمام الأقران.

لم يبق لجاك ليفي الآن إلا الاستعداد ليوم الرحيل، وترك الفضاء الذي يشغله على هذا الكوكب لغيره. يحس الآن أن الموت أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه، كأنه عنكبوت محبوس في بيته بين خيوط عصية على الحصر لا يجد منها فكاكاً.

ترقد إلى جواره زوجته بــث كالحوت. يسمع أنفاسها تنطلق من جسمها اللحيم في غطيط لا يقطعه غير أحاديثها الخارجة من لاوعيها تستعيد بها ما دار في خلدها، وما دار بينها وبين الناس خلال النهار المنصرم. وأحيانًا يفيض به الكيل فيكزها بركبته أو كوعه، أو يداعب بكفه ردفًا انحسر عنه ثوبها فيردها إلى نوبة من صمت يخشى بعدها أن يكون قد أيقظها ويخرق بذلك عقدًا أزليًا وقعه اثنان قررا النوم على سرير واحد. كان هدفه الأوحد أن يردها إلى نوم لا يحس فيه بأنفاسها تصطدم بأنفه اصطداماً. كانت أشبه بالكمان الذي لم يكن يتوقف عن ضبط أوتاره في صباه. هل كان أبواه يريان فيه هيفتز [٦]جديدًا أم كانا يريدانه إسحاق ستيرن[٧] آخر؟ ولكنه خيب ظنهما، وأجهض آمالهما حين أخبرهما أنه سيترك دروس الكمان، وأنه يجد متعة كبيرة في حياة القراءة والتسكع. كان في الحادية عشرة وربما في الثانية عشرة من العمر حين اتخذ هذا القرار، ولم يلمس الكمان مرة واحدة بعد ذلك، وإن كانت أذناه تلتقط بين الحين والحين – من راديو السيارة – قطعة لموتسارت أو بيتهوفن أو لحنًا منفردًا من موسيقى الغجر لأنتونين دفوجاك[٨] الذي كان يتدرب على عزف موسيقاه في صباه. حينئذ يضرب بأصابع يده اليسرى – وكأنه يتذكر دروس الأيام الخوالي – على عجلة القيادة في حركة لاإرادية أشبه بحركات الأسماك وهي ترقص رقصة الموت حين يخرجها الصياد من الماء.

ما الذي يدعوه الآن إلى جلد نفسه؟ لقد كان على صواب. كان موفقًا في المدرسة، ومن تلاميذ المكافآت في الخمسينيات حين كانت المدرسة مدرسة بمعنى الكلمة، قبل أن تصبح سجنًا أو أشبه بالسجن، وكان المدرسون مدرسين بمعنى الكلمة، يفخر بهم ويفخرون به. راح بعد ذلك يختلف إلى جامعة مدينة نيويورك قبل أن يستأجر شقة في حي سوهو [٩] مع فتيين وفتاة تضطرب عواطفها بين الثلاثة دون أن ترسو على بر معلوم. وبعد التخرج قضى عامين في الجيش في مركز تدريب المشاة المعروف فورت دكس[١٠] قبيل احتدام الأزمة الفيتنامية، عمل بعدها موظفًا في حفظ الملفات في فورت ميد – ميريلاند – على مبعدة من جنوب خط ماسون دكس[١١] في مكان يقطنه الجنوبيون المعادون للسامية في الأغلب. ثم قضى السنة الثانية في فورت بلس في إلباسو [١٢] في إدارة الموارد البشرية، وهو المكان الذي تدرب فيه على حل مشاكل المراهقين فيما بعد. حصل بعد ذلك على الماجستير في أحوال المستفيدين من الجي آي بل[١٣] ثم تفرغ لتدريس مادة التاريخ والمواد الاجتماعية في المدارس الثانوية لمدة تزيد على ثلاثين عامًا قبل أن يصبح مرشدًا اجتماعيًا في السنوات الست الأخيرة. سيرة حياة واضحة وضوح الشمس تجعله يحس أنه يعيش في قفص أشبه بكفن أحسن غلقه. يحس الآن بهواء الحجرة ثقيلاً عصيًا على الاستنشاق فيتحول بخفة من النوم على جنبه إلى النوم على ظهره فيصبح أشبه بميت تمدد على تابوته في سكينة وهدوء.

تحدث أقل حركة للملاءات ضجيجًا يصدم أذنيه كالنذير! لا يريد أن يوقظ بـــث ولكنه لا يريد أن يموت مختنقًا في الوقت نفسه. يجلب إليه الوضع الجديد راحة مؤقتة أشبه بالراحة التي يختبرها الميت في تابوت دون

غطاء على مقربة من أنفه. العالم ساكن من حوله لا يشق سكونه غير ضجيج سيارات الدورية التي عطبت شكماناتها. يتناهى إلى أذنيه الآن صوت شاحنة تهم بالسير بعد توقف عند إشارة المرور على بعد شارع واحد من منزله. وعلى بعد حجرتين من حجرة نومه يسمع صوت ركض كارميلا الناعم – قطه الذي خصاه ونزع مخالبه فآثر العزلة والانزواء ضناً بنفسه أن يتعرض لأذى قطط الشارع ذوات المخالب والأنياب. ينام كارميلا جل وقته في محبسه الأثير تحت الكنبة، ويهذي طوال الوقت بمغامرات جامحة ومعارك ضارية وكر وفر، لم يحدث منه شيء إيثارًا للسلامة. يتملك جاك ليفي شعور بالكآبة والوحدة في تلك الساعات التي تسبق الصبح لا يخفف منه سوى صوت دمدمة قطه المكلوم الذي يرسل النوم إلي جفنيه في هدأة الفجر.

ولكنه لا يتمكن من النوم بسبب مثانته الممتلئة، ويصبح أسيرًا لإحساس بأن حياته ما هي إلا بقعة داكنة في ثوب الوجود، أو شائبة لا نفع لها على صفحته، أو خطأ تورط فيه أكثر من اللازم. الحياة غابة ضل الطريق المستقيم في ظلماتها المدلهمة. ولكن أين هو الطريق المستقيم؟ هل لـــه من وجود؟ وأين الخطأ؟ هل يوجد شيء اسمه الخطأ؟ وأين هم رجالات التاريخ الذين يتحدث عنهم أمام طلاب لا يصدقون أن العالم لم يبدأ بميلادهم وألعاب الكومبيوتر؟ إنهم محض عدم!! يرقدون الآن في ظلمات القبور بعد أن أُحبطت أمانيهم، ولم يظفروا بما كانوا يريدون. شارلمان وتشارلز الخامس ونابليون وسيئ السمعة أدولف هتلر الذي ظفر ببعض ما كان يريد و لا يزال – على الأقل في العالم العربي – يحظى بالإعجاب. التاريخ طاحونة لا تكف أحجارها عن الدوران فوق البشر حتى تحيلهم إلى

تراب. يتذكر جاك ليفي وظيفته كمرشد وناصح فينفر من المهمة. يرى نفسه شبحًا حزينًا طاعنًا في السن، يتلكأ على شاطئ من الشواطئ، يهتف بأعلى صوته في عدد لا حصر لــه من سفن تحمل صغارًا تنحدر بهم إلى مستنقع مقيت في عالم خبيث. عالم تتضاءل موارده، وتذبل حرياته، وتلح إعلاناته التي لا ترحم على ثقافة فجة تعيش على أنغام بغيضة، ورقص مقيت لفتيات نحلت أجسامهن واشرأبت أعناقهن.

وهل كانت النساء في الماضي – بما فيهن بــث زوجته – نحيلات الأجسام مثل تلكم الفتيات اللائي يرقصن في طرب زائف على الشاشات في إعلانات المشروبات الكحولية؟ كانت بــث مضمحلة الجسم بلا ريب، ولكنه لا يكاد يذكر شيئًا من ذلك الماضي البعيد وهو يمعن النظر في شاشة التلفاز، بينما كانت تروح وتجيء لإعداد العشاء. كان في الفرقة الثانية في جامعة روتجرز عندما قابلها وعرفها، فتاة بنسلفانية تدرس علوم المكتبات. جذبه إليه حبها للمرح، وخفة روحها، وضحكاتها الهادرة، وسرعة بديهتها، وقدرتها العجيبة على تحويل الأمور كلها إلى مزاح، بما في ذلك رغبته في الزواج منها. قالت لــه عندئذ مازحة:

– ترى أي نوع من الأولاد سننجب؟ وهل سيأتون نصف مختونين؟

كانت أمريكية من أصل ألماني اسمها إليزابيث فوغل، تعيش مع أخت لها سهلة الغضب، سريعة الثورة، تدعى هرميون. وكان هو يهوديًا لا يأبه بالدين ولا يتكبر على الناس كسائر اليهود. جاء جده الأكبر إلى العالم الجديد وهو يعرف أن الدين لن يسعفه في عالم يأكل فيه القوي الضعيف، بلاد لا ينفذ فيها القوي إرادته بعون من قوى المجهول والخرافة. كان يعرف أيضًا أن الناس في هذه البلاد استبدلوا السكن المناسب والعيش الكريم بالوعود التي وعدهم بها إله مجهول في العهد القديم.

وإله اليهود لا يعدك بالكثير على أي حال – زجاج محطم عند زواجك،[١٤]ودفن سريع في تابوت محترم عند موتك، لا أمل في أن تصبح قديساً، ولا أمل في آخرة. هي حياتك الدنيا تقضيها في العمل الشاق طاعة لأوامر إلـــه طاغية كاد أن يدفع بإبراهيم أن يقدم ابنه الوحيد قربانًا لـــه. إسحاق المسكين، إسحاق الساذج الذي صدق أباه المضطر، كاد يقضي ذبحًا بسكين أبيه الذي كف بصره فيما بعد، وخدعه ابنه يعقوب وزوجته "رفقة" التي جلبوها له من بلاد "فدان آرام." وما أشبه اليوم بالبارحة، فإذا اتبعت التعليمات كلها – وهي في العقيدة الأرثوذكسية قائمة لا تنتهي – فلا تظفر إلا بنجمة صفراء، وتذكرة بلا عودة إلى أفران الغاز.[١٥] كان جاك ليفي من اليهود الرافضة؛ اسمه في الأصل يعقوب، ولكنه أوحى للجميع أن اسمه جاك ليفي ليظنه الناس مسيحياً؛ فالأمر عنده سيان لضعف إيمانه بالأديان. رفض ختان ابنه رغم أن أحد الأطباء في المستشفى سعى لإقناع "بـــث" بأن الختان لـــه دواعي صحية خالصة كما قال، زاعمًا أن الدراسات بينت أن الختان يقلل من نسبة الإصابة بالأمراض التناسلية لمارك، ويقلل من نسبة الإصابة بسرطان الرحم بالنسبة لمن تشاركه حياته. رضيع عمره أسبوع يظهر عضوه التناسلي فوق خصيته كفص العدسة، يريدون تحسين حياته الجنسية، ويعملون لإنقاذ نسوة لم يولدن بعد، قد يصادفنه في حياته!

كانت بـــث لوثرية المذهب، وهو مذهب ينأى بأصحابه عن التعصب، وينادي بأن الإيمان هو الخليق بتحقيق الغفران وليس الأعمال. وكان جاك يظن أنها سوف تعينه على التخفيف من عقيدته اليهودية. حتى إيمان جده بالاشتراكية أصبح باليًا عتيقاً، لا يعضده واقع بعد أن فشلت الشيوعية فشلاً واضحًا عند التطبيق. يذكر جاك ليفي كيف كان زفافه ببـــث بسيطًا وفي أضيق الحدود: صالة أفراح تعيسة في الطابق الثاني في مدينة نيوبروسبكت. لم يحضر غير أبويه وأخته على سبيل المجاملة، إشارة إلى زواج غير متكافئ. كان المشهد إنجازًا يدعو للتحية، رمزًا دالاً على وجود أمل في

تاريخ مغرم بجلب السوء، بشرى سارة جلبها العام ١٩٦٨ مثلما جلب من أنباء سارة. وبعد ستة وثلاثين عامًا عاشها الزوجان تحت سقف واحد في شمال نيوجرسي، بدينين مختلفين وجذور مختلفة، انتهت بهما الأمور إلى رتابة مقيتة، وملل لا سبيل إلى دفعه. عاشا حياتهما زوجين لا يفترقان، يتسوقان في المحلات في العطلات، ويجدان كل المتعة في لعبة البريدج، يمارسانها مع أصدقاء لهما من مدرسي المدرسة الثانوية، أو موظفي مكتبة كلفتن العامة حيث تعمل بـــث أربعة أيام كل أسبوع. وقد يحدث أن يُسَريا عن نفسيهما في عطلات الأسبوع بتناول الغداء أو العشاء في مطعم من تلك المطاعم الصينية أو الإيطالية التي يفضلانها على غيرها من مطاعم المدينة الكثيرة. هناك يستقبلهما النادل بابتسامة هادئة تفضي بهما إلى طاولة في زاوية منعزلة، فتتهافت بـــث على المقعد بجسمها الضخم تهافت المتعب. أو يروحان عن نفسيهما بتذكرتين إلى السينما، شريطة أن يجدا فيها ضالتهما من الأفلام التي تنأى بهما عن مشاهد العنف والجنس، ولا تخاطب غرائز المراهقين، لقاء سبعة دولارات وكيس من الفشار من الحجم المتوسط. تزامنت خطبتهما وزواجهما الغض إذاك مع انطلاق سلسلة من الأفلام الشهيرة في أواخر الستينيات مثل "راعي بقر منتصف الليل،" و"الراكب النشيط،" و"بوب وكارول وتد وأليس" و"عصابة المجانين" و"الإنسان الآلي" و"هاري القذر" و"العلم الدنيوي" و"آخر رقصات التانجو في باريس" و"الإلـــه الأب" و"آخر صورة في العرض" و"الكتابة على الجدران في أمريكا" – ناهيك عن الأفلام السويدية والفرنسية والإيطالية التي تتخذ من بث الذعر في النفوس وسيلة لإدهاش المشاهد وتصوير الشخصية الوطنية. كانت أفلامًا ناجحة دفعت بزوجين حديثي العهد بالزواج – من حقهما الاهتمام بالموضة – للاهتمام بأفلام لا تحرم مشاهدها من رسالة ما تحث الشابين على إعادة صياغة العالم في جوف الخيال. تأتي ذكريات تلك الأيام الخوالي مشبعة

بالعاطفة، ورهافة الحس، وغضاضة العمر، حين كان جاك أمس واليوم يرسل يده في خفة – في قاعة العرض المزدحمة – إلى حجر بـــث ويلتقط يدها فيحس بها بين يديه دافئة طرية فتظهر ذكريات مشاهدات الأمس على وجهيهما بحمرة لا تناسب السن.

يفكر جاك وقد نال منه الأرق واليأس في إرسال يده عبر الأغطية ليأخذ يد بـــث بين يديه، ولكنه يخشي أن يخفق في مسعاه؛ لأن يده لن تصل إلى المبتغى إلا بعد أن تجتاز روابي عالية من اللحم البشري الساكن، فتنهره بصوت نحيل لم تتغير نبراته مذ كانت فتاة في ميعة الصبا. صوت مؤنب لا يظهر عليه التعب، ترسله في إصرار من المنطقة الوسطى بين اليقظة والمنام. يقرر، عوضًا عن ذلك، وفي حركة مفاجئة، الانزلاق بقدميه، وإزاحة البطاطين، والهرب من فراش الزوجية. يطأ سجاد الحجرة فتمس قدماه الأرض، ويحس بوخز برد إبريل قبل انبلاج الصبح. ويقصد إلى نافذة تغطيها ستارة تحولت إلى اللون الأصفر بفعل أشعة الشمس، ويتأمل في هدوء بيوت الحي على الضوء الخافت المنبعث من مصابيح الشارع الفلوريسنتية. الضوء الساطع القادم من محطة البنزين على بعد عمارتين، هو العلامة البارزة على مشهد الفجر. فيما عدا ذلك ينعدم الضوء ليلاً إلا من خيوط خافتة قادمة من البعد، من حجرة طفل، أو بئر سلم. وتحت قبة السماء الصافية، وعلى مشهد من الظلمة الجزئية التي ساهم في دحرها نور النهار الصاعد، تتضاءل على البعد زوايا الأسقف واللافتات والجدران الخارجية.

تحولت البيوت، التي كانت واسعة تفصلها الحدائق، إلى مساحات متجاورة قامت عليها الشقق الكثيرة المتراصة بسبب ارتفاع أسعار الأرض وتقسيمها إلى قطع صغيرة. يتذكر جاك بيوت الماضي حين كانت تفسح مساحات أمامها وخلفها لزرع أشجار الورد، وحدائق من شتى النباتات تتخللها أحبال الغسيل والأراجيح. أما اليوم فلا يجد غير بضع شجيرات بالية

على تربة رطبة لا تكاد تجد حاجتها من ثاني أكسيد الكربون من مكانها بين ممرات أسمنتية ومواقف سيارات، بعد أن اختفت مساحات شاسعة من العشب الأخضر. أثبتت الأيام أن الحاجة إلى السيارات كانت غالبة. قامت بعض أشجار الخرنوب حذاء حواشي الطرق، ونمت أشجار الأيلنطس الظلية على طول الأسوار وجدران المنازل، إلى جوار أشجار الكستناء العتيقة التي بقيت من زمن عربات الثلج، وشاحنات الفحم. كانت تلك الأشجار وبراعمها وأوراقها الناشئة مثل سور من الفرو الفضي، على مرأى من ضوء المصباح، عرضة للاستئصال في أي وقت توطئة لتوسيع الشارع. ازدحمت البيوت التي كانت تقام في المزارع في الثلاثينيات تفصلها المسافات، وفي الخمسينيات على الطراز الاستعماري، بالأسقف المائلة ذات النوافذ المطلة، والشرفات المستحدثة لاستدراج أشعة الشمس، والسلالم الخارجية المترنحة، للوصول إلى شقق الأستوديو المقتطعة مما كان يسمى في الماضي حجرات إضافية. اضمحلت اليوم الوحدات السكنية التي لا يجد المرء غيرها إلى أحجام صغيرة أشبه بألواح من ورق يمكن طيه. مطلقون ومطلقات، وأصحاب حرف، لفظتهم مصانعهم بعد الإفلاس، وعمال مهرة، من جميع الحرف، يسعون للخروج بأنفسهم من أحيائهم الفقيرة، ولكن لا يفلحون، يهيمون في شوارع المجاورة، ولا يتجاوز هدفهم الفرجة. شباب وشابات يعمدون إلى شرفات بيوتهم، بيوت الآباء، ونوافذها فيطلونها بألوان غريبة؛ يطلونها باللون الفاتح والأخضر الفاقع فتبدو على الجدران شاذة صادمة لأعين السكان وخاصة كبار السن، ألوان فاقعة تشي بازدراء الآخر، وعبث مقيت بالأذواق. اختفت دكاكين البقالة الجانبية شيئًا فشيئًا مفسحة المجال أمام المعارض الكبيرة بصورها المبهرجة، وألوانها الصارخة، وإعلاناتها العملاقة عن الوجبات السريعة. هكذا يرى جاك ليفي أمريكا: تدنٍّ في الذوق، وانتشار لغربان الشر في كل مكان. حتى حريتنا التي نتبجح بها، لم تعد شيئًا مبهرًا كما كانت، بسبب انتشار الشيوعيين في الحواري

والدروب. أفسحت حريتنا الطريق أمام الإرهابيين. سهلت لهم الحركة، ويسرت لهم خطف الطائرات والشاحنات وتشييد المواقع الإلكترونية. متطرفون دينيون وفاشلون يجيدون استخدام الكومبيوتر!! مزيج غريب يصطدم بمقولة "العقل مقابل الإيمان،" أشرار يتسلحون بالعلم والتكنولوجيا، ويضربون مركز التجارة العالمي!! زعيمهم مهندس يحمل شهادة من ألمانيا في تخطيط المدن، كان أحرى به أن يعيد لنا تخطيط مدينة نيوبروسبكت.

يدرك جاك ليفي أنه نام أكثر من اللازم، وأن الوقت الذي أهدره في أحلام اليقظة كان يجب أن يستغله في عمل شيء مفيد قبل أن تستيقظ زوجته، وقبل أن يقذف بائع الجرائد بجريدة "البرسبكتف" إلى الشرفة، وقبل أن يتحول لون السماء التي لا تزال ترصعها النجوم فوق أسطع المنازل إلى اللون الرمادي الداكن. في وسعه أن يصعد الدرج إلى الطابق الثاني ويبحث عن كتاب لم يكمل قراءته، أو يصنع لنفسه قدحًا من القهوة، أو يشاهد أخبار الصباح على شاشة التلفاز من أفواه مذيعين تخرج الكلمات من حناجرهم كالضفادع المذعورة. ولكنه يفضل البقاء في فراشه ليملأ عينيه من مشهد الأفق الممتد عبر النوافذ والشرفات.

تتسلل قطة مخططة – أو لعله راكون صغير – عبر الشارع الخالي مخلفة روثها على طول الطريق، وتتوارى تحت سيارة واقفة لا يستطيع جاك تعيين طرازها أو سنة صنعها. تبدو السيارات متشابهة هذه الأيام. لا تشبه سيارات اليوم السيارات القديمة الضخمة ذات الخصائص الكثيرة المتصالبة المصنوعة من الكروم، التي كان يراها أيام الطفولة، تحاكي نوافذها نوافذ البويك ريفيرا، وتحاكي مقدمتها مقدمة الستوديوبيكر المدببة، وسيارات الكاديلاك الفارهة في الخمسينيات أيام الديناميكا الهوائية. تميل جميع السيارات اليوم إلى البدانة، والانخفاض، واللون المحايد؛ لإخفاء تراب

الطريق، من المرسيدس إلى الهوندا. إنها تجعل من الموقف الكبير كابوسًا لا يطاق. لا تعثر على سيارتك إلا بفضل المفاتيح الإلكترونية التي تساعدك على إضاءة الأنوار من البعد، أو إطلاق النفير كملجأ أخير.

يرى جاك ليفي غرابًا على منقاره شيء باهت يخفق بجناحيه بكسل فوق حفرة حفرها على كيس قمامة أخضر تركه صاحبه الليلة الماضية. ويرى رجلاً يرتدي بذلة يطل من شرفة إلى أسفل العمارة، وآخر يركب سيارة من نوع "إس يو في" الصغيرة التي تدور بالبنزين وتحدث ضجيجًا رهيبًا لا يبالي أن يوقظ النائمين في الشارع والشوارع المجاورة. يطل جاك ليفي من الشرفة ويرنو ببصره إلى زجاج النوافذ ويهتف في سره: "الحياة والدنيا، حياة نحياها في تلك البيوت الضيقة حيث نبتلع الزيوت الصناعية، ونحلق لحانا في الصباح، ونظل تحت الدش حتى لا يصاب آخرون بالغثيان من رائحة الفيرمونات على أجسامنا." لم يكن جاك ليفي يعرف أن الناس يتعفنون إلا في آخر عمره. عندما كان أصغر من ذلك لم يكن يشم روائح من فتحتي أنفه، لم يلحظ الرائحة النتنة التي يرسلها جسده الآن في غدوه ورواحه طوال النهار فضلاً عن رائحة عرقه.

المهم أنه لا يزال حيًا يدب على ظهر الأرض ويرى ما يراه، وهذا في حد ذاته نعمة وإن استتبعت بعض الجهد. يتذكر الإغريقي الذي كان يقرأ عنه بنهم هو وأقرانه من طلاب الماجستير – ربما في جامعة مدينة نيويورك، أو ربما في جامعة روتجرز، في كتاب ألبرت كامو. إنه سيزيف وصخرته التي ما إن يصل بها إلى رأس التل حتى تهوي من جديد. لا يغادر مكانه من الشرفة لكنه يتوقف عن التأمل الخارجي ويبدأ تأمل داخل نفسه، يبحر في ذاكرته، يغوص في وعيه بأن كل شيء سوف ينتهي إلى

خاتمة محتومة، سوف تختفي كل معرفة نقشها على شاشة عقله على مر الزمن، ولكن الحياة سوف تسير بدونه أيضاً، سوف يطلع الفجر، وسوف تسير السيارات في طرقاتها المعهودة، وسوف تقتات المخلوقات البرية على ما يطلع من أرض أفسدها الإنسان. وها هو القط كارميلا يطأ درجات السلم دون أن يحدث صوتاً، يحك كاحليه العاربين بأنفه، ويصدر طنينه عاليًا كأنه يطلب الإفطار أبكر من المعتاد. هو الحياة أيضاً، الحياة تتحرش بالحياة.

يحس جاك بعينيه ثقيلتين كأنهما امتلأتا بالرمل. يقول لنفسه: إنه ما كان لــه أن يبرح الفراش، كان ينبغي أن يختلس ساعة أخرى يحس فيها بالدفء إلى جوار جسد زوجته الضخم. سيحمل الآن همه على عاتقيه طاعة لجدول صارم ينظم عمل اليوم وكل يوم، يطارده الناس كل دقيقة وثانية حتى انتهاء النهار. يتناهى إلى أذنيه صرير السرير في حجرة النوم إيذانا بنهوض بــث من نومها وخلود المرتبة إلى الراحة بعد طول عناء. يسمع صوت باب الحمام يُفتح ثم يُغلق، يتحول مزلاجه العتيق في حركة سريعة يعرفها. كان في الماضي يهم بإصلاحه كلما أصابه عطل. لا يجد اليوم حاجة لذلك، فقد استقر مارك في نيومكسيكو ولا يأتي إلا مرة واحدة في العام كله إذا أتى. تغتسل بــث فتسمع صوت الماء في مواسير البيت كلها.

يصك أذني جاك صوت رجل، صوت صادم مفاجئ لا يتسق واللحن المنبعث من المسجل على الطاولة الملاصقة للسرير. أول شيء تفعله بــث عند اليقظة هو أن تدير المسجل اللعين وتذهب حيث تشاء. دأبت على الإلمام بكل تكنولوجيا العصر حتى أصبحا جسدين يعيشان في عالمين مختلفين، زوجان تقدما في السن، وابن واحد فر من البيت الذي أصبح لــه سجناً. يمارسان عمليهما كل يوم بين شباب غض لا يأبه بهما. اضطرت بــث،

بحكم عملها في المكتبة، إلى أن تلم بأساسيات الكومبيوتر، والبحث عن المعلومات، وإعطائها للفتية السادرين في الكسل والغباء، الذين لا يكلفون أنفسهم مئونة النظر في الكتب والبحث في أعماقها. تجاهل جاك الثورة التكنولوجية برمتها وقنع من ذلك كله بقصاصات قليلة يدون بها ما يعن لـــه في جلساته الإرشادية، وهي عادة دأب عليها منذ الشباب. لم يهتم بإدخال نتائجه في بنك المعلومات الذي أعدته مدرسة سنترال الثانوية لطلابها. وكان إخفاقه مجلبة لتوبيخ زملائه المرشدين – هيئة إرشادية تضاعف عددها في الثلاثين عامًا الأخيرة – ولا سيما كوني كم وهي أمريكية من أصل كوري قصيرة القامة، متخصصة في علاج جنوح الفتيات الملونات، ووزلي راي جيمس وهو رجل أسود لا يقل عنه تزمتًا وصرامة خفف من حدتها استعداده الرياضي، واحتفاظه برشاقة الشباب مما قيض لـــه نوعًا من العلاقة الحميمة مع الطلاب. وكان قد وعد باقتطاع ساعة أو ساعتين من وقته لتحديث معلوماته عن الحاسوب. وتمضي الأسابيع دون أن يجد الوقت المناسب. لعله يخشى على سرية هذه المعلومات فلا يروقه إدخالها في شبكة المعلومات المدرسية مما يجعلها متاحة لكل من هب ودب.

بث أكثر منه مواكبة للعصر، وأكثر استعدادًا لبذل الجهد وقبول التغيير. رضيت أن يكون زواجهما في صالة أفراح نزولاً عند رغبته، حتى بعد أن قالت لـــه إن ذلك يكسر قلب أبيها ويحطم قلب أمها، اللذين يتطلعان إلى رؤية فرح ابنتهما في الكنيسة. لم تقل لـــه إن قلبها هي هو الذي سينكسر. ولكنه رد ببرود:

– خذي الأمور ببساطة ولا داعي لهذه الخرافات.

لم يكن الدين يعني لـــه شيئاً، ومع مرور الزمن وطول العشرة أصبح الدين بالنسبة لها هي أيضًا لا يعني شيئاً، ولكنه يزعم الآن أنه لم يحرمها

من شيء، وأنه تحمل ثرثرتها المتصلة وإسرافها في الطعام على سبيل التعويض. وعلى كل حال فإن الزواج من يهودي عنيد صعب في تعامله ليس بالأمر الهين. تظهر الآن خارجة من الحمام وهي تلف جسدها ببرنسها الفضفاض، وتلمحه يقف صامتًا دون حراك عند نافذة الصالة فتصيح به وقد تملكها الرعب على ما يبدو:

– جاك! ما بك؟

يداري رغبة عتيدة لديه في إلقاء اللوم عليها. يريدها أن تفهم أنها السبب في كآبته وحزنه رغم أنه يعلم في قرارة نفسه أنها لم تكن السبب، يجيبها في ابتسار:

– لا شيء. استيقظت مبكرًا أكثر من اللازم مرة أخرى ولم أستطع العودة إلى الفراش.

– إنها علامات الاكتئاب، سمعتهم يقولون ذلك في التلفاز أمس. كانت المذيعة أوبرا تستضيف في برنامجها سيدة ألفت كتابًا عن الاكتئاب. أقترح عليك أن ترى – لا أدري ماذا يسمونه – "طبيب نفسي" إذا اشتد عليك البلاء.

تجاوزت بث الستين بعام واحد، وتجاوز هو الستين بـثلاثة أعوام، ورغم ذلك فإن التجاعيد لم تتمكن من وجهها الممتلئ. تظهر التجاعيد في الجسد النحيل خطوطًا غائرة على صفحة الوجه، ولكن امتلاء وجهها حال بينه وبين التجاعيد الغائرة، واحتفظ لها بوجه شبابي تُحسد عليه.

– شكرًا يا عزيزتي، لدي القدرة على احتمال الملمات. عندي ما يكفي من الأجسام المضادة.

عرف من طبعها مع السنين أنها حين ترى منه صدًا في موضوع تتحول إلى آخر. التقطت موضوع الأجسام المضادة وأسرعت تقول:

- بالنسبة للأجسام المضادة حدثتني هرميون بالتليفون أمس، وهذا سر يا جاك يجب ألا تذيعه على أحد، أعطني وعدًا بألا تخبر به أحداً.

- أعدك.

- أخبرتني بما أخبرتني به لأنها تريد أن تنفس عن نفسها. أخبرتني أن رئيسها في العمل يزمع رفع درجة الاستعداد لمواجهة الإرهاب من مستوى الأصفر إلى البرتقالي، قلت في نفسي لابد أن يذيع ذلك في الراديو ولكنه لم يفعل. ترى ماذا يعني ذلك في نظرك؟

رئيس هرميون في العمل هو وزير الأمن الداخلي، رجل من اليمين، ما هو إلا أداة في يد الحكومة الفدرالية في واشنطن، لـــه اسم كرواتي مثل هافنريفر، يعلق جاك:

- يريدون أن يقولوا لنا إنهم لا يأخذون أموال ضرائبنا ويقفون مكتوفي الأيدي، يريدون أن يقولوا لنا إنهم يفعلون شيئًا حيال الإرهاب، ولكنهم في الواقع لا يفعلون شيئاً.

- وهل هذا ما يسبب لك الخوف الذي أراه ينغص عليك حياتك في كثير من الأوقات؟

- لا يا عزيزتي، بصراحة هذا آخر شيء أفكر فيه، وأنا أنظر من النافذة كنت أقول إن هذا الحي كله يمكن أن ينتهي بقنبلة واحدة كبيرة.

- جاك. لا تمزح في هذه الأمور، المساكين الذين كانوا في برج التجارة العالمي، كانوا يتصلون بزوجاتهم ويقولون لهن إنهم يحبونهن.

- أعرف أن الأمر لا يحتمل المزاح.

- يقول مارك إنه يريدنا أن نذهب لنعيش معه في الباكيركي.[١٦]

- يقول ذلك ولا يعنيه يا عزيزتي. وجودنا إلى جواره آخر شيء يفكر فيه مارك.

ثم يضيف خشية أن يجرح شعور الأم:

- لا أعرف لماذا يتصرف على ذلك النحو، إننا لم نضربه ولم نحبسه أبداً.

وترد بـث وكأنها على وشك الذهاب إلى الباكيركي:

- إنهم لن يقصفوا الصحراء بطبيعة الحال.

- هذا صحيح، إنهم يحبون الصحراء.

تشعر بـث أنها نالت من سخريته ما يكفي فتؤثر الذهاب، ويعرف ذلك بمزيج من الإحساس بالراحة والندم. تهز رأسها بشيء من كبرياء قديم وهي تقول:

- هناك لن نهتم بما يهتم به الناس جميعاً.

تشق طريقها إلى حجرة النوم لترتيبها ولترتدي ملابس الخروج استعدادًا ليوم عمل طويل في المكتبة.

ماذا فعل حتى يحظى بكل هذا الإخلاص من زوجته؟ تحملت سخريته ونفاد صبره، ولم تغضب عندما اتهم ابنهما مارك بعدم الاكتراث بأمرهما، وبأنه لا يحب قربهما، وهو اتهام قاس يجافي الحقيقة. فمارك طبيب عيون

مكافح لديه من الأولاد ثلاثة يرتدون النظارات وتعلو وجوههم سمرة، متزوج من يهودية من شورت هلز، تظهر الود، وتضمر الفتور والتحفظ. إنه يعرف وكذلك بــث أن ولدهما مارك يحب أباه وأمه كما يحبانه؛ فهو ولدهما الوحيد. والحق أن جاك ليفي لا يمانع في ترك هذه المدينة التي جار عليه الزمن، وتحولت إلى مدينة في دولة من دول العالم الثالث بعد أن كانت قلعة للصناعة. إنه لا يمانع الآن في نقلة نوعية إلى إحدى مدن حزام الشمس كما يقولون.(١٧) كما أن بــث لا تمانع في ذلك أيضاً. كان الشتاء قاسيًا غاية القسوة في منطقة وسط الأطلنطي، ولم تزل آثاره باقية كرواب من الثلج على رؤوس البيوت.

كان مكتبه – مكتب المشرف الطلابي – في مدرسة سنترال الثانوية أصغر حجرة في المدرسة. كان في السابق حجرة ضيقة لتخزين المؤن، لا تزال أرففها المعدنية تمتلئ بكتب الفهارس، وأعداد من دليل التليفون، وكتيبات في علم النفس، ونسخ من دورية أسبوعية تسمى "سوق مترو للوظائف الشاغرة" تعنى بنشر الوظائف الخالية في المنطقة، وتعلن عن معاهدها التعليمية التقنية. وعندما بنيت المدرسة على طراز القصور منذ ثمانين عامًا لم تر ضرورة لترك مساحة للإرشاد الطلابي؛ لأن الإرشاد كما زعموا موجود في كل مكان، يتولاه الآباء في المنازل، وتتولاه ثقافة المجتمع العامة في الخارج مع الكثير من النصائح والتعليمات. فالطالب يتلقى من التعليمات والإرشادات ما لا يستطيع استيعابه في الواقع. وها هو جاك ليفي يجري المقابلات – كالعادة – مع أبناء ليس لهم أب وأم من لحم ودم، أبناء لا يعرفون لهم مرشدًا غير تلك الأشباح الإلكترونية التي تطل عليهم من أجهزة الكمبيوتر، أو تطرق آذانهم من خلال تلك السماعات التي يعلقونها على آذانهم، أو تجيء إليهم من تلك الألعاب الإلكترونية الساذجة.

يتقدم الطلاب إلى مرشدهم بعد أن تحولوا إلى أسطوانات ممغنطة لا تشي أسطحها الخارجية بأي علامة على ما تحتويه بعيدًا عن الجهاز الذي يديرها.

تستغرق المقابلة نصف ساعة. وها هي المقابلة الخامسة في ذلك الصباح الممل، صبي طويل القامة ضامر الجسم يميل إلى السمرة، يرتدي بنطلون جينز أسود، وقميصًا ناصع البياض، لا ترتاح لبياضه عينا جاك ليفي. تظهر آثار الاستيقاظ مبكرًا على هيئة الفتى ووجهه. ينظر ليفي في ملف الفتى الذي يحتوي على مجموع درجاته واسمه مطبوعًا على الغلاف بخط غليظ: **مولوي (عشماوي) أحمد**. يتوجه ليفي إلى الشاب بقولـــه:

– اسمك مثير للفضول.

شيء ما في الفتى يعجب ليفي؛ شخصية هادئة رزينة لا مراء في ذلك، سحنة محببة تطل من شفتيه الغضتين الممتلئتين، شعر مشذب يصنع منه رابية تشبه القمة المعتدلة على جبهته، وبعد لحظة شرود يسألـــه:

– من هو عشماوي؟

– سأشرح لك يا سيدي.

– إذا تكرمت.

يبدأ الشاب في الشرح وقد اكتسب صوته وقاراً، ويحس ليفي أن الشاب يقلد شخصًا آخر أكبر منه سناً، شخصًا يعرف استخدام الحديث المنهجي المنظم.

– أنا ابن أم أمريكية من البيض وطالب مصري، حضر إلى أمريكا ضمن برامج التبادل الطلابي، كانا يدرسان هنا في نيوبروسبكت، والتقيا في حرم جامعة ولاية نيوجرسي. كانت أمي تكمل ساعات باقية لها على الحصول على درجة في الفنون، وكانت تعمل أيضًا مساعدة ممرضة.

وتمارس هواية الرسم في أوقات فراغها. كانت تحقق من ذلك دخلاً بسيطًا لم يكن يكفينا. ولكنه –

ويتلعثم الفتى كـأن حديثه صادف عائقًا في حنجرته، ولكن ليفي يشجعه:

– أبوك.

– بالضبط. قالت لي أمي إنه كان يأمل في الحصول على شهادة في الإدارة والتسويق. ولكنه صادف صعوبة لم يتوقعها. اسمه – أعتقد أنه لا يزال حيًا – عمر عشماوي، وأمي هي تيريزا مولوي، أمريكية من أصل أيرلندي، تزوجا قبل أن أولد بكثير. ولم آت إلى هذه الدنيا بطريقة غير شرعية.

– لا أشك في ذلك أبداً، ولو أن ذلك لا يهم، فالطفل يولد شرعيًا في جميع الأحوال حتى إذا كان الزواج بعيدًا عن الشرعية. توافقني على ذلك طبعاً.

– أوافقك تمامًا يا سيدي وأشكرك. كان أبي يعرف أن الزواج من مواطنة أمريكية على فسقها وتفاهتها سيجلب لـه الجنسية الأمريكية. نال ما كان يبتغي، ولكنه لم يؤت حظًا من البراعة في استمالة الأمريكيين، والدخول في علاقات المجتمع المتشابكة التي هي مفتاح النجاح. ولما يئس من الوصول إلى ما كان يصبو إليه من عيش رغيد فر من الميدان، هل هي العبارة المناسبة، "فر من الميدان؟" قرأتها في السيرة الذاتية التي كتبها الكاتب الأمريكي العظيم هنري ملر، كانت السيدة ماكنزي تدرسها لنا في مقرر القراءة المتقدمة.

– ماكنزي فعلت ذلك؟ يا ربي! الزمن يتغير يا أحمد وكتابات ملر لا توجد اليوم إلا وراء الأرفف.

- لم أغادر أمريكا مرة في حياتي.

- أما عبارة "قر من الميدان" فهي عبارة مهجورة، ولكن أغلب الأمريكيين يعرفون ماذا تعني. كان معناها في الأصل "يفر من ميدان المعركة."

- أظن السيد ملر استخدمها للتعبير عن زوجة هجرته.

- نعم، فرت من ميدان معركة الزوجية.

- والظن أن ملر لم يكن بالزوج السهل. قرأنا عن شئونه مع زوجته الأولى في كتابه "الغرائز."(١٨) وهل يدرسون هذا الكتاب؟ ألم يتركوا شيئًا لما بعد المرحلة الثانوية؟

يتغاضى الشاب عن انحراف المشرف الاجتماعي المفاجئ عن الموضوع، ويواصل ما انقطع من حديثه قائلاً دون أن يكترث بوجهة نظر جاك ليفي في الحديث، فيقول:

- أخبرتني أمي أني لا أستطيع أن أتذكر أبي، ولكني أتذكره جيداً. قالت إني كنت في الثالثة من العمر.

- علميًا يمكن أن تتذكر أشياء من ذلك الزمن البعيد.

- أتذكره شبحًا غامضًا دافئاً.

ثم وهو يميل ناحية المشرف بنبرة جد طارئة في صوته:

- كانت أسنانه شديدة البياض، وكان شاربه صغيرًا ومنمقاً. ورثت عنه أناقة الملبس ونظافة الهيئة. أكاد أتذكر رائحة كريم الحلاقة الذي كان يستخدمه مشبعًا برائحة توابل ربما بقيت من طعام شرقي تناوله. كانت

بشرته سمراء، ربما كانت أكثر اسمرارًا من بشرتي، إلى النحافة كان أميل، وأظن أن شعره كان مفروقًا عند المنتصف.

لم يرتح جاك ليفي لهذا الخروج عن المسار الذي خططه للحديث. ربما كان الشاب يضمر شيئًا بهذا الخروج، ترى ما هو؟ ثم يقول بتردد:

– ربما خلطت بين صورة فوتوغرافية وذكرى.

– لدى صورة أو ربما صورتان لـــه، وربما كان لدى أمي المزيد ولم تطلعني عليه، كانت ترفض أسئلتي عن أبي عندما كنت صغيراً. ربما كان هروبه سببًا في ألم كبير لها. أتمنى رؤيته يوماً، للتحدث معه كما يتحدث شخصان مسلمان.

– أجل يا سيد-----؟ ماذا تحب أن أدعوك؟ مولوي أم -----

ثم وهو ينظر إلى الملف:

– عشماوي؟

– ألحقت أمي اسمها باسمي في البطاقة الشخصية وفي رخصة القيادة، وشقتها هي محل إقامتي. على أني أفضل اسم أحمد عشماوي فقط عندما أفرغ من المدرسة وتصبح لي حياتي المستقلة.

ويسأله ليفي وهو يتأمل ملفه:

– وكيف تخطط لهذا الاستقلال؟ درجاتك ممتازة في الكيمياء يا سيد مولوي، وفي اللغة الإنجليزية، ولكنك تحولت في العام الماضي، كما أرى من ملفك، إلى طريق العمل المبكر. من أشار عليك بذلك؟

يصمت الشاب هنيهة، ويحك أذنيه كمن يرد لسعة بعوضة ثم يقول:

– أستاذي.

– أي أستاذ؟ تغيير في المقرر كهذا التغيير كان يجب أن تأخذ رأيي فيه. كان ينبغي أن يتم عن طريقي. كان يجب أن نتحدث بشأنه، أنت وأنا .. حتى لو لم نكن مسلمين.

– أستاذي ليس هنا، أستاذي في المسجد، إنه الشيخ رشيد إمام المسجد الذي يعلمني القرآن الكريم.

يداري ليفي امتعاضه ويجاري الفتى:

– ممتاز، هل لي أن أعرف أين يقع هذا المسجد؟ لا أعرف إلا المسجد الكبير في شارع تِلدِن. وهو المسجد الذي دمره السود أثناء أحداث الشغب في الستينيات. فهل هو المسجد الذي تقصده؟

يشعر ليفي في تلك اللحظة بشيء من الغضب تجاه الشاب، ويحاول جهده ألا يظهر لــه شيئاً من ذلك. والحق أن الشاب لا ذنب لــه في الحالة النفسية التي وصل إليها ليفي، فلم يكن هو الذي أيقظه في الرابعة، ودفعه إلى الشرفة دفعاً. ولم يكن هو الذي اضطره إلى التفكير في الموت، ولم يكن هو الذي جعل من بــث تلاً من اللحم البشري.

– يقع المسجد غرب شارع مين يا سيدي، بعد ست عمارات من شارع تِلدِن.

– تقصد شارع ريغان، لقد غيروا اسمه العام الماضي، ألا تعرف؟

لم يعر الفتى هذه المعلومة اهتماماً. السياسة عند أمثاله المراهقين سماء مكسوة بسحب الغموض لا سبيل إلى بلوغها. أظهرت استطلاعات

الرأي أن كيندي هو أفضل رئيس بعد لنكولن. خُلِقَ كيندي للأضواء كما لم يُخْلَقْ أي رئيس أمريكي آخر. تقتصر معرفة هؤلاء المراهقين على فورد وكارتر، وربما كلنتون وبوش وابنه، هذا إذا استطاعوا التفرقة بين الأب والابن. قال الشاب مولوي مستدركاً:

– يقع المسجد في شارع مليء بالمحلات، فوقه يقع محل تجميل أظافر، ومكتب صرافة، ليس من السهل الوصول إليه من أول مرة.

– ونصحك إمام هذا المكان المجهول أن تبحث لك عن مهنة؟

يتردد الفتى مرة أخرى، ولكنه يقول بلهجة قاطعة تبدو من نظرات عينيه السوداوين الجميلتين:

– أخبرني أن طريق الكلية يؤدي إلى الانحراف؛ لأنها تجبر الشاب على قراءة الفلسفة الفاسدة والأدب الفاسد. وأخبرني أن الثقافة الغربية ثقافة إلحادية لا تؤمن بوجود خالق.

يتراجع جاك ليفي إلى الوراء قليلاً على كرسيه العتيق محدثًا صريرًا حادًا ويقول بحسرة مكتومة:

– ليت الأمور حقًا على ما تقول.

ولكنه يخشى أن تعلم إدارة المدرسة بما يجول في خاطره فيؤثر تغيير الموضوع:

– يثير حنقي أحيانًا نفر من المسيحيين الإنجيليين ينحون باللائمة على دارون في حين أن الله هو الذي خلق الكون على هذه الصورة الفوضوية.

ولكن الفتى لم يكن يستمع إلى ما يقول ليفي، وطفق يكمل ما بدأ:

- وبسبب هذا الإلحاد غرقت الحضارة الغربية في الجنس والترف. انظر إلى التلفاز يا سيد ليفي كيف يستخدم الجنس ليبيع لك أشياء لا تحتاجها. انظر إلى التاريخ الذي يُدَرِّسُونَه لنا في المدرسة، كله تاريخ استعماري، انظر كيف ارتكب المسيحيون جرائم التطهير العرقي ضد الهنود الحمر، وكيف أذلت آسيا وإفريقية، وكيف تحولت الآن إلى الإسلام بكل قوتها التي يديرها اليهود في واشنطن من أجل الإبقاء على احتلالهم لفلسطين.

في تلك اللحظة يتساءل ليفي هل يعرف أحمد أنه يتحدث مع يهودي.

- على رسلك يا أستاذ أحمد، هذه أسباب تكفيك لترك طريق الجامعة وزيادة.

يتأمل ليفي عيني أحمد حين اتسعتا مع ذكر مظاهر الظلم الذي يحيق بالعالم بسبب السياسة الأمريكية، فيلاحظ جاك أن حدقتي عيني أحمد ليستا داكنتي السواد كما كان يتصور، ولكن تشوبهما مسحة من لون أخضر ورثها عن أمه الأيرلندية. في تلك اللحظة سأل الفتى بعد أن عاد بمقعده إلى الأمام مرة أخرى:

- وهل رأي الإمام أن صبيًا ذكيًا مثلك يعيش في مجتمع متسامح كالذي تعيش فيه، عليه أن يقارع وجهات نظر متضاربة في هذا المجتمع؟

يرفع أحمد صوته وقد فاجأه السؤال وهو يصر على التحدي:

- كلا، لم يقل الشيخ رشيد ذلك بالتحديد يا سيد ليفي؛ لأن الشيخ رشيد يقصد أن هذا الفهم النسبي للأمور يجعل الدين شيئًا تافهاً، ولا يشجعه

على القيام بدوره في حياة الناس. أنت تؤمن بهذا، وأنا أؤمن بذلك، وكلنا في النهاية أمريكيون.

– وهو لا يحب الطريقة الأمريكية.

– إنه يزدريها.

لا يزال جاك ليفي يميل إلى الأمام، ويستند بمرفقيه على مكتبه، ويسند ذقنه على أصابع يديه المتشابكة، شارد الذهن وهو يخاطب الفتى:

– وأنت يا سيد مولوي، هل تزدري الطريقة الأمريكية؟

يطرق الفتى مرة أخرى خجلاً، وربما اضطراباً، ويواصل دفاعه:

– بالطبع لا أكره جميع الأمريكيين، ولكن الطريقة الأمريكية هي طريق الكفار، ومصير الكفار الهلاك ما في ذلك ريب.

لم يقل كما قال في السابق إن "أمريكا تريد أن تسلبني إلهي." لا يريد أن يتحدث عن إلهه مع هذا اليهودي العجوز الأشعث الكافر. وفي الوقت نفسه يظن أن الشيخ رشيد متطرف في أحكامه، ولا يجد الله من خلف عينيه اليمانيتين الشاحبتين اللتين تشبهان في لونهما الأخضر المخضب بالزرقة عيني امرأة من الكفار. لقد شب أحمد في كنف أم لا دين لها، تحب الحياة، فظن أن من واجبه أن يقبض على دينه، الدين القيم، وظن أن الله معه في اليقظة والمنام كما يقول القرآن في سورة التوبة ﴿لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ يظن أن الله معه في الحل والترحال، مثل التصاق التوأم في بطن الأم، إليه يفزع بصلاته؛ لأنه مصدر سعادته وشقائه. وهذا الشيطان اليهودي العجوز الذي يتوارى تحت خبث العلمانيين وحب الآباء المزيف، يريد أن يفسد عليه هذا الرباط القوي، ويحرمه من رحمة ربه الرحمن واهب الحياة.

ينتهد جاك ليفي مرة أخرى وهو يرنو ببصره إلى لقاء الطالب الذي يليه، مراهق آخر عابس الوجه ضل الطريق ويحتاج إلى الرشد. ولكنه يريد أن يسمع كلمة أحمد الأخيرة:

– سأقول لك كلمة بيني وبينك يا أحمد، لست مضطرًا إليها على كل حال، ولكن نظرًا لحصولك على درجات جيدة، وتفوقك في الامتحانات، وشخصيتك وجديتك، أظن أن هذا... ماذا تسميه؟ الإمام! إنما يدفعك إلى تضييع حياتك، أتمنى لك أن تستمر في طريق الجامعة.

وينبري أحمد للدفاع عن الشيخ رشيد فيقول:

– سيدي، ليس لدينا من الموارد ما يكفي لدفع مصاريف الجامعة؛ أمي تتوهم أنها فنانة، قطعت دراستها، وقنعت أن تكون مساعدة ممرضة، ولم يكن باقيًا على تخرجها غير عامين، كنت طفلاً لم أذهب إلى مدرسة وقتها.

ويمسح ليفي على شعره الأشعث بيديه، ثم يشرح للصبي:

– أعرف يا بني أن هذه أيام ضيق، حالات الطوارئ وحروب بوش أتت على ما كان يعد في الماضي فائضاً. ورغم ذلك كله لا تزال هناك أموال تخصص للمنح الدراسية لك ولأمثالك من الملونين الأذكياء الذين يمكن الاعتماد عليهم. نستطيع أن ندبر لك منحة من تلك المنح، ليس في برنستون أو روتجرز وإنما على الأقل في مكان مثل بلومفيلد أو سيتون هول أو فيرلي ديكنسون أو كين. وحتى الآن يوجد أمل، كان يجب أن أطلع على حالتك قبل اليوم. على كل حال لنبحث الأمر بعد حصولك على الشهادة الثانوية. دعني أسألك سؤالاً: هل دبرت لك عملاً بعد التخرج؟ فإذا لم تكن

قد دبرت عملاً بعد التخرج فلماذا لا تفكر في الجيش؟ صحيح أنه لم يعد جنة بالنسبة للكثير من الشباب، ولكنه على الأقل يوفر عملاً مربحًا في جميع الأحوال، ويعلمك بعض المهارات، ويعينك على مواصلة التعليم بعد ذلك. لقد حدث ذلك معي. وإذا كنت تعرف بعض العربية سوف تصبح كنزًا بالنسبة لهم.

هنا يتصلب وجه أحمد ويقول:

- الجيش يدفع المرتبات لمحاربة إخواني.

- بل قل يحارب من أجل إخوانك؛ ليس كل العراقيين متمردين وأنت تعرف ذلك، غالبيتهم مسالمون يبحثون عن الثراء. تلك البلاد مهد حضارة، وكانت نامية نموًا كبيرًا حتى وصل صدام إلى السلطة.

يقطب أحمد جبينه، ويعقد ما بين حاجبيه الكثيفين، وينهض يريد الذهاب ولكن ليفي لم يكن مستعدًا بعد للسماح لــه بالذهاب، فيسأله:

- أريد أن أسألك سؤالاً: هل وجدت عملاً ترتزق منه بعد التخرج؟

ويجيب أحمد بعد تردد:

- يعتقد الشيخ رشيد أني أستطيع أن أقود شاحنة.

- تقود شاحنة؟ أي نوع من الشاحنات؟ الشاحنات كثيرة ومتعددة الأنواع. وأنت في الثامنة عشرة من عمرك لا أكثر. أظن أنك لا تستطيع أن تحصل على رخصة قيادة لجرار يحمل أجهزة، أو شاحنة مياه، أو حتى أوتوبيس مدرسة إلا بعد ثلاث سنوات على الأقل. إن اختبار رخصة الشاحنات اختبار صعب؛ لأنها رخصة تجارية، ولا تستطيع القيادة خارج

الولاية إلا بعد سن الواحد والعشرين، ولا تستطيع أن تحمل معك مواد خطرة قابلة للاشتعال.

- حقاً؟

- كما أعلم لا تستطيع. حضر إلى هنا عدد من الشباب الراغبين قبلك، ولما شرحت لهم خطر المهمة أشفقوا على أنفسهم، ولم يطمئنوا إلى قدراتهم.، أصعب ما في المهنة قوانينها ونواحيها الفنية. ناهيك عن عضوية نقابة السائقين، مهنة محفوفة بالعقبات والمخاطر، يكفي أنك ستكون صيدًا سهلاً لقطاع الطرق.

يعبر أحمد عن ملله من حديث ليفي بهزة من منكبيه، ويدرك ليفي أنه استنفد طاقة الشاب كلها من التعاطف والاهتمام لاسيما عندما آنس منه صمتاً. قارع ليفي صمت الفتى بصمت مثله وهو يحدوه الأمل في أن تكون خبرته الطويلة بالحياة في نيوجرسي حافزًا للفتى على كسر جدار الصمت. يشعر أحمد أنه مضطر إلى أن يستطرد في الشرح مع هذا اليهودي الذي تظهر على سحنته آي الشقاء التي تظهر على وجه أمه حين يتخلى عنها أحد خلانها ويطول انتظارها لخليل جديد، أو حين تنتظر الشهر تلو الشهر فلا تبيع لوحة واحدة من لوحاتها.

- سوف يرشدني الشيخ رشيد إلى من يحتاج خدمتي، وسأزداد خبرة مع الأيام.

ثم يضيف:

- والمكسب جيد.

يغلق المرشد الطلابي ملف الشاب بعد أن كتب على قمة الغلاف حروفًا معناها أن القضية خاسرة، وأن مستقبل الشاب المهني معدوم، ويقول:

– فهمتك الآن يا سيد مولوي – ديانتك أهم عندك من أي شيء.

– نطقت بالحق.

– الحق عندك هو الله ولا شيء آخر.

ويرد أحمد بشيء من البطء كأن صوته يجيء من عالم الحلم:

– إنه معي في الحل والترحال.

– عظيم، عظيم، أحييك على صراحتك وإصرارك. أتعلم أن أمي أرادت هدايتي للدين مرة لولا أني رزقت بأب ساخر شاك فاتخذته مثالاً وضللت الطريق.

يغمض الفتى عينيه برهة، ويميل برأسه مستغربًا اعتراف الرجل بالإلحاد. تبدو عيناه أشبه بمصباحين داكنين فوق قميصه ناصع البياض، تترد صورتهما في ذاكرة ليفي وترتد مثل قرص الشمس قبيل الغروب. ويردف ليفي قائلاً:

– كم كان عمرك عندما عرفت أنك مسلم؟

– كنت في الحادية عشرة.

– عجيب – كنتُ في الحادية عشرة أيضًا عندما قررت ترك دروس الكمان وتحديت أبي وأمي، وأكدت وجودي في المجتمع.

يرمي الفتى ليفي بنظرة مشوبة بعدم الرضا لعقده الصلة بين التجربتين. ويتلقى ليفي النظرة جامدًا مذعنًا ويواصل حديثه:

- أحب أن أراك مرة أخرى، عندي لك أوراق تعينك على الدراسة، ليكن لقاؤنا قبل تخرجك.

يقف ليفي على قدميه ويمد يده للشاب طويل القامة، نحيف البدن، ضعيف البنية، ويصافحه، وهو لا يفعل ذلك مع كل تلميذ في نهاية كل مقابلة، ولن يفعل ذلك مع فتيات هذه الأيام؛ فاللمسة قد تستوجب اتهامًا لا مهرب منه، وقد ترسل المراهقات إلى عوالم بعيدة من الحلم والغريزة. ويعجب ليفي أن وجد يد أحمد التي احتوتها يده رقيقة ناعمة رطبة، فيقول لنفسه: إنه لا يزال غلامًا حييًا بعيدًا عن الرجولة، ثم ينهي حديثه:

- الدهر يدخر لك المستقبل كله يا صديقي.

وتشرق شمس صباح يوم الأحد على أخبار حزينة وأخرى سارة. كان أغلب الأمريكيين يستسلمون لنوم عميق غير قلة قليلة يغذون الخطى لحضور قداس الصباح، منهم من كان على موعد مع مباراة غولف تحت حبات الندى المتساقط. كانت الأخبار الحزينة أن وزير الأمن الداخلي رفع درجة الاستعداد من الأصفر إلى البرتقالي لمواجهة أي هجوم إرهابي محتمل. وأما الأخبار السارة فهي أن هذه الدرجة من حالة الاستعداد لم تكن تنطبق إلا على منطقة واشنطن وضواحيها، ومدينة نيويورك وشمال ولاية نيوجرسي، مع بقاء سائر بلاد الأمة الأمريكية على درجة الأصفر.

تحدث الوزير للأمة الأمريكية بلهجته البنسلفانية الجليلة عن آخر تقارير المخابرات المركزية التي تزعم وجود مخطط إرهابي كبير لضرب أهداف حساسة في مناطق في شرق العاصمة أو ما حولها، وقال إن أعداء الحرية قد درسوا هذه الأهداف بعناية بأحدث أدوات الاستطلاع العصرية. ومن هذه الأهداف مراكز مالية، ومدرجات رياضية، وجسور، وأنفاق - لن

يدعوا شيئًا إلا دمروه، ثم قال مخاطبًا كاميرات التلفاز التي تصور نافذة كبيرة يطل منها على حشود لا نهاية لها من البشر الناظرين إليه بعيون مستطلعة:

– قد ترون أمكنة ضربنا عليها سياجًا لحماية أجهزة الفحص التي انتشرت حول الأبنية لصد السيارات والحافلات التي لا تحمل تصريحًا بالدخول. لقد فرضنا القيود على المواقف المبنية تحت الأرض، وانتشر رجالنا يراقبون الداخلين والخارجين، وزدنا من إجراءات التفتيش، وفحص الأدوات والطرود والرسائل بآلات التصوير.

وأخذ الوزير يركز على عبارة "إجراءات التفتيش" التي توحي بأن رجالاً غلاظًا شدادًا يرتدون سترات من قطعة واحدة خضراء أو زرقاء أو مائلة إلى الرمادي، يمعنون في تمزيق الحقائب، والتمثيل بالطرود، ويستلهمون روح وزير الأمن الداخلي وهو يظهر في التلفاز كل يوم ممتقع الوجه ليعلن أن مهمته أصعب مما نتخيل وأن همه كبير. كانت مهمته حماية أمة يقرب تعدادها من ثلاثمائة مليون نسمة، لكل منهم رغباته اليومية ودوافعه، ونزوات يريد أن يحققها بعيدًا عن أعين الرقباء. ووسط هذه الرغبات الجماعية، والنزوات الفوضوية، يجد العدو بيئته الخصبة فينسج على مهل خيوط مؤامراته الرهيبة. وكما قال وزير الأمن الداخلي أكثر من مرة: إن الهدم أسهل من البناء بكثير، والفوضى أسهل من النظام، وإن القائمين على النظام مطالبون بتعقب من يريدون تدمير نظامنا الاجتماعي. وكان يختم رسالته إلى الشعب بعبارة "الله يحفظ أمريكا."

يتوقف الإرسال، ويخفت الصوت، لا يسمعه الآن إلا المحيطون به من عمال التصوير والفنيين، ومن حوله من موظفي وزارته. لن يتجاوز

صوته تلك الحجرة الضيقة التي أعدت خصيصًا لاستقبال وسائل الإعلام، تلك الحجرة الواقعة على بعد مئة قدم تحت الأرض في شارع بنسلفانيا العام. يحسد زملاءه من الوزراء ممن يباشرون أعمالهم في مباني فيدرالية فاخرة قدت من الرخام وأحجار الجير، تطاول السماء وتلامس السحب، بينما يضطر هو إلى الاجتماع بمساعديه في مكتب صغير دون نوافذ في بدروم البيت الأبيض. يتنهد الوزير بقوة من فرط التعب، ويبتعد عن الكاميرات. رجل ضخم الجثة تكثر على ظهره العضلات مما يضطر الخياط الذي يعد لــه حلله الزرقاء الغامقة، إلى الشكوى مما يلاقيه من تعب. يبدو فمه في هذه الرأس الضخم صغيرًا إلى حد مثير للضحك، ويبدو شعره المحلوق على مساحة هذه الرأس الشاسعة صغيرًا أيضاً، أشبه بقبعة ضيقة حشرها صاحبها في رأسه كيفما اتفق. لهجته البنسلفانية ليست واضحة: يتحدث بصوت كالهدير يجور به على مقاطع الكلمات كما كان يفعل لي آيكوكا[١٩]، أو بصوت أشبه بالصياح الحاد مثلما كان يفعل آرنولد بالمر.[٢٠] يتحدث بلغة إنجليزية لا حياة فيها كما يتحدث بها البعض في وسائل الإعلام، بنبرة صوت حزين، وفوارق ضئيلة في نطق الصوائت تحيد بها عن منبعها الأصلي عند الشعوب البريطانية المعروفة بالجدية، وجماعة الأصحاب، وعمال مناجم الفحم، وفلاحي فريزلاند، والمشيخيين الأتقياء، ومراكز القوى من أصحاب النفوذ.

يسأل مساعدته ونائبته ذات العينين النحليتين القرنفليتين، وهي من أهل بنسلفانيا أيضاً، آنسة عذراء في الرابعة والستين اسمها هرميون فوغل:

– وما رأيك أنتِ؟

ترتعش عروق هرميون تحت جلدها الشفاف من فرط الارتباك، ارتباك الخادمة أمام سيدها حين يمن عليها بالحديث. جاء بها من

هاريسبرج، وبروح المزاح الثقيل التي يعبر بها الوزير عن مودته وثقته، منحها لقبًا غير رسمي: سماها نائبة الوزير لشئون حقائب النساء. كانت المشكلة حقيقية فعلاً: حقائب النساء مغارات ترسو في أعماقها أخلاط الأشياء وأسلحة الإرهاب المركبة التي يمكن إخفاؤها في هذه الحقائب: أدوات قاطعة، طلقات رصاص غاز الأعصاب، مسدسات في شكل أحمر الشفاه معدة لإحداث الصدمات. هرميون هي التي ابتدعت وسائل البحث في هذه المنطقة الحرجة التي يحلك فيها الظلام، باستخدام عصا خشبية بسيطة يسبر بها حراس الأمن في المداخل أعماق الحقائب دون شبهة لإهانة، بينما تجول العصي بين الأذرع المكشوفة.

جل أفراد الأمن من الأقليات، وكثير من النساء المسافرات، خاصة الأكبر سناً، قد جفلوا من تطفل الأصابع السوداء أو السمراء في حقائبهم. يعود المارد النائم الذي هدأته عقود من نغم رتيب يعزف لحن التسامح، يعود من جديد في ثوب الإفريقي الأمريكي أو الأسباني الأمريكي الذي يشكو من أنه لم يتقن التحدث بالإنجليزية بعد، وقد أعطي سلطة التفتيش، والاستجواب، والتأجيل، والمنح، والمنع، والسماح، والإذن بصعود الطائرة في بلاد تكثر فيها المداخل وأبواب الأمن، ويكثر بالتالي حراس البوابات. يرى أهل المهن الحرة أصحاب الأجور العالية، ممن يسافرون كثيرًا جواً، ويرتادون المباني الحكومية التي كثرت الآن على أبوابها إجراءات التفتيش، أن طبقة منحطة من الملونين أصبحت تسرف في استخدام السلطة التي مُنِحوا إياها. ويواجه اليوم أبناء الطبقة الراقية ممن كانوا يسافرون بالطائرة في الماضي من مكان إلى آخر بيسر وسهولة، عبر مداخل ومخارج كبار الزوار، نقاطًا منيعة عند كل خطوة تقريباً، يمعن عندها الحراس النظر في رخص قيادتهم وتذاكر صعود الطائرة. مضى زمن كانت الهيئة الواثقة، والبذلة الأنيقة، ورباط

العنق المحكم، وكارت البزنس مقاس ٦ x ٩، كلمات سر فتح الأبواب الموصدة. كيف تسير الآن أمور الرأسمالية المتطيرة؟ وكيف تستقر العقول المهاجرة؟ وكيف تستقيم الحياة الاجتماعية وسط هذا التعقيد والإفراط في الحذر؟ لقد حقق العدو ما يريد! آلت التجارة والسياحة في الغرب إلى خمول ما بعده خمول.

- أعتقد أنك كنت رائعًا كالعادة.

تجيب هرميون فوغل على سؤال سأله الوزير ونسيه. تشغله المهام المستعصية عن كل شيء، يواجه قضايا تتعارض فيها الحماية واحترام الخصوصية، وتتضارب فيها الراحة مع الأمن: همه اليومي الذي يقض مضجعه. ومع هذا كله عاجز عن إرضاء الناس، وعاجز عن إرضاء نفسه، ولا يرضى عن المرتب الذي يتقاضاه مع وجود أبناء يوشكون على دخول الجامعة، وزوجة لا تمل من التجوال الاجتماعي في واشنطن التي يسيطر عليها الحزب الجمهوري. يحسد الوزير زملاءه في الإدارة على أنهم من أبناء الموسرين الذين ضاعفوا ثروات من العمل في القطاع الخاص خلال الثماني سنوات التي غابوا فيها عن الخدمة المدنية في عهد كلنتون، هذا باستثناء سيدة سوداء عانس تتحدث عدة لغات، وتضرب على البيانو بحرفية ومسئولة عن التخطيط الاستراتيجي بعيد المدى. في تلك السنوات السمان كان الوزير يحفر في الصخر في الوظائف الحكومية بمرتبات منحطة في الولاية الرئيسية. تحول أتباع سياسة كلينتون، بما في ذلك أسرة كلينتون نفسها، إلى قطط سمان بفضل ما كسبوه من بيع مذكراتهم الشخصية، بينما يضطر هو المخلص في عمله إلى التزام السرية التامة، الآن وبعد ترك الخدمة.

لا لأنه يعرف أشياء لا يخبره بها خبراؤه الأمريكيون الضالعون في الثقافة العربية،[٢١] يراقبون عالمًا من اللغو الإليكتروني على شبكة الإنترنت يفيض بلطف التعبير الشعري والتفاخر الساذج، عالم غريب في نظر الوزير كعوالم الجريمة السرية، مع أن المتحاورين مسيحيون بيض. ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء (في الشرق) فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ فإقحام عبارة "في الشرق" في آية قرآنية، وهي ليست من القرآن ربما، إذ تقترن بأخلاط من اللغو والاعترافات غير ذات الصلة لرجال بوليس قيد الأسر، ربما يبرر، أو لا يبرر، ارتفاع درجة استعداد البوليس والجيش المسئولين عن حراسة مؤسسات مالية "شرقية" من النوع المتمركز في ناطحات سحاب ملفتة جاذبة لعقلية العدو الباحث عن الأوهام والخرافات. فعدونا مغرم بالمواقع التي يظن أن لها قوة خفية، ومؤمن، كما آمن عدونا الشيوعي من قبله، بأن للرأسمالية مقرًّا رسميًّا رئيسيًّا يمكن ضربه وينتهي الأمر، أو رأسًا يمكن قطعه وكفى، ويومئذٍ يفرح المؤمنون وهم خاضعون مغيبون تحت حكم استبدادي عقائدي يزعم التقوى والورع وما يستتبع ذلك من زهد.

لا يعرف عدونا أن الديمقراطية والرأسمالية الاستهلاكية أشياء تجري مجرى الدم من ابن آدم، وأن الحرية شيء يجب أن يتنفسه أو الهلاك. وزيرنا، وزير الأمن الداخلي، يتردد على الكنيسة، ويؤمن بقضاء الله وقدره، ولكنه لا يراهن على الآخرة، ولا يرجو الموت كما يفعل أعداؤنا. "الكفار وحدهم الذين يحبون الدنيا حبًا جماً،" واحدة من العبارات التي تتردد كثيرًا في مداخلات الإنترنت الذي يراقبون لغوه. يقول الوزير لنائبته:

– لن أنجو من ألسنة الناس، إذا لم يحدث شيء سيقولون إني أتاجر بالرعب، وإذا حدث شيء فإني مرتزق كسول يقتات على موت الناس.

وتطمئنه هرميون، تعاطفًا أو شفقة، وتحمر بشرتها التي شحبت من طول العنوسة:

– لا يمكن لعاقل أن يقول هذا، يعرف الجميع، وحتى الديمقراطيون، أنك تؤدي مهمة صعبة، ولكنك تؤديها رغم كل شيء من أجل الحفاظ على وجودنا.

– هذا صحيح.

يعجبها فمه الذي يميل ميلاً مقصودًا عند الكلام.

تتناهى إلى آذان الوزير، واثنين (رجل وامرأة) من حراسه المسلحين، وثلاثة من موظفي مكتبه من ذوي السترات الردمادية، دقات أجراس الكنائس القريبة، على ضوء الشمس المشرقة، بينما يعود بهم المصعد إلى بدروم البيت الأبيض في نعومة الحرير. يقول الوزير بصوت مرتفع:

– أولئك المجانين، لماذا يخططون لمثل هذه الأعمال البشعة؟ لماذا يكرهوننا؟ وما الذي يكرهونه فينا؟

تجيبه هرميون بإخلاص يظهر في نظرات عينيها:

– إنهم يكرهون النور كالصراصير والخفافيش، "والنور يشرق في الظلمة، والظلمة لا تقوى عليه."

تستشهد بالعدد الخامس من إنجيل يوحنا الإصحاح الأول وهي تعلم أنها تعزف على أوتار جذور معتقداته الدينية التي جاء بها من بنسلفانيا.

الفصل الثاني

كان السخام يغطي أحجار الكنيسة الواقعة بجوار بحيرة الركام، وكانت الكنيسة تمتلئ بأناس يرتدون ملابس قطنية فاتحة، وملابس بوليستر ضيقة عند الأكتاف. تألقت عينا أحمد بالدهشة إذ لم يجد البخور على جنبات النوافذ المتسخة. تقع عيناه على لوحات يرتدي شخوصها ملابس شرق أوسطية، ويسيرون في موكب يؤمه إلـــه مزعوم عاش حياة قصيرة على ظهر الأرض ثم رحل. كيف يعبدون إلهًا يعرفون أنه مات؟ يستشعر أحمد في الأمر رائحة غريبة لا يأنس لها، رائحة جثة قارض من القوارض زالت آثارها على الجدران. ولكنه يرى المصلين – وقليل منهم كان أكثر منه شحوبًا كما كان يبدو في قميصه الناصع البياض – ينعمون بسعادة صافية في اجتماعهم الأسبوعي صباح الأحد. خيل لأحمد أنه في دار من دور السينما قبل أن يبدأ العرض، دليله على ذلك تلك الأخلاط من البشر، يجلسون على المقاعد الخلفية، وذلك الاضطراب الذي يغشى المنطقة الأمامية بمقاعدها الثابتة، وذلك اللوح الزجاجي الذي يعرض صورة لحمامة توشك أن تحط على رأس رجل ذي لحية بيضاء، وذاك الطنين المضطرب من التحيات الذي يسري بين الجلوس، وذلك الصرير المزعج الذي تحدثه المقاعد الخشبية بسبب ما تحمله من أثقال من اللحم البشري. تذكر أحمد المسجد بسجاجيده السميكة، وقبلته المنحوتة في الجدار يكسوها الطوب الأحمر، وعبارة " لا إله إلا الله" التي تتردد في جنبات المسجد، يترنم بها المصلون يوم الجمعة في السجود والركوع، في طابور انتظموا فيه كانتظام حبات العقد. ليس بالمسجد مكان للنساء كما يحدث في الكنيسة، حيث ترفل النساء في ثيابهن الربيعية الزاهية التي انحسرت عن أجسادهن الناعمة.

يدلف أحمد إلى الكنيسة مع دقات العاشرة متسللاً إلى مقعد من المقاعد الخلفية، يحدوه الأمل في ألا يراه أحد، ولكنه يفاجأ بتحيات نفر من السود يرتدون سترات في لون الخوخ، وقد زين كلّ صدره بغصن من أغصان السوسن. ويعطى رجل أسود أحمد ورقة مطوية مشوبة بلون خفيف، ثم يمضى به إلى صدر المجلس. امتلأت المقاعد بالمصلين ما خلا المقاعد الأمامية التي يزهد رواد الكنيسة في الجلوس عليها. يحس أحمد – حتى وهو جالس – بأن طول قامته مصدر للحرج فيما يُفْتَرَض أنه بيت من بيوت الله، وهو الذي اعتاد أن يصطف في المسجد مع المصلين على الأرض وهم ساجدون أو راكعون. تذكره طريقة النصارى في الجلوس الخامل على مقاعد الكنيسة بمقاعد مسرح كوميدي يؤدي فيه الله دور المهرج، وحين يفرغ من التهريج يذهب ليستعد لأداء فصل آخر من فصول المسرحية.

يظن أحمد أن المقعد الطويل الأمامي في الكنيسة قد خُصِّصَ لـه وحده احتفالاً بحضوره كوجه طارئ، وكي يتخلص من الحرج الذي يشعر به وهو بينهم. ولكن لا يلبث أن يرى مرشدًا آخر يقود آخرين من السود تتمايل بناتهم في زهو بجدائل شعورهن المستقرة على رؤوسهن إلى تلك المقاعد. يضطر أحمد إلى أن يذهب إلى طرف الدّكة. وعرفانًا بهذا الجميل يرى رب الأسرة أن يحيي أحمد فيمد لـه يدًا ضخمة يمر بها فوق رؤوس بناته، ويشد بها على يده مع ابتسامة عريضة تنحسر عن سنة ذهبية ينبعث منها وميضٌ سرعان ما خبا. وأما الأم فهي على مبعدة من الشاب تستعيض عن المصافحة بلتويحة من يدها، وإيماءة مرحة من رأسها. أما البنات فتمر عيونهن على الضيف مرور الكرام، لم يلمح منها غير بياض عيونهن. يريد

أحمد أن يصد عن نفسه هذا الفيض من المودة الذي يبديه لـــه الكفار، وأن يستعد لموجة أخرى قادمة من موجات صلواتهم. يتذكر جورلين فيحس بكرهه لها؛ لأنها هي التي استدرجته إلى هذا المأزق البغيض. يكتم أنفاسه كأنه يحول بينها وبين رائحة عفنة، وينظر أمامه مباشرة، هنالك تقع عيناه على الموضع الذي يشبه المنبر عند المسلمين، وقد نُقِشت عليه صور تجلت لـــه شيئًا فشيئًا لملائكة مجنحة، يظهر منها ملاك ينفخ في بوق طويل فيعرف أنه إسرافيل. ولا يلبث أن يدرك أن الزحام الشديد في الصورة الأخرى ما هو إلا يوم القيامة الذي استلهمه محمد حين كتب الكثير من أشعاره الآسرة.(١) قال أحمد لنفسه: إن القوم يرتكبون خطأً فادحاً، حين يسعون لتصوير ما خلقه الخالق وأحسن خلقه، ويضعون هذه الصور في الخشب. كان الرسول يعلم أن التصوير لا يكون إلا بالكلمات لأنها هي التي تصور الروح، كما يقول القرآن في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

وتبدأ الصلاة، ويخيم على المكان صمت مطبق متوقع، ثم يدوي صوت أشبه بالرعد بسبب قرع ناقوس أشبه بالناقوس المعلق في فناء مدرسة سنترال الثانوية. كان صوت الناقوس أشبه بصوت الأرغن الكهربائي. يقف الجميع ويشرعون في الغناء. يقف أحمد على قدميه مثلهم كأنه مربوط إليهم بسلسلة من حديد. يتدفق أفراد الكورس في ثيابهم الزرقاء عبر الممر الأوسط، وتمتلئ بهم الفراغات من وراء السياج المنخفض الذي لا يسمح للمصلين تجاوزه حسبما فهم. تخرج الكلمات من أفواههم مشوهة على إيقاع تلك اللهجة المنفرة التي ينطق بها هؤلاء الزنوج. يهمس أحمد لنفسه: إن هذا

الغناء أجدر بتل من تلك التلال النائية، وصليب قديم ضخم. يرى أحمد جورلين، وهو مغرق في صمته المطبق، تقف وسط جمهور أغلبه من النساء ضخام الأبدان. تقف بينهن، صغيرة السن مضمحلة البدن، وفجأة تلمح أحمد الجالس على الدَّكة الأمامية. ولا يأنس أحمد لنظرتها السريعة الحادة القلقة، إنها تعرف أيضًا أن وجوده هنا لم يكن لـــه مبرر.

يبدأ الناس في القيام والقعود في حركات سريعة غريبة، يرددون أناشيد بأصوات جماعية لم يستطع أحمد مجاراتها، بالرغم من أن الأب صاحب السن الذهبية يرشده إلى رقم الصفحة في كتاب التراتيل. تقول الكلمات: "نحن نؤمن بهذا وذاك، ونشكر الرب على ذاك وهذا." ثم يؤدي القس صلاة يحرك فيها يديه، وترتعش شفتاه، رجل عابس الوجه في لون القهوة التركية، يضع على عينيه نظارة سميكة تحت رأس طويل بلا شعر. إن رأسه يلمع تحت الأضواء الخافتة، وصوته الجهوري يدوي في مكبرات الصوت المنتشرة في أركان الكنيسة الأربعة، بينما يتوارى هو في ظلمة حالكة وراء نظارته بعد أن أغلق عينيه تمام الإغلاق، ويرى الظلمة بعين العقل وهو غارق في الضراعة، تتردد الأصوات هنا وهناك بالتسليم – "هذا هو الحق!"، "الحمد للرب!" كانت هتافات الحضور تعلو فيما يشبه اللغط مع التسبيح حين يتحدث الواعظ عن البهجة التي يختبرها أصحاب يسوع وهم معه. ويصعد الواعظ إلى المنبر الذي تحيط به صور الملائكة، ويدوى صوته مرة أخرى، وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة ليدنو من مكبرات الصوت ويبتعد عنها؛ كي يعلو صوته وينخفض، كأنه يصدر من رجل يجلس فوق صاري سفينة تشرف على الغرق. يخبر الحضور بأن موسى هو الذي أنقذ

شعب الله المختار من العبودية، وإن لم يُؤذن لـــه هو شخصيًا بدخول أرض الميعاد.

ويدوى صوت الواعظ بالتساؤل:

– لماذا حدث ذلك؟ كان موسى الناطق الرسمي باسم الرب في مصر وفي غير مصر. أتعرفون من هو الناطق الرسمي؟ رئيسنا الذي يجلس في البيت الأبيض لـــه ناطق رسمي ينطق باسمه، رؤساء شركاتنا في مكاتبهم الشامخة في مانهاتن وهيوستن لهم ناطقون رسميون ينطقون بأسمائهم، أو ربما ناطقات رسميات في بعض الأحيان، وهذه وظيفة تناسب النساء تماماً، أليس كذلك يا إخوتي؟

وتتصادى الجدران بضحكات عالية وأخرى مكتومة، ما يدفع القس لمواصلة حديثه:

– مهلاً، نساؤنا وبناتنا العزيزات يعرفن كيف يتحدثن. لقد أعطى الله الرجال قوة في الأذرع والأكتاف، وأعطى بنات حواء قوة مضاعفة في اللسان. أسمع من يضحك، ولكني لا أمزح، إن هذا خاضع لنظرية التطور المعروفة التي يُعلِّمونها لأبنائنا – كان الله في عونهم – في مدارسنا العامة. أقول لكم الصراحة: لم يعد أحد يتحدث عن نفسه، أصبح الحديث دون ناطق رسمي أمرًا ينطوي على مخاطرة، ألا ترون المحامين المنتشرين في كل مكان يتصيدون الأخطاء ويدونون كل شيء. لو أن لي ناطقًا باسمي الآن لما جئت إلى هنا، ولجلست في بيتي أشاهد حوارات السيد وليام مويرز، أو السيد تيودور كوبل في التلفاز، وأتسلى أثناء ذلك بأكل الخبز الفرنسي المحمص اللذيذ المشرب بعصير الفاكهة المركز الذي تقدمه زوجتي العزيزة

"تلي" كل صباح، بعد أن تكون قد اشترت فستانًا جديداً، أو محفظة مزخرفة من جلد تمساح لا تشعر تجاهه بأية شفقة.

ورغم الضحكات التي كانت تصاحب هذا البوح، يستمر الواعظ في حديثه:

– وبهذا أحافظ على صوتي، ولا أشق على نفسي لأجيء إلى هنا لأبين لكم كيف أن الله لم يسمح لموسى وقومه بدخول أرض الميعاد. لو أنني أوتيت ناطقًا رسميًا باسمي لما تجشمت كل هذه المتاعب.

ويظن أحمد أن القس يسعى لسرد ذكرياته الشخصية وسط حشد المنصتين المنفعلين من الكفار داكني البشرة، ناسيًا – ربما – أنه كان في كنيسة، وأن أولئك كانوا مصلين قدموا لحضور قداس، وأن ما يقوله يمكن سماعه من مئات المحطات الإذاعية التي يبثها مذياع السيارة. ولكن الرجل يفتح عينيه فجأة من وراء نظارته، ويضرب الكتاب المقدس الكبير الموضوع أمامه على المنصة، الذي زينت حوافه بماء الذهب ويصيح:

– إليكم السبب، يقولــه الله نفسه في سفر التثنية: ٣٢: ٥١: "لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة قادش في برية صين إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل."

ثم يلقي الواعظ الذي كان يرتدي ثيابًا فضفاضة زرقاء ذات أكمام طويلة، وقميصًا نظيفاً، وكرافتة حمراء، نظرة شاملة على الحاضرين بعينين اتسعتا بتعبير الدهشة، يخيل لأحمد أنه كان يخصه بها دون الحاضرين جميعاً، ربما لأنه لم يكن وجهًا مألوفاً، ويتساءل بهدوء:

– ماذا يعني ذلك؟ ماذا يعني بـ "خنتماني؟ ولم تقدساني؟" ماذا فعل المساكين الذين قاسوا طويلاً من بني إسرائيل، بالماء من مريبة قادش؟ في برية صين؟ من يعرف؟ من يعرف يرفع يده، يبدو أنكم لا تعرفون.

وقبل أن يجيبه أحد يسرع الواعظ إلى الكتاب المقدس، ويجذبه بشدة من حافته الذهبية، ويشير إلى الموضع السابق بإصبعه ويصيح:

– كل شيء هنا أيها الأصدقاء، كل ما تريدون معرفته مدون هنا وليس في أي مكان آخر. ينبئنا الكتاب المقدس أن فريقًا خرج من صف الشعب الذي كان موسى يقوده طوال الطريق من مصر. دخلوا صحراء النقب، وشمال الأردن، وعادوا وقالوا – حسب الإصحاح الثالث عشر من سفر العدد – "قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقًا إنها تفيض لبنًا وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدًا وأيضًا قد رأينا بني عناق هناك." ثم قالو: "العمالقة ساكنون في أرض الجنوب، والحيثيون اليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل، والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة فكنا في أعيننا كالجراد، وهكذا كنا في أعينهم." كانوا يعرفون ذلك أيها الأخوة، ونحن نعرف ذلك أيضاً. في أعيننا نحن مجرد جراد صغير مسن يقتات على الأعشاب الضارة أيامًا معدودة، نقتات على قش المروج قبل أن تُقطع، نقتات على أعشاب ملعب البيسبول المهجور، ثم نذهب إلى غير رجعة. هياكلها العظمية، وهي هياكل متشابكة كأي شيء خلقه الرب العظيم، يلتقطها بمنقاره غراب، أو طائر سنونو، أو نورس أو صفار.

تضطرب أكمام الواعظ الزرقاء، ويسيل من فمه لعاب يلمع في ضوء المنصة، ويتمايل الكورس خلفه تتوسطهم جورلين، ويقرأ:

- "لكن كالِب أنصت الشعب إلى موسى وقال إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرون عليها."

يستمر الرجل، وكان طويل القامة، في القراءة من سفر العدد الإصحاح الرابع عشر، بصوت سريع مرتجف، كأنه عدة أصوات متداخلة:

- "فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة. وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بني إسرائيل وقال لهما كل الجماعة ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر!"

ثم ينظر بحزن في عيون الناظرين، ويرفع نظارته السوداء، ويكرر على مسامع الجميع:

- "ليتنا متنا في أرض مصر!" إذن لماذا جاء بنا الرب من العبودية إلى هذا القفر؟

ثم يعود إلى الكتاب ليقرأ:

- "تسقط بالسيف تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة؟"

ثم يرفع عينيه عن الكتاب ويقول:

- غنيمة! هيا، هذا جد خطير، فلنسرع، لنغذ الخطى، لنعود إلى مصر!

ويمعن النظر مرة أخرى في الكتاب ويقرأ بصوت عال:

- "قال بعضهم نقيم رئيسًا ونرجع إلى مصر."

ثم يفسر:

- ذلك الفرعون لم يكن سيئًا جداً، كان يطعمنا بالرغم من بخله، كان يمن علينا ببعض الأكواخ التي ننام فيها، بالرغم من قربها من المستنقعات والبعوض. كان يرسل إلينا شيكات المعونة الاجتماعية بانتظام يحسد عليه، ووفر لنا العمل، إننا الآن نغسل الأطباق المشبعة بالزيت في محلات ماكدونالدز بأدنى الأجور. كان ودودًا هذا الفرعون مقارنة بأولئك الجبابرة بني عناق ضخام الأجساد.

ثم يقف منتصبًا ويقول:

- ماذا فعل موسى وأخوه هارون في كل هذا الحديث؟ يقول الكتاب هنا في الإصحاح الرابع عشر العدد الخامس: "فسقط موسى وهرون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني إسرائيل." أي أنهما استسلما، قالا للشعب، للشعب الذي يفترض رئاستهما لـــه نيابة عن الرب القدير، قالا: "ربما كنت على حق، فقد تهنا في خارج مصر زمنًا أطول من اللازم، وهذا التيه كثير جداً."

- ويوشع، هل تذكرونه؟ ابن نون من قبيلة أفرايم، كان ضمن اثني عشر في هذا النفر الهائم على وجهه في الصحراء، مع كالِب. وقف يوشع وقال: "انتظروا لحظة، لحظة يا إخوان، هذه أرض طيبة تلك التي يمتلكها الكنعانيون لأنهم، وأنا سأقرأ من الكتاب "لأنهم خبزنا قد زال عنهم ظلهم والرب معنا لا تخافوهم." وماذا كان رد فعل الإسرائيليين العاديين عندما وقف هذان المحاربان الشجاعان وقالا "فلنذهب، ولا تخافوا هؤلاء الكنعانيين؟" قالوا: "ارجموهم، ارجموا هذين الوغدين." وشرعوا يجمعون الأحجار - بعض الأحجار كانت من الصوان وكانت مسننة، وقبيحة المنظر،

كانت تنتشر في صحراء التيه تلك، وشرعوا يرجمون، ويحطمون رأسي كالِب ويوشع، فإذا بشيء مذهل يحدث، سأقرأ عليكم ما حدث: "ثم ظهر مجد الرب في خيمة الاجتماع لكل بني إسرائيل. وقال الرب لموسى حتى متى يهينني هذا الشعب وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم؟" المن من السماء كان آية، الماء الذي انبجس من صخرة حوريب كان آية، صوت الرب المتكلم في حوريب من وسط النار كان آية، أعمدة السحب بالنهار كانت آية، والنار بالليل كانت آية، آيات بالليل وآيات بالنهار، آيات على مدار الساعة كما يقولون.

– وبالرغم من هذه الآيات كان الشعب لا يزال بعيدًا عن الإيمان. أرادوا أن يعودوا إلى مصر، ويعيشوا تحت رحمة ذلك الفرعون الودود. كانوا يفضلون الشيطان الذي يعرفونه على الرب الذي لا يعرفونه. أرادوا العودة لعبادة ذلك العجل الذهبي. لم يفطنوا، أو لم يريدوا أن يفطنوا، إلى أن العودة تعني العبودية. كانوا يريدون التخلي عن حقوقهم المدنية. كانوا يريدون نسيان أحزانهم بتعاطي المخدرات والأعمال الشائنة أيام السبت، بنو إسرائيل. وسأل الرب موسى وهارون، وكأنه كان يسألهم للعلم فحسب: "وقال الرب لموسى حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة عليّ قد سمعت تذمر بني إسرائيل الذي يتذمرونه علي؟" ولم ينتظر الإجابة، أجاب نفسه بنفسه. قام الرب بذبح جميع الشعب ما عدا كالِب ويشوع. وقال للباقين: "في هذا القفر تسقط جثثكم." وحكم على الآخرين، من ابن عشرين سنة فصاعدًا ممن تذمروا عليه بالتيه أربعين سنة في القفر: "وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر." فكِّروا في هذا الأمر، أربعون سنة دون إفراج لحسن السير والسلوك،

ثم يكرر: "دون إفراج لحسن السير والسلوك، "لأنكم كنتم جماعة شريرة متذمرة."

ويتناهى إلى الأسماع صوت رجل في الحشد يصيح: "حقًا ما قلت أيها القس، شريرة أرواحهم!" ويكمل القس النصراني حديثه:

– لا إفراج؛ لأن الإيمان ينقصكم، الإيمان في قدرة الرب القادر، ذلكم هو الذنب الذي جنيتموه. دعوني أقرأ المقاطع الأربعة لتلك الكلمة القديمة العجيبة: "إن إيك كي تي" بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع. إن موسى يسعى لتخفيف الحكم، المحامي يترافع عن موكله فيقول للقاضي: "اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك، وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى ههنا." ويرد الرب:

– لا فائدة، لقد تعبت من كل هذا الغفران الذي تريدونه مني. أريد التغيير، أريد جثثكم.

وينزل القس الواعظ من فوق المنبر وعلى وجهه شيء من ملل، ويستند بمرفقيه بطريقة مستفزة على الكتاب المقدس المهيب ذو الحواف الذهبية، ويقول في نبرة أقرب للهمس:

– أصدقائي، ترون الآن كيف كان موسى يتوسط لدى الرب من أجلنا، لقد اقترفنا ذنوبًا كبيرة، فماذا فعلنا؟

ثم يتمشى قليلاً ويرسم على وجهه ابتسامة ويصيح:

– لقد أذنبنا حين ذهبنا إلى أرض العدو. هل كنا نستكشف الموقف ونكتب عنه تقريرًا مفصلاً أميناً، ثم نعود؟ لا يبدو ذلك. أولئك الكنعانيون والجبابرة يستولون على اللبن والعسل، ولا يسمحون لأحد بالاقتراب منه.

من الأفضل أن نرجع إلى مصر. يبدو الأمر بديهياً، أليس كذلك؟ لا تلوموا الرجل، ففي حوزته الأرصدة والعقود، وعنده السياط والأغلال، إنه يتحكم في وسائل الإنتاج. ولكي تنفذ كلمة الرب يرسل عليهم الطاعون والأوبئة، ويعلن الشعب الحداد، ويحزم أمره، ولكن بعد أن يكون السيف قد سبق العذل كما يقولون، فيقرر الصعود إلى الجبال ومواجهة الكنعانيين الذين هدأت ثورتهم الآن. ويسدي إليهم موسى النصيحة، ذلك المحامي العارف ينصحهم: "لا تذهبوا، لن تفلحوا. الرب لن يكون معكم." ولكن الإسرائيليين يركبون رؤوسهم ويذهبون رغم النصيحة. وماذا نقرأ في آخر سطر في سفر العدد، الإصحاح الرابع عشر؟ "فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسروهم إلى حرمة." إلى حرمة! – وكانت مسافة طويلة، كانت المسافة طويلة إلى ذلك المكان الذي كان يدعى حرمة. أرأيتم، يا إخواني، كان الرب معهم، وفر لهم الفرصة للتقدم معه بكل ما لـــه من مجد، وماذا فعلوا؟ ترددوا. خانوه بترددهم، بحرصهم، أو قل بجبنهم. وخان موسى وهارون الرب أيضًا بإذعانهم للإغراء، كما يفعل السياسيون عندما تغلق صناديق الاقتراع لصالحهم. أجل، كان لديهم ناخبون ومتحدثون في تلك الأيام البعيدة – أيام التوراة – ولذا فشلوا في الوصول إلى أرض الميعاد. ظل موسى وهارون هناك على ذلك الجبل ينظرون إلى أرض كنعان كأطفال ينظرون إلى محل حلوى من خلال نوافذ العرض، غير قادرين على النفاذ من الزجاج. كانوا مذنبين. لم يرتفعوا إلى المستوى اللائق. لم يدعوا للرب فرصة لمساعدتهم. كانت النيات حسنة ولكنها لم تغن عنهم شيئًا لقلة إيمانهم بقدرة الرب. الرب جدير بالثقة، يقول إنه يفعل المستحيل، قادر على كل شيء، لا تقولوا لـــه إنك لا تستطيع.

وينفعل أحمد مع سائر الحاضرين المضطربين الذين ملكت الإثارة والذهول عليهم نفوسهم. يهمسون تارة، ويتمتمون تارة أخرى، ويطرقون

تارة ثالثة، كأنهم يلوذون بلحظة استرخاء وجيزة استعدادًا لتحولات الموعظة المثيرة. وحتى الفتيات السود يهززن رؤوسهن بشعورهن المجدولة يمنة ويسرة كأنهن يعانين من ألم في أعناقهن. ترمي إحداهن أحمد بنظرة سريعة من عينين ناتئتين أشبه بعيني كلب يتفقد شخصًا استعدادًا للانقضاض عليه. تلمع عيناها ببريق الدهشة كأنها وقعت عنده على كنز يختبئ داخله. يواصل القس موعظته بصوت مخشوشن أشبه بطعم القهوة التي أفرط صانعها في تحليتها بالسكر، ويقول:

– إنها العقيدة. لم يكن لديهم عقيدة. هذا هو سبب تسميتهم بالجماعة الشريرة المتذمرة، وهذا هو سبب الوباء الذي حل ببني إسرائيل، وسبب هزيمتهم في المعارك، وسبب العار والخزي الذي حل بهم. كان أبوهم إبراهيم لديه عقيدة حين استل سكينه وشرع يضحي بابنه الوحيد إسحاق. وكان يونس لديه عقيدة وهو في بطن الحوت. وكان للنبي دانيال عقيدة وهو في عرين الأسد. وكان ليسوع عقيدة وهو على الصليب، وكان يسأل الرب عن سبب تخليه عنه، ولكنه عاد في التو ونظر إلى السارق المصلوب إلى جواره ووعد الرجل، ذلك الرجل الشرير، هذا المجرم العتيد كما يقول علماء الاجتماع، وعده بأنه سيكون جاره في الفردوس في ذلك اليوم نفسه. وكان مارتن لوثر كنج يؤمن بعقيدة عندما ألقى خطابه في تلك الساحة في واشنطن، وفي ذلك الفندق في ولاية ممفيس، حيث قتله المدعو جيمس إيرل راي – ذهب مارتن إلى هناك لشد أزر عمال الصرف الصحي المضربين، أولئك العمال الذين نعدهم أحط الناس، أولئك المنبوذون الذين يخلصون البيئة من نفاياتنا. وكانت روزا باركز تؤمن بالرب في ذلك الأوتوبيس في مونتوغومري، ألاباما.

ويميل القس بجسمه إلى الخلف فيزداد طوله، وتتغير نبرة صوته حين يجول بخاطره فكر جديد، ويقول كأنه يتحدث إلى كل واحد من الحاضرين على حدة:

– أخذت مقعدها في مقدمة الأتوبيس، وهذا ما لم يفعله بنو إسرائيل. خافوا الجلوس في مقدمة الأوتوبيس. قال لهم الرب: هذه هي المقاعد التي تلي السائق مباشرة خالية، أرض كنعان تمتلئ باللبن والعسل، هذا هو مقعدكم. ولكنهم قالوا: لا يا رب شكرًا لك، نريد أن نجلس في مؤخرة الأوتوبيس، لم نفرغ بعد من لعب النرد الذي بدأناه، ولا زالت كؤوسنا مليئة بخمر فور روزس، ولا زلنا ندخن الحشيش، ولم نفرغ من حقن أنفسنا بالهيروين، ولم نزل بعشيقاتنا حتى تحملن بأطفال حرام، نلقي بهم في خرابة من تلك الخرابات، ليلتقطهم جامعو القمامة عند حواف المدن. لا ترسل بنا إلى ذلك التل يا رب. لا قبل لنا بهؤلاء العمالقة. لا قبل لنا بلقاء "بول كونر" وكلابه البوليسية.[٢] سنكتفي بالجلوس في مؤخرة الأتوبيس. المكان هنا لطيف ومعتم ودافئ وحميم.

ثم يعود القس إلى صوته الأول ويقول:

– لا تكونوا مثلهم يا إخواني وأخواتي. أخبروني ماذا ينقصكم؟

عندئذٍ يسمع أصواتًا خافتة لا تكاد تبين:

– الإيمان.

– دعوني أسمع ما تقولون مرة أخرى، أريد الإجابة بصوت عالٍ. ماذا نريد جميعاً؟

وتأتي الإجابات عالية بصوت واحد هذه المرة، حتى أحمد ينطق بالكلمة بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد ما خلا تلك الفتاة التي كانت تجلس إلى جواره مباشرة:

- الإيمان.

- هذا أفضل ولكن ليس بالدرجة المطلوبة. ماذا يجب أن يكون لدينا أيها الأخوة والأخوات؟

- الإيمان!

- الإيمان بماذا؟ أسمِعوني أصواتكم العالية حتى يسمعها أولئك الكنعانيون فيرددون وهم يرتدون نعالهم المصنوعة من جلد الماعز!

- الإيمان بالرب!

- أجل.

وتشرع بعض النسوة هنا وهناك في النشيج، ويرى أحمد الحمرة تعلو وجنتي الأم التي تجلس على الأريكة التي يجلس عليها - لا تزال شابة وجذابة. ولم يتوقف الواعظ عند هذا الحد من مخاطبة الجمهور، فيهم بسؤالهم:

- رب من؟

ويجيب على السؤال بنفسه:

- رب إبراهيم.

ثم يأخذ نفسًا ويقول:

- رب يوشع.

ثم يأخذ نفسًا آخر:

- رب الملك داود.

فيردد صوت قادم من الخلف:

- رب يسوع.

فينطلق صوت نسائي هذه المرة:

- رب مريم.

وصوت نسائي آخر:

- رب بـــثشبع.

ويدوي صوت ثالث:

- رب صفورة.(٣)

ويقرر الواعظ إنهاء المنافسة، فيدنو من الميكروفون مثلما يفعل نجوم الروك، فيدوي صوته أعلى من أي صوت:

- ربنا جميعاً.

يمسح بمنديل أبيض رأسه الجرداء من العرق الذي يتصبب منه وتمتلئ به ياقته من شدة الحماس.

- ربنا جميعاً.

ثم بصوت ملؤه الحزن يقول:

- آمين.

فيرد آخرون ربما تحررًا من واجب، أو ملئًا لفراغ:

- آمين.

ويخيم صمت يقطعه صوت قوي لأربعة رجال متأنقون يمشون الهوينى في صفين، لاستلام الأطباق الخشبية، بينما يقف أفراد الكورس يحدثون جلبة خفيفة استعدادًا للغناء. عندئذ يقف رجل قصير يرتدي بذلة يريد أن يداري قصره بإطالة شعره المجعد فيظهر كالرابية على رأسه، يرفع كلتا يديه مشيرًا إلى الرجال الأربعة الذين كانوا يرتدون بذلات بوليستر فاتح، لتناول الأطباق من القس ليتخذ اثنان منهما طريقهما عبر الممر الأوسط، بينما يتخذ الآخران طريقهما على الجانبين. يطوف الرجال بالأطباق التي حشيت قيعانها بطبقة من القطيفة؛ لترد عنها صليل العملات المعدنية. يتذكر أحمد كلمة "نجس" التي وردت في الموعظة فترتعد فرائصه بما اقترف من إثم لمشاهدة هؤلاء الكفار السود يعبدون إلها لا وجود لـــه، يعبدون تمثالاً بـــثلاثة رؤوس، ما أشبه ذلك بالفرجة على ممارسة الجنس في العلن، كتلك المشاهد التى يراها طلاب مدرسة سنترال الثانوية على شاشات أجهزة الكومبيوتر في المدرسة: إساءة في استخدام الممتلكات العامة.

لم يكن اسما إبراهيم ونوح غريبين على سمع أحمد وبصره. فقد ذكرهما القرآن في سورة آل عمران: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وهؤلاء الذين يجلس بينهم هم أيضًا من أهل الكتاب. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ

تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

ويشرع رجل تتدلى من خلف عنقه قطعة من اللحم، كأن الخالق شرع في خلق وجه ثان لـه، في العزف على الأرغن الكهربائي. يبدأ صوت الأرغن هادئًا رقيقاً، وما يلبث أن ينطلق فجأة بصوت مزمجر كانحدار شلال ماء. ويشرع كورس الترتيل، تتوسطهم جورلين، في الغناء. ويتجه أحمد ببصره إليها، ليتأمل طريقتها حين كانت تفتح فاها عن آخره، ويرى لسانها القرنفلي خلف أسنانها المستديرة الصغيرة، أشبه بلآلئ غاب نصفها في المجهول. يسمع الكلمات التي افتتح الكورس بها الغناء: "يسوع نصيرنا وصديقنا"، تخرج هذه الكلمات من أفواه الكورس مشحونة بالأحزان، كأنها قادمة من جوف بئر. تقول كلمات النشيد: "هو الذي يحمل عنا كل خطايانا وأحزاننا!" يسمع أحمد خلفه استجابة الحضور للكلمات بسيل من الهمهمات والصياح الهامس الموافق. كانوا يعرفون الأغنية، ويحبونها. يمر رجل من الكفار بالممر الجانبي على يمين أحمد، طويل القامة يرتدي بذلة صفراء كالليمون، وكانت لـه يد ضخمة تمسك بالطبق الذي بدا على كفه العريض كصحن الفنجان. لا يعره أحمد انتباهاً، ولا يضع في الطبق شيئاً، ويفطن الرجل إلى عدم رغبة أحمد في التبرع، فيسحب الطبق من أمامه بسرعة. لا يتريث الرجل أيضًا عندما يصل به إلى حيث تجلس الفتاة الصغيرة التي تلي أحمد. تتطلع الفتاة إليه بعينين ناتئتين صافيتين وجسد نحيل ورقبة مشرئبة، فيمس جسدها الرقيق جسد أحمد مسًا لا يأبه بـه، ويتجه ببصره إلى الأمام مباشرة كأنما يريد أن يقرأ الكلمات التي ينطق بها المغنون: "يشرفنا أن نحمل كل همومنا إلى الرب في الصلاة."

كان أحمد نفسه يحب الصلاة. أخبرته جورلين أنها ستغني لحنًا منفرداً، ولكنه يراها الآن ساكنة في صفها لا تبرحه، بين امرأة ممتلئة أكبر

منها سناً، وأخرى ضامرة في لون الجلد الجاف، يترنحن بخفة في بزاتهن الزرقاء المتألقة. تختلط الأصوات في تناغم لا يستطيع التفرقة بينها. أين صوت جورلين؟ تستقر عيناه على المُخْرِج القصير ذي الشعر المجعد، ولا تلتفت التفاتة واحدة إلى أحمد رغم أنه قبل دعوتها التي قد يدخل بسببها الجحيم. يتساءل: تُرى هل يجلس تايلنول وسط الحشد الشرير الذي يلتئم خلفه؟ يتحسس الموضع الذي ضغط عليه تايلنول بإبهامه ضغطًا قوياً، لا يزال يحس بشيء من الألم في ذلك الموضع. يرتفع صوت الكورس بالترتيل: "كل ذلك لأننا لم نحمل كل شيء إلى الرب في الصلاة." سمع الحضور أصوات النساء المتناغمة في الصفوف الأمامية، مختلطة بأصوات عميقة لرجال في الصف الخلفي. يحس أحمد بصوت تلك النسوة مسربل بالجلال، أشبه بصوت جيش متقدم بلا خوف من هجوم. تمتزج أصوات الحناجر الكثيرة بأصوات الأرغن فتولد الحزن، وتوجب الصمت. تتمايز هذه الأصوات من صوت المقرئ وهو يرتل القرآن ترتيلاً يغزو القلب والعقل معاً.

ينتقل عازف الأرغن إلى لحن مختلف مختلط بضجيج مفاجئ، كصوت قرع على خشب صادر من جوف آلة، خلف الكورس، لا يراها أحمد ولا يستطيع أن يراها. يوافق الحضور على هذا الانتقال في العزف بدمدمات الاستحسان. يبدأ الكورس بالتجاوب مع صوت الأرغن. ينخفض صوت الأرغن قليلاً كأنه يذوب. ويطغى صوت الغناء على الكلمات فلم يعد يفهمها أحد – لعلها كانت تخبرنا عن سعى الإنسان الأبدي للخلاص من الإغراءات والمتاعب. تتقدم امرأة شاحبة نحيلة تلي جورلين في الصف، بصوتها الذي يشبه صوت الرجال، صوت مرح ورخيم، تسأل المصلين: "لم لا نجد صديقًا صدوقًا يشاركنا أحزاننا كلها؟" وخلفها يردد الكورس كلمة

واحدة: "الصلاة، الصلاة، الصلاة." ويضطرب صوت الأرغن بين القوة والضعف، كأنه يريد أن يشق طريقًا منفرداً، ولكن لا يلبــث أن يعود للالتحام بالغناء. لم يكن أحمد يعرف أن الأرغن يمكن أن يصدر هذه الأنغام الكثيرة المتدرجة بين الشدة والضعف. يواصل الكورس ترديد كلمة "الصلاة، الصلاة، الصلاة، " مفسحًا المجال للأرغن ليشق طريقه المنفرد.

ويحين دور جورلين، وتتقدم وسط نوبة من التصفيق المتردد، وتسدد نظرة مباشرة إلى وجه أحمد قبل أن تتحول بوجهها المستدير إلى الجمهور فيما وراء الأريكة الأمامية، وتتوقف نظراتها المستطلعة عند الشرفة العلوية. تأخذ نفسًا عميقًا يضطرب لـــه قلب أحمد. يشق صوتها طريقه بحذر إلى الآذان المصغية: "هل نحن ضعفاء وثقيلو الأحمال، يرهقنا حمل الهموم وكثرة الأحزان؟" كان صوتها يافعاً، هشاً ونقياً، تظهر به رعشة خفيفة ثم لا تلبــث أن تزول. كانت تقول: "يا مخلصنا الغالي، لا زلت أملنا وملاذنا." ثم يهن الصوت ويتشبع بخشونة النحاس ولا يلبــث أن ينطلق في صياح كصياح طفل يتوسل ليلج باب مغلق. ويهمس الحضور استحساناً، أو استجابة لهذا الصياح، وينطلق صَوت جورلين: "هل تزدري محبيك لأنهم هجروك؟ وهل هم هجروك حقاً؟" ترفع المرأة المجاورة عقيرتها بالغناء كأنها آنست من صوت جورلين مجالاً دافئا أغراها بالخروج من أجل اللحاق لا من أجل الارتطام. وتسمع جورلين صوت السيدة فتنحرف ببعض النغمات حفظاً للإيقاع. ويرتفع صوتها الشاب بجرأة أكثر حتى نسيت نفسها وهي تنشد: "بين ذراعيه، بين ذراعيه، بين ذراعيه سيضمك ويحميك، وهناك ستجد الرحمة، أجل، الرحمة والعزاء."

تردد السيدة البدينة بصوت يخترق أساس النغم طلبًا للتعاطف: "أجل، العزاء، أجل، العزاء." ويتعاطف معها الجمهور؛ لأن صوتها ينطلق بهم إلى

أعماق حياتهم، ويقفل راجعًا من هناك، وكذلك يشعر أحمد. يتخضب صوت جورلين بالحزن، ويتصادى مع معاناتها القادمة، يراها كطيف شاحب على صفحة الفضاء. تردد المرأة اللحيمة عبارة "يا لك من نصير." تظهر الحفر تحت وجنتيها، وفي أركان عينيها، وجنبات أنفها العريض، بينما تتسع الفتحتان بميل عنيف. يسرى الترتيل في عروق وأوردة الحاضرين فتتفتح الأبواب للدخول والمشاركة عند أية وقفة. "كل خطايانا، كل خطايانا وأحزاننا – فهل تسمع ضراعتنا يا ربنا؟" ويتوقف الكورس، وجورلين بينهم، بينما تحرك المرأة البدينة المنتشية ذراعيها للخلف والأمام، وتؤرجحهما بفرح يشبه فرح من وجد الملجأ بعد أن عبر بحر عاصف. تشير بيدها إلى آخر مقاعد الحضور في الشرفة الملتوية وهي تصيح: "هل تسمعون هذا؟ هل تسمعون هذا؟"

ويرد صوت رجل:

-أجل، نسمع يا أخت.

– ماذا تسمع يا أخي؟

وتجيب هي على السؤال:

– يحمل عنا خطايانا وأحزاننا. فكروا في هذه الخطايا. فكروا في هذه الأحزان. إنها ما اقترفت جوارحنا، أليس كذلك؟ الخطايا والأحزان هي ما اقترفت جوارحنا.

ويندمج الكورس ويستمر في اللحاق بالنغم وإن أسرع. ويلحق الأرغن باللحن، ويتمايل الكورس يمينًا ويساراً، ويتواصل الدق على الدفوف، وتغلق المرأة البدينة عينيها وتقذف بكلمة "يسوع" عبر الألحان الممتزجة، بعد أن اختصرتها إلى حرفين أو ثلاثة "يسو"، ثم تشرع في

الغناء، وكأن هناك أغنية أخرى تتسرب دون علم الكورس تقول كلماتها: "شكرًا لك يا يسوع. شكرًا لك يا رب. شكرًا للحب الذي تمنحه لنا في الليل والنهار." فيردد الكورس: "ولتلك الآلام التي نتحملها كوخز الإبر،" فترد المرأة فيما يشبه النحيب:

- الإبر، الإبر، الإبر، فلنخبر بها يسوع، فلنخبره بها!

وفجأة يتوقف الكورس عن الغناء، تتوسطه جورلين، وكانت أوسعهم فمًا وأعذبهم ثغراً، وإذا بعيني أحمد تهتاجان، ومعدته تنشط كأنه يريد أن يتقيأ، هنا وسط هؤلاء الشياطين الغارقين في النباح، وهؤلاء القديسون المزيفون الذين يطلون على الحضور من ألواحهم الزجاجية العالية التي غطاها السخام. ويتأمل واحدًا منهم، وكان عابس الوجه أبيض اللحية، يضرب وجهه خيط قوي من ضوء الشمس. تتداعى الفتاة الصغيرة على حجره مستسلمة لنوم مفاجئ دون أن يلحظ. يتهافت جسدها ثقيلاً على أنغام الصلوات العالية، ويفطن أفراد الأسرة الجالسون على الأريكة فيرسلون ابتساماتهم إليه وإليها.

هل ينتظر جورلين خارج الكنيسة؟

يغادر المصلون الكنيسة في ثيابهم الفاتحة الربيعية الأنيقة، فيمس الوجوه هواء إبريل المخضب بالماء والبرد فيما تزداد قطع السحب ظلمة في الأفق. يطول تردد أحمد وهو نصف مختبئ خلف شجرة خرنوب بجوار الطوار نجت من التدمير الذي أنشأ بحيرة الركام. يشعر بالراحة لأن تايلنول لم يكن بين المصلين. وفيما هو يهم بالذهاب تقبل عليه جورلين بكل امتلائها كحبة فاكهة يزدان بها طبق. ثبتت على فتحة أنفها خرزة فضية التمعت التماعًا خفيفًا استجابة لضوء علوي. واستقرت تحت ثوبها الأزرق ملابس

المدرسة. يتذكر أنها أخبرته ذات يوم بأنها لا تأخذ الدين مأخذ الجد، وها هي تداعبه:

– رأيتك جالسًا مع عائلة جونسون، ولم تبرح مكانك.

– عائلة جونسون؟

– الأسرة التي كانت تجلس إلى جوارك على الأريكة الأمامية اسمها عائلة جونسون. عائلة معروفة بالتدين وامتلاك محلات آلات غسيل وسط البلد.

– أحمد... فيم تحملق؟

– في الخرزة التي تعلقينها بأنفك، لم أرها من قبل، لم أر غير هذين القرطين في أذنيك.

– لأنها جديدة. ما رأيك؟ تايلنول أحبها، وينتظر أن أضع زرًا زينيًا على لساني.

– أتثقبين لسانك؟ إنه أمر فظيع يا جورلين.

– أخبرني تايلنول أن الرب يحب المرأة الأنيقة المرحة. وماذا يحب المستر محمد عندكم؟

ويشعر أحمد بالسخرية في كلماتها، ولكنه يشعر أيضًا بطوله وهو واقف إلى جوار تلك الفتاة القصيرة الناضجة. يحس بنذر شر وهو يتطلع إلى وجهها، خاصة حين وقعت عيناه على ثدييها البارزين من بلوزتها الزاهية الفضفاضة، وهو لا يزال منتشيًا بما كانت توقعه من أنغام وسط الكورس، فيجيبها:

– رسولنا يأمر النساء بألا يعرضن زينتهن، ويخبرنا بأن الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات.

وتتسع عينا جورلين ويضطرب حاجباها، وتفهم أن وقاره الحزين، في الواقع، جزء من شخصيته يجب أن تعتاده. تضيف وهي تمسح بعض حبات عرق تسللت إلى صدغها الذي غشيه شعر خفيف أشبه بشعر شارب الغلام قبل البلوغ:

– لا أعرف معنى ما تقول، أو لعل فكرتهم عن الخبيثين كانت واضحة في ذلك الزمن البعيد، ما رأيك في غنائي؟

يصمت هنيهة يتأمل خلالها المصلين المشغولين في اللغو، يندفعون إلى وجهاتهم بعد أن تخففوا من عبء أسبوع بأكمله، في حين كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية بين أوراق أشجار الخرنوب، تظهر وتغيب مخلفة ظلالاً خفيفة واهية، ويجيبها:

– صوتك جميل ونقي جداً، إلا أن الأصوات التي كانت تجاوره لم تكن بنفس النقاء خاصة غناء تلك السيدة اللحيمة ...

– تقصد إيفا ماري، إنها تعتبر صوتها كل رصيدها في الحياة.

– بدا لي غناؤها غاية في الفسق، ولم أفهم أغلب كلماتها، وكيف يكون يسوع صديقًا لكم جميعاً؟

تردد جورلين كلمات من أغنية الكورس وهي تقلد النغمات، وهي كلمات تذكر أحمد بالجنس: "يا لــه من صديق، يا لــه من صديق." وتواصل مصرة:

- المهم أنه هناك، إحساس الناس بأنه موجود يريحهم، فلو لم يكن هناك ليهتم بنا، فمن يهتم، صح؟ وأتوقع أنك تشعر الشعور نفسه تجاه محمد.

- يمثل الرسول لأتباعه أشياء كثيرة، ولكننا لا ندعوه صديقاً، لا نتحدث عن الأنبياء بهذا الدفء مثلما يفعل صاحبكم القس.

- على كل حال انس هذه الأمور، أشكرك على مجيئك، لم أكن أتخيل أنك ستأتي من الأصل.

- كنتِ مهذبة معي وكنت فضوليّا بدوري. فمن الحكمة أن نعرف أعداءنا.

- أعداؤكم؟ من؟ لم يكن لك أعداء هناك.

- أخبرني معلمي في المسجد أن الكفار أعداؤنا، وأخبرنا الرسول أن جميع الكفار سوف يهلكون.

- يا رجل!! وكيف تؤمن بمثل هذا التفكير؟ أخبرني تايلنول أن أمك سيدة وجهها مبقع، أيرلندية الأصل، صح؟

- تايلنول، تايلنول، ما صلتك بهذا الولد؟ أو بهذا الينبوع من الحكمة؟ هل يظنك زوجته؟

- لا، إنه لا يعدو أن يكون غرًا عديم الخبرة، وعلى أي حال هو صغير على الارتباط بزوجة، لنمضِ الآن لأن العيون ترصدنا.

يسيران حذاء الرصيف المتاخم لأرض فضاء خربة، ويمران بجوار إعلان على لافتة عليها صورة مبنى جراج من أربعة طوابق، الهدف منه تشجيع المتسوقين للعودة إلى وسط البلد. ولكن أربع سنوات تمر على اللافتة ولم ينجز شيء، كل ما في الأمر أن التراب يزداد عليها تراكماً. وعندما

تهوي أشعة الشمس قادمة من الجنوب من فوق الأبنية الزجاجية في وسط البلد، وتنفذ في قطع السحب الحالكة، نرى طبقة رقيقة من التراب تظهر من بين الركام. وعندما تعود السحب تتحول الشمس إلى دائرة بيضاء أشبه بحفرة كاملة محترقة في حجم القمر تماماً. يحس بحرارة الشمس تخز جنبه الأيسر فيشعر بالدفء القادم من الجانب الآخر، الدفء الذي يشيعه جسد جورلين في مشيتها المتأنية. تتألق الخرزة على ناحية من أنفها فتبدو كرأس دبوس مستدق، تسلط الشمس لساناً متألقاً من الضوء على التجويف الذي يتوسط بلوزتها المستديرة. ويخبرها:

– أنا مسلم مؤمن في عالم يسخر من الإيمان.

فتسأله جورلين:

– بدلاً من أن " تكون" مسلمًا جيدًا ألا تريد أن " تشعر" بأنك إنسان جيد في ذاتك؟

يعتقد أنها صادقة الرغبة في المعرفة، ويشعر أنه أصبح لغزًا محيرًا في عقيدته الصارمة، شخصًا غريب الأطوار.

– الاثنان، الجوهر والمظهر.

– زرتني في كنيستي، فهل أزورك في مسجدك؟

– هذا لا يجوز لأننا لن نجلس داخل المسجد معاً، ولا ينبغي لك أن تدخلي المسجد دون أن تعرفي عددًا من التعاليم، شرط أن تظهري الإخلاص.

– ياه، هذا فوق ما يحتمله وقتي. أخبرني يا أحمد، ماذا تفعل في أوقات المتعة؟

– الأشياء نفسها التي تفعلونها، غير أن المتعة كما تعرفونها أنتم ليست من أهداف المسلم الحق، فأنا مثلاً أدرس اللغة العربية مرتين في الأسبوع، وأدرس القرآن، وأذهب إلى مدرسة سنترال الثانوية، وعضو في فريق الكرة في الصيف. سجلت خمسة أهداف في الموسم الماضي، أحدها بضربة جزاء، وفي الربيع أمارس الجري. وكي أساعد أمي الأيرلندية المبقعة الوجه كما تسميها،....

– بل كما يسميها تايلنول.

– كما تسميها أنت وتايلنول. ... لكي أساعدها في المصاريف أعمل بائعًا في متجر من اثنتى عشرة ساعة إلى ثماني عشرة ساعة في الأسبوع، وهذا كله "متعة،" وأنا أراقب الزبائن والملابس المختلفة التي يرتدونها، وأطوار شخصياتهم التي يبديها الأمريكيون. لا يوجد في الإسلام ما يمنع مشاهدة التلفاز والذهاب إلى السينما، بالرغم من أن ذلك قد يجلب الشقاء والكفر مما لا يشجعني، كذلك فإن الإسلام لا يمنع مقابلة الجنس اللطيف إذا وضعت لذلك الضوابط الصارمة.

– الضوابط الصارمة تعني التوقف عن عمل أي شيء، صح؟ اتجه هنا يسارًا إذا كنت تريد أن توصلني إلى البيت، لا داعي أن تكمل فنحن نقترب من جيران حمقى، وأنت لا تحب الشجار.

– أريد أن أطمئن عليك وقد عدت إلى بيتك.

ثم يكمل حديثه:

– الضوابط موجودة، وهي لصالح الفتاة أكثر منها لصالح الرجل: عذريتها وطهارتها أهم شيء في قيمتها كأنثى.

– يا إلهي، من قال ذلك؟ ومن وجهة نظر من؟ أعني من الذي يحدد القيمة؟

ويحس أنها تريد أن تتفوق عليه، قد تهاجم قناعاته إذا استجاب لتساؤلاتها، يعلم أنها كانت تحسن الكلام في الفصل، وأن المعلمين كانوا ينقادون لحديثها دون أن يدركوا أنها كانت تلهيهم عن الدروس المقررة وتضيع وقت الحصص، الشر قائم في أعماقها. ويخبرها:

– إن الله يأمر المؤمنات في سورة النور أن ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾

– تقصد أني أظهر من صدري أكثر مما أخفي، أعرف أين تذهب عيناك.

إنها تسعى لإثارته وقد تنجح. يقول دون أن يحول عينيه عن صدرها:

– الطهارة هي الهدف والغاية، فالطهارة هي التي تمنح الثقة للقلب، وتحبب إليه الإيمان.

– وماذا عن العذراوات في الآخرة؟ ماذا يحدث لأولئك العذراوات عندما يذهب الشباب إلى هناك وقد امتلئوا بالحياة والنشاط؟

– سيكن جزاء من تمسك بأهداب الفضيلة، وقد أخبرني معلمي في المسجد أن الحور العين ما هن إلا رموز للنعيم الذي لم يخطر على قلب بشر في انتظار الصابرين، فالصور الرمزية أبلغ أثرًا من الصور الحسية التي يتعلق بها الغربيون وهم يسخرون من الإسلام.

ويواصلان المشي في الوجهة التي أشارت إليها.

تزداد المجاورة حولهما فوضى أكثر وأكثر، فالأشجار تفتقر إلى العناية، والمنازل إلى الطلاء. أما بلاط الرصيف فمنها المائل، ومنها المتكسر لامتداد جذور الأشجار من تحته. وتنتشر القمامة بأفنية المنازل على الرغم من صغر مساحتها. وتبدو البيوت كالأسنان التي فقد بعضها فلا تنتظم صفوفها، وإنما يقل فيها جانب عن جانب. وعلى الرغم من إحاطة الفجوات بين المنازل بالأسوار الغليظة المتصلة إلا أنها تقطعت أو ألصقت بالأرض تحت وقع أقدام خفية لا تحب الأسوار وتريد اختصار المسافة. أضحت المنازل التي كانت تربطها الجدران منعزلة تؤمها أبواب مهترئة وسلالم قصيرة قديمة من الخشب، أو جديدة من الأسمنت. وفي الأفق تتشابك أغصان مع أسلاك تحمل الكهرباء عبر المدينة، إلى المناطق البعيدة. أغصان متدلية أشبه بأوتار قيثارة تتخلل الفجوات التي تملؤها مجموعات الشجر التي تنتشر عليها أزهار شتى أخذت لونًا بين الأصفر والأخضر تلمع على مشهد من سماء تشوبها قطع صغيرة من السحب.

قالت جورلين لأحمد في نوبة مفاجئة بما يشبه الغضب:

– أحمد، هب أن شيئًا من ذلك لا يوجد في الآخرة، هب أنك مت ولم تجد شيئًا بعد الموت، لم تجد شيئًا على الإطلاق؟ فما جدوى كل هذا النقاء وتلك الطهارة عندئذٍ؟

يجيبها وقد انقبض صدره لهذه الملاحاة:

– أكون قد كسبت الخلاص من عالم يصر على الشر، ولن أندم لتركه.

– عجبًا لك.

ويجيبها بنبرة يمتزج فيها التوبيخ بتلطف في القول:

- بعض الزملاء في المسجد من -

ولكنه لا يريد أن يقول لها من السود؛ لأن الكلمة نفسها، بالرغم من صحتها من الناحية الرسمية، إلا أن ظلالها الاجتماعية لا تبعث على الرضا، ولكنه يستمر في حديثه:

- إن المسجد ومعلميه يعلموننا ما لا تحبه الحكومة الأمريكية، إنهم يعلموننا الاحترام والتقشف وكبح الشهوات. أمريكا لا تريد من مواطنيها، كما قال رئيسكم، غير إنفاق النقود في شراء السلع، إنفاق النقود التي لا قبل لنا بها، وبذلك نعمل على ازدهار الاقتصاد، من أجله هو وأمثاله من الأغنياء.

- بوش ليس رئيسي، ولو أعيدت الانتخابات لما ترددت في إعطاء صوتي لآل شاربتون.

- أيًا كان الرئيس، كلهم يعكسون وجه أمريكا الأناني المادي؛ لأنه السياق الذي يمارسون فيه سياساتهم الرأسمالية الاستهلاكية. ولكن روح الإنسان تصبو إلى الزهد، وتود لو يتاح لها التخلص من العالم المادي.

- أنت تخيفني عندما تتحدث بهذه اللهجة التي تشي بأنك تزدري الحياة.

ثم تمضي في الشرح بروح أقرب للغناء:

- ما أفهمه هو أن الروح هي ما يخرج من الجسد مثلما تخرج الأزهار من الأرض، وعندما تكره جسدك فهذا معناه أنك تكره نفسك، العظام والدم والجلد وكل ما يصنع منك إنساناً.

ويلقى أحمد نظرة من ارتفاعه المشرف على هذه الفتاة القصيرة المستديرة التي يضفى استياؤها من حنينه إلى الطهر والنقاء، على صوتها وشفتيها رشاقة مثيرة. يود لو يغيب في جسدها زمنًا ويعود محملاً بمعرفة تفكيرها وصلتها بالشياطين، ولكنه يقول مصححاً:

– نحن لا نكره أجسادنا، ولكنا لسنا عبيدًا لها أيضاً. إني أنظر حولي فلا أرى إلا عبيدًا تحركهم الشهوات: عبيدًا للمخدرات وعبيدًا للأزياء وعبيدًا للتلفاز وعبيدًا لأبطال الرياضة الذين لا يحسون بوجودهم، وعبيدًا لآراء الآخرين الشريرة الخالية من المعنى. أنتِ مثلاً قلبك طيب يا جورلين ولكن الجحيم مأواك لا محالة بسبب طريقتك الغبية في التفكير.

وتتوقف هنيهة على الرصيف، على مساحة كئيبة خالية من الشجر، ويظن أن الغضب هو الذي أوقفها، وخيبة أملها التي أشرفت بها على زرف الدمع، ولكنه يكتشف أن هذا الممر الكئيب هو المدخل إلى بيتها، يؤمه درج من ثلاثة ألواح خشبية مخضبة بلون رمادي كئيب كأنها مأوي أبدي لمطر خفيف. على الأقل يعيش هو في عمارة مبنية من الطوب الأحمر على ناصية الشارع الكبير. ويشعر بالذنب لأنه خيب أملها إذ كانت دعوتها لـه بابًا مفتوحًا على توقعات من نوع آخر. ولكنها تقول له وهي تهم بالدخول وقد وضعت قدمًا على أول لوح في ذلك الدرج الكئيب:

– أنت يا أحمد من هذا النوع من الشباب الذي لا يعرف وجهته، ولا إلى أين ينتهي به الطريق.

. .

يخصص أحمد الساعات لدراسة كتيبات رخصة القيادة التجارية وقد اتخذ مقعده على الطاولة التي يسميها هو وأمه طاولة الطعام، رغم أنهما لم

يتناولا عليها طعامًا قط. أربعة كتيبات يجمعها دبوس غليظ، حصل عليها من الشيخ رشيد الذي أرسل في طلبها بمبلغ ٨٩.٥٠$ خصمًا من حساب المسجد. كان أحمد يظن أن قيادة الشاحنات من هوايات السذج كتايلنول وأمثاله في المدرسة الثانوية، ثم لم يلبــث أن تبين أن الأمر يحتاج إلى قدر كبير من الخبرة الجادة في الواقع العملي. إن الشاحنة تحمل مواد خطرة يعلن عنها بأربعة ألوان من الإعلانات تأخذ شكل شبه المنحرف. هناك الغازات القابلة للاشتعال مثل الهيدروجين، والغازات السامة مثل الفلورين المركز، وهناك المواد الصلبة القابلة للاشتعال مثل الأمونيوم الرطب، والصخور النارية والمواد التي تحترق تلقائيًا مثل الفسفور الأبيض، والمواد التي تحترق تلقائيًا مع الرطوبة مثل الصوديوم، ثم هناك السموم القوية مثل سيانيد البوتاسيوم، والمواد الملوثة مثل فيرس الأنثراكس، والمواد المشعة مثل اليورانيوم، والمواد الآكلة مثل سائل البطاريات. كل هذه المواد يمكن حملها على الشاحنات، وأي تسريب منها (حسب درجة السمية وقابلية التطاير والمتانة) يجب أن يبلغ بها إلى هيئة النقل وهيئة حماية البيئة.

يتسرب اليأس إلى قلب أحمد وهو يفكر في الكمية الكبيرة من الأوراق المطلوبة، وأوراق الشحن التي تحتشد بالأرقام والرموز والموانع. فالمواد السامة لا يجب أن توضع في شاحنة واحدة مع الحيوانات والمواد الغذائية التي يستهلكها الناس. ويُمنَع وضع المواد الخطرة حتى لو كانت في علب محكمة الغلق في المقدمة مع السائق. والحذر الحذر من ارتفاع درجة الحرارة والتسريب والزيادة المفاجئة في السرعة. وبالإضافة إلى المواد الخطرة هناك مواد أخرى أقل خطورة ولكنها مدرجة، وهي المواد التي قد يكون لها آثار مخدرة أو مهيجة أو ضارة على السائق وركابه مثل

المونوكلوروأسيتين والديفينكلوراسين، ومواد أخرى قد تدمر المركبة عند تسربها مثل سائل البرومين الأكال، والحجر الجيري، وحمض الهيدروكلوريك، ومحلول ثاني أكسيد الصوديوم، وحمض الكبريتيك. يدرك أحمد أن هذه البلاد ابتليت بهذه المواد الخطرة التي تعمل فيها حرقًا وتسريبًا على الطرقات والمركبات. إنها مظهر من مظاهر الوحشية الكيميائية التي تظهر الوجه الفظيع للمادية الأمريكية.

تخبره الكتيبات كذلك أنه أثناء تعبئة السوائل مرة واحدة في الشاحنات الصهريجية، يجب أن يترك مساحة في الصهريج خالية من السائل حتى لا ينفجر الصهريج حين تتمدد محتوياته أثناء الشحن إذا زادت درجة الحرارة المحيطة عن ١٣٠ درجة مئوية مثلاً. وعند قيادة الشاحنات الصهريجية يُحذر من اندفاع السائل، وهو اندفاع خطير خاصة عندما يكون جسم الشاحنة رقيقًا أو ضعيفًا وليس قويًا أو مبطنًا من الداخل أو مزودًا بحجيرات مستقلة. وهذا النوع من الشاحنات معرَّض للانقلاب عند أول اندفاع إلى طريق جانبي أو تحول عند منحنى خطر. وأما الاندفاع الأمامي للسائل فمن شأنه أن يدفع الشاحنة بعنف إلى الأمام عند إشارة المرور الحمراء أو عند علامة توقف. وأحيانًا تتطلب قواعد السلامة الصحيحة منع التبطين للصهاريج التي تنقل الألبان والعصائر لأن التبطين يسبب صعوبة في التنظيف مما يؤدي إلى التلوث. العمل في هذه المهنة إذًا محفوف بمخاطر لم تخطر على بال أحمد. ولكن هذه المخاطر استثارته وحركت عنده حب الاستطلاع، وود لو يرى نفسه، مثل قائد طائرة ٧٢٧ مثلاً أو قبطان ناقلة بترول عملاقة أو حتى خلية صغيرة في رأس برنتوصور، يود لو يرى نفسه وهو يقود شاحنة كبيرة عبر متاهة من الإجراءات المعقدة إلى بر الأمان. وسره أن يجد في قوانين قيادة الشاحنات صلة قريبة بالطهارة الدينية التي ينشدها.

في حوالي الثامنة يسمع أحمد طرقًا على الباب. يجذبه الصوت الذي لم يكن بعيدًا من الطاولة التي كان يدرس عليها على ضوء مصباح محمول، من عالم الحمولة بالطن، والمساحة التي يجب تركها فارغة في الصهريج، واندفاع السائل وتدفقه. وتخرج أمه فجأة من حجرة نومها التي تستخدمها مرسمًا أيضاً، وتتجه نحو الباب فيما يشبه الاندفاع لإجابة الطارق، فيرقص على رأسها شعرها الخفيف المخضب بحمرة الحناء الذي لم يكن يتجاوز الرقبة طولاً. لا تزال تحسن الظن في القادم دون موعد مضروب. وأما هو فقد انتهت به تجربة الصلاة في كنيسة الكفار منذ عشرة أيام، وشجاره مع تايلنول، إلى قلق ممض، فليس مستبعدًا أن يتربص لــه الشاب وعصابته ويهاجموه بليل، أو حتى يهاجموه في شقته ويستدرجوه إلى الشارع.

ولا يُستبعد أن يكون الطارق رسولاً من الشيخ رشيد مع أن ذلك احتمال بعيد؛ لأن الشيخ لم يكن من كثيري الأتباع، ويبدو هذه الأيام حانقًا سريع الغضب كما لو كان يحمل العالم فوق رأسه. وقد احتد الشيخ على تلميذه أكثر من مرة في الأسبوع الماضي في خضم مناقشة لآية في سورة آل عمران: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وقد زعم أحمد أن الآية تنطوي على سادية في تقريعها للكفار، وزعم أن السادية تظهر في آيات كثيرة غيرها. وأكثر من ذلك سأل أحمد إمامه سؤالاً أغضبه:

– ألم يكن من الأفضل أن يهدي الله هؤلاء الكفار إلى الإيمان أو على أقل تقدير يشملهم برحمته بدلاً من أن يبتهج لآلامهم وشقائهم؟

ويحتدم غضب الشيخ بوجه تكاد تغطيه لحية رمادية أُحسن تشذيبها تحت أنف نحيف أقني، وبشرة يظهر شحوبها أكثر على وجنتيه. ولكن شحوبه لم يكن كشحوب الأنجلوساكسون أو الأيرلنديين فسرعان ما يعلوها الاحمرار والبقع كالشأن عند أم أحمد (وأحمد يأسف لأنه ورث ذلك عن

أمه). كان شحوب الشيخ هادئًا ناعمًا يتسلل إلى بشرته بهدوء شأن جميع اليمنيين. ترتجف شفتاه البنفسجيتان الغائصتان في لحيته ويقول:

– وهل تأخذك الشفقة بالصراصير حين تسعى بعيدًا عن البالوعات وتحت الأحواض؟ وهل تأخذك الشفقة بالذباب حين يطلق طنينه وهو يطأ بأرجله فوق الطعام والموائد بعد أن رقص بها على الغائط والجيف؟

ويجيبه أحمد في ابتسار:

– لا.

والواقع أن أحمد تأخذه الشفقة بهذه الكائنات؛ فهو يراقب الحشرات وهي تسعى تحت أقدام البشر ظنًا منها أنهم آلهة أو أنصاف آلهة. ولكن أحمد لا يريد أن يمعن في الملاحاة فيستعدي الشيخ رشيد ويستجلب غضبه. عندئذ يصدق الشيخ رشيد على إجابة أحمد ويشرع في الشرح:

– أجل، كلا، إنها كائنات يرغب الناس في تدميرها؛ فهي تثير سخطك بسبب قذارتها لأنها تستولي على مائدتك وعلى مطبخك وقد تستقر على الطعام وهو في طريقه إلى فمك إذا لم تدمرها. إنها خالية من أي إحساس. إنها من تجليات الشيطان، وسوف يقوم الله نفسه بتدميرها يوم الحشر. إن الله يحتفي لمعاناتها. وعليك أن تفعل مثله يا أحمد، إنك حين تتخيل أن الصراصير تستحق الرحمة معناه أنك تضع نفسك فوق الرحمن الرحيم، وتزعم أنك أرحم منه على مخلوقاته.

ويظن أحمد أن شيخه يفسر وجود الجنة على أساس من الكناية والمجاز بعيدًا عن الحقيقة والواقع، فجورلين الكافرة لديها مشاعر وأحاسيس رآها في الكنيسة وهي وتغني. وكان المصلون في الكنيسة يسمعون الغناء بمشاعرهم وأحاسيسهم كذلك. ولكن الدور المنوط بأحمد الآن هو ألا يجادل

الشيخ رشيد ولا يحاوره. لا ينبغي أن يهتم بغير العلم، ولا ينبغي أن يذعن لغير الدور الذي رسمه لـــه الشيخ رشيد دون مناقشة.

هل كانت أمه تتوقع أن يكون الطارق رجلاً من أصدقائها حين أسرعت إلى الباب؟ ولكن صوتها يتراجع ويضطرب فيعرف أحمد أن الطارق شخص آخر لا تعرفه، صوت مهذب لطيف متعب يعرفه أحمد؛ إنه صوت السيد جاك ليفي مرشده في مدرسة سنترال الثانوية. يتنفس أحمد الصعداء لأن الطارق لم يكن تايلنول أو مبعوثًا من الشيخ رشيد. ولكن لِمَ يأت السيد ليفي إلى بيتهم؟ لقد كان اللقاء الأخير بينه وبين أحمد مخيبًا للآمال؛ لأن السيد ليفي لم يكن راضيًا عما خططه أحمد لمستقبله، ولم يكن أحمد يريد من السيد ليفي أن يتدخل في حياته.

ولكن كيف يفكر ليفي في المجيء إلى بيتهم؟ إن العمارة التي يعيش فيها أحمد مع أمه واحدة من ثلاث عمارات عمرها الآن خمس وعشرون عاماً، أنشئت لتحل محل صف من البيوت الصغيرة التي كانت توشك على الانهيار وابتليت بالمخدرات، فرأت إدارة نيوبروسبكت أن إنشاء عشر عمارات مكانها من ذات الطوابق العشرة سيكون كفيلاً بتحسين الأحوال. وخطط المسئولون كذلك أن تكون الأرض التي حولها – وهي أرض منافع عامة – مكاناً لائقًا لمتنزه عام يحفل بأماكن للترفيه ويحوطه طريق مسفلت بين الأعشاب يغري بالاتصال بالمدن الزاهرة. ولكن المشاكل عادت تطل برأسها على المنطقة من جديد بعد أن سيطر أبناء تجار المخدرات القدامى على أماكن النفع فيها واستغلوها لأغراضهم، فانتشر المدمنون على الأرائك التي أنشئت للمتنزهين، وجلسوا على المروج الخضراء وعلى درجات مداخل البيوت وراحوا يذهبون ويجيئون في الطرقات كلما ادلهم الليل. وكانت الخطة القديمة تقضي بوجود حارس على مدخل كل عمارة ولكن

الإدارة رأت تخفيض النفقات، وكثر بدلاً من ذلك الحراس الذين يقبعون في غرف صغيرة ويراقبون المتسللين من خلال شاشات تليفزيونية تفضح ما يدور في الردهات والمداخل. كنت ترى لافتة مكتوب عليها بخط اليد "الرجوع بعد ربع ساعة". في ذلك الوقت من الليل يعود الساكنون إلى مساكنهم وقد يعرج الزائرون. ويدخل السيد ليفي مع الداخلين، ويستقل المصعد ويطرق على الباب. ها هو يقف وقد تجاوز الباب بقليل على مبعدة من المطبخ، يشرح أسباب مجيئه بصوت أكثر منهجية من ذلك الصوت الذي كان يتحدث إلى أحمد في مكتب الإرشاد. كان يبدو في المكتب شاكًا هازئًا بطيئًا متعبًا وكئيباً. يحمر وجه الأم ارتباكًا وتعلو نبرات صوتها، وتضطرب من زيارة رجل من السلك البيروقراطي إلى عقر دارها.

يدرك السيد ليفي حرجها، ويسعى للتهدئة وهو بين أم واقفة وابن لا يزال جالسًا لم يكلف نفسه الوقوف إكرامًا للضيف:

– عذرًا لتطفلي واقتحام خصوصيتكما، ولكني حاولت الاتصال بكما بالتليفون على الرقم الذي تركه أحمد في أرشيف المدرسة وتلقيت رسالة تقول إن الرقم مرفوع من الخدمة.

وترد الأم بأنفاس لم تزل مأخوذة بالمفاجأة:

– هذا طبيعي لأننا نفصل الجهاز بعد الحادية عشرة والربع تقريباً؛ لأننا تلقينا مكالمات كراهية ومعادية للإسلام. غيرنا الرقم وأوقفنا إدراجه في قوائم الدليل وإن كلفنا ذلك دولارين أو أكثر، ولكن راحتنا أهم، صدقني.

يبدي المشرف الطلابي أسفه العميق الذي يبدو فعلاً على نظراته المتأثرة:

– آسف مرة أخرى يا مدام مولوي.

يقاطعهما أحمد:

– لم تكن إلا مكالمة واحدة أو اثنتين، وليس ذلك بالشيء الخطير. أغلب الناس كانوا يعاملوننا بطريقة عادية. كنت في الخامسة عشرة عندما حدث الهجوم. من يلوم طفلاً صغيراً؟

ترد الأم بطريقتها المثيرة التي تصنع من الحبة قبة:

– بل كانت أكثر من مكالمة واحدة أو اثنتين أؤكد لك يا مستر ليفين.

– ليفي يا سيدتي.

ثم وهو يحاول تبرير قدومه إلى البيت:

– كان بوسعي التحدث مع أحمد في مكتبي في المدرسة ولكن الحق أني أردت أن أتحدث إليك أنت شخصيًا يا مدام مولوي.

– تيريزا من فضلك.

– يا مدام تيريزا.

يقول وهو يدنو من أحمد حيث يجلس:

– آه، ألا زلت تدرس في هذه الكتيبات، لعلمك لن يعطوك رخصة الدرجة الأولى قبل أن تتم الواحدة والعشرين، قبل ذلك لن يسمح لك بقيادة المقطورات، ولا بحمل المواد الخطرة.

يجيبه أحمد وهو منهمك في القراءة ولم يرفع رأسه إليه:

– أعرف ذلك كله، ولكني أحببت الموضوع عندما بدأت فيه، وأحب أن أواصل ما بدأته.

– عظيم، عظيم يا صديقي، الموضوع بسيط بالنسبة لشاب في مثل ذكائك.

يشعر أحمد أنه لا يخشى الجدل مع السيد ليفي ومراجعته فيما يقول:

– عرفت أشياء كثيرة. عرفت القواعد الصارمة التي يجب اتباعها، وعرفت أجزاء الشاحنة التي يجب الإلمام بها، وما يجب عمله لصيانة المركبة، فالسائق لا ينبغي أن يهمل الشاحنة حتى يصيبها الضرر.

– جميل، إذن أنت مشغول في عملك، ولكن نصيحتي ألا تجعل هذا الأمر يؤثر على دراستك في المدرسة، فلم يبق إلا شهر وتتخرج والامتحانات كثيرة، ألا تريد أن تتخرج؟

– طبعًا أريد أن أتخرج.

ولكن أحمد لا يريد أن يخوض في النقاش في كل شيء رغم استيائه من رائحة التهديد في كلام السيد ليفي. إنهم يريدونه في المدرسة أن يتخرج في أقرب وقت ممكن. يريدون التخلص منه. هو نفسه يريد أن يترك مدرسة تتبع نظامًا استعماريًا لا يهتم إلا بالنصارى الأغبياء.

يسأل السيد ليفي أحمد وقد شهد اكفهرار وجهه:

– هل تسمح لي أن أتحدث قليلاً إلى السيدة والدتك يا سيد أحمد؟ دقيقة واحدة لا أكثر؟

– كلا. لا أسمح لك، ماذا يحدث إذا لم أسمح لك؟

فتقول الأم وهي تريد أن تداري قسوة ابنها التي تسبب لها الحرج:

– تفضل يا سيد ليفي.

– بإيجاز شديد يا سيدة تيريزا أنا آسف لمضايقتك، ولكني من ذلك الصنف من الناس الذين لا يطيقون الصبر على شيء يضايقهم دون الإفضاء به.

– هل لك في قدح من القهوة يا سيد ...؟

– جاك، أمي أسمتني يعقوب ولكن الناس ينادونني جاك.

تحين منه نظرة إلى وجهها الذي يحمر قليلاً، وإلى البقع التي انتشرت على صفحته، وعينيها الناتئتين التواقتين إلى إرضاء السيد ليفي.

– لا، شكراً، أنا كثير النوم على أي حال.

ولكنها تقول لــــه فيما يشبه الرجاء:

– أستطيع نزع الكافيين منه.. أعدك. إذا انتظرت لحظة؟

– أنتِ تغرينني، تعالي نجلس في مكان آخر كي لا نضايق أحمد هنا في المطبخ.

– إن المطبخ يمتلئ بالفوضى، لم أنظفه منذ فترة. كنت آمل أن أركز على الرسم قبل أن تنفد طاقتي. فلنذهب إلى المرسم.. لدي لوحة لم تكتمل.

– المرسم؟

– أنا أسميه المرسم، ولكنه في الواقع حجرتي التي فيها أنام وأترك أحمد في حجرة النوم مع خصوصياته. اشتركنا في حجرة واحدة مدة طويلة، ربما أطول من اللازم. إن الجدران تشبه الورق في هذه الشقق الرخيصة.

وتفتح الباب الذي خرجت منه قبل عشر دقائق، ويبدي السيد ليفي اندهاشه وهو يدخل:

- أوه، أخبرني أحمد أنك تمارسين هواية الرسم ولكنه لم يقل ....

- أبذل أقصى ما في طاقتي. أعلم أن عمر الإنسان قصير، لذا توقفت عن الثرثرة في التفاصيل الصغيرة: المنظور والظلال وما إلى ذلك. الناس لا تفهم، وزملاؤك الرسامون يتهمونك بالسطحية. بعض زبائني القدامى مثل محل هدايا في ردجوود الذي يبيع لي لوحاتي منذ سنين، مندهشين لهذا المنحى الجديد ولكني قلت لهم: لا أستطيع التوقف، والمرء إذا لم يطور نفسه ينتهي. صح؟

يدور حول السرير غير المرتب وقد شدت على سطحه بطانية بغير اهتمام، ويستعرض الجدران بنظرات شذرة:

- وهل تبيعين هذه الأشياء حقاً؟

يندم على نبرة السؤال، وتنهض هي للدفاع:

- أبيع بعضها وليس كلها، فحتى ربمراندت وبيكاسو لم يتمكنا من بيع رسوماتهما بعد أن فرغا منها مباشرة.

يعلو صوته وهو يحاول الاعتذار من جديد:

- لا.. لا أقصد!..إنها رائعة.

تقول بعد أن هدأت:

- ما زلت في مرحلة التجريب... وقد تختلط الألوان في عيني المشاهد.

ويأمل جاك ليفي أن يتمكن من إنهاء هذا الجزء من الحوار بعد أن أصابه الملل:

- ممتاز...

تحضر تيريزا غلاية الماء وتضعها على موقد من ذلك النوع الذي تتقد أسلاكه حين تصل إليها الكهرباء. ويلمس مبالغة في لوحاتها ولكن جو الحجرة يعجبه بما يلمسه من فوضى على أضواء لمبات الفلوريسنت الناصعة. تحكي لــه رائحة الألوان عن زمن مضى كان الناس يصنعون الأشياء بأيديهم وقد انحنت ظهورهم في أكواخهم الصغيرة.

- أو لعلك تفضل الشاي الأخضر، يجعلني "الكماميل" أنام كالطفل الرضيع إلا إذا كنت أستيقظ بعد أربع ساعات. (لم تقل لكي أذهب إلى الحمام)

- أجل، هذه هي المشكلة.

- وتعرف أنه فهم مرادها فيحمر وجهها خجلاً، وتذهب لترى الماء في الغلاية وقد أخذ يرسل بخارًا من خلال الفتحة الضيقة.

- نسيت نوع الشاي الذي تحب؟ "كماميل" أم ماذا؟

يقاوم انحياز هذه السيدة للعصر الجديد،(٤) سيضطر إلى أن يضرب أخماسًا في أسداس لمعرفة ما ينبئ به المستقبل، يقول:

- أظن أننا اتفقنا على القهوة بعد أن نزيل عنها الكافيين، حتى لو كان طعمها لاذعاً.

- يبدو أنك لا تريد أي شيء.

– لا.. لا .. يا آنسة – سيدة – أي شيء سائل وحار يكفي، أي شيء تختارينه، أنت كريمة جداً.. لم أتوقع ذلك.

– سأحضر لك القهوة وأمر على أحمد لأنه لا يحب أن يذاكر دون أن يراني أدخل وأخرج من حجرة النوم، إنه يظن أني لا أهتم به، أنت تعرف.

تختفي تيريزا، وتعود بآنية صغيرة ممتلئة بمسحوق البن في يدها، تلك اليد ذات الأظافر القصيرة واللحم المكتنز، كان جاك قد أطفأ الموقد المتقد حتى لا يتبخر الماء كلــه. لقد استغرقت زيارتها لأحمد دقائق معدودة، وكان يسمعها في الحجرة الأخرى تمازحه بصوت أنثوي رقيق منخفض، ويسمع صوت ابنها الجهوري يئن ويزمجر كما يحق لطالب في المرحلة الثانوية لم يتجاوز بعد مرحلة المراهقة. ولا يترك جاك الفرصة للتعليق:

– وهل تعاملين ابنك كمراهق في الثامنة عشرة؟

– إنه مراهق فعلاً.

يبدو أن جانب الأم عندها بالغ الدقة، ترميه بنظرة من عينين ناتئتين في خضرة أحجار البريل الكريمة، من بين أهداب شاحبة تعود إليها بالمساحيق بين الفينة والفينة، ولكنها لم تضع عليها اليوم أو الأمس شيئاً. كان شعرها في لون المعدن الأحمر، يغزر عند القمة، ويقل عند الجبهة. شفتها العليا مكتنزة ومنحسرة عن أسنانها قليلاً كأنها لشخص يصغي لشخص آخر بعناية شديدة، تكاد أن تخبره بأنه استنفد حماسها الأول لصداقته. بدأ الحماس قويًا وما لبــث أن ضعف. وها هو يدخل في الموضوع الذي جاء من أجله.

- ربما، ولكن هناك مشكلة توشك أن تحيد به عن الطريق. اسمعي، أحمد لا يريد أن يصبح سائق شاحنة.

- لا يريد، إنه يؤمن بذلك بشدة يا سيد ...

- ليفي... تيريزا. أعتقد أن شخصًا ما يضغط عليه لسبب أو لآخر. في وسعه أن يصبح شيئًا أفضل من سائق شاحنة، إنه ولد ذكي وموهوب ويعرف طريقه تماماً، كل ما أريده منه أن يجمع الكتيبات الإرشادية الخاصة بالكليات التابعة لهذه المنطقة التي لم تغلق أبواب القبول بعد. فات ميعاد التقديم لبرنستون وبنْ، ولكن كلية المجتمع في نيوبروسبكت وفيرلي دكنسون وبلومفيلد قد تقبله، ويستطيع أن يذهب إلي أي منها إذا لم يجد سكنًا داخلياً. المهم أن يبدأ في أي كلية ثم يشق طريقه، أي كلية هذه الأيام تطلب التنوع في اهتمامات الطالب، وابنك مع التوجه الديني الذي اختاره وأصله العرقي – عفوًا – تفضله هذه الكليات على غيره، سيعضون عليه بالنواجذ.

- وماذا يدرس في الكلية؟

- ما يدرسه كل الناس: علوم، فنون، تاريخ، تاريخ البشرية، تاريخ الحضارة، أو يدرس تاريخ أمريكا، وكيف جئنا إلى هنا وكيف أصبحنا، أو يدرس علوم مثل الاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجيا، حسبما يريد هو في النهاية. اتركيه يشق طريقه. القليل من طلاب الجامعات اليوم يعرفون ما يريدون من هذه الحياة، وهؤلاء يتغيرون بسرعة، وهذا هو هدف الكلية، أن تغير طريقة تفكيرك، حتى يمكنك التكيف مع القرن الواحد والعشرين. أنا شخصيًا لا أستطيع أن أغير طريقة تفكيري. عندما كنت في الكلية من كان يسمع بعلوم الكومبيوتر؟ من كان يسمع بالجينوم وكيف يفشي سر الحياة؟

أنتِ أصغر مني بكثير، قد تكونين سمعت بهذه الأشياء، هذه اللوحات الجديدة في شكلها دليل على إلمامك بها.

- إنها رسومات محافظة جداً، مجرد لوحات تجريدية قديمة لا أكثر.

تغلق الجزء المفتوح من شفتيها. تعرف أن ملاحظته حول رسوماتها ساذجة فعلاً.

يهم بمواصلة حديثه قبل أن يفتر حماسه:

- أحمد الآن...

ولكنها تتقلب شخصًا آخر وهي جالسة تحتسي قهوتها الساخنة على مقعد طويل في المطبخ اشترته على حاله ولم يبهت لونه. وتشعل سيجارة، وتضع ساقًا على أخرى فيظهر حذاؤها المصنوع من قماش رقيق، وينحسر بنطلونها الجينز الضيق الأبيض عن كاحلين نحيفين، وتظهر عروقها زرقاء تتحرك عبر جلدها الأيرلندي الفاتح. تصغر بـث بعشرين عاماً. ظلت بـث عشرين عامًا تدخر الدهون في جسدها الضخم، ومع أن جاك كان مدمنًا للسجائر - علبتين في اليوم من نوع الأولد جولدز- فإنه اليوم لا يطيق التدخين والمدخنين، ولا يطيق زيارة حجرة المدرسين في المدرسة، وتؤذيه رائحة الطباق المحروق أشد الأذى. أما تيري فإنها ثملة باستنشاق الدخان ونفخه بعنف من شفتيها المزمومتين، وتوقيعاتها على رسوماتها بخط كبير واضح بالاسم الأخير.

- جاك... أقدر لك اهتمامك بأحمد، وسأكون مقدرة أكثر لو أن إدارة المدرسة أظهرت أي اهتمام بابني قبل شهر من تخرجه.

- الواقع أننا مشغولون بمشاكل المدرسة، ألفان من الطلاب نصفهم إما فاسد أو غبي، يقولون إن العجلات الأكثر صريرًا هي التي تلفت الانتباه.

ومشكلة ابنك أنه لم يتسبب في أية مشكلة طوال سنوات دراسته، وهذا خطؤه.

– أظن أن أحمد، في هذه المرحلة من تطوره الفكري، يعتبر أن ما تقدمه الجامعات من هذه العلوم التي ذكرت جزءا من الثقافة الغربية الإلحادية، ولا يرغب في المزيد منها مكتفيًا بما درسه ولم يستطع تجنبه. تقول إنه لم يتسبب في مشاكل، والواقع أنه يرى نفسه فوق المدرسة والمدرسين وكل شيء. إنه يزعم أن معلميه هم الذين يجلبون المشاكل وأن الذي يهمهم في العملية التعليمية كلها هو قبض الراتب والاهتمام بأمورهم الدنيوية. ساعات عمل قصيرة، وإجازة صيفية طويلة. إنه يعتقد أنهم مثال سيئ للجيل الجديد. أحمد من الذين يوكلون أمورهم كلها إلى الله. هل سمعت عن تعبير "فوق الجميع ؟" (٥)

ويكتفي ليفي بهز رأسه، ويترك للسيدة الفرصة لكي تكمل ما بدأته، وكل ما تكشف به عن طبيعة أحمد سوف يفيد:

– ابني يؤمن بأن الله موكل بأمره. يؤمن بإله المسلمين، وبما جاء في القرآن. أنا لا أؤمن بهذه الأمور بطبيعة الحال، ولكني لم أسع للحط من قدر ما يؤمن به. على أني أعتقد أيضًا – وقد تخليت عن الكاثوليكية عندما كنت في السادسة عشرة – أن ما يؤمن به أحمد شيء جميل.

إذًا فالجمال هو ما تهتم به هذه المرأة، وهو ما تحاول الوصول إليه فيما ترسم من صور، هذا هو ما يجعلها تنشغل بمزج هذه الألوان الكثيرة، وهو ما يجعلها تترك لابنها الحبل على الغارب ليضيع شبابه في هذه الأمور الغريبة العنيفة الغارقة في الخرافة. ويسألها ليفي:

- وكيف وصلت به الأمور إلى ما وصلت إليه من الإيمان بهذه الأمور الـــ .. جميلة؟ هل رغبت في تربيته تربية إسلامية؟

وتجيب وهي تسحب نفسًا عميقًا من سيجارتها كما تفعل فتاة يافعة، فتتقد عيناها بحمرة النار المضطرمة في فم السيجارة، وتضحك وهي تقول في نفسها:

- وكيف تتوقع ذلك من واحدة مثلي تؤمن بفرويد؟ لا .. أبداً، إن الإسلام لا يعني شيئًا لي - أقل من لا شيء حتى أكون دقيقة. ولم يكن يعني شيئًا ذا بال لأبيه، لم يكن عمر يذهب إلى المسجد، وكان يلوذ بالصمت كلما أثرت الموضوع معه، ويعطيني إحساسًا بأني أتكلم فيما لا يعنيني. وكان يقول: إن المرأة عليها خدمة الرجل لا امتلاكه، وكأنه كان يتلو من كتاب مقدس. وعلى ذلك النحو كان قاطعًا وجازماً، كان مغرورًا إلى أبعد حد ويحب مصر إلى أبعد حد، أما أنا فكنت صغيرة وغارقة في حبه، أحببت فيه الغرابة، وأحببت فيه انتماءه للعالم الثالث، وسعيه لإثبات وجوده في أمريكا، وأردت أن أبرهن على أني كنت أتمتع بعقل متفتح ومتحرر حين قبلت الزواج من شرقي مثله.

- أعرف هذا النوع من التجارب، فأنا يهودي وزوجتي لوثرية.

- حقاً؟ وهل تركت هذه العقيدة كما فعلت إليزابيث تيلور؟

يضحك ليفي بصوت عال وهو يمسك بالكتيبات الخاصة بالكليات التي لا يرغب أحمد في دخولها ثم يقول:

- لم أقصد كانت، بل لا تزال على ملتها ولم تتغير، كل ما في الأمر أنها لا تذهب إلى الكنيسة. أختها التي تعمل لدى الحكومة في واشنطن متدينة

جداً، وقد يكون عدم ذهاب زوجتي إلى الكنيسة مرجعه إلى أن الكنيسة اللتوانية هي الكنيسة الوحيدة المجاورة لنا، وزوجتي لا تحب الذهاب إلى كنيسة لتوانية.

– اسمها جميل .. "إليزابـــث" في وسعك أن تنطقه بأكثر من طريقة: ليز، ليزي، بـــث، بتسي. أما تيريزا فلا تظفر منه إلا بتيري وهو اسم لولد أكثر منه لبنت.

– أو لعله اسم لرسام رجل.

– معك حق، أنا أوقع بهذا الاسم لأن الرسامات دائمًا أصغر سنًا من الرسامين الرجال بصرف النظر عما يرسمون. وبذلك يصبح الناس في حيرة من أمرهم بشأن اسمي.

– بالعكس، تيري من الممكن أن ينطق تيري كلوث وتيربل وتيرفاي وأيضا تيرتونز.

تسأله بصوت مشوب بالدهشة.

– وما هذا التيرتونز؟

– من أفلام الكرتون القديمة، كنتِ صغيرة حين كانوا يعرضونها في التلفاز. شيء من الأشياء التي يتذكرها المرء حين يتقدم في السن دون أن يتذكرها أحد غيره.

ترد بسرعة وقد أبحر خيالها في الزمن:

– وربما رأيت بعض هذه الأفلام عندما كنت أشاهد التلفاز مع أحمد الصغير.

ثم تتذكر:

- كان عمر عشماوي وسيماً، كنت أشبهه بعمر الشريف، هل رأيته في فيلم الدكتور زيفاجو؟

- رأيته في فيلم "الفتاة اللعوب" وذهبت عندئذ لرؤية باربارا ستريسند.

- طبعاً.

تبتسم فتنحسر شفتها العليا القصيرة عن أسنان أيرلندية لم تكتمل، وضروس كثيفة. تصل هي وجاك في الحوار إلى مرحلة يبدو كل ما يقوله كلٌّ للآخر ظريفًا وباعثًا على الابتسام، التأمت الروح بالروح. يأنس منها تأنقًا طارئًا وهي جالسة على مقعدها الطويل تعقد ساقيها وتمد رقبتها وتهز جسدها بما يشبه الرقص الخفيف، ربما كانت تريد التخلص من التوتر الذي انتابها بسبب طول الجلوس على ذلك المقعد الطويل. كيف تتحمل العمل في الرسم على ذلك المقعد؟

- وسيم، هه؟ وهل كان ابنك ....

وتواصل دون أن يبرحها التذكر:

- وكان لاعب بردج دوليًّا كبيرًا.

يسألها رغم أنه يعرف ما تقصده:

- من تقصدين؟ السيد عمر عشماوي؟

- لا ، السيد الآخر، عمر الشريف.

- هل لدى ابنك، رغم أني سألته قبل ذلك، صورة لأبيه يعلقها في حجرته؟

– لا تتغاب يا سيد ليفي، كنت أريد أن أقول لك إن أحمد أخذ صور أبيه ووضعها مقلوبة في درج مكتبه وقال إنها حرام. يزعم أن تصوير خلق الله حرام، وقال إن التصوير نوع من التزييف. قلبي يحدثني أن الشيخ الرهيب الذي يؤم المسجد القريب منا هو الذي ملأ رأسه بهذه الترهات.

منذ أربعين عامًا كان السيد ليفي يعتقد أنه من أذكياء القرن العشرين. فكر في الالتحاق بكتاب الكوميديا في فرقة تضم يهودًا يعملون في مسرح التلفاز. كان طالبًا ذكيًا ومتحدثًا لبقاً. يتساءل الآن:

– الرهيب! كيف عرفتِ أنه رهيب؟ ولماذا كان رهيباً؟

تشير بيديها وعينيها ناحية الحجرة الأخرى محذرة من أن يكون أحمد منصتًا إلى ما يقولان، متظاهرًا بالانشغال في المذاكرة. وتخفض صوتها فيدنو منها جاك وهي تقول:

– كثيرًا ما يعود أحمد مضطربًا بعد تلقيه درسًا من دروس الشيخ. وأنا لا أظن أن الرجل، وقد رأيته وإن لم أعرفه حق المعرفة، قادر على إقناع أحمد إلى هذا الحد، وابني في الثامنة عشرة من عمره وليس ساذجًا أو غرًا ولكنك تعرف الشباب في هذا السن يُخْلِصُون لما يؤمنون به حتى لو كان من الخرافات.

تعجب ليفي طريقتها حين تقول "ابني." يأنس منها ارتياحًا لم يشِ به حواره مع أحمد. لعلها امرأة تعيش بمفردها، وهذه هي طريقتها في التودد لمن لا تعرفه ولها عنده مصلحة، ولا تنس أنها مربية بحكم أنها تقوم على تربية غلام لم يتجاوز المراهقة. يخبرها بصوت خفيض أيضاً:

– كنت أسأل عن صور أبيه حتى أتأكد من أن الدين الذي يعتنقه جاء إليه من طريق إعجابه المسرف بأبيه. أنت تعلمين أن الشباب في عائلات

السود يقدسون الأب الغائب، ويصبون جام غضبهم على الأم المسكينة التي تعيش وحدها وتضحي بشبابها لتربيتهم، وتجعل من نفسها درعًا يحميهم.

تشعر تيريزا مولوي بطعنة خفيفة، وتعتدل في جلستها على مقعدها الطويل، يكاد يشعر بصلابة خشب المقعد تحت ردفيها المشدودين في بنطلونها الجينز.

– هل هذه نظرتك إلى الأمهات اللاتي يعشن وحدهن يا سيد ليفي، يستخف بهن الناس ويداس عليهن بالأقدام؟

– لا .. لا أقصد ذلك على الإطلاق، بالعكس أنا أرى أنهن أمهات ممتازات ومكافحات يا تيري، إنهن المسئولات عن تماسك مجتمعنا وترابطه.

ترد على الفور وقد خفف حديثه من ثورتها الوليدة:

– ليس لدى أحمد أية أوهام بالنسبة لوالده، قلت لـــه إن أباه كان خاسرًا كبيراً، وانتهازيًا كبيراً. هل تتصور أنه لم يرسل لنا حتى بطاقة معايدة بالبريد، ناهيك عن شيك واحد، منذ خمسة عشر عاماً.

ويعجب ليفي بهذا الإفضاء الحميم. كانت ترتدي – بدلاً من مريلة الرسام – قميصًا رجاليًا أزرق. ويسرق نظرة إلى ثدييها القابعين خلف الجيوب وهي تواصل الإفضاء بصوت خفيض بعيد عن أذني أحمد وقد أحنت ظهرها قليلاً وهي على مقعدها الطويل، فتدلى ثدياها وهي تقول:

– كان زواجنا كارثة، كنا أنا وهو مخبولين عندما قررنا الزواج، كان كل منا يعتقد أن لدى الآخر أسبابًا مقنعة لهذا الفعل، ولم يكن يتحدث الواحد منا لغة الآخر بوضوح، رغم أنه كان، والحق يقال، يتحدث الإنجليزية

بطريقة سليمة. أخبرني بأنه درس الإنجليزية في الإسكندرية، وكانت هذه من تلك الأشياء التي أوقعتني في حبه، تلك اللهجة المحببة في حديثه التى شابتها لثغة أقرب للإنجليزية البريطانية. كان يبدو مهذبًا للغاية، وأنيقًا نظيف الحذاء مشذب الشعر، وكان شعره كثيفًا أسود لا يمكن أن تراه على رأس أمريكي، مع خصلة قصيرة خلف أذنيه وأخرى على عنقه. ولن أنس بشرته الناعمة الهادئة التي كانت أغمق من بشرة أحمد، ولكنها كانت أكثر خشونة مثل قماش مصبوغ في لون الزيتون الفاتح.

يا إلهي! تهيم السيدة في حبها القديم، ولن تسكت حتى تصف لي كل شيء. ولكنها تشعر بامتعاضه فتكف عن الاسترسال وتعود للموضوع الذي أثاره:

– لا تقلق من هذه الناحية، أحمد لا يقدس والده، بالعكس إنه يزدريه، ومعه حق.

– أخبريني يا تيري، هل لو كان أبوه موجوداً، أكان يوافق أحمد على ترك المدرسة، وتعلم قيادة الشاحنات؟

– لا أدري، عمر نفسه لم يكن يحب قيادة الشاحنات أو أي قيادة. كان يخاف من أن تشغله أحلام اليقظة عن الطريق، كان سائقًا لا يرجى منه خيراً، وكنت أقول لـــه كيف تريد أن تصبح أمريكيًا وأنت لا تعرف كيف تقود سيارة؟

يصبح عمر موضوع الحديث مرة أخرى! هل كان جاك ليفي هو الوحيد في هذا العالم الذي يهتم بمستقبل الفتى؟ يقاطع الأم بلهجة أكثر حدة:

- أطلب منك المساعدة للخروج بأحمد إلى بر الأمان، وإعداده للمستقبل الذي يتناسب مع ذكائه.

ترد وهي تشير برشاقة بسيجارتها وتميل ميلاً خفيفًا أشبه بسيبيل[٦] على مقعدها الثلاثي:

- جاك، ألا تعلم أن الناس يقفون عند نقطة معينة كما يقف الماء في الأوعية عند حد معين. لا أظن أنه يمكن تشكيل الناس مثلما نشكل الأواني الطينية. لقد بدأت أعامل أحمد معاملة الند عندما اعتنق الإسلام بعد بلوغه الحادية عشرة، وكنت أشجعه على ذلك. كنت أوصله بالسيارة بعد المدرسة إلى المسجد طوال أشهر الشتاء، وأذكر أن إمامه في ذلك المسجد لم يكن يكلف نفسه ويحييني ولو من بعيد. كان يكره مصافحتي، ولم يبد أي محاولة تذكر لإغرائي باعتناق الإسلام. ولو كان أحمد سلك طريقًا مختلفًا بعيدًا عن الدين كما فعلت أنا لقبلت أيضاً، ولوافقته على ما ذهب إليه. لا يعدو الدين بالنسبة لي أن يكون موقفًا إيجابيًا يتخذه المرء من الحياة. على الإنسان أن يؤمن أن هناك هدفًا من وجوده وإلا ضاع مع الضائعين. عندما أشرع في رسم لوحة يجب أن أكون مؤمنة بأن الجمال سوف يحل حتماً. الحياة مثل الرسم التجريدي تنبع من داخلك، فحين نرسم رسمًا تجريديًا لا نعتمد على مشهد طبيعي، ولا على سلطانية مليئة بالبرتقال حتى حافتها، نغمض عيوننا ونعمل خيالنا ونستجيب لما يأتي.

تفرغ من حديثها وتميل بكل طولها إلى المنضدة التي ترسم عليها لوحاتها، ثم تسحق سيجارتها في طفاية كانت هناك، فيسفر الجهد عن ضغط القميص على الثديين وبروز العينين، وترمي الضيف بنظرة من تلك العينين الخضراوين وتستدرك قائلة:

- إذا كان أحمد يؤمن بالله إلى هذا الحد فليتول الله حفظه والعناية به.

ثم تقول في نبرة دفاعية:

- حياتنا ليست شيئًا يمكننا التحكم به، إننا لا نتحكم في أنفاسنا أو هضم طعامنا أو نبضات قلوبنا، الحياة شيء نحياه، وليكن ما يكون.

تلاحظ معاناته وأساه في تلك الساعة التي تسبق الفجر، وهي تعظه وهو يستمع إليها كأنه يستحب الحديث معها. يسعده أن تكشف النساء الأحجبة عن عقولهن أمامه، ولكن مكثه طال أكثر مما ينبغي، وقد يتسرب إلى نفس بـث القلق. فقد أخبرها بأنه سيعرج إلى مدرسة سنترال الثانوية لأخذ بعض الأشياء، ولم تكن تلك كذبة؛ لأنه أعطى تيري ما أعده لها من مطبوعات.

- بدأ النوم يعبـث بالمآقي بفضل قهوتك.

- حتى أنا، ومع ذلك فسأستيقظ في السادسة لأذهب إلى العمل.

- السادسة؟

- ميعاد النوبة الأولى في مستشفى القديس فرانسيس حيث أعمل مساعدة ممرضة، رغبت عن أن أصبح ممرضة لأني كنت مضطرة إلى دراسة الكثير من الكيمياء، والكثير من فنون الإدارة، ثم يستولى عليّ الغرور بعد ذلك جريًا على أسلوب الأطباء في تعاملهم مع المرضى. يقوم مساعدو التمريض بما يقوم به الممرضون والممرضات، وأنا أحب أن تكون صلتي بمرضاي مباشرة، وأكون ملازمة لهم مثل مدفأة السرير. هل تظن أني أرتزق على هذه اللوحات؟

فيرد في هدوء:

- كلا.

تقول في تؤدة:

- إنها هوايتي ولذتي، أو قل جنتي ونعيمي كما قال أحدهم في التلفاز منذ سنوات قلائل. بعت بعض لوحاتي ولم أوفق لبيع بعضها الآخر، ولكني لا أهتم كثيراً. الرسم هوايتي وحبي. ألم تمارس هواية تعتبرها حبك وغرامك يا سيد جاك؟

يجفل قليلاً، إنها تبدو ممسوسة، أو قديسة جالسة على كرسي ثلاثي الأرجل، وعلى شعرها تجلس الحيات، يجيب:

- لا.

ينهض من فراشه في الصباح وكأنه يزيح بطانية قدت من رصاص عن كاهله، ويمضي سحابة يومه يلوح للتلاميذ وهم يغادرون المدرسة إلى عالم يمتلئ بالفوضى المزرية، ويسألها مضيفاً:

- ألم تفكري، وأنت في مهنة التمريض، أن تشجعي ابنك على أن يصبح طبيباً؟ إنه يتمتع بشخصية قوية ولديه حضور طاغ. إني أأتمنه على نفسي لو قدر لي أن أكون مريضًا وهو طبيبي.

تضيق عيناها، وترميه بنظرة عنيفة خالية من الحياة وتقول:

- الطب طريق طويل باهظ التكاليف يا جاك، والأطباء الذين أراهم حولي لا يفعلون شيئًا غير الشكوى من ملء الأوراق، والجري وراء مستحقاتهم من شركات التأمين. كان الطب في الماضي مهنة تظفر منها

بالاحترام والمال الذي تريده. ولكنه لم يعد الميدان المرغوب كما كان، سيكثر عدد الأطباء، وسيصبح نشاطهم ضمن النشاط الاجتماعي إن عاجلاً أو آجلاً، وستدفع لهم الحكومة نفس المرتبات التي تدفعها للمدرسين.

يضحك لهذه المناوشة الخفيفة، في جعبتها كثير من المداعبات:

- تقصدين أن الأمر سيزداد سوءاً.

- فليأخذ فرصته حتى يحقق الهدف الذي يريده، وكما قال لي إنه سيتعلم قيادة الشاحنات الآن، وأما المستقبل فهو بيد الله.

- حسب فهمي كل ما يمكن أن تتيحه لـــه رخصة القيادة التجارية هو السفر داخل ولاية نيوجرسي لا أكثر.

- إنها البداية.

ثم تغادر مقعدها في رشاقة محببة، وتمس بفرشاتها رسمًا في طور التكوين قبل أن تعود فيرى صدرها وقد اضطرب فيدرك أن الغد يضمر لـــه الكثير مما لم يكن في الحسبان.

تنتهي المقابلة، وتشرف الساعة على الثامنة والنصف. ويحمل ليفي كتيباته التي لم يرغب في رؤيتها أحد، ويمر في طريقه بالحجرة التي يذاكر فيها أحمد، ويتوقف عند الطاولة المستديرة العتيقة. لابد أنها كانت جزءًا من ميراثها، تذكره بالطاولة التي كان يراها في البيت الذي نشأ فيه عند الجد الكبير على طريق توتوا. يدنو من ظهر أحمد فتبدو لـــه رقبته مسرفة في النحول، ويظهر النمش الذي ورثه عن أمه على أذنيه. يضع ليفي الكتيبات بحذر شديد على حافة المنضدة، ويلاطف الفتى دون أن يظفر منه بنظرة، ويقول:

- أرجو أن تتصفح هذه الأوراق يا أحمد، كلما سنحت لك الفرصة، وإذا لفت نظرك شيء منها سيسعدني أن تأتِي إلي في مكتبي لنناقشه، واعلم أن الوقت لم يفت لتغيير موقفك.

يحس الفتى بيد السيد ليفي على ظهره فيتحين الفرصة ويسأله:

- شيء مثير جدًا يا سيد ليفي.

يحس بقربه من الفتى:

- ما هو؟

- سؤال يسألونه دائمًا في امتحانات الرخصة.

ويقرأ ليفي وهو يقف خلف الفتى:

ماذا تفعل إذا رأيت أن الإطارات الأمامية قد بدأت في الانزلاق، وأنت تسير بشاحنة صهريجية، اختر احتمالاً واحدًا من الاحتمالات الأربعة الآتية:

أ - التحكم بقوة في عجلة القيادة.

ب - اندفاع السائل سيخرج المقطورة عن مسارها في الحال.

ج - اندفاع السائل سيخرج الجرار عن مساره في الحال.

د - الاستمرار في السير في خط مستقيم بصرف النظر عن مقدار تشغيل عجلة القيادة.

- يبدو أن هذا معناه مواجهة موقف خطير للغاية، أي من هذه الاحتمالات هو الإجابة الصحيحة في نظرك؟

يشعر أحمد باقتراب الرجل، ويشعر بتلامس جريء على كتفه لم يرتح لــه. يشعر الآن بدفء بطنه الذي يحمل معه رائحة، بل مزيجًا من روائح شتى متداخلة، رائحة عرق ممتزجة برائحة خمر، ورائحة الديانة اليهودية ممتزجة برائحة الإلحاد، روائح نجسة أثارها المؤتمر الذي انتهى منذ قليل مع الأم المحيرة التي يسعى لإقناعها بارتداء الحجاب. اجتمعا في الحجرة الأخرى، وخاضا في شئونه بأصوات منفرة وآراء ضعيفة، كافران يلتمسان الدفء كلٌ في حديث الآخر، اجتمعا ليتحدثا عنه بحديث رقيق. في ثرثرتها البغيضة تخلص السيد ليفي من أدران العيش مع عجوز لحيمة، وفي رغبتها للإفضاء يظن السيد ليفي أنه نال رخصة اللعب مع الابن دور الأب الحنون، وراء الخوف المزيف على مستقبل الابن رغبة كريهة في امتطاء الأم. ولكن القرآن يأمر المؤمن باحترام الآخر، وهذا اليهودي ضيف في بيته في نهاية المطاف، رغم أنه يريد أن يوطد أركان المحبة!:

– لا أدري يا صديقي، اندفاع السائل ليس بالأمر الخطير، فأنا أصادف ذلك كل يوم، لنجرب الإجابة الأولى: "التحكم في عجلة القيادة".

يرد أحمد في صوت هادئ يخفي وراءه نشوة النصر فيقول:

– لا، الإجابة في رقم "د"، وجدتها في ورقة الإجابة التي أعطوها لنا.

ينطلق صوت كريه من بطن ليفي، ويصدر منه صوت كصوت الخنزير، يقول:

– لكن حين تتحكم في عجلة القيادة قد ينتهي بك الأمر إلى الفردوس الأعلى.

ولكن أحمد يشرح:

– بعد فترة وجيزة ستفلت الشاحنة من يدك.

– إرادة الله.

يعلق السيد ليفي بشيء من الظرف المصطنع، أو شيء من الود الممجوج، وهو يسعى لإدخال أنفه في شيء يؤمن به أحمد حق الإيمان، حيث تمتلئ روحه بالثقة في وجود الحق الذي يحيط علمه بكل شيء.

ازدادت أحوال الأرض حول مدرسة سنترال الثانوية، والمساحة الواسعة المتصلة بأملاك المدينة الخاصة، تعقيدًا في السنوات الأخيرة، حيث امتدت مساحتها وراء حدودها القديمة دون أسوار تفصل بينها وبين شارع تصطف فيه منازل فكتورية الطابع، كثيرة التنوع، متباعدة المسافات، تفتقر للذوق. كانت هذه المنطقة، حتى شمال غرب مبنى مجلس المدينة المهيب، مرتعًا لأبناء الطبقة الوسطى الذين كانوا يعملون في المصانع الواقعة على ضفة النهر. إن المسافة قصيرة بين مساكن العاملين ووسط المدينة الذي كان إذاك يموج بالحركة والزحام. اختفت هذه المنازل الآن، وحلت محلها عمارات متعددة الطوابق والشقق، ومن ثم ضاقت المساحات الخضراء بعد أن بنيت عليها العمارات العالية. اضمحلت ملاعب المدرسة الخضراء بسبب الزحف العمراني وعبث العابثين مما اضطر إدارة المدرسة إلى نقل ملعب الكرة وكان، في الربيع، مضمارًا لرياضة الركض وملعبًا للبيسبول، وفي موسم كرة القدم، ملعبًا لفريق أشبال الجامعات، إلى مكان رأته الأجهزة المعنية مثاليًا ومفيداً، على بعد ربع ساعة بالأتوبيس على أرض اشترتها المدرسة من شركة "وهلن وأبناؤه لبيع الألبان" التي نشأت على ألبانها أجيال كاملة من أطفال مدينة نيوبروسبكت. آلت الملاعب الخضراء في وسط البلد إلى مناطق فقيرة آهلة بالفقراء.

تقع المدرسة الثانوية العتيقة، ومبانيها الإضافية الكثيرة، خلف سور ضخم بناه البناؤون الإيطاليون، ابتدعت المدرسة، على قمته، حاجزًا إضافيًا من الأسلاك الشائكة التي تعكس وميضًا في العيون. شُيد الحاجز بالتدريج ليصد عن المدرسة اعتداءات العابثين الذين كانوا يسكبون على الجدران مواد غريبة من آلات الرش حتى نشأت عليها، مع الزمن، طبقة سميكة من الصدأ، وظهرت شقوق شوهت الجدران المبنية من الطوب الأصفر، وجدران مبنى المراجل العملاقة التي تعمل باحتراق الفحم، وتدفع بأبخرتها إلى كل فصل من فصول المدرسة. وعلى جدار من الطوب الأصفر استند لوح خشبي يحمل سلة الكرة، حيث مالت السلة على زاوية قائمة تقريبًا لأن الفتيان يقلدون، وهم يجذبونها، أسلوب القفز والرمي الذي يؤديه محترفو الجمعية الدولية لكرة السلة، فيعلقون بها دون أن يوفقوا. وعلى بعد عشرين خطوة، في المبنى الرئيسي، تجد أبوابًا مزدوجة مزودة بمزاليج ضخمة من الداخل، تفضي إلى سلم من الصلب، يفضي بدوره إلى بدروم. وفي الوسط يقع المطعم ومحلات لبيع الخشب والآلات لطلبة التدريب المهني. وعلى مقربة من طريق المشاة آوت إلى الشقوق الأسمنتية صنوف من الأعشاب، ونبات آذان الذئب، ونبات أسنان الأسد، وأجزاء من فقرات كائنات دقيقة تلمع مثل رُسَابة القهوة، جلبتها قوافل النمل من تحت الأرض إلى السطح. وفي المواضع التي انسحق بها الأسمنت، وكثرت فيها الحفر، ظهرت نباتات أطول: حشائش مائية كثيرة العصارة، وأعشاب أخرى جافة، وأزهار الربيع التي نمت وامتدت على مشهد من ضوء النهار.

في هذه المنطقة العشوائية المتخلفة التي لا يجني منها المجتمع نفعًا غير الأبخرة المتسربة، والروائح المقلقة، والخصومات العنيفة بين فرق

متعادية من فتية المدرسة، يقابل تايلنول أحمد الذي كان لا يزل يرتدي سرواله القصير، ويمارس رياضة الجري، وقد وصل إلى هناك بأتوبيس المدرسة. لم يكن أمامه إلا عشرة دقائق لكي يغتسل، ويغير ملابسه، ويذهب بعد ذلك إلى المسجد على بعد سبع عمارات لحضور درس القرآن الأسبوعي، يحدوه الأمل أن تكون الأبواب المزدوجة مفتوحة فيوفر خطوات. يصبح المكان خاليًا في هذه الساعة المتأخرة بعد انصراف الطلاب، إلا من فتية الصف التاسع الذين يرمون الكرة في السلة الممزقة فيصيبون قليلاً ويخطئون كثيراً. ولكنه يري اليوم عصابة من الفتية السود والأسبان، يضعون على بطونهم أحزمة الكاراتيه الزرقاء والحمراء، ويقف كلٌ عند دولابه المتهالك، رابطين رؤوسهم بعصابات من أسمال بالية، ويجتمعون، على غير العادة، كأن الطقس المعتدل يغري بالهدنة.

- أنت أيها العربي.

يقف تايلنول في وجه أحمد متحدياً، يحيط به سائر أفراد العصابة، يرتدون القمصان الزرقاء الضيقة التي تبرز منها عضلاتهم. يشعر أحمد بضعفه، ويشعر أنه يسير عاريًا في سروال الجري القصير الذي يرتديه، وجوربه المخطط، وحذائه الخفيف، وقميصه الخالي من الأكمام، ينضح بالعرق من الخلف والأمام، مما يفضى به إلى فوضى الألوان. يراود أحمد إحساس بأن ساقيه العاريتين الطويلتين جميلتان، وأن الجمال إهانة في نظر هؤلاء المحيطين به من وحوش العالم وأغبيائه. ويرميه تايلنول بنظرة ملؤها التحدي، وينادي عليه:

- سمعت أنك ذهبت إلى الكنيسة لتسمع جورلين وهي تغني، لماذا ذهبت؟

- هي التي طلبت مني الذهاب.

- كانت مخطئة، ولكن أنت عربي ولا ينبغي أن تذهب إلى مكان كهذا.

- ورغم ذلك ذهبت، وكان الناس لطيفين معي. جلست بجوار أسرة كاملة وكانوا ودودين وتبادلنا الابتسام.

- لأنهم جهلوا أمرك، لقد ذهبت إلى هناك بدعاوى خادعة.

يقف أحمد متأهبًا للمفاجآت، يثبت قدميه في خفيه الخفيفين طلبًا للثبات أمام انقضاض تايلنول القادم، ولكن نظرة الازدراء تتحول إلى ابتسامة متكلفة.

- ورآك الناس تمشي معها بعد الصلاة.

- أجل، بعد الكنيسة، وما شأنك أنت؟

الانقضاض آت لا محالة. يخطط أحمد لخداع خصمه بميل خفيف إلى اليسار، ومباغتته بضربة قوية بيده اليمنى في بطنه الناعمة، ثم يتم المهمة بركلة من ركبته. ولكن تايلنول يتخلى عن ابتسامته الصفراء ويحولها إلى ابتسامة عريضة غاضبة ويقول:

- لا، لا شيء، كلفتني بأن أبلغك بشيء هام.

- وما هو؟

ما زال الفتية الآخرون التابعون ينصتون. يخطط أحمد لمراوغة الجميع بعد أن تأخذهم المفاجأة بعد أن يكون قد كوم تايلنول على الأسمنت المتشقق، ويمر من بينهم إلى فناء المدرسة حيث النجاة النسبية.

– تقول إنها تكرهك، تقول لك جورلين إنها لا تأبه بك، ولا تقيم لك وزنًا البتة، هل فهمت ذلك يا عربي؟

يشعر أحمد بوجهه يتجمد، كأنما تغطيه طبقة من القماش الدافئ. وينهي تايلنول حديثه وهو يدنو منه:

– لذا لن أهتم بأمرك أنت وجورلين بعد ذلك، كنا – أنا وهي – نضحك على تصرفاتك خاصة عندما أضاجعها، أنتم عرب حيوانات تضاجعون أنفسكم.

يتداعى سائر أفراد العصابة بالضحك، ويستولي على أحمد الغضب، ويخرج أحمد من بين الأجساد اليافعة صوب الأبواب المفضية إلى خزائن الطلبة، تأخر عن موعد الحمام، وتأخر عن دروسه في المسجد، ولم يعترض طريقه أحد منهم، ولكنهم يشيعونه بالصفير وصيحات الاستهزاء مثلما يفعلون عادة مع شقراء أعجبهم ساقاها الجميلتان.

يحتل المسجد الذي يعد من أكثر المساجد في نيوبروسبكت تواضعاً، الدور الثاني فوق صالون تجميل أظافر، ومكتب لصرف الشيكات(٧) ضمن صف من المحلات الصغيرة منها مكتب رهونات ذي نوافذ يعلوها التراب، ومكتب لبيع الكتب المستعملة، وصانع قباقيب، ومحل غسيل ملابس يديره صيني، ومحل بيتزا، ومحل بقالة متخصص في بيع أطعمة الشرق الأوسط – عدس وفول مدمس وحلاوة بالحمص وفلافل وكوسكسي وتبولة – في أكياس قبيحة غريبة خالية من أي صور أو زينة أو حروف واضحة تشي بمحتواها. وعلى بعد أربع عمارات أو أكثر، من ناحية الغرب، يوجد ما

يسمى بالقسم العربي، يمتد عبر هذا الجانب من شارع مين. بدأ بقدوم الأتراك والسوريين الذين كانوا يعملون في دبغ الجلود وصباغتها في المصانع القديمة. ولكن أحمد لم يغامر أبدًا بالذهاب إلى هناك، فقد بدأ بحثه عن هويته الإسلامية في المسجد وهو طفل لم يتعد الحادية عشرة، وهو يقول: إنه ولد من جديد عندما عرف الإسلام في هذا المسجد على يد الشيخ رشيد.

يفتح أحمد بابًا رقيقًا أخضر يقع بين محل تجميل الأظافر ومؤسسة النقد بنافذتها الكبيرة التي توارت خلف ستارة فينيسية طويلة ذهبية اللون، يؤمها إعلان مكتوب عليه: " نصرف هنا الشيكات بأقل المصروفات،" ثم يعبر درجًا ضيقًا يفضي إلى الطابق الثاني حيث المسجد. كان أحمد يجفل من الباب الأخضر، والبسطة الواسعة الخالية من النوافذ، أول مرة جاء إلى هذا المكان يبحث عن الأشياء التي حدثه عنها زملاؤه السود، والتي كانت تحدث في مساجدهم. في ذلك السن التحق آخرون من أقرانه بكورس كنيسة أو بجمعية كشفية. كان يأمل أن يجد في هذا الدين صورة أبيه ذي الوجه الجميل والجسد النبيل، ذلك الأب الذي اختفى من حياته قبل اكتمال الوعي. لم تذهب أمه إلى قداس في حياتها؛ لأنها تزدري ديانتها، وما تستدعيها من قيود وتكاليف. ولكنها كانت توصله بسيارتها حسبما يسمح به الوقت حتى شب عن الطوق، واطمأنت إلى سيره في الشوارع، إلى ذلك المسجد في الطابق الثاني الذي كان في الأصل صالة للرقص. أصبحت الصالة الكبيرة مسجداً، وأصبحت الحجرة الوحيدة التي كان الفتية ينتظرون فيها دورهم في الرقص بصحبة آبائهم على دقات الطبل، مكتبًا للإمام. يرجع تاريخ استئجار المكان، وتحويله إلى مسجد للعبادة، إلى العقد الأخير من القرن الماضي،

ولكن أحمد يعتقد أن هواء المكان يعبق بروائح شتى بعيدة عن البراءة، وأنه يسمع صوت البيانو يتردد في أذنيه، وإيقاع الطبول يضطرب في خياله. يرى بلاط المكان يهتز تحت أقدام الراقصين والراقصات الذين وطئت أقدامهم ذلك السجاد الشرقي المهيب الذي يعلوه سجاد آخر لم يسلم من البلى مع كر الأيام.

يقوم على نظافة المسجد عامل لبناني أعرج، ضعيف البنية، محني الظهر، تجاوز الكهولة، ودلف إلى الشيخوخة، ينظف السجاد بالمكنسة الكهربائية، وينظف حجرة الإمام والصالة التي تقوم مقام حضانة الأطفال عند الغربيين. ولكن النوافذ العالية، التي لا تغري بالتجسس على الراقصين – في الماضي – أو العابدين في الراهن، لم تكن في متناول العامل المسكين، فأوشك أن يغطيها السخام والتراب مع مرور الزمن، فلا يرى الناظر من خلالها إلا قطع السحب الداكنة. وفي صلاة الجمعة، حيث الخطبة على المنبر، يعجز المسجد عن احتواء المصلين، بينما تمتلئ المساجد الزاهرة، في هارلم ومدينة جرسي، بالمصلين من المهاجرين الجدد من مصر والأردن وماليزيا والفلبين. ومن المسلمين من يصلي في الشرفات المفروشة، والغرف العلوية، مثل جماعة السود المسلمين في نيوبروسبكت، وجماعة أمة الإسلام. وقد أراد الشيخ رشيد أن يستأجر الطابق الثالث أيضًا ليقيم كتّابًا يحفظ فيه أطفال المدارس الابتدائية، ما تيسر من كتاب الله، ولكنه لم يوفق إلى ما كان يريد. حتى الدروس التي كان يحضرها أحمد منذ سبع سنين، مع ثمانية تلاميذ آخرين، أو ربما أكثر، تضاءلت. اليوم هو التلميذ الوحيد الذي يدرس مع الشيخ رشيد ذي الصوت الناعم الرخيم، وهو صوت لا يتسق إلا مع جمهور صغير لا يتجاوز الاثنين. لم يكن أحمد يحب الشيخ

حبًا جماً، وإنما كان يضيق به أحياناً، ويحتد عليه أحيانًا أخرى، ولكن دراسة القرآن والحديث هي التي ألزمته بتوقير الشيخ واحترامه.

يتردد أحمد على دروس الشيخ رشيد في المسجد منذ سبع سنوات، مرتين في الأسبوع، يجلس في كل مرة بين يديه ساعة ونصف ساعة، يتعلم فيها القرآن، واللغة العربية التي يسميها الفصحى، والتي لا يتاح لـه استخدامها خارج المسجد. لم يستطع فمه استساغتها، وأصبح لسانه عييًا بالنطق بها لما بها من مقاطع تخرج من الحلق، وصوائت عنيفة لا تُقْرَأ إلا حين توضع عليها النقاط فوقها تارة، وأسفلها تارة أخرى. ولم تزل عيناه أيضًا تجفل من ضروب كتابتها، ولا سيما هذا الخط الذي يسمونه الرقعة، وما يصاحبه من علامات صغيرة محيرة. وهو مضطر إلى أن يقرأها من اليمين إلى اليسار، ومضطر بذلك إلى أن يحدث نقلة ذهنية من اليسار إلى اليمين. يواظب أحمد على درسه للقرآن في تؤدة وإصرار، ولا يضن عليه الشيخ بالمراجعة والتدقيق والتفسير، ويكشف الشيخ رشيد عن تفضيله للسور المكية القصار، وهي سور موجزة، فيها الكثير من البلاغة والرمز أكثر مما في السور الطوال التي نجدها في النصف الأول من المصحف، وهي السور التي نزلت على الرسول في المدينة حين كان يحتاج إلى سن القوانين واصطناع التشريع الذي ينظم حياة الناس الدنيوية لبسط سيادته على المدينة.

واليوم يأمر الشيخ تلميذه أن يقرأ سورة "الفيل" وهي السورة الخامسة بعد المائة. يعطي أوامره باللغة الإنجليزية وليس باللغة العربية حتى لا يُفسد على أحمد ما تعلمه منها بلهجته العامية السريعة المتعجلة التي ينطق بها أهل اليمن. إن الشيخ يتحدث الإنجليزية بشيء من الاستياء، يظهر على شفتيه البنفسجيتين فوق لحيته المشذبة، وشاربه القصير. يطلب من أحمد أن يتلو عليه من سورة الفيل بشيء من التجويد، ويغلق عينيه حتى تخلص أذناه

لسماع الأنغام، وتظهر العروق الدقيقة المائلة إلى اللون الأحمر على جفنه الأسفل مفعمة بالانفعال على الوجه الأبيض بياض الشمع.

يبدأ أحمد بالبسملة، ويعلو صوته بتلاوة الآية الأولى بشيء من التوتر بحثًا عن النغم إذعانًا لمطلب الشيخ رشيد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ولا يزال الشيخ رشيد يغلق عينيه وهو يرجع بظهره إلى الوراء؛ ليتكئ على الوسادة التي ازدانت بها دَكَّة مرتفعة عريضة فضية اللون تميل قليلاً إلى الرمادي، يضعها أمام مكتبه، ويستقبل تلميذه الذي يستقر أمام درجه على مقعد إسبارطي من البلاستك، مثل هذه المقاعد التي يراها المسافر في مطاعم مطارات المدن الصغيرة. ويضطرب لسان الفتى في نطق حرفي "الصاد والحاء" فيخلط بينهما وبين "الشين" ويصححه الشيخ رشيد، وينصحه أن ينطقهما كما يُنْطقان في كلمة "آسهول" التي ترد في لغة الكفار، وهو يعتذر لأحمد لضربه المثل بهذه الكلمة النابية، ويعلل ذلك بأنه لم يجد غيرها حاضرًا في الذاكرة، وينصحه ألا يمعن في نطق الحروف التي تصدر من الحلق؛ لأن اللغة العربية ليست لغة طقطقة كالحال عند بعض اللغات الأفريقية، وإنما يصدر الصوت برشاقة كأنه طبيعي، وهذا أمر يتقنه أصحاب اللغة، والمجتهدون من الطلاب. ثم ينصحه بالحفاظ على الإيقاع رغم الأصوات الصعبة، وأن ينبر المقطع الأخير، مقطع الفاصلة.

– هل تذكر القاعدة التي تقول: النبر يقع على الصائت الذي يتبعه الحرف المتحرك القصير الذي يتبعه صائتان، استمر يا أحمد من فضلك.

حتى نطق الشيخ لاسم "أحمد" فيه حدة عندما ينطق حرف الحاء.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

ويستمع الشيخ رشيد لتلاوة تلميذه وهو لا يزال مغلق العينين وقد سرت في جسده رعشة كأنه يستند بظهره على كرة من الهلام، ويطلب الشيخ من تلميذه أن يمد المقطع الأخير "لـــــيـــــل":

– إنك تشعر بها في الترجمة الطريفة التي قام بها المبجل ج. م. رودويل في القرن التاسع عشر.

ويفتح الشيخ رشيد عينيه قليلاً، ويشرع في تفسير الآيات للصبي:

– إن السورة تحدثنا هنا عن أصحاب الفيل، وتزعم الآيات أنها تتناول حادثة تاريخية وقعت بالفعل، وهي هجوم جيش أبرهة الحبشي على مكة. وكان أبرهة حاكم الحبشة وحاكم بلاد اليمن، أرض أجدادي المحاربين. وكانت الجيوش في تلك الأيام تضم فيلة محاربة، أي أن الفيلة كانت في مكان الدبابات التي يسمونها "إم١" هذه الأيام، أو المدرعة همفيز. بل إن هذه الفيلة كانت مزودة بجسم أكثر سمكًا من مدرعات همفيز المشئومة التي تتزود بها قوات بوش في العراق. وقد زعم المفسرون أن تلك الحادثة التاريخية قد حدثت في نفس يوم مولد النبي عام ٥٧٠ من ميلاد المسيح. فلابد أن النبي سمع عنها من أحاديث أقاربه، ولم يسمعها من أبيه؛ لأن أباه مات قبل أن يولد، ولم يسمعها من أمه؛ لأنها ماتت أيضًا قبل أن يتم السادسة. أو ربما سمع جده عبد المطلب، وعمه أبا طالب يتحدثان عن هذه المعركة الأسطورية التي اندلعت عند خيام بني هاشم. أو لعله سمع القصة من مرضعته البدوية التي أرضعته مع اللبن تلك اللغة العربية النقية التي تحدث بها فيما بعد.

– سيدي، ما لك تستخدم كلمات مثل "تزعم" و "يفترض" رغم أن السورة تبدأ بعبارة "ألم تر؟" – وهذا معناه أن النبي وصحبه قد رأوا الواقعة رأي العين.

– نعم رآها ولكن بعيني رأسه أو بخياله، وكم من أمور رآها النبي بخياله، ويختلف العلماء، وهم جميعًا مؤمنون بأن القرآن من عند الله، حول حقيقة وقوع هجوم أبرهة. اقرأ الآيات الثلاث الأخيرات وأطلق العنان لأنفاسك، ولا تنسى الغنة، لتسمعني صوت ريح الصحراء.

ويتلو أحمد في صوت رخيم يخرج من أعماق أحباله الصوتية، مسربل بالجمال والوقار: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

– أحسنت.

بذلك يثني الشيخ رشيد على قراءة تلميذه وهو يشير إليه بالانصراف بيد بيضاء ناعمة تظهر منها أصابعه طويلة نحيلة، وقد دثر جسده الضعيف في قفطان مطرز بزخرفة خفيفة، و يظهر أسفل القفطان بنطلونه المصنوع من قماش أبيض يسميه سروالاً، ويغطي رأسه بقلنسوة بيضاء يسميها عمامة، هي التي تدل على أنه من رجال الدين. وينحسر قفطانه عن حذائه الأسود الصغير حين يرفع قدميه ليضعهما على مسند القدمين المحشو بقماش غني يحتوي على الكثير من الخيوط الفضية التي تغشى المقعد ذا الذراعين الذي يشبه مقعد العرش حيث يلقي الشيخ دروسه ويوجه سؤاله إلى أحمد كأنه يمتحنه:

– وبماذا تخبرنا هذه الآيات الكريمات أيضاً؟

يهم أحمد أن يجيب، ولكنه يخشى أن يسيء إلى نفسه حين يستبدل بهذا النص القرآني الكريم كلامًا سخيفًا ساذجًا تعوزه الرقة وينطلق من قراءة

سطحية للغة العربية الفخمة التي لا يتقنها، أو ينطلق من تلك الترجمات الإنجليزية السخيفة التي يراها في أيدي الغربيين للقرآن الكريم، ولكنه يقول:

- تخبرنا بأن الله أرسل أسرابًا من الطير تقذف جيش أبرهة بحجارة من طين، طبخت بنار جهنم، نزلت على أصحاب الفيل فجعلتهم كورق الزرع إذا أكلته الدواب.

- نعم. أصبت بعض الحقيقة؛ فالحجارة التي قدت من طين، وطبخت بالنار، كما قلت، إنما أصبحت كالجدار الذي نزل عند أقدام تلك الأسراب المهولة من الطير الأبابيل، وهي طير لم ينبئنا القرآن بسرها ولو أنها مفسرة مشروحة في اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب الموجود في الجنة. آه، الجنة، اللهم ألهمنا الصبر حتى نردها.

يزول عن أحمد اضطرابه، وتخف الحمرة التي علت وجهه، ولا يبقى على وجهه إلا علامة على القلق. ويغلق الشيخ عينيه خشوعاً، ولكن أحمد يحطم الصمت ويسأل الشيخ:

- مولانا، هل تقصد أن النسخة التي لدينا من القرآن الكريم، والتي جمعها الخلفاء الراشدون على مدى العشرين عامًا التي تلت وفاة الرسول، تفتقر إلى الكمال إذا ما قورنت بالنسخة الخالدة في اللوح المحفوظ.

فيرد المعلم:

- النقص لابد في أنفسنا يا بني، وفي جهلنا، وكذلك في الذين دونوا القرآن عن النبي. خذ على ذلك مثلاً عنوان سورة "الفيل" التي بين أيدينا، فهو في الأصل كلمة "الفيلاس" التي كان الأحباش يطلقونها على عرش أبرهة، فلما أُسقِط آخرها أصبحت "الفيل". وفي ظني أن الطير الأبابيل كناية

عن ضرب من القذائف التي تطلق من المنجنيق، وإلا ما بقي لدينا غير ذلك التصور الذي لا تستسيغه عقولنا لهذه المخلوقات المجنحة، وهي أقل هولاً، على أي حال، من طائر الرخ الذي نقرأ عنه في كتاب ألف ليلة وليلة، ولو أنها أكثر عدداً، وهي تقبض بمناقيرها على الحجارة المطبوخة بنار الجحيم. وأنت ترى أن النبي اختص الآية الرابعة من هذه السورة بصوائت طويلة لا تأتي في آخر الآية، ورغم أن النبي كان يرفض لقب شاعر فقد كان على درجة عالية من الشعرية، خاصة في السور المكية الأولى. أجل، إن النسخة التي بين أيدينا من القرآن يعتورها النقص، رغم ما في هذا القول من تجديف، ولكن النقص الذي أقصده هو النقص الذي يأتي من جهلنا الشديد وحاجتنا إلى التفسير الصحيح، وقد اختلفت التفاسير كلها التي اصطنعها العلماء خلال القرون الأربعة عشر التي خلت، فنحن لا نعرف إلى الآن المعنى الدقيق لكلمة أبابيل رغم الزمن؛ لأنها لم ترد في أي موضع آخر من القرآن. يسمي الإغريق مثل هذه الكلمات يا أخي أحمد hapax legomenon أي الكلمة الفريدة من نوعها، وهي التي لا يمكن تحديد معناها. وكذلك نجد كلمة سجيل في السورة نفسها، وهي لغز آخر، رغم أنها وردت ثلاث مرات في الكتاب الكريم. وقد أنبأنا النبي نفسه في الآية السابعة من سورة آل عمران، عن الآيات المحكمات اللاتي هن أم الكتاب، وعن الأخر المتشابهات اللاتي لا يعلم تأويلهن إلا الله وهي التي يتبعها الذين في قلوبهم زيغ ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، ولكن الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا. هل أطلت عليك يا بني؟

- لا، لا.

هكذا يجيب الفتى سؤال الشيخ دون أن يطلع الشيخ على حاله. إنه يشعر الآن أن حفرة سحيقة تتشكل في أعماقه، هوة واسعة مليئة بالشك والتساؤل فيما تركه السلف، فمن يجيبه؟

يعتدل الشيخ في جلسته على مقعده المهيب، ويخوض في حديث عنيف، وعلامات السخط بادية على وجهه، يعبر عنها بإيماءات يصطنعها بيديه وأصابعه الطويلة وهو يقول:

– إن علماء الغرب الملحدين الحاقدين يزعمون أن القرآن الكريم أجزاء متفرقة رُكِّب بعضها فوق بعض دون ترو، ورتبت ترتيبًا سخيفًا مضحكًا حتى أضحت كتابًا ضخمًا يبدأ بالسور الطوال. إنهم يزعمون بوجود ما لا حصر لـــه من مواطن الغموض، ومواضع الحيرة في القرآن. ودليلنا على ما نقول ذلك الجدل المضحك الأخير حول ما قاله أحد هؤلاء العلماء وهو ألماني يدعى كريستوف لوكسمبورج[٨] المتخصص في لغات الشرق الأوسط القديمة، الذي يزعم أن الكثير من مواطن الغموض في القرآن ستختفي شريطة أن نقرأ بعض كلماته، لا على أنها كلمات من اللغة العربية، بل على أنها من كلمات اللغة السريانية الآرامية القديمة. وهو يمضي في حقده فيزعم أن في السورتين الكريمتين "الدخان" و"الطور" كلمات تذكر بالحور العين، ومعناها في اللغة السريانية الآرامية القديمة "العنب الأبيض". وكذلك نجد في سورة "الإنسان" أن الغلمان المولدين الذين يطوفون في الجنة كأنهم لؤلؤ منثور، ما هم إلا "الزبيب المبرد"، ما يشير إلى ضرب من الشراب المثلج الذي يقدم إلى أهل الجنة مع شيء من كرم الضيافة، فيما يشرب أهل الجحيم من الحميم أو المعدن المذاب. إني لأخشى أن يقلل هذا

الحديث من حلاوة الجنة في أعين الشباب من أمثالك، ماذا تقول في هذا بوصفك من الشباب اليافع؟

وفي فورة من الحيوية المفاجئة، التي تبعث على الابتسام، يعتدل الشيخ في جلسته مرة أخرى، ويضع قدميه على الأرض، فيتوارى حذاؤه الأسود عن الأنظار في الحال تحت حاشية القفطان، وتضطرب شفتاه وحاجباه انتظارًا للإجابة، ويجيب أحمد الذي تحنقه هذه المزاعم رغم أن هوة التساؤل داخله كانت آخذة في الاتساع:

– آه، لا، إني أتحرق شوقًا لدخول الجنة.

ويعقب الشيخ رشيد:

– ليس هو سحر الجمال الدنيوي الذي ننجذب إليه كما تهفو نفوسنا لارتياد أماكن البهجة والملذات في هاواي مثلاً، ولكنه شيء نتوق إليه من أعماق القلب، ولا نستطيع من فرط الشوق إليه خلاصاً. أليس كذلك؟

– هو كذلك.

– لذا تجدنا لا نصبر على ما في هذا العالم المادي بما فيه من متع زائفة هي في الواقع ظل ضعيف لما في الآخرة.

– نطقت بالصدق.

– وحتى لو كانت الحور العين مجرد عنب أبيض فهل هذا يقلل من توقك للجنة؟

يجيب أحمد وقد تزاحمت صور العالم الآخر في رأسه:

– بالقطع لا يا مولانا، لا تقلل من حبي للجنة، وشوقي لها.

وقد لا يأخذ بعضهم ما ينطق به الشيخ وحالات توتره مأخذ الجد، وقد يجعلون منها مادة للتندر والفكاهة، بل قد ينصحونه بأن يقلع عن قول ما يقول؛ لأنه قد يهوي به سبعين خريفًا في النار، ولكن أحمد يأخذ كل ما يصدر عن الشيخ مأخذ الجد، بل إن ما يصدر من الشيخ يُقلب مواجعه، ويضيف إلى ما يعتمل في صدره قوة. ولكن الفتى يشعر اليوم بالحنق تجاه الشيخ، ويشعر بعدم الرضى من الشيخ، وهو يريد للدرس أن ينتهي، ولكن الشيخ يريد أن يختتم حديثه إلى أحمد فيقول وقد انفرجت شفتاه الغليظتان:

- على أي حال كان رأيي دائمًا أن الحور العين هن في الحقيقة كنايات أو استعارات تشير إلى السعادة والنعيم الذي لا يخطر على قلب بشر، نعيم خالد مجرد لا علاقة لــه بالتسافد الفج مع نساء مائلات مميلات خانعات من لحم ودم. وأزعم أن التسافد الذي نعرفه في هذه الدنيا هو دليل مادي على زوال متعتها الفانية.

- ولكن...

ويحمر وجه أحمد من جديد، ويريد أن يرد على قول الشيخ:

- ولكن ... ؟

- ولكن الجنة حقيقة لا شك فيها، أقصد أنها مكان حقيقي.

- طبعًا يا ولدي العزيز - وماذا تكون غير ذلك؟ على أن القبول بهذا الكمال النصي، وخاصة في السور المدنية، يغري علماء الكفار بالبحث عن مواطن الغموض والحيرة، اعلم أن الظلام خارج الأبواب يشتد وطأة، وأن نهار الربيع خارج النوافذ يستسلم لجحافل الظلام، اقرأ علي من فضلك الآية رقم ١٤ من سورة "التغابن".

ويبحث أحمد في المصحف، ويجد الآية، ويرتفع صوته بالتلاوة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

– عظيم.. أحسن.. أقصد قراءتك تتحسن، علينا أن نبذل جهدًا أفضل لتقويم لسانك، أخبرني يا أحمد باختصار ماذا تعني هذه الآية؟

– إنها تخبرنا عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو وأمرنا أن نحذرهم، وأننا حين نعفو ونصفح ونغفر فإن الله سوف يغفر لنا ويرحمنا أيضاً.

– ولكن أليس غريبًا أن يكون من أزواجنا وأولادنا من هم عدو لنا؟ كيف يكون ذلك؟ ولماذا يحتاجون إلى العفو والمغفرة؟

– ربما لأنهم قد يحملوننا على الانصراف عن فريضة الجهاد، وعن طاعة الله، والتقرب منه زلفى.

– تمام .. أنت تلميذ جميل يا أحمد، أنا نفسي لم أكن أستطيع الخروج بتفسير أجمل من هذا التفسير. "تعفوا وتصفحوا وتغفروا" – عفو وصفح! إننا نستطيع الاستغناء عن نساء الدنيا المائلات اللاتي يعبدن المال والجاه! ولتكن الجنة مقصدنا! أخبرني يا عزيزي أحمد، هل تهاب دخول الجنة؟

– لا، لا يا سيدي، ولماذا أهاب دخول الجنة وأنا أشتاق إليها كما يشتاق إليها كل مسلم صالح؟

– أجل، كل مسلم صالح، كلنا يشتاق إليها، إنك تسعد قلبي بذكائك. في الدرس القادم سوف نقرأ سورة "الرحمن" وسورة "الواقعة". واعلم يا أحمد –

- نعم؟

يتراجع النهار أمام ظلام المساء، وتكتسي السماء بلون أزرق غامق ممتزج بأضواء محملة بأبخرة قادمة من وسط نيوبروسبكت، فلا تظهر من صفحة السماء غير حفنة من النجوم، ويحاول أحمد أن يتذكر متى تعود أمه من المستشفى التي تعمل بها، فالثلاجة ليس بها غير علبة زبادي واحدة، فهل سيضطر إلى أن يتناول طعامه في محل الوجبات السريعة القريب رغم علمه بعدم نظافته؟

- آمل ألا تزور كنيسة الكفار في وسط البلد مرة أخرى.

ثم يقول وكأنه يتلو من كتاب مقدس:

- لا يغرنك بريق الأنجاس بعض الوقت، الشياطين نفسها تجيد تقليد الملائكة، بل عليك بالطريق المستقيم، "اهدنا الصراط المستقيم." واحذر من يسعى للميل بك عن طريق الحق.

ويجيب أحمد كأنه يضمر شيئًا في نفسه:

- ولكن العالم يمتلئ بالضلال والإضلال.

- لكن السعيد من يأخذ حذره، والنبي نفسه لم ينس نصيبه من الدنيا: فقد كان تاجرًا وزوجًا وأبًا لبنات، وحين أصبح في الأربعين من عمره أرسله الله إلى العالمين كافة ليضطلع بآخر رسالات الله إلى البشر.

عندئذ يدق جهاز الهاتف النقال الذي يضعه الشيخ تحت القفطان، بصوت مزعج حاد لا ترتاح إليه الأذن، وينتهز أحمد اللحظة لمغادرة المكان مستأنسًا بظلام المساء حيث الطريق إلى البيت محفوف بأضواء المصابيح،

وعبق الأطعمة المقلية، وفروع أشجار الصفصاف الشاحبة، بأزهارها المشرفة على الرؤوس.

يقام حفل التخرج كل عام في مدرسة سنترال الثانوية، ويحضر جاك ليفي مع من يحضر من الآباء والأمهات، وتحتقن عيناه بالدمع على الرغم مما في كلمات المتحدثين من سخف، وما في تصرفات الحضور من حمق. يبدأ الحفل عادة بدق على الطبول، يليها أحداث الحفل من خطب وتسليم شهادات، ثم تبدأ مسيرة الخريجين في عباءاتهم السوداء، وقلنسواتهم الجامعية فوق رؤوسهم، ويخيل للناظر أنها على وشك السقوط. ثم تنتهي بالتصفيق الحاد للآباء والأمهات، وابتساماتهم ومصافحات بعضهم بعضاً، وقد رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم كعادتهم في مثل هذه المناسبات. ثم يسير الموكب كله في الممر على أنغام لحن الكولونيل بوجي العسكري، وترنيمة على أنغام لحن من وضع جيمس ملتون بلاك، ونشيد من كلمات كاثرين بيرفيز "عندما سار القديسون على نفس الطريق". في تلك اللحظة يغشى الهدوء حتى أكثر الطلاب جنوحًا وعناداً، حتى أقلهم إذعاناً، ممن كتبوا "ها نحن أحرار آخر الأمر" بخط واضح على شريط أبيض ثبتوه على القلنسوات، أو على قصاصة ورق جعلوها على هيئة زهور، وانتسجوها في الشُرَّابات المتدلية من القلنسوات، حتى هؤلاء غشيهم الهدوء الذي يسبق النهايات بعد أحاديث الوداع. نصحهم المتحدثون بأن يكونوا في خدمة أمريكا بعد التخرج، وأن يلتمسوا أماكنهم بين جيوش السلم العاملة من أجل الديمقراطية. ونصحوهم ألا ينسوا، وهم في سعيهم لإحراز النجاح، أن عليهم واجب الإحسان إلى الناس، ونصحوهم بأن يجعلوا الصالح العالم نصب أعينهم دائماً. نصحوهم بذلك رغم الفضائح وجرائم النهب والفساد

السياسي الذي تنبئنا بها الصحف ووسائل الإعلام في الصباح حين نستيقظ، وفي المساء قبل أن نخلد إلى النوم. قالوا لهم: إن الحياة الحقيقية تبدأ الآن بالنسبة لهم، وإن جنة التعليم العام قد أوصدت أبوابها أمامهم لتفتحها أمام آخرين. ويعجب جاك ليفي لهذا الكلام لأنه لا يرى أن التعليم العام جنة، بل يراه قد أهمل إهمالاً يكاد أن يكون مقصوداً، أو مخزياً، أو يراه جنة يأخذ فيها الشرير الجاهل حق الحيي النابه. لكنه يراها رغم ذلك كلــه جنة من الآمال التي يحفل بها الغد المنظور، أو أرضًا خصبة تنمو عليها طموحات هذا الشعب، فهو لا ينظر إلى جنود الشرطة الذين ينبــثون خلف قاعة الاحتفالات والأبواب، ولا إلى تلك الأجهزة التي تستقبل الداخلين عند الأبواب لتبحث في حقائبهم وجيوبهم عن سلاح أو مصدر لخطر. وإنما ينظر إلى هؤلاء الطلاب الذين يرفلون في عباءات التخرج وقد أشرقت وجوههم بابتسامات وقورة وهم يحتفلون، وإلى تصفيق الحضور، وبهجة الجمهور بزحفهم العابر تحت مقدمة خشبة مسرح روكسيك، بين ضفتين حفلتا بآنية الزهور وصغار النخل التي استقرت في جرار الزينة، يتسلمون شهادات تخرجهم من يدي نات جيفرسون مدير إدارة التعليم في نيوبروسبكت، بينما تذيع مديرة مدرسة سنترال الثانوية، السيدة النحيلة أيرين تسوتسوراس أسماء الخريجين بصوت عذب أمام مكبر الصوت. لكل اسم وقعه الخاص في اختلاف يتصادى مع وقع الأقدام، تحت حواف العباءات المنتفخة، وأنغام اللحن العسكري وهم يسيرون الهوينى في أحذية الكوتشي الخشنة، أو الكعوب العالية، أو الصنادل الواسعة.

يختنق صوت جاك ليفي من شدة التأثر. والناس للناس أحيانًا مصدر سعادة. يتذكر يهود أوروبا وقد ارتدوا أفضل ما عندهم من ثياب، يسيرون

إلى معسكرات الموت وهم لا يعلمون. الآن يصافح الطلبة والطالبات نات جيفرسون التي طالما صافحت غيرهم، شيئًا لم يجربوه قبل اليوم ولن يجربوه على الأرجح بعد اليوم. ويقف مدير إدارة المدرسة، وهو رجل أسود البشرة عريض المنكبين خبير بقوة المدينة الانتخابية الضاربة التي انتقلت من البيض إلى السود، والآن إلى المنحدرين من أصول أسبانية ليمنح كل طالب خريج ابتسامة، وهو يخص البيض بابتسامات أعرض، حسبما يرى جاك ليفي، وهم أقلية متميزة في المدرسة. يصافح كل طالب وطالبة، ويشيعه بعبارة دافئة مشجعة: "شكرًا على صبرك علينا. معًا سوف نجعل أمريكا ونيوبروسبكت وسنترال الثانوية أفضل." ووسط هذه القائمة الطويلة من الأسماء تقرأ أيرين بصوت عال: "أحمد عشماوي مولوي." يتقدم الفتى بشيء من الحرص، طويل القامة واثق الخطوة، لا يبالغ في التأنق ولا يسرف في الرقة، كما يفعل آخرون، حتى وصل إلى المنصة وسط هتافات أنصاره وضحكاتهم وتلويحاتهم، رغم قلة عددهم. يرسل جاك ليفي أحد أطراف أصابعه ليرد دمعتين انحدرتا على خديه، وهو جالس في الصف الأول بين زميلين من مدرسي المدرسة.

ينهض قس كاثوليكي ليبارك الخريجين النصارى، وينهض إمام مسلم ليبارك الخريجين المسلمين، وينهض حبر يهودي ليبارك اليهود. يقف الإمام المسلم في قفطانه وعمامته البيضاء التي أحكم وضعها على رأسه، ويرتفع صوته باللغة العربية مما دفع الحضور إلى صمت مطبق. ثم لا يلبث أن يترجم ما قاله إلى الإنجليزية. ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ

وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ ونقول للذين يتخرجون اليوم: ارتفعوا فوق الزبد والغثاء، وامكثوا في الأرض، وللذين تصيبهم المصائب لأنهم اختاروا الطريق المستقيم، نقول لهم ما قاله النبي: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وهنا يتأمل ليفي حديث الرجل ويفهمه، رجل نحيل هزيل يتحدث بلسان العصمة، ويمثل منظومة كاملة من المعتقدات كانت منذ سنوات سببًا في موت بضع مئات، ضمن آلاف أخرى، من موظفي شمال نيوجرسي الذين كانوا يذهبون إلى أعمالهم في نيويورك. حينئذٍ نثرت مدينة نيوبروسبكت سكانها على الأماكن العالية ليروا الدخان الكثيف المتدفق من برجي مبنى التجارة العالمي، متئدًا في سيره حتى حط فوق مدينة بروكلين، فتحول النهار إلى ظلمة حالكة. يتذكر جاك ليفي إسرائيل التي لا تنام تحسبًا لشيء قد يأتي به الغيب في أية لحظة، وتذكر معابد اليهود القليلة في أوربا يحرسها البوليس ليل نهار تحسبًا لكراهية قد تتمخض عن حادث. تذكر ذلك كله فذهب ما كان يضمره للإمام من حسن النية، ولم ير شيئًا غير أن وجود الإمام في زيه الأبيض، وعمامته الضخمة، مثل قطعة العظم الغريبة التي انحشرت في حلق المناسبة. لم ير ليفي غضاضة في وجود الأب كوركوران وهو يصنع علامة الصليب في ختام الحفل الطويل. كان اليهود على عهد أبيه وجده يؤذون علنًا وسرًا ويوسمون بأنهم قتلة المسيح، في حين ينعم هذا الإمام وغيره بديمقراطية العصر التي لا تعطي المجال للقدح والقذف.(٩)

يقول الرجل الذي يجلس إلى جوار جاك ويدعى آدم برونسون، مهاجر من باربادوس، يُدَرس الرياضيات المالية للصفين العاشر والحادي عشر:

– انتهى الحفل على خير، حمدت الله لأن العام الدراسي مضى دون حادثة قتل واحدة.

ويجيبه جاك ليفي:

– هون عليك، لابد أنك تتفرج على أخبار التلفاز كثيراً، لسنا هنا في كولومبيا أو كولورادو، الغرب الضاري، ثانوية سنترال أكثر أمنًا مما كانت عليه حين كنت طالبًا بها، كان أفراد عصابة السود لديهم مسدسات من نوع الخرطوش، ولم تكن بالمدرسة بوابات أمن أو حتى رجال أمن. أما أمن المدرسة فقد أوكل إلى مشرفي المدرسة، والمحظوظ منهم من يمضي به النهار ولم يدفعه طالب أو جماعة من الطلبة على الدرج.

يرد آدم في لهجته التي لا تكاد تبين:

– عندما جئت إلى هنا لم أصدق في البداية حين وجدت رجال الشرطة في القاعات وفي المطعم. كنا في باربادوس نتقاسم الكتب القديمة، ونكتب على الورق من الوجهين، ونستغل كل قصاصة، كان التعليم بالنسبة لنا شيئًا ثميناً، لم نكن نتخيل أن أحدًا سيلحق بنا أي أذى. وهنا في هذا المبنى المهيب نحتاج إلى حراس، ومع ذلك لا يؤمن على المدرسة من التدمير. لا أفهم هذه الكراهية الأمريكية لأي نظام محترم.

– اعتبر ذلك إسرافًا في ممارسة الحرية، والمعرفة حرية.

– حتى طلابي لا يصدقون أنهم في حاجة إلى هذه الرياضيات المالية التي أُدَرِسُها لهم. يعتقدون أن الكومبيوتر يقوم عنهم بكل شيء، ويكادون يجزمون بأن العقل البشري قد أخذ إجازة مفتوحة، وما عليهم إلا أن يتفرغوا للإمتاع والتمتع.

وأثناء سير الموكب ينقسم المدرسون إلى شقين، فيجد آدم نفسه منضمًا إلى الصف المقابل، ويبتعد بذلك عن ليفي، ولكنه يتحول نحوه قبل أن تتفاوت المسافة بينهما ويسأله:

– قل لي يا جاك، هناك شيء أريد أن أسالك عنه وأخشى الإحراج إن سألت أحدًا آخر. من هو جي – لو؟ كثيرًا ما أسمع طلابي يتحدثون عنه؟

– تقصد هي! مطربة .. ممثلة .. من أصول أسبانية.. امرأة متحررة.. حوت كبير .. ولا أستطيع التصريح بأكثر من ذلك، ثم يستمر في حديثه حتى لا يتهمه الباربادوسي بالجفاف ويقول:

– في فترة من فترات الحياة يشعر المرء أن الاحتفالات لا تشفي غليلاً.

ويكتشف أن المدرس الذي يزامله في الصف الجديد امرأة، هي الآنسة ماكنزي مدرسة اللغة الإنجليزية للصف الثاني عشر، اسمها بالكامل كارولين ماكنزي، ضامرة الجسم، عظيمة الفكين، ترسل شعرها المائل للشيب في خصلات غليظة على منكبيها وعلى جبهتها، قصت حاشية شعرها ليتسق مع حاجبيها. يقول لها جاك بدفء:

– كاري، سمعت أنك تدرسين كتاب "علم الجنس" لطلابك في الصفوف المتقدمة.

تعيش كاري مع امرأة أخرى في باراموس، ويشعر جاك ليفي بأنه يستطيع أن يمازحها كما يمازح رجلاً آخر.

لم يفتر ثغرها عن ابتسامة، ولكنها تقول لــه في شيء من الجفاف:

– لا تكن سخيفًا يا جاك، لقد كان جزءًا من ترجمته لحياته، وقد أدرجته ضمن قائمة اختيارية ولم أجبر أحدًا على قراءته.

– نعم .. ولكن ماذا فعل به الطلاب الذين درسوه؟

وتخبره بصوت حاد عدائي يختلط بضجيج الموسيقي ووقع الأقدام:

– لم يجدوا فيه صعوبة لأنهم قرأوه في البيت من قبل.

يجتاز الحشد البشري الذي سار في هذا الحفل الكبير – الخريجون والمعلمون والآباء والأجداد والأعمام والعمات وأولاد الأخ وأولاد الأخت – مبنى الاجتماعات الرئيسي إلى القاعة الأمامية حيث ميداليات الإنجازات الرياضية في صناديق طويلة محكمة الغلق مثل كنوز الفراعنة المنطوية على أسرار الماضي الساحر، تنتظر التوزيع. وخارج الأبواب الأمامية العريضة المفتوحة على مصاريعها لأضواء شمس الأول من يونيو، على المشهد المشبع بالغبار لبحيرة الركام، انطلقت أصوات أصحاب الميداليات وقد اجتازوا الدرج الأمامي المهيب، بفرح الفائزين واستهجان الساخطين. لقد كان الدرج الأمامي المهيب الرخامي الخالص يطل ذات يوم على فضاء عريض من العشب الأخضر، والشجيرات الصغيرة المتراصة. انحسر العشب والشجر توسعة لشارع تِلْدِن الكبير (سماه بهذا الاسم، تحدياً، أعضاء المجلس التشريعي الديمقراطي إبان سرقة الرئاسة التي حدثت في ١٨٧٧، قامت بها اللجنة الانتخابية للحزب الجمهوري بالتآمر مع جنوب كان تواقًا لرفع الحماية العسكرية الشمالية على سكانه الزنوج) فترى الآن آخر الدرج يطل على رصيف المشاة المنفصل عن الأسفلت بشريط ضيق من العشب الذي تنشط فيه الخضرة زمنًا قصيرًا لا يتجاوز الأسابيع القليلة، قبل أن تقبل حرارة الصيف القائظ فتجهض ازدهاره، ولا يسلم أيضًا من أقدام الإهمال

تطأ خضرته الربيعية فتحوله إلى مدق من العشب الميت. ووراء الإفريز نجد طريق الأسفلت الذي تجعد مثل فراش لم يحسن ترتيبه فكثرت على صفحته الأخاديد التي ترقعت مرة بعد مرة، والندوب التي خلفتها السيارات والشاحنات المندفعة على الطريق بأوزانها الثقيلة التي تسحق الأرض من تحتها مما سهل تكوين مستنقعات صغيرة، قد أغلق أمام المرور بمتاريس زينت بشرائط صفراء ساعة الاحتفال لإفساح المجال أمام الحشد المحتفل للوقوف وتبادل التهاني وانتظار الخريجين الجدد حتى يفرغوا من تسليم عباءاتهم داخل المبنى وتوديع زملائهم الوداع الأخير.

وبين الحشد يظهر جاك ليفي كثير الحركة فاتر الرغبة في الذهاب إلى البيت ومواجهة بدايات الصيف مع زوجته، وقد غشيه شيء من كآبة بعد حوار قصير مع كاري ماكنزي أحس بعده بجدب حياته في مجتمع تغلب عليه عشوائية العلاقات. وفي غمرة السأم ودنو الذهاب يصطدم جاك ليفي بتيريزا مولوي. وجهها المبقع متوهج بفعل حرارة الصيف، تضع في جاكِت بذلتها الكتانية الشاحبة زهرةً ذابلة من نبات السحلب، ويحييها بشيء من وقار:

– تهاني القلبية يا مسز مولوي.

– أهلاً.

ترد إليه التحية متصنعة المفاجأة، وتزيد بلمسة رقيقة على ذراعه كأنها تؤسس لصداقة حميمة غرس بذورها في الزيارة السابقة، ثم تقول وهي تستجمع أنفاسها:

– لابد أنك تمني النفس بصيف مدهش هذا العام.

ويقول كأنه فوجئ بالسؤال:

- أبداً، نفس الصيف القديم، لا جديد، إجازة بــث من المكتبة ليست سوى أسابيع قليلة، ومن جهتي سأحاول جمع بعض المال من الدروس الخصوصية ونزور ابننا في نيومكسيكو عادة في أغسطس لمدة أسبوع، هناك يكون الجو حارًا ولكن الرطوبة ليست بالقسوة التي نجدها هنا. وأيضًا بــث لها أخت تعيش في واشنطن، ولكن واشنطن أكثر رطوبة من هنا، ولذا فهي تأتي إلينا ثم نذهب كلنا أسبوعًا أو أكثر إلى الجبال في مكان ما قريب من غور ديلاوير المليء بالماء. ولكنها مشغولة جدًا هذه الأيام، مشغولة بالطوارئ دائماً. وفي هذا الصيف...

ثم يؤثر الصمت، ومن حسن توفيقه أنه يستخدم الضمير "هي" بدلاً من الضمير "نحن" ليذكر تلك المرأة أن لــه زوجة، ولكن بــث تكبرها بعشرين عاماً.

- وماذا عنك أنتِ؟ أنتِ وأحمد.

ترتدي تيريزا ثيابًا رقيقة هادئة، عبارة عن بذلة من الكتان في لون قشر البيض فوق قميص أبيض ولمسات غنية بالألوان تشي بروح منطلقة، فنانة وأم. تتدلى من يديها خواتم فيروزية باهرة، ويعكس ذراعاها هالات من زغب يتوهج في ضوء الشمس، وقد زينا بمجموعة متسقة من أساور ساحرة من الذهب والمرجان وأضاف إلى السحر سحرًا ذلك الوشاح الكبير من الحرير المطرز بدوائر نحيلة معقدة أحكمت ربطه تحت الذقن، وقد غطى شعر الرأس ما خلا حاشية الجبهة التي برزت منها شعيرات قليلة ضالة مائلة إلى اللون الأحمر تستريح على النتوء الأيرلندي الذي تميزت به

جبهتها. تسترق النظر لعيني جاك ليفي فتدرك أنهما استقرتا على الوشاح فيفتر ثغرها عن ابتسامة، وتشرح للمستطلع:

– هو الذي طلب مني أن أرتدي هذا الشال، قال لي بالحرف الواحد إنه لا يريد أن يرى أمه تلبس ثياب العاهرات في حفل تخرجه.

– يا إلهي، ولكنه جميل على نحو لم يخطر على البال، وهل كانت زهرة السحلب من اختياره أيضاً؟

– رأى الأولاد يجلبونها لأمهاتهم ففعل مثلهم، أحمد يتميز بهذا الميل الفطري نحو الالتزام بالعرف السائد.

كان وجهها، بعينيها الناتئتين الخضراوين في شحوب جواهر زجاج الشاطئ، أكثر إثارة في الشال الساحر مما جعله يهيم في خيال جسد باهر. يكاد وشاحها الرأسي ينضح بالرغبة، وفي وسط الحشد يصبح أكثر قربًا كمن نصب نفسه حامي الحمى، وتخبره:

– رأيت أمهات أخريات مسلمات سود يتشحن في ملابسهن البيض مما يجلب الإثارة والعجب، بعض المتخرجات من بنات عمال المصانع السود، كنا في صبانا نسميهن الأتراك ولم يكن أتراكاً. يثير شعري الأحمر تحت الوشاح حفيظة الراهبات. سمعت من يقول إني أزدهي بعناصر فتنتي وتساءلت في ذلك الوقت ماذا تكون عناصر الفتنة، وكيف للمرء أن يزدهي بها. أظن أن عناصر فتنتي كانت كامنة هناك.

وتقلده في الثرثرة وسط الحشد المحتفل، ويقول في هدوء وهو يعني ما يقول:

– كنتِ أمًا طيبة، ولم تقفي عائقًا في طريق حريته.

يظهر على وجهها تعبير محايد وهي على وشك الإفضاء:

– لم تكن حاجاته كثيرة في السنوات الماضية. وها هو ينهي المرحلة الثانوية ولكن الشعور بالوحدة لم يزايله. لقد صنع علاقته مع إلهه هذا دون مساعدتي.. لم أناقشه في ذلك أبداً، وقد سئمت من إصراره على البحث عن أب لم يكلف نفسه عناء المكث معه، أقصد معنا. علمني أحمد أن الفتى يشعر بحاجته إلى الأب، وإذا لم يظفر بأب يضطر إلى أن يخترع لنفسه أباً. كيف فسر فرويد هذه المعضلة؟

هل يعلم أنها تضطلع هي بهذا الدور الفرويدي؟ أي أنها تدفعه إلى أن يريدها؟ لم تفكر بــث في استحضار فرويد أبداً. فرويد الذي شجع الناس قرنًا بأكمله على الإعلاء من مسألة الجنس في حياتهم. ثم يقول ليفي:

– يبدو أحمد أنيقًا في عباءة التخرج، أليس كذلك؟ ما يؤسفني هو أني عرفت ابنك متأخراً، أنا أحبه جدًا رغم أنه لا يبادلني الإحساس نفسه.

– لا يا جاك، أنت مخطئ، إنه يقدر رغبتك في تشجيعه على الدراسة، وربما أكمل تعليمه فيما بعد. ولكنه الآن يلح على الحصول على رخصة قيادة الشاحنات. اجتاز الاختبار التحريري، وسوف يختبر اللياقة البدنية في غضون أسبوعين. يريدون التأكد من خلوه من عمى الألوان، والتمتع بنظر ممتاز. ويتمتع أحمد في الواقع بعينين جميلتين أعتقد أنهما في لون البحر، ورثهما على ما أظن عن أبيه الذي كان ذا عينين أقرب إلى لون الزنجبيل.

– ولكني أرى في عينيه أثرًا من عينيك الخضراوين.

وتتجاهل هذه المداعبة وتستمر في القول:

– ولكنهما ليستا عشرة على عشرة في قوة الإبصار، عينا أحمد أيضًا فيهما مشكلة بعد النظر، ولكنه يأبى ارتداء النظارات ترفعاً. العجيب أن به

خيلاء مع كل هذا الورع والتقوى، أو لعلها ليست خيلاء ولكنه الاعتقاد الجازم بأن الله سوف يريه ما لا تستطيع عيناه أن تراه. كان يعاني من مشكلة في رؤية كرة البيسبول، ولذا هجر هذه الرياضة إلى رياضة الجري في الصباح أيام الربيع.

يعرف ليفي من خوضها في خصوصيات ابنها، وهي خصوصيات لا تختلف كثيرًا عما يراه ويعرفه عند المئات من أقرانه من طلبة المدرسة، أن هذه السيدة تريد أن تراه مرة أخرى؛ فيسألها على أمل الوصل:

– أعتقد أنه لا يريد الاحتفاظ بالكتيبات التي أحضرتها لــه الشهر الماضي.

– عندي أمل أن يعثر عليها ويستفيد منها، فحجرته مليئة بالفوضى فيما عدا الركن الذي يصلي فيه. كان يجب أن يعيدها إليك يا جاك.

– ما عن هذا أتحدث.

يبدأ الحشد المتدافع في الانصراف، ويشعر أن هناك من يخصه بالنظرات ويفسح لــه الطريق، ويشعر أنه متورط في شيء ما لا يعرف كنهه. ربما كان مصدر ذلك تلك الحيوية الفائقة التي تظهر بها تيري، وسعيه الحثيث لمجاراتها في النشاط والحيوية، والدليل على ذلك تلك الابتسامة التي يرسمها على وجهه استجابة لابتساماتها التي تطل من وجهها المستدير المتألق بالبهجة والضوء.

وتطل سحابة ثقيلة فتحجب قرص الشمس، وتلقي بشيء من الكآبة والفتور على المشهد – مشهد بحيرة الركام، والشارع الذي حيل بينه وبين المرور، وذلك الحشد من آباء وأقارب في أزيائهم الأنيقة، وواجهة مدرسة سنترال الثانوية المطلة على ذلك كلــه بمداخلها المرصعة بالأعمدة،

ونوافذها التي ضربت عليها قضبان الحديد، يمتد ارتفاعها في السماء فتطل على ما دونها كما تطل ستارة مسرح الأوبرا الشاهقة على مطربين يعزفان لحنًا ثنائياً.

– هذا سوء أدب منه، كان يجب أن يعيدها إليك في المدرسة ولا ينتظر حتى يطول الوقت.

– لا أقصد ذلك، ولماذا لا آتى أنا لآخذها في يوم من الأيام؟ سأتصل بك قبلها لأتأكد من وجودك في البيت.

حين كان جاك صبيًا صغيرًا يعيش مع أسرته على طريق توتوا، عندما كان الطابع الريفي لا يزال يغلب على المنطقة فيما خلا تلك المنازل التي ألحقت بها مزارع الماشية التي انتشرت على الجانبين، كان جاك يتحدى الخوف أحياناً، في طريقه إلى المدرسة أيام الشتاء، فيخوض في ثلج بركة كان يراها زمنًا طويلا في الغدو والرواح. لم يكن عمقها كبيراً، بدليل تلك الأعشاب الصغيرة النامية، وتلك الروابي المعشوشبة. ولكنه كان يخوض في الماء والوحل فيغوص حذاؤه المدرسي في الطين حتى يجاوز الماء- إلى اليابس فينظر فإذا حذاؤه قد دمر. وكان لذلك أثرٌ منكرٌ على أسرة فقيرة لا تملك من المال الكثير. وتنحسر السحابة عن قرص الشمس قليلاً فينطلق الضوء قوياً، ويسقط على وشاح رأس تيري الحريري، وبذلتها الكتانية، عندئذ ينصت بإجلال لعله يسمع صوت الثلج المتكسر.

الفصل الثالث

يدق جرس الهاتف، ولا تجد بــث رغبة في النهوض من مقعدها الهزاز "الليزي بوي" المغطى بطبقة بنية من البلاستيك أشبه بالجلد المتغضن، يقوم على قاعدة مرتفعة على ساق محشوة. هنالك كانت تتناول طبقًا عامرًا بالكعك المرصع بالزبيب، أقل في عدد السعرات من أطباق الشوكولاتة وساندويتشات المايونيز، وكانت تشاهد برنامج "بينما الدنيا تسير" في الساعة الثانية على قناة السي بي إس. فكرت في شراء سلك طويل تصله بجهاز التليفون حتى يسهل حمله إلى جوارها حيث تجلس على مقعدها المريح في تلك الأيام التي لا تذهب فيها إلى مكتبة كلفتون. كانت تنسى دائمًا أن تطلب من جاك شراء السلك من محل التليفونات في المول الواقع على طريق ٢٣. تتذكر: حين كنت طفلة كنا نتصل بشركة إيه تي آند تي، فيرسلون إلينا رجلاً في بزة رمادية، وحذاء أسود، يصلح كل شيء لقاء سنتات معدودة. ولكن الشركة كانت تحتكر كل شيء، وكان الاتصال بالأماكن البعيدة يكلفنا الكثير. أما اليوم فلا يصلحون أجهزة التليفون، وعلينا التخلص منها كما نتخلص من أجهزة الكومبيوتر القديمة، وجرائد الأمس.

من ناحية أخرى ترغب بــث في الحد من حياة الدعة التي تعيشها، وترنو إلى حياة فيها قسط أكبر من الرياضة البدنية حتى ينقص وزنها. كانت في أول عهدها بالشباب والزواج تملأ البيت نشاطًا وحركة، ولا تمل من ترتيب الأسرَّة، ومطاردة الأتربة، ورص الأطباق. تقوم اليوم بهذه الأعمال، بحكم العادة، وهي نصف نائمة تقريبًا، تمشي وهي نائمة لتعيد ترتيب

الأشياء، وإن كانت لا تستطيع التخلص من الأتربة كما كانت تفعل في الماضي، اليوم تعتمد على الآلات الحديثة لأنها أخف حملاً وأكثر كفاءة، ولو أنها كانت تخفق دائمًا في أن تجد الفرشاة المناسبة لتثبتها في نهاية خرطوم المكنسة، مثلما كانت تجد عناءً في إعادة الأجزاء إلى أماكنها الصحيحة. آلات اليوم أشبه ما تكون بالألغاز، صعبة في ترتيب أجزائها مقارنة بالآلات القديمة التي كانت يسيرة الاستعمال ولا تكلفها غير ضغط على زر التشغيل فتزيل التراب من فوق السجاد كما يفعل محراث الثلج في الطرقات. لم تكن تشعر مع تلك الآلات القديمة بتعب ما، فقد كانت أخف وزنًا وأكثر نشاطاً، وكانت تعتبر عمل البيت قدرها أو صليبها الذي يجب أن تحمله كما يقول رجال الدين.

كثير من زملائها في مكتبة كلفتون، وكثير من الشباب الذين يدخلون المكتبة ويخرجون منها كل يوم، يحملون هواتف نقالة، يضعونها في جيوبهم أو يثبتونها على أحزمتهم، ولكن جاك يقول إن هذه الأجهزة ما هي إلا حيل للاستيلاء على المال، وإن الفاتورة تأتي ثقيلة مثل فاتورة كابل التلفاز الذي لا يحبه ولكنه اضطر إلى شرائه من أجلها. يقول جاك: "إن ما نسميه الثورة التكنولوجية ما هي إلى جملة من الحيل التي تبتز بها الشركات أموالنا التي ندفعها لهم عن طيب خاطر على هيئة أقساط شهرية ثمنًا لخدمات لا نحتاجها. ولكن لا ريب أن الكابل يجعل الصورة أكثر نقاءً، وتختفي الاهتزازات والتذبذبات، وتصبح الاختيارات أكثر مما تعرضه القنوات الأرضية بكثير. إن جاك نفسه يفتح قناة التاريخ كلما سنحت لــه الفرصة في أمسيات الفراغ. ورغم أنه يزعم أن الكتب أكثر نفعًا من التلفاز وأعمق فإنه لم يقرأ كتابًا واحدًا حتى نهايته. وقد أخبرها أيضا، ودون حرج، أنه لا

يحب حمل الهواتف النقالة؛ لأنه لا يريد أن يُسهِل الوصول إليه لاسيما حين يكون مشغولاً في درس خصوصي، وأن الأفضل لها أن تتصل برقم ٩١١ إذا عرض لها عارض صحي أو نحو ذلك؛ لأن الاتصال به في هذه الحالة ليس من الحكمة في شيء. ثم إنه قد لا يكترث لموتها ولا يأبه لرحيلها، بل على العكس سيشعر أن حملاً يزن مائتين وأربعين رطلاً انزاح من فوق كاهله. ولكنها تثق في أنه لن يتركها وحدها، سبب ذلك في نظرها الإحساس بالمسئولية الذي يتميز به اليهودي، وقدر من عاطفة يدخره لها. لقد عانى اليهودي من الاضطهاد والازدراء ألفي سنة أو تزيد، فلا عجب أن يكون ولاؤه لمن يحب حيلة يحتال بها على البقاء.

إنهم قوم استثنائيون حقاً، لم يكذب الكتاب المقدس حين خصهم بمكانة دونها مكانة الناس جميعاً. تقول لزملائها في مكتبة كلفتون: "عندما قابلت جاك في جامعة روتجرز أحسست بكهرباء تسري في جسدي لأول مرة في حياتي، كان يعتقد أني مرحة وطيبة، وربما كان يعتقد أني كنت ساذجة جدًا وإن لم يصرح لي بذلك طوال حياته." عرف أنها لوثرية، وعرف أيضًا طبعها، ومع ذلك فقد أحبها. كان نحيلاً واثقًا يحب مهنة التدريس، حلو اللسان، بعيدًا عن التكلف، سريع البديهة، حاضر الذهن. وكان يطمح إلى أن يكتب نصوصًا وسيناريوهات لأشهر ممثلي الكوميديا من أمثال جاك بني وملتون بيرلي.

أين هو الآن؟ أين هو الآن في ذلك اليوم الصيفي الذي بلغت الرطوبة فيه حدًا لم تستطع معه الخروج؟ تتمنى أن تكون في المكتبة حيث أجهزة التكييف عالية الكفاءة التي تختلف عن المكيف المثبت على نافذة حجرة النوم ولا تصدر عنه غير ضوضاء مزعجة. يهيم الرجال على وجوههم،

ويضطربون في زوايا المدن وأركانها. كانت في صغرها تؤثر الهدوء والحديث الذي لا ينقطع مع شقيقتها هرميون عن نظرياتها ومبادئها. كان أبوها وأمها يسببان لها الضيق بسبب سلبيتهما، وموافقتهما على كل ما تقوله النقابات، وما يصرح به أعضاء الحزب الديمقراطي، وما ينشر في صحيفة مساء السبت. ولكن إليزابيث لم تكن تبدي فزعًا من هذه السلبية. كانت تحب الهدوء والأماكن الهادئة كالمتنزهات والمقابر والمكتبات قبل أن تُبتلى بالزحام. كانت تحب المطاعم؛ لأنها تستمع فيها إلى موسيقى تتهادى من خلف المقاعد، من شرائط كاسيت أو أجهزة الدي في دي. عندما كانت فتاة يافعة أحبت العيش في شارع بليزانت على مقربة من ساحة أوبري الخضراء على مشارف شارع تشو حيث ترتفع من حولها أشجار الزان التي التفت رؤوسها فصنعت ما يشبه القباب المرتفعة، استلهمت منها صورة الفردوس تحيطها أشجار خشب الحور المتمايلة لأقل نسمةِ هواء كأن أرواحًا حية تقطنها ولا تغادرها. هل كان البدائيون يعبدون الشجر في ذلك الماضي السحيق؟ يصل بك الجانب الآخر، بالتروللي الذي يعبر طريق جرمانتاون الكبير على بعد عمارة واحدة، إلى ساحة فيرمونت الشاسعة بحذاء نهر ويساهيكون المندفع عبر الساحة لينتهي عند معهد اللاهوت اللوثري بمبانيه الحجرية العتيقة الباهرة، وطلابه الجادين الصغار بأناقتهم البادية. تراهم في المماشي يستظلون بالأشجار في أيام لم تكن تسمع الضجيج الذي يصدره الجيتار، أو حديث رجال الدين ونسائه عن زواج المثليين. اليوم ترى الشباب يتحدثون في المكتبة عن كل شيء بصوت مسموع كأنهم في بيوتهم. ضاعت القيم حتى في الأفلام السينمائية. دمرها جهاز التلفاز فلم يترك منها شيئاً. وعندما تستقل هي وجاك الطائرة إلى نيومكسيكو لزيارة ماركي في البيركوركي، كانت ترى الركاب يرتدون السراويل القصيرة التي تظهر منها سيقانهم بطريقة معيبة، أو يرتدون شيئًا يشبه البيجامات الفضفاضة مما لا

يتسق مع المقام. لقد جعل التلفاز الناس يشعرون أنهم في بيوتهم أينما وجدوا، لا يشعرون بالفرق بين الحشمة والوقار. ترتدي النساء السراويل القصيرة، ويجلسن أمام التلفاز فَتسْمَنّ، وتتحول أجسامهن إلى كتل من اللحم المكتنز.

يحول عملها في المكتبة، أربعة أيام في الأسبوع، بينها وبين متابعة مسلسلات الظهيرة فتفلت منها حلقات مهمة في المسلسل. ولكن لحسن الحظ تسير القصة ببطء يترك لها فرصة للمتابعة. نشأت عندها عادة تناول الغداء أمام التلفاز من ساندويتش، أو بعض السلطة، أو ما بقى من طعام في الميكروويف. لم يعد جاك يأكل كل ما يقدم إليه، يبقى في أطباقه شيء تستخدمه، وتحلي بعد ذلك بقطعة من فطير الجبن، أو قليل من الكعك الصغير، وتتسلى ببعض حبات الزبيب وهي على مقعدها قابعة تتابع المسلسلات التي يشبه بعضها بعضاً. لا تخلو هذه المسلسلات من ثلاثة ممثلين شباب يجلسون في حجرة مسرفة في الاتساع مفروشة من كل أثاث جديد كما ينبغي لأستوديو. تتردد في أركانها موسيقى خفيفة ليست من الأرغن كما في المسلسلات الإذاعية القديمة، ولكنها خليط مصطنع من أصوات الجيتار تارة والزيليفون تارة أخرى، وآلات الكمان تارة ثالثة، أصوات صاخبة تعضد عنصر التشويق في حديث الممثلين. تؤكد الموسيقى على عبارات الاعتراف المتحدية التي ينطق بها الممثلون ثم ينتهي بهم الأمر إلى أن يحدق كل منهم في عيني الآخر اصطناعًا للدهشة وقد برزت مقل العيون تعبيرًا عن الحزن أو العداء: "لا تهمني سعادة كندال ..." أو "لا شك أنك تعرف أن رايان لا يريد أطفالاً؛ إن أشد ما يرعبه تكوين أسرة..." أو "حياتي كلها أفلتت من يدي. بت لا أعلم من أنا وفيم أفكر ... " أو "أفهم ذلك من عينيك، الناس جميعًا يحبون الفائز ..." أو "عليك أن تحبي نفسك أكثر حتى يتسنى لك هجر هذا الرجل. فليذهب إلى أمه إذا كانت تلك رغبتها..."

أو "أشعر أني تائه في صحراء ..." أو "لم أدفع مالاً لممارسة الجنس في حياتي كلها، ولا أريد الآن أن أفعل."

تعتقد بــث أن الممثلات الشابات يصطنعن لغة جديدة. تلتف ألفاظهن في نهايات الجمل وتعود إلى حلوقهن كأنهن يغرغرن. وتقول بــث: إن الفتيات أكثر عفوية من الشباب. عندما يدور حوار بين امرأتين وشاب فإن الشاب يكون في موقف المرتبك المدافع عن نفسه. تعلق بــث بأن الحياة دائمًا تجري على هذا النحو: منافسات تجري بسبب الجنس والغيرة وكسب المال في المجتمع البنسلفاني مثل غيره من المجتمعات. بــث من بنسلفانيا وتقول: إن بنسلفانيا أفضل من أي مكان على وجه الأرض. لكن كيف فقدت الرغبة في الحياة، أو على الأقل كيف أفلت منها الكثير؟ تقول: "أرى حياتي تفلت مني دون أن أدري." جملة سمعتها من إحدى الشخصيات في مسرحية "كلهم أبنائي" ربما كان اسمها أيرين، أو كريستال. وتذكر أيضًا أن العبارة هزت كيانها كزلزال. نشأت بين أبوين محبين، وقدرت لها الأقدار زواجًا سعيدًا رغم خروجه عن المألوف، وطفلاً رائعًا ذكياً، وعملاً لا يرهقها بدنياً: تسجل الكتب المستعارة وتبحث عن الكتب على الإنترنت، ولكن الأقدار تآمرت عليها أيضًا كي تجعل منها امرأة ضعيفة بدينة. "رايان .. أريد بالفعل أن أساعدك.. أريد أن أفعل أي شيء لمساعدتك.. أضع لأمك السم إذا اقتضت الحاجة لذلك." عبارات سمعتها أيضًا من إحدى الشخصيات، لم يقل لها أحد ذلك، ولن يقوله. من أكثر لحظات حياتها إثارة يوم زواجها من اليهودي جاك، لم يحضر أبوها ولا أمها حفل الزواج.

يلوذ الممثلون الشباب بفترة من الصمت قبل الإجابة. فترات الصمت التي تتخلل المحادثة حبلى بالخوف، تخشى بــث أن يفلت منهم ما حفظوه، ولكنهم يتكلمون بعد لأي ويوفقون. برامج المساء مليئة بالصخب –

استعراضات رجال البوليس ومسرحيات كوميدية ونشرات أخبار يديرها عادة أربعة يجلسون على الطاولة يتبادلون الابتسامات (مذيع، ومذيعة للأخبار العادية، ومذيع لأخبار الرياضة، وقارئ النشرة الجوية محط السخرية) – في حين تعرض المسلسلات العاطفية خلال ساعات النهار وسط صمت ثقيل، صمت لا تخفف من وطأته الإعلانات الخليعة، والاعترافات المتوترة، والتصريحات الكاذبة، والعداءات العنيفة، ولا تمحوه الألحان الدينية المجلجلة، ولا دخول الأغاني الشعبية الضعيفة إنهاءً للمشهد. الصمت الرهيب هو الخلفية التي تربط بين هذه الأجزاء جميعاً. وبــث على مقعدها الكبير مغتاظة لأن الطبق نضب مما فيه من زبيب وكعك. والآن يرن التليفون، وعليها أن تغادر مقعد "الليزي بوي" المبطن وإن ضاعت منها متابعة دايفد، طبيب القلب الوسيم وهو يتهم ماريا، جراحة المخ الفاتنة، التي اغتيل زوجها إدمند الصحفي الفائز بجائزة بوليتزر، في حلقة ماضية لم تشاهدها بــث للأسف.

تنهض بجسمها اللحيم من مقعدها الوثير، على مراحل. تبدأ بتحريك رافعة المقعد حتى ينخفض بها، ثم تنشب معركة بينها وبين المقعد هدفها وصول قدميها إلى الأرض، عندئذ تنبس على الذراع الأيسر للمقعد بيديها، وتشد نفسها إلى أعلى، وفي النهاية تجد نفسها واقفة على ركبتيها المرتجفتين وقد أمسكت أنفاسها. في بداية الرحلة أرادت أن تضع الطبق الفارغ على المنضدة الصغيرة مرورًا بذراع المقعد، ولكنها تنسى "ريموت" التلفاز على حجرها فيسقط على الأرض. هناك تراه بوجهه المستطيل الذي علته الأرقام، وبقع القهوة والطعام التي تراكمت مع الزمن على السجادة الشاحبة اللون. نصحها جاك بأن هذا النوع من السجاد تظهر عليه البقع. ولكن الشحوب كان الموضة كما قال لهم بائع السجاد: "والشحوب يعطى الانطباع باتساع المكان." يعرف الجميع أن السجاد الشرقي يستوعب البقع. ولكن أين لهم

بــثمن السجاد الشرقي؟ يبيعونه في شارع ريغان مستعمل بسعر أرخص، ولكنها لم تذهب لا هي ولا جاك إلى شارع ريغان حيث تكثر محلات السود. المستعمل مشكوك في أمره، من يدري ماذا سكب السابقون عليه فإذا هو متخلل في نسيجه؟ الفكرة نفسها مدعاة للنفور كنفورنا من سجاد غرف الفنادق، وبــث لا تريد تحريك جسدها تمهيدًا لالتقاط الريموت، بدأت تفقد الإحساس بالتوازن مع السن، ولكن لماذا لا يكف الهاتف عن الرنين؟ لابد أن هناك سبباً. كانت "الآنسر ماشين" تؤدي المهمة في الماضي، ولكنها كانت تمتلئ بمكالمات أولياء الأمور الذين لم يوفق أبناؤهم في دخول المدرسة. وكان جاك ينصح بالتخلص من تلك الآلة، وكان يقول:

– أنا موجود وأرد على المكالمات، والناس تتأدب حين تجد صوت رجل على الطرف الآخر.

تتخذ بــث خطوة أخرى حين تستند إلى الحائط بغية الوصول إلى سماعة التليفون. لون جديد من السماعات يقف منتصبًا على الحامل، تليها لوحة صغيرة يظهر عليها رقم الطالب والاسم. والظاهر رقم خارج المنطقة، إما ماركي أو أختها هرميون في واشنطن، أو أحد مندوبي الدعاية الذي يتصل من مكان ما خارج المنطقة، أو حتى خارج البلاد. ثقوب السماعة على الجانب الآخر لا تصل إلى فمها بالضبط كشأن التليفونات القديمة البسيطة الضخمة التي كانت تقبع على الحامل في ثقة. وتضطر بــث إلى أن ترفع صوتها لأنها لا تثق في السماعة.

– بــث .. أنا هرميون، لم أخذت كل هذا الوقت حتى تردي؟ لقد كنت على وشك الانصراف.

كانت هرميون تبدو مفعمة بالنشاط، مشغولة بأشياء كأنها خلقت لتناقض أختها الصغرى الكسولة، وتلقي الضوء على فتور همتها وحبها الشديد لإشباع شهوتها للطعام.

- وليتك انصرفت.

- ما هذا الرد السخيف؟

- لم أعد مثلك يا هِرِمْ، لم أعد قادرة على النهوض على قدمي.

- أسمع عندك شخصًا آخر يتحدث، عندك ضيوف؟

تقفز هرميون على الأشياء، الشيء بعد الشيء. ولكن جرأتها وبذاءتها خصال محببة إلى قلب بــث؛ خصال تذكرها بأيام طفولتها وصباها في بنسلفانيا، وتذكرها بمسقط رأسها في شمال غرب بنسلفانيا بكل الرطوبة والمساحات الخضراء وعربات الترولي ومحلات البقالة القريبة الزاخرة بطبقة فوق أخرى من خبز ماير وفرهوفر.

- إنه التلفاز، كنت أبحث عن الريموت كنترول لأطفئه.

لم تقل إن الكسل أعجزها عن التقاط الريموت من على الأرض.

- ابحثي عنه وأغلقي التلفاز، سأنتظرك. لا نستطيع الحديث مع هذه الأصوات. ثم ما الذي تشاهدينه في عز الظهر؟

وتضع بــث السماعة دون إجابة. "تتصرف مثل الأم" تحدث نفسها وهي تتهادى نحو الريموت الذي يبدو قريب الشبه من جهاز التليفون في حجمه وملمسه الخشن ولونه الداكن وكثرة الأزرار على سطحه. تئن تحت وطأة الوزن وهي تستند على ذراع المقعد بيد، وتصل إلى الريموت بالأخرى بجهد يذكرها بأيام صباها حين كانت تذهب إلى دروس الباليه في سن الثامنة أو التاسعة، في مرقص الآنسة ديمتروفا، فوق مطعم في شارع برود في وسط البلد. وتلتقط الرموت وتصوبه نحو التلفاز حيث برنامج

"بينما الدنيا تسير" تبثه القناة السابعة على خلفية موسيقية حزينة. وتلمح بـــث كريج وجنيفر في لقاء ساخن، تريد أن تعرف ماذا كانا يقولان بينما هي تغلق الجهاز فيتحولا إلى نجمة هاربة لا تصمد إلا أقل من الثانية.

في فصول الباليه كانت بـــث أكثر رشاقة ونشاطًا من أختها الصغرى. وكانت الآنسة ديمتروفا تصيح بلغتها الروسية الهازئة، لغة روسيا البيضاء، بأن هرميون تنقصها الرشاقة والخفة. كانت تصيح في وجوههن: " ينقصكن النشاط والحركة! تخيلن أنفسكن عصافير تطير! مخلوقات أثيرية!" كانت هرميون أطول مما ينبغي لفتاة في سنها، ولكن بشكل ملفت أخرق لا يضفي عليها جمالاً. وكانت بـــث تبدو كالطيور وهي تدور حول الملعب وذراعاها ممدودان في الهواء.

– أو كنت تلهثين؟

تعود بـــث إلى التليفون، وتتهالك على المقعد الصغير الذي أتت به من المطبخ فتظن هرميون أنها كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة. تتجه بعجيزتها الضخمة نحو المقعد الصغير حتى لا تنزلق قدمها فتسقط على الأرض كما حدث منذ سنوات قلائل حين تهاوت على أرض الحجرة كالمبنى الضخم. وكان جاك يقول لها إن ذلك كان كفيلاً بأن يكسر تجويف الحوض لولا البساط السميك. جزع في البداية لسقوطها، واندفع إليها فزعاً، وعندما أخبرته أنها لم تصب بأذى ظهرت عليه علامات الإحباط. تسألها هرميون بحدة:

– كنت تشاهدين البيانات الرسمية، صح؟

– في التلفاز؟ لا – هل يذيع شيئاً؟

- لا، ولكن -

تحس أن ترددها مفعم بالمفاجآت.

- مجرد تسريبات، تظهر أمور قبل الميعاد.

- ماذا وراءك يا هرميون؟

تعرف بــث أن التظاهر بالجهل خير سبيل لاستدراج هرميون ودفعها لاستخراج ما تضمره.

- لا شيء أستطيع تأكيده يا عزيزتي. يتحدث الناس على الإنترنت عن أشياء تلوح في الأفق.

وتسألها بــث في شيء من الدعة:

- ترى كيف يتحمل وزير داخليتنا هذه الأمور الجسام؟

- المسكين يتحمل كل شيء راضيًا بقدره، طبعًا لا ينام، أمن البلد كله ملقًى على عاتقه. أخشى ما أخشاه أن يموت من ضغط المسؤولية. إنه يعاني بالفعل من ضغط الدم المرتفع.

- أراه موفور الصحة في التلفاز، ولكن لو يقص شعره بطريقة مختلفة لبدا محاربًا مخيفًا لأعدائه ولوضع العرب والديمقراطيين في موقف الدفاع.

تحلم بــث بالمزيد من الزبيب والكعك المصنوع من دقيق الشوفان. كيف يتفتت في فمها بعد أن يرفده اللسان باللعاب اللازم ويتولى إعداده للسفر. اعتادت على قضاء هذه الجلسات التليفونية بسيجارة في الفم لولا أن الأطباء حذروها من التدخين فأقلعت، وكانت النتيجة أن فازت بأربعين رطلاً

من اللحم أضيفت إلى وزنها في العام الأول. وماذا يضير الحكومة إذا مات الناس جميعاً؟ كان سرطان الرئة استنزافًا لميزانية التأمين الصحي ما كلف الاقتصاد ملايين من ساعات العمل المنتجة.

تقول بـــث:

– أظن أن هذا النوع من الكلام شائع بين طلاب المدارس الثانوية وطلاب الجامعة المغرمين بالأذى. بعضهم يسمون أنفسهم أتباع محمد لا لشيء إلا لإغاظة آبائهم. وأعرف صبيًا منهم في المدرسة الثانوية التي يعمل بها جاك، يعتقد أنه مسلم لمجرد أن أباه التافه كان كذلك، وفي نفس الوقت يهمل في حق أمه الأيرلندية المكافحة التي يعيش معها. تخيلي لو أننا جئنا إلى آبائنا بشباب مسلمين أردنا الزواج منهم.

– إن جاك يرهق نفسه لكي يخلص الفتى من تأثير المسجد الذي يصلي فيه، إنهم أقرب في الشبه من الأصوليين المعمدانيين، وربما أسوأ منهم، لأنهم لا يأبهون بالموت.

وكأن الأخت الصغرى مصلحة اجتماعية بالفطرة، ثم تحولت بـــث إلى الموضوع المفضل لدى هرميون:

– أخبريني ما الذي يشغل الوزير هذه الأيام؟

وكأن الإجابة كانت جاهزة:

– الموانئ. تستقبل أمريكا بموانيها المئات من الحاويات ولا يعرف أحد ما بداخلها، أو على الأقل تمر العشرات منها دون تفتيش. قد تخبئ هذه الحاويات أسلحة نووية ويكتب عليها جلود أبقار من الأرجنتين أو بن برازيلي. من يضمن أنها جلود أو بن بالفعل؟ تخيلي ناقلات البترول العملاقة

التي قد لا تحمل بترولاً فقط، وإنما قد تحمل معه سائل الهيدروكربون. وتخيلي ما قد يحدث في مدينة جرسي مثلاً أو تحت جسر بيون إذا تمكن الإرهابيون من الوصول إليهما بكميات من غاز "السم تكس" أو مادة "التي إن تي." سوف تنشب حرائق ضخمة تتسبب في موت الآلاف. أو تخيلي الأنفاق في نيويورك – تذكري ما حدث في مدريد وطوكيو منذ سنوات ليست بعيدة. تبين أن الرأسمالية منفتحة أكثر مما ينبغي. الانفتاح من ضرورات الرأسمالية؛ لأن الرأسمالية لا تعمل في ظل النظم الدكتاتورية. تخيلي هجومًا يقوم به عدد من الرجال المسلحين بالبنادق على مول في أي مكان في أمريكا، أو على محلات ساكس، أو محلات بلومندال. هل تذكرين محلات الواناميكرز القديمة، وكيف كنا نذهب إلى هناك ونحن أطفال بقلوب بريئة؟ كانت الجنة بعينها خاصة المصاعد وقسم الألعاب في الطابق الأعلى. لقد انتهى كل ذلك الآن. لن نذوق السعادة مرة أخرى، لن يرى الأمريكيون الفرح مرة أخرى.

تحزن بـــث لحزن هرميون وتقول:

– آه، ألا ترين أن مسيرة الحياة ماضية ولن تتوقف؟ الحياة دائمًا تنطوي على خطر من نوع ما. الأوبئة والحروب والأعاصير المهلكة في كانساس، ومع ذلك فلا يزال الناس في ذهاب وإياب، الحياة لا تتوقف يا عزيزتي إلا إذا فقد الإنسان الوعي.

– هذا صحيح يا بِثِي، إنهم يسعون لإيقافنا في كل مكان، كل ما يكلفهم هو قنبلة صغيرة وبضعة بنادق. المجتمع المفتوح دائمًا مجتمع أعزل هش، كل ما أنجزه العالم الحر هش ضعيف في الواقع.

هرميون فقط هي التي لا تزال تدعوها بِثِي. كان جاك وزملاؤه في الجامعة ينادونها بــث. حتى أبواها أرادا أن يغيرا اسمها بعد زواجها حتى يتخلصا من شبح هذه الطفلة المدللة التي أصبحت امرأة. وها هي هرميون تلاطفها سعيًا لاستدراجها للإعجاب بوزير الداخلية الذي تعمل في مكتبه:

- إنه لا ينام يا بثي، يصل الليل بالنهار هو ومن معه من الخبراء، يتخيلون أسوأ السيناريوهات التي قد تحدث، حتى الكمبيوترات المنتشرة في المكتبات والمصانع والبنوك والخطوط الجوية والمفاعلات النووية أدخلناها في النظام.

- الحق معكم.

تختفي نبرة التهكم في حديث هرميون وهي تفضي لأختها بشجونها:

- عندهم أيضًا ما يسمونه الهجوم الإلكتروني الذي يستطيعون به تجميد كل شيء حتى شبكات الكهرباء والمستشفيات وشبكات الإنترنت، هل تتخيلين ذلك؟ أكثر من ذلك يستطيعون إطلاق الديدان الإليكترونية التي تدمر جميع أجهزة التلفاز، وتسبب لها الجنون، أو تجعلها لا تعرض إلا أسامة بن لادن طوال الليل وطوال النهار وفي جميع القنوات.

- هرميون، لم أسمع من يقول عبارة "يسبب الجنون للتلفاز" هذه منذ كنا في فيلادلفيا. ولكن هذه الديدان والفيروسات كانت تُرسل إلى أجهزة الكومبيوتر قبل الهجوم، وظهر أن مصدرها مراهق مسكين غير مستقر نفسيًا يرسلها من حجرته الحقيرة في بانكوك، أو في بلدة برونكس في نيويورك. إنهم يثيرون الفوضى بعض الوقت ولكنهم لا يدمرون الدنيا يا هِرْم. وفي النهاية يُقبض عليهم ويُزَج بهم إلى السجن. وهل نسيت رجالنا

ونساءنا الذين اخترعوا هذه الفيروسات، وهم أكثر ذكاءً بطبيعة الحال من هؤلاء القلة من العرب المتعصبين. نحن الذين اخترعنا الكومبيوتر وليس هم يا هرميون.

– ولكنهم اخترعوا الصفر، وهم ليسوا في حاجة إلى اختراع الكومبيوتر حتى يقضوا علينا به. الوزير يسميها حرب التحكم الأوتوماتي أو الحرب السيبرانية. هذا ما وصلنا إليه شئت أم أبيت، الحرب السيبرانية. الفيروسات موجودة في كل مكان، والوزير ينظر كل يوم في مئات التقارير التي تحذر من هجوم قادم.

– الهجوم الإلكتروني.

– هذا أكيد، أنت تظنين أني أمزِح؟ أنت تظنين أنني أمزح، أعرف ذلك من صوتك، ولكن الأمر ليس مزاحاً. إنه جد الجد يا بثي.

وتشعر بثي أن المقعد الصلب يؤلمها:

– لا..لا .. لا أمزح يا هِرْمْ، أصدقك. هناك أمور سيئة جدًا تحدث، وأخرى حدثت بالفعل، ولكن ...

كانت بـــث تريد أن تستهل بكلمة "لكن" عبارة نسيتها الآن. وتراودها فكرة السعي بجهاز التليفون إلى المطبخ بغية الوصول إلى درج الكعك. أحبت مكونات ذلك الكعك، الذي يبيعه محل واحد في شارع ١١. جاك هو الذي أحضرِه لها. وتتساءل متى يأتي جاك؟ بدأت دروسه الخصوصية تستغرق وقتاً أطول مما اعتاد.

– ولكني لا أفهم هذا الهجوم الإلكتروني الذي تتحدثين عنه.

– اشكري الوزير على ذلك، إليه وحده يرجع الفضل في تعريفنا بهذه الحرب. إنه يستقبل التقارير حتى في منتصف الليل مما عجل بانتشار الشعر الأبيض في رأسه وتحت أذنيه وعينيه، وأنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً.

– هرميون حبيبتي، أليس له زوجة؟ عرفت أن لديه زوجة وأطفالاً على مشارف المراهقة. رأيت صورهم في الجرائد، كلهم يذهبون إلى الكنيسة في عيد القيامة.

– طبعاً، أعرف ذلك، وأعرف حدودي، علاقتنا علاقة عمل رسمي لا أكثر ولا أقل، وبسبب استفزازك لي سوف أخبرك بشيء – ولعلمك هذه أسرار عمل – شمال نيوجرسي أحد الأماكن التي نتلقى عنها تقارير. لا يتكلم الوزير عن هذه الأشياء – ومعه حق – ولكن التقارير تقول إن بعض الأئمة في نيوجرسي مراقبون على مدار الساعة؛ لأنهم يتحدثون ضد أمريكا في مساجدهم، و يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، أي يحرض على العنف ضد الولايات المتحدة.

– الحمد لله أن الأئمة فقط هم الذين يفعلون ذلك، لو كان أحبار اليهود يعظون ضد أمريكا لانضم إليهم جاك دون تردد رغم أنه لم يذهب إلى معبد قط.

ويعصف الغضب بهرميون وتقول:

– يا سلام على دمك، أحياناً أسأل نفسي كيف يتحملك جاك وأنت لا تملين من السخرية منه؟

– بالعكس هذا جزء من جاذبيتي عنده، هو كئيب دائمًا وأنا أروح عنه.

تتنهد هرميون في واشنطن بشيء من الأسى وتقول:

– سأتركك الآن مع مسلسلاتك، تليفوني الآخر يومض بضوء أحمر، لابد أن هناك شيئاً.

- سعدت بالحديث معك.

طبعًا بــث تكذب.

تمارس أختها الصغرى دور الأم، ولا تمل من لومها على ما يبدر منها من أخطاء. أما بــث فإنها تترك نفسها على سجيتها. يتناهى إلى أنفها، من بين طيات الدهون، رائحة عرق متراكم. يطفو جسدها حولها حين تستقر في البانيو مثل تجمع من فقاعات عملاقة. تهتز قطع اللحم وتتمايل كأنها تقاوم قانون الطفو. كيف حدث لها هذا؟ عندما كانت فتاة في ريعان الصبا كانت تأكل ما تريد، ولم تكن تعرف أنها كانت تأكل أكثر مما يأكله الناس. كان الطعام يلازمها أينما حلت، عادة لزمتها ولم تنج منها حتى اليوم. قرأت عن بعض الناس الذين رزقهم الله بخلايا أكبر حجماً، وبنظام في التمثيل الغذائي يختلف عن سائر البشر؛ ربما لأنه ألقي بها في هذا البيت في شارع ٨. هجرها رجلها دون أن يجرمه أحد، رجل يذهب إلى عمله في المدرسة الثانوية كل يوم، فمن يلومه؟ كانت تلتمس لــه الأعذار عندما كانت شابة في مقتبل العمر. ولكن مع تقدم السن بدأت تستشعر شيئًا بغيضاً. إنه يغادر البيت مع حلول الظلام ولا يعود إلا في الهزيع الأخير من الليل، متذرعًا بالدروس الخصوصية، ومشاكل الطلاب، والجلسات الخاصة مع آباء الجانحين من الطلاب. يعود إليها أحيانًا مكتئبًا بسبب المشاكل التي لم يستطع حلها، وبسبب أحوال الناس المعيشية في الأحياء الفقيرة في مدينة نيوبروسبكت. يعيش الناس هناك بلا هدف، ويورثون هذه الحياة لأولادهم. يقول: "إنهم لا يهتمون بحياتهم يا بث، إنهم لا يفهمون معنى التنشئة الاجتماعية. إنهم لا يتخيلون وجود حياة أفضل وراء الأفق الذي يعيشون فيه. لا يتخيلون أن حياتهم يمكن أن تتحسن. إنهم يسكرون ويتشاجرون مع

رجال الشرطة، ولديهم مشاكل جمة مع البنوك ومصلحة الهجرة، والأولاد المساكين لم يشعروا مرة واحدة أنهم أطفال، ومن حقهم اللعب والمرح. تراهم في الصف التاسع يحدوهم أمل ضئيل في النجاح. أين الخطأ؟ جدي كان يعتقد أن الرأسمالية فاشلة لا محالة. كان يعتقد أن مصيرها إلى الزوال؛ لأنها لا تعيش إلا على اضطهاد البشر. كان الأمل يحدو جدي في نهوض طبقة البروليتاريا التي تحطم القيود، وتقيم جنة العمال على الأرض. ولكن هذا لم يتحقق. ربما كان الرأسماليون أكثر ذكاءً، وربما كانت البروليتاريا أكثر غباءً. ابتدعت الرأسمالية اسم "التجارة الحرة" إيثارًا للسلامة، ودفعًا للحقد. ولكن واقع الأمر يقول إن كلبًا يلتهم كلبًا آخر، وكثر عدد الخاسرين، وكثرت أموال الرابحين بما يفوق حاجتهم بكثير. وإذا لم يخض الكلاب المعركة فأفضل لهم أن يناموا طوال النهار في جحورهم. المشكلة الأساسية كما أراها منذ زمن هي أن المجتمع يحاول أن يكون مهذباً، والمجتمع المهذب والرأسمالية لا يجتمعان. التأدب لا يذيب ثلجاً، ولا يغير وضعاً، ولا يمحو ظلماً. أحرى بنا أن نعود إلى البداوة الأولى، نأكل مما نصطاد، ونجمع الحطب، ونتخلص من شبح البطالة والجوع إلى الأبد.

– ما يحرق دمي أنهم لا يريدون أن يفهموا أن حياتهم هذه لا تليق بالآدميين. يعتقدون أنهم على ما يرام، وكل شيء تمام، رغم ملابسهم الرثة التي يشترونها من محلات الملابس المستعملة بنصف الثمن، وآخر ألعاب الكومبيوتر العنيفة، وأسطوانات الليزر المخلة بالآداب التي تدخل بيوتهم، والأديان الجديدة الساذجة التي لا يقبلها المرء إلا إذا غاب عنه العقل، أو عاد إلى العصر الحجري. يتساءل المرء هل هؤلاء الناس يستحقون الحياة فعلاً؟ وهل كان مرتكبو المذابح في رواندا والسودان والعراق على حق؟

حرمتها السمنة من حق التلويح بيدها مرحبة أو مودعة زوجها كما كانت تفعل في الماضي. لم يقل هو ذلك ولم يجرح مشاعرها. هل هو الطبع اليهودي الذي يراعي مشاعر الآخرين، ويرضى بهمه؟ أم إحساس اليهودي بالتفوق هو الذي جعله يحتفظ بحزنه داخله؟ يستيقظ مبكرًا ولا يوقظها ويستقبل النافذة. كانت حياتهما في الماضي مقبولة لا تشوبها المنغصات. تحاول بـث النهوض من فوق مقعدها الصلب، تعين نفسها بيد توشك أن تميل بوزنها الثقيل فتقع على الأرض. تتخيل المشهد وهي تزحف على أرضية الشقة بحوض مكسور عاجزة عن الوصول إلى روب الحمام. تفكر في التخلص من روب الحمام والذهاب إلى السوق. نفدت الأساسيات: الصابون ومسحوق الغسيل والمطهرات والفوط الورقية وورق الحمام والمايونيز والبسكويت والسناكس. تخجل أن تطلب من جاك شراء كل هذه الأشياء وقد طلبت منه شراء وجبات الميكروويف من محل شوبرايت، والسندوتشات التي تتقذها حين يُطلب منها أن تمكث في المكتبة حتى السادسة، وأكل القط. أين كارميلا؟ ينام القط، الذي لم يأخذ حقه من الملاطفة، مكتئبًا طوال النهار تحت الكنبة، أو يتجول حول قطع الأثاث طوال الليل كما ينبغي لحيوان فقد صوابه. لماذا قرر جاك أن يخصيه؟ إن لم يفعل امتلأت الغرف من الجدار إلى الجدار بالقطط الصغيرة.

شهدت مع جاك حياة هادئة حين كانا يكتبان بأقلام الرصاص قبل أن تعرف الأصابع طريقها إلى لوحات مفاتيح الكمبيوتر. كانا يحبان الناس ويساعدان قدر الطاقة، وكان ذلك فوق ما كان يفعله الأمريكيون في تلك الأيام الخوالي حين كانوا يعملون في المصانع كالعبيد، وحين كانت المدن لا تزال تنتج أشياء مفيدة. يخاف الناس من العرب، ولكن هناك آخرين أشد

خطرًا على مجتمعنا: كاليابانيين، والصينيين، والمكسيكيين، والجواتيماليين، والقادمين من بلاد العمالة الرخيصة الذين يعملون على تدمير مجتمعنا ونشر البطالة فيه. جئنا إلى هذا البلد وأجبرنا الهنود الحمر على الانزواء في قرى منعزلة، وشيدنا ناطحات السحاب والطرق السريعة والأنفاق العملاقة، ثم راح الجميع يطمعون في أسواقنا حتى أصبحنا كالحوت الذي نهشت أحشاءه أسماك القرش في قصة همنجواي الشهيرة. ولكن ضحية همنجواي كانت سمكة.

كانت هرميون محظوظة حين حصلت على وظيفة مهمة في واشنطن مع اللاعبين الأساسيين في الإدارة الأمريكية. ولكن الطريقة التي تتحدث بها عن رئيسها في العمل تدعو للضحك، مخلصنا!! هل هي عقلية العانس التي توقفت هرموناتها عن العمل منذ فترة؟ تذكرك بتلكم الراهبات والقساوسة الذين تتكشف شخصياتهم عن قسوة في القلب، وإفراط في المجون، وقول لا يعضده عمل، كما نعرف من اعتدائهم الجنسي على الأطفال الذين وثقوا بهم والتمسوا عندهم الهداية إلى الكاثوليكية الصحيحة. ما فائدة الإضراب عن الزواج والزهد واعتزال الناس إذن؟ أليس من الخير أن يتزوج المرء ويفعل ما يفعله الناس في هذه الحياة؟ أليس هذا كافيًا للتحرر من دواعي الكبت والإحباط، والتخلص من الأفكار الرومانسية المضحكة؟ تفكر بــث وهي في طريقها إلى حجرة النوم لارتداء ملابس الخروج أن تعرج إلى المطبخ، فقد تظفر بشيء في الثلاجة تدفع به إلى فمها رغم أنها انتهت من تناول الغداء منذ قليل. كأنها تريد أن تئد هذه الرغبة في مهدها فتتهافت على مقعد "الليزي بوي" بعد أن تشد رافعته إلى أعلى لتخفف العبء عن كاحليها المصابتين بالاستسقاء. وإذا استقرت في حضن المقعد

تشعر بحاجتها للتبول، ولكن خبرة الحياة علمتها أن التناسي قد يعود بتلك الحاجة إلى نقطة البداية.

أين ذهب ريموت التلفاز؟ وعندما تجده تطفئ التلفاز وتنسى كل شيء. تصبح ذاكرتها بيضاء. النسيان شيء مزعج. تبحث عنه في البداية على ذراعي المقعد، ثم تلقي نظرات فاحصة على السجادة الرمادية فتبحر بها الذاكرة من جديد إلى الآنسة ديمتروفا وتمارين الرشاقة. لابد أنه كان مستقرًا على أحد ذراعي المقعد العتيق، ثم انزلق إلى الشق الكائن بين الوسادة والذراع عندما تهالكت على صحن المقعد ولم تصعد الدرج إلى حجرة النوم لارتداء ملابس الخروج كما كانت تريد. تتسلل أصابع يدها اليمنى إلى الفراغ الضيق بين الذراع والوسادة البلاستيكية. وتعثر عليه، تلك القطعة المعدنية الباردة خشنة الملمس التي تغلق بها قنوات التلفاز وتفتحها. لعل الوصول إليه كان أسهل لو لم يكن جسدها الثقيل عقبة في الطريق. كان عليها أن تحذر الاصطدام بمسمار في شق، أو إبرة منسية. في تلك الفجوات تكمن دبابيس شعر وإبر. كانت أمها لا تمل من الفتق والرتق وهي مستقرة على هذا المقعد العتيق التماسًا للضوء عند النافذة الخشبية بستارتها السويسرية المخططة، تطل على زرعَ أخضر يلطف الجو طوال الليل. وتتجه بالريموت صوب التلفاز، وتتحول إلى القناة الثانية: السي بي إس، فتستدعي الإلكترونيات التي تحتشد في تؤدة لتتحول في التو إلى أصوات وصور. الموسيقى الخلفية في برنامج "بينما الدنيا تسير" أكثر قربًا من الأوركسترا وأكثر بعدًا عن الطابع الشعبي من موسيقى برنامج "كلهم أبنائي" حيث تكثر آلات النفخ المختلطة بأصوات طيفية وإيقاعات أشبه بوقع الحوافر تتلاشى في الخيال. تسمع بـث هدير الموسيقى المتوتر وتطالع تعبيرات

وجوه الممثلين والممثلات الشابات فتتخيل ما حدث؛ فهم يعقدون جفونهم في غضب يشي بأن ما قالوه منذ ثوان يتعلق بالمصير: فراق أو قتل متعمد. ولكنها تـــأخرت عن المسلسل، وتعلق الدموع بعينيها وتهم بالبكاء.

ولكن الحياة عجيبة في تدخلها لإنقاذنا في اللحظة الحاسمة. يقفز كارميلا من مكان مجهول على حجرها. تسأله بــث بصوت مرتفع منتش: "أين كنت يا حبيبي؟ ماما افتقدتك!" وفي الدقيقة التالية تدفع القط بعيدًا عن الحجر الدافئ بنفاد صبر، ثم تهم بالنهوض مرة أخرى من فوق مقعد الليزي بوي؛ لأنها تذكرت أن مهامًا كثيرة في انتظارها.

اجتاز أحمد اختبار رخصة قيادة الشاحنات بعد يومين من تخرجه في مدرسة سنترال الثانوية. ذهب إلى مقر الاختبار في سيارة أمه السوبارو الحمراء التي تستخدمها في الذهاب إلى المستشفى، وفي توصيل لوحاتها إلى محل الهدايا في ريدجوود ومعارض أخرى يقال لها معارض الهواة في الكنائس وقاعات الدرس في المدارس. تآكلت الحواف السفلية لشاسيه سيارتها بسبب ملوحة الشتاء. كانت قيادتها الطائشة وأبواب السيارات الأخرى التي يفتحها أصحابها بسرعة في مواقف الكراجات ذوات الطوابق، أسبابًا لتلفيات على الجانبين. أصيب الصدام الأمامي الأيمن في أحد التقاطعات وعالجه بمعجون البوندو أحد أصدقائها الأصغر منها سناً. كان يعمل في ورشة دوكو، وانتقل إلى توباك في أريزونا قبل أن ينشف المعجون ويطلى الدهان، فبقيت على معجونها خشنة الملمس. وفي مواضع أخرى، خاصة "الكبوت" والسقف، تعرض لون السيارة لتأثير الطقس فبهت لونه وتحول من الأحمر الداكن إلى الخوخي الفاتح. يظن أحمد أن أمه تزدهي بالفقر، بإخفاقها اليومي في الاندماج في الطبقة الوسطى، كأن الفشل من

لوازم حياة الفنانين، والحرية الشخصية التي يعتز بها الأمريكيون الكفار ولا يعدلون بها قيمة أخرى من قيم الحياة. إنها تتعمد، بأساورها وبنطلونها الجينز المرقع منذ خروجه من المصنع، والصدرة الجلدية المصبوغة باللون الأحمر التي ارتدتها في ذلك اليوم، أن تحرجه كلما ظهر معها أمام الناس. في ذلك اليوم لم تضن على الكهل، الموظف البائس الذي يدير الاختبار، بمداعبة أو لفتة. قالت لــــه:

– لا أعرف لماذا يريد أن يقود شاحنة، مجرد فكرة عرضها عليه الإمام، ليست فكرته بل هي فكرة الإمام. طفلي العزيز يسمي نفسه مسلماً.

ويبدو الرجل الجالس إلى مكتبه في المركز الإقليمي لهيئة مراقبة المركبات في وين مرتبكًا لهذه العاطفة المتدفقة من أم، وبعد برهة قال لها:

– هذه مهنة لها مرتب ثابت على الأقل.

ويدرك أحمد أن كلمات أمه صادفت من الموظف العمومي قلبًا موصداً، وأن الرجل على وعي بما أبقت لــــه الأيام من مخزون قليل من عاطفة يضن به على العابر. كان وجهه، وهو جاثم على مكتبه وقد قصرت قامته، تحت لمباته الفلورسنتية الطويلة، مشوهًا كئيبًا كأن عاصفة عاطفية اجتاحته ذات يوم وتركته جامدًا إلى الأبد. ذلك هو الرجل البائس الغارق في منظومة معقدة من القوانين والذي أغدقت عليه الأم من عواطفها على حساب كرامة ابنها. يتناول استمارة كشف الهيئة بعد أن ملأها أحمد بالبيانات المطلوبة، ويأمره بأن يدخِل وجهه في صندوق ويقرأ بعين واحدة ما يَعِنُ لــــه من حروف تظهر في ألوان شتى وعليه أن يفرق بين الأحمر والأخضر والأصفر. اختبرت الآلة مدى ملاءمته لقيادة آلة أخرى. تذكر أن هذا الموظف الجامد على مقعده، وقد ارتسمت على وجهه علامات غضب أزلي،

حولته الأيام الطويلة في الوظيفة إلى آلة ثالثة، أو ترس صغير في آلة ضخمة لا ترحم يسمونها المادية الأمريكية. قال لـــه الشيخ رشيد أكثر من مرة: "إن الإسلام هو الذي ترجم إنجازات الإغريق وفهمها في وقت كانت أوربا غارقة في ظلام العصور الوسطى." وقال لـــه أيضاً: "إن أبطال المقاومة الإسلامية الذين يتصدون للشيطان الأكبر اليوم هم في الأصل دكاترة ومهندسون وخبراء في استخدام الآلات المعقدة كأجهزة الكومبيوتر والطائرات والألغام." وقال لـــه أيضاً: "إن الإسلام لا يعادي العلم كما تعاديه المسيحية؛ لأن الله يخلق من المادة الروح، وكل شيء يسبح بحمده ويسير وفق مشيئته." وإذ هو غارق في هذه التأملات سمع مناديًا ينادي اسمه ليسلمه رخصة القيادة من الدرجة الثالثة الخاصة بالشاحنات. ويبدى الشيخ رشيد ابتهاجه لنجاح أحمد في الحصول على الرخصة. ويُسِر في أذن أحمد بكلمات حميمة:

– ليست المظاهر كل شيء يا بني، بل إن المظاهر خادعة مضللة، فأنا أعرف أن مسجدنا رث المنظر زهيد الواجهة حين يُنظر إليه الناظر من الخارج، ولكن بنيان مسجدنا في واقع الأمر يقوم على التقوى والإيمان الذي يستقر في قلوب الرجال. إن للمسجد رجالاً أقوياء أشداء بإيمانهم وتقواهم. أخبرني عميد آل شهاب بالأمس أن تجارته الرابحة في حاجة إلى سائق شاحنة شاب تقي صالح يعرف الله ولا يدين بغير ديننا.

– أتعلم أن الرخصة التي أحملها الآن هي الدرجة الثالثة، ولا يُسْمح لي بالذهاب إلى أبعد من هذه الولاية، ولا يُسْمح لي بحمل أية مواد خطرة.

نَعِم أحمد خلال الأسابيع التي تلت تخرجه بحياة بطالة بجوار أمه ما خلا تلك الساعات القليلة التي يقضيها في محل "الشوب أسِك" لا يلبث أن

يعود بعدها إلى البيت، ويأخذ قسطًا كبيرًا من الراحة، ويؤدي صلواته الخمس، ثم يعرج إلى دار من دور السينما يشاهد منها فيلمًا أو فيلمين، ويأخذه العجب بقدرة هوليود على إنفاق المال من أجل إنتاج هذه الأفلام التي لا تخلو من جمال في التصوير. ثم ينطلق إلى الشوارع يمارس رياضة الجري التي اعتادها في سرواله القصير حتى يصل إلى ذلك الحي الذي قابل فيه جورلين في يوم من أيام الآحاد. لا يرى هناك إلا عددًا من الفتيات اللاتي يشبهنها في لونها الأسمر ومشيها الوئيد. عندئذ يتذكر السيد ليفي وحديثه الغامض عن الكلية والعلم والفن والتاريخ، ويتذكر حضوره إلى شقتهم مرة أو مرتين، يبادل أحمد حديثًا وديًا ولكن لا يلبث أن يستأذن للانصراف كأنه نسي ما جاء من أجله. كان يسأل أحمد عما خطط للمستقبل، أيمكث في المدينة مع الماكثين، أم ينطلق إلى بلاد الله الواسعة كما ينبغي لشاب في مقتبل العمر؟ والحق أن أحمد استغرب أسئلة السيد ليفي وهو الذي عاش حياته كلها في نيوبروسبكت ما خلا سنوات الجامعة أو سنوات قليلة قضاها في الجيش الأمريكي. ورغم أن الحرب الفيتنامية كانت في أوجها في تلك الأيام لم يطلب أحد من السيد ليفي مغادرة الولايات المتحدة، وإنما ظل يمارس أعماله المكتبية حتى في أوقات المعارك المستعرة. والحق أنه كان يتمنى أن يذهب إلى ميدان القتال لإثبات شجاعته، وإقامة الدليل على حبه لهذا الوطن. عرف أحمد ذلك كله من أمه لأنها تتحدث عن السيد ليفي بين الحين والحين وتقول: إنه رجل مهذب رغم أنه ليس سعيدًا في بيته، وأن إدارة المدرسة لا تقدره حق قدره، وأنه يشعر بأن أهميته بالنسبة لزوجته وابنه قد تلاشت." أصبحت أمه كثيرة الكلام والأسئلة في الأيام الأخيرة، كثرت أسئلتها عن شئونه وأوقات ذهابه وإيابه، يرتسم على وجهها الضيق

حين تسأله عن ميعاد خروجه فلا يجيبها إجابة قاطعة، فتلح عليه في السؤال:

– ولكن متى تخرج بالضبط؟

– أمي! لا تقلقي بشأني، سأخرج عندما أريد. سأذهب إلى المكتبة العامة قليلاً.

– هل تريد مالاً لتدخل السينما؟

– معي نقود، وشاهدت فيلمين، الأول بطولة توم كروز، والثاني بطولة مات دمون، وكلاهما قاتلان محترفان. لقد صدق الشيخ رشيد عندما قال: إن السينما محفوفة بالإثم ومليئة بالغباء، وإنها من دور الجحيم.

– يا إلهي، لقد حولنا الشيخ رشيد إلى قديسين، أليس لديك أصدقاء يا بني؟ أليس للشباب في سنك صديقات؟

– أمي، لست من هذا النوع من الشباب.

– كيف عرفت؟

– أعرف نفسي.

تقول لــه وهي ترد شعرها إلى الوراء بعيدًا عن جبهتها بأصابع يدها اليسرى كأنها تومئ إلى إدراكها بعقم الحوار وضرورة إنهائه.

– كل ما أريد أن أعرفه متى تدخل عليّ البيت مثل القدر المستعجل.

ينبئه الشيخ رشيد بلهجة شديدة لا تعرف التسامح بأن آل شهاب لا يريدون منه أن يجتاز الولاية بشاحنته، ولا ينتظرون منه أن يحمل عنهم

مواد خطرة قابلة للانفجار، وإنما يريدون منه أن ينقل لهم قطع الأثاث التي يبيعونها للزبائن، فشركتهم هي شركة آل شهاب للأثاث المنزلي، وموقعها في شارع ريغان. ويخبره أنه لابد أنه سمع عن آل شهاب، أو أنه رأي فرعًا لشركة آل شهاب في المدينة التي جاء منها.

- آل شهاب؟

يريد أحمد أن يقول إنه لا يعرف شركة آل شهاب، ولا من هم آل شهاب هؤلاء، ولكنه لا يريد أن يجزم بذلك، فقد يكون رأى لافتة هنا أو إعلانًا هناك، وأنه يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، فقد يقع في الكذب وهو يعرف أن الله أقرب إليه من حبل الوريد كما يقول القرآن. ولكن الشيخ يؤكد لــه في شيء من القلق، أو قل في شيء من نفاد الصبر:

- هم من أسرة لبنانية، ليسوا موارنة ولا دروزاً. جاءوا إلى هذا البلد في الستينيات عندما أدركوا أن لبنان أصبحت دولة تابعة للكيان الصهيوني. جاءوا معهم برأس مال بسيط استثمروه في بيع الأثاث المنزلي. بدأوا ببيع الأثاث الرخيص، الجديد والمستعمل، كانوا يبيعونه للسود خاصة، وكانت تلك نقطة انطلاقهم، وقد نجحوا في هذه المهنة نجاحًا تاماً. يعمل ابن حبيب شهاب، ويسميه تشارلي أمام الناس، في بيع الأثاث وبضائع أخرى، يسلمها للزبائن في محال إقامتهم، ولكن الأسرة تريده أن يعود للعمل في المكتب بعد أن ذهب موريس إلى فلوريدا ويبدو أنه لن يعود إلا بعد أشهر. وحبيب يعاني من مرض السكر الذي قلل من قوة تحمله وقدرته على الصمود بالساعات. تشارلي هو الذي سيتولى إرشادك إلى الطريق يا أحمد، إنه أمريكي مائة بالمائة.

وتضيق عينه اليمنى الرمادية، ويطل منها مع ذلك بريق مشوب ببهجة أنثوية؛ فأحمد بالنسبة لهم أمريكي روحًا وجسداً؛ لأن أمه أيرلندية وأباه غائب لن يعود، وحماسه للقرآن والإسلام لا يغنيه عن جذوره شيئاً، ولا يغير من أصل أمه ولا غياب أبيه. وهذه من سمات هذا المجتمع المنحل الذي يتصل به المرء كلما ضعفت صلته بوطنه الأم. والشيخ رشيد رجل تافه حقير، نحيل كالخنجر، ماكر خطير في مكره؛ أحيانًا يريد أن يقول إن القرآن لم يكن موجودًا ذلك الوجود الأزلي في الجنة – تلك التي زارها النبي في رحلة الإسراء والمعراج حين صعد على براقه الأسطوري – وأحمد لا يقره على ذلك، ولا يحس معه بإحساس الأبوة التي كان يحسها في البداية، بل يحس أن الرجل يضمر لـــه شيئًا غير الأبوة، وربما شيئًا من العداء الغامض.

ولكن الرجل على حق، فقد أحب أحمد تشارلي شهاب، وهو رجل ممتلئ الجسم متوسط الطول في منتصف الثلاثينيات من عمره، داكن البشرة، لـــه فم عريض، كثير الحركة ينطق اسم "أحمد" بطريقة مختلفة، فيطيل المقطع الأخير مثلما نفعل في كلمة "بغداد" مثلاً أو كلمة "ماد" الإنجليزية. وها هو يسأل أحمد:

– مرحبًا بك يا أحمد في شركة (إكسلانسي) للأثاث المنزلي. لم يكن أبي وعمي يعرفان الإنجليزية حين أسمياها بهذا الاسم، وكانا يظنان أن بها شيئًا من التميز كما تدل بذلك الكلمة.

يعكس وجه تشارلي وهو يتحدث مزيجًا معقدًا من الدلالات كالازدراء والاستخفاف والشك، ويعكس مع ذلك، حين يرفع حاجبيه، وعيًا بالذات، ووعيًا بموقع المستمع إليه.

يرد الأب الذي كان يجلس إلى جواره:

- بالعكس، كنا نعرف الإنجليزية، تعلمنا الإنجليزية في المدرسة الأمريكية في بيروت. فكلمة " إكسلانسي " هذه تعني الشيء النفيس أو الأنيق، وهي شأنها في ذلك شأن كلمة "نيو" في نيوبروسبكت التي لا تعني "الجديد" اليوم كما كانت تعني في الماضي. ولو كنا أسميناه "محلات شهاب للأثاث المنزلي" لتساءل الناس عما تعني "شهاب" هذه؟

تشارلي أطول من أبيه بـثلاثين سنتيمترًا تقريباً. يحتضن رأس أبيه الشاحب بذراعيه، ويجذبه إليه في عناق حميم كما يفعل أبطال المصارعة ولكن دون شر. تبدو رأس الأب بين ذراعي الابن أشبه ببيضة عملاقة وقد خلت من الشعر عند القمة، ولكن الوجه أكثر امتلاءً وشحوبًا من وجه الابن؛ ربما بسبب مرض السكر الذي تحدث عنه الشيخ رشيد. ولكن شحوب السيد شهاب ليس في شحوب الزجاج، ولا يشي بعلة مزمنة، ورغم أنه أصغر سناً من السيد ليفي فإنه يبدو، مع ذلك، أصغر منه، وأكثر امتلاء، وأسرع غضباً، وأكثر رغبة في التسرية عن نفسه أمام الجميع. وها هو يقول لأحمد مستأنفًا حديثه:

- لا أفهم هذه الكراهية التي انتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية، جئنا إلى هنا، أنا وأخي، وتركت زوجتي، ولم نصادف كراهية كالتي نصادفها الآن، أو كالتي كنا نراها في وطننا الأم حيث كانت كل قبيلة لا تهتم إلا بشأنها. كنا نعيش مع المسيحيين واليهود والعرب والسود والبيض وآخرين. كل امرئ كان بما كسب رهين، إذا كان لديك ما تبيعه للناس اشتراه منك الناس، وإذا كان لك وظيفة تؤديها أديتها في سلام، كل شيء كان واضحًا وضوح الشمس، على عينك يا تاجر كما يقولون. وهذا ما جعل التجارة سهلة يسيرة، والأمور تسير دون مشاكل. كنا في العالم القديم نزعم

للسلعة سعرًا أعلى مما تستحق بكثير، وبعد ذلك نبدأ المساومة، ولكن هنا لا يفهمون هذه الثقافة، كان الزنجي يدخل الشركة ويشتري الكنبة أو الكرسي ويدفع السعر الذي يجده مكتوبًا على البطاقة ويمضي بسلعته في سلام كما يفعل مع البقال أو أي محل آخر. ونحن من جانبنا نفضل وضع السعر الأقل استقطابًا للزبائن. كنت أقول لموريس "هذا بلد أمين وودود، ولن نواجه فيه مشاكل."

عندئذ يحرر تشارلي رأس أبيه من قبضة ذراعيه، ويتحول إلى أحمد بنظرة دالة. كان الموظف الجديد في مثل طوله تقريباً، غير أنه أكثر منه نحولاً. يتوجه تشارلي بالحديث إلى الأب قائلاً:

– لا يا أبي، المشاكل كانت موجودة. الزنوج مثلاً لم ينالوا حقوقهم إلا بالقوة، كان عليهم أن يحاربوا من أجلها. كانوا يُعْدَمُون دون محاكمة، ولم يكن يُسْمَح لهم بدخول المطاعم والحانات إلا إذا كانت حاناتهم الخاصة بهم. كانوا يضطرون أحيانًا إلى الذهاب إلى المحكمة العليا لكي يثبتوا أنهم بشر مثل البشر. لم يكن نيل الحقوق مجانيًا في أمريكا. بالعكس كانت الحرب هي الوسيلة الوحيدة لنيل الحقوق. لم تكن هناك أمة ولا شريعة ولا قانون، وهذا الشاب خير شاهد على ذلك، فقد تخرج لتوه من المدرسة الثانوية. كل شيء حرب، صح؟ ثم انظر إلى سياسة أمريكا في الخارج، يشعلون الحروب في كل مكان، وقد مكنوا لليهود في فلسطين، وأقاموا دولة غريبة لهم أصبحت كالشوكة في حلق الشرق الأوسط والآن يغزون العراق ويسعون لتحويلها إلى ولايات متحدة صغيرة؛ كي يتم لهم الاستيلاء التام على النفط.

ولكن حبيب شهاب يقاطعه قائلاً:

– لا تصدقه يا أحمد، إنه لا يقصد ما يقول، وهو يعرف أنه يكسب هنا لأنه تاجر جيد، انظر إليه، إنه يبتسم.

يصدر من تشارلي ما هو أكثر من الابتسام، يقهقه بصوت مسموع، ويلقي برأسه للوراء حتى ينحسر فمه عن أسنان ذهبية ولسان أشبه بدودة ضخمة. ثم تلتئم شفتاه البضتان على ابتسامة متكلفة، ووجه متأمل، وعينين يقظتين تستقران خلف حاجبين كثيفين. يتوجه الرجلان بالحديث إلى أحمد:

- وكيف تشعر حيال كل ذلك أيها الشاب المغفل؟ يخبرنا الإمام أنك غاية في الورع.

- أحاول التمسك بالطريق المستقيم، وهذا ليس بالأمر الهين في هذه البلاد، إنهم هنا يزدهون بالحرية، ولكن الحرية دون هدف واضح هي إلى السجن أقرب.

وهنا يتدخل الأب بصوت مرتفع:

- أنت لم تجرب السجن يا بني، لا يخاف الناس من السجون هنا في أمريكا مثلما يخافون منها في بلاد العالم القديم كالعراق مثلاً أيام صدام حسين وبلاد أخرى.

ويقول تشارلي مهدئاً:

- أبي، الولايات المتحدة لديها أكبر عدد من نزلاء السجون في العالم.

- ليس أكثر من روسيا أو الصين.

- ومع ذلك فالعدد كبير، يقترب من مليوني سجين. ألا ترى إلى الزنجيات لا يجدن شبابًا يتزوجنهم؛ لقد ذهب أغلبهم إلى السجن.

- شُيدت السجون للمجرمين. هؤلاء السود الذين تتحدث عنهم، يقتحمون شركتي هنا من ثلاث إلى أربع مرات في العام. فإذ لم يجدوا مالاً حطموا الأثاث وتغوطوا في جميع الأركان. إنه شيء مقزز يا رجل.

- بل إنهم قوم معدمون يا أبي، نحن بالنسبة لهم أغنياء.

- سجون صدام حسين، وسجون الشيوعيين سجون بمعنى الكلمة، الإنسان العادي في هذا البلد لا يعرف طريق السجن. إنه يعمل عمله ويطيع القوانين، وهي قوانين بسيطة سهلة التطبيق: لا تسرق، لا تقتل، لا تتحرش بزوجات الآخرين.

لقد انتهك بعض زملاء أحمد القانون في مدرسة سنترال الثانوية، وأحيلوا إلى محكمة الأحداث بتهمة حيازة المخدرات والسطو المسلح والقيادة مع السكر. ويعتقد أكثرهم شرًا أن السجن جزء من حياته العادية، على الأقل يجد فيه بعض الأمان الذي لا يجده خارجه.

ولكن رغبته في إضافة هذه المعلومات إلى الحوار أحبطها تشارلي حين قاطعه، يريد أن يخرج من الجدل بأقل الخسائر:

- أبي، ماذا تقول في معسكر الاعتقال الصغير الذي أقمناه في خليج غوانتنامو حيث لا يُسمح للسجين هناك باستقدام محاميه للدفاع عنه؟ هؤلاء السجناء المساكين لا يُسمح لهم بإقامة مسجد لــه إمام، فقد يكون هذا الإمام جاسوسًا عليهم؟

يرد حبيب شهاب بعد أن يمتقع وجهه، ويتمنى أن تنتهي المحادثة دون أن يضطر إلى الاستسلام:

- إنهم مجرمون خطرون، يريدون تدمير أمريكا، وهذا ما يعترفون به أمام الصحفيين. إننا نطعمهم ونسقيهم، وفي الوقت نفسه يقولون إن ٩/١١ ما هو إلا نكتة كبيرة، ولا يقنعون بغير الحرب التي لا تبقي ولا تذر: الجهاد الذي يفضي إلى النصر أو الشهادة. ماذا يتوقعون من أمريكا؟ أن تنبطح

أمامهم، وتُقَبِل أقدامهم، ولا تنهض للدفاع عن نفسها؟ بن لادن نفسه ينتظر أن تدور عليه الدوائر الأمريكية.

ويتدخل أحمد بصوت مضطرب:

– الجهاد ليس معناه الحرب بالضرورة، إنه القتال في سبيل الله، وقد يعني جهاد النفس.

يرمق شهاب الأب أحمد باهتمام طارئ، ويكتشف أن عينيه ليستا داكنتين بنيتين كعيني ابنه، ولكنهما أقرب للون الرخام، ويقول لــه بصوت وقور:

– أنت ولد طيب.

يضع تشارلي ذراعه القوي حول كتفي أحمد النحيفين، يريد أن يعبر لــه عن تضامنه ونصرته ونصحه في الوقت نفسه:

– أحمد لا يقول ذلك لكل من هب ودب.

كانت هذه المقابلة داخل شركة إكسلانسي للأثاث المنزلي، حيث قامت منضدة كبيرة بين عدد من المكاتب الحديدية والأبواب الزجاجية. وبقيت المساحة المتبقية معرضاً، أو كابوساً، تزدحم صفحته بالمقاعد، والمناضد، والطاولات، ومصابيح الطاولات، والمصابيح القائمة، والكنبات المريحة، وطاولات السفرة، وكراسي السفرة، ومساند القدمين، والخوانات والنجف المعلق مثل غابات الكروم، وفوانيس الحائط وقد رصت في نظام دال، ومرايا من أحجام مختلفة مزخرفة وغير مزخرفة، مطلية إطاراتها بمزيج من أوراق وأزهار قصيرة مكتنزة، وأشرطة منقوشة، وصقور بأجنحة مرفوعة ومخالب متعانقة. تحدق الصقور الأمريكية في الفراغ مطلةِ على

أحمد الذي أخذته الدهشة، شاب نحيل الجسم من أب شرقي وأم غربية، يرتدي قميصًا أبيض وسراويلاً أسود من الجينز.

يقول الأب قصير القامة ذي الجسد الممتلئ والأنف المعقوف والبشرة الداكنة:

– لدينا أيضًا الأثاث الخلوي الذي نستعمله على العشب أو في الشرفات، من الخيزران المجدول، وما يمكن طيه. ولدينا أيضًا غرف الألومونيوم الصغيرة، التي نقيمها على الشواطئ، ونلجأ إليها وقت الحاجة، ونحتمي بها من الحشرات في الأفنية حين تريد الأسرة أن تشم الهواء. وفي الدور الأعلى لدينا كل ما يخص حجرات النوم، الأسرة، ومناضد الأسرة، والخزائن الخفيضة، ومقاعد الماكياج للسيدات، والخزائن الكبيرة حيث لا توجد الخزائن الصغيرة، الشيزلونج للسيدات لترحن أقدامهن، ولدينا المقاعد المنجدة من الجانبين، ومقاعد الحمام للجلسة المريحة، ولمبات المناضد الصغيرة، التي تتسق مع ما يحدث في غرف النوم.

يقول تشارلي وقد لاحظ أن وجه أحمد يحمر خجلاً:

– مستعمل، جديد، لا نفرق بين الجديد والقديم إلا بالسعر الذي ينبئك بحالة البضاعة، فالأثاث ليس كالسيارة ينطوي على أسرار؛ ما تراه أمام عينيك هو ما تحصل عليه بالفعل. وأي سلعة تتجاوز المائة دولار نعفي صاحبها من مصاريف الشحن، ونسلمها لـــه في أي مكان من الولاية. الناس يحبون ذلك. الناس يحبون فكرة المجاني.

و. . .. شهاب:

– إنهم يحبون السجاد الشرقي، يظنون أن اللبنانيين من أرمينيا أو إيران؛ لذا نحن نحتفظ بمجموعة من السجاد الشرقي في الطابق الأسفل.

وأي سجادة على الأرض يريد الزبون شراءها نتكفل بغسلها. الأماكن التي تبيع السجاد كثيرة في شارع ريغان، ولكن الناس يصدقوننا ويثقون في أسعارنا.

ويضيف تشارلي:

- إنهم يثقون فينا يا أبي، في سمعتنا الطيبة.

من بين قطع الأثاث المتراكمة يشم أحمد رائحة الفناء الدنيوي، يراه متغلغلاً بين طيات الوسائد والبُسُط، وأغطية المصابيح التي احتلت ست أو سبعة مواضع من المساحة الضيقة بين جدران غطتها المرايا العاكسة. أشياء مادية مسكونة بالفناء، وأمكنة مغلقة تحدها الأرض وتعلوها الأسقف مما يشي بحدود العالم النهائية، وأفق البشرية المعروف بما ينطوي عليه ذلك من يأس متغلغل في الحياة، وبعدٍ عن الله القريب ممن يريد منه القرب. يذكره المشهد بأحاسيس مطوية في ثنايا الطفولة الباكرة، حين كان يجد المتعة الزائفة في الشراء، والطمع الكاذب فيما يصنعه الإنسان من حطام الدنيا. كان يرتقي الدرج الدوار مع أمه، ويعبر المماشي المعبأة بعبق البشر، إلى السوق التجاري الضخم وسط البلد، أو يسعى خلف أمه يحاول اللحاق بخطواتها السريعة، وجسدها الذي علاه النمش، وجسده المائل إلى السمرة، وعبر مواقف مسقفة، إلى الفضاء الواسع حيث كانت ألوان شتى من البضائع متراكمة تنتظر تجار الجملة. في تلك الرحلات التي كان الهدف منها استبدال أداة منزلية قديمة ضاع الأمل في إصلاحها، أو شراء ملابس لصبي في طور النمو الذي لا يتوقف، أو لعبة إلكترونية طالما اشتاق إليها، قبل أن يحصنه الإسلام من هذه المغريات عتيقة الطراز. عندئذ كانت الأم والابن محاطين ببضائع تميل العقول، أصلية وغير أصلية، مما يحتاجانه ولا

يحتاجانه، مما لا يقدران على دفع ثمنه من مرتب محدود لمساعدة ممرضة غاب عنها زوجها في رحلة لا تعرف لها بداية ولا نهاية، أما الآخرون من الأمريكيين فيشترونه دون عناء. وأحمد عضو في مجتمع الوفرة الأمريكي دون أن يكون عضوًا فاعلاً فيه. الشياطين! هذه الصناديق والرزم، وهذه الأرفف الشاهقة المكتظة مما أنتجه العصر من كل سلعة زائلة، تستقطب جماهير القادرين على شراء واستهلاك موارد هذا العالم الفاني، يزدردونها في بطونهم قبل أن يغلق الموت هذه الأفواه الشرهة إلى الأبد. وخلف كل محتاج يقترض للشراء يكمن الموت ساحة يرقص عليها الدولار رقصة الختام. هيا اشتروا الآن، واملأوا بطونكم إذا كنتم لا تؤمنون بالآخرة وتظنون أنها وهم.

يفيض محل "الشوب أسِك"، الذي يعمل فيه أحمد كاتبًا بعض الوقت، بالسلع، ولكنها سلع لا تتجاوز الحقائب والصناديق الصغيرة المليئة بالأطعمة المالحة أو المعسولة، وكلها ضارة بالصحة، وكرات بلاستيكية صغيرة، وأقلام رصاص صنعت في الصين، مع ماحيات عديمة الجدوى. ولكن الأمر يختلف هنا في شركة إكسلانسي للأثاث المنزلي. في هذا المعرض المهيب تهفو نفس أحمد إلى عالم التجارة. إنه يميل رغم ما في نفسه من الورع والقرب من الله الذي تتضاءل إلى جواره كنوز العالم. كان النبي نفسه تاجراً. وكما يقول القرآن في سورة فصلت ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ ومن الخير الذي ينبغي للإنسان أن يسعى للظفر به تلك الصناعات التي خرج بها علينا العالم الحديث. يتذكر أحمد الآن أنه لا يزال شابًا في مقتبل العمر، وأن المستقبل أمامه، ولن يلومه الله لأن نفسه هفت يومًا إلى المادية الأمريكية. والله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، يعلم ما في نفس

الإنسان، ويعرف الأدوات التي تريحه وتوفر لـــه العيش الرغيد، وآية ذلك أن الله وعد المؤمنين في الجنة بالأرائك الوثيرة والسرر المرفوعة.

يصحب تشارلي أحمد إلى الشاحنة التي سيتولى قيادتها. ويمر به تشارلي عبر المكاتب وقطع الأثاث، إلى ممر ضيق يضيئه بصيص من ضوء خافت آت من المنور الذي تنتشر فيه ظلال الأغصان والأوراق والأزهار. وفي الممر تقوم ثلاجة وتقويم سنوي شطبت بعض مربعاته إثباتًا لمواعيد توصيل بضاعة أو استلام أخرى، ولوحة أخرى للتوقيع بالحضور والانصراف.

يفتح تشارلي بابًا آخر ليجد الشاحنة رابضة على رصيف الشحن، تحت سقف من الخشب، يلتحق بها صندوق برتقالي كبير، رصعت حوافه بشرائط من الصلب مثبتة بإحكام. يفزع أحمد حين يراها، يتخيلها وحشًا يطل بأنفه المهيب على الرصيف طلبًا لطعام. كان وجهها المطل على الطريق باهت اللون يعلوه التراب، نُقشت عليه عبارة " إكسلانسي للأثاث المنزلي" بحروف ذهبية كبيرة مائلة، ونُقش عنوان الشركة ورقم الهاتف بحروف صغيرة أسفل الحروف الكبيرة. ثُبتَ على مؤخرة الشاحنة إطار إضافي تحسبًا للطوارئ. تبرز على جانبيها مرآتان أماميتان كبيرتان مصنوعتان من الكروم. وتتصل كابينتها بالصندوق دون فراغ يفصل بينهما. شاحنة ضخمة لكنها لا تخيف، أو على حد قول تشارلي:

– وحش عجوز مستأنس، سارت مئة وعشرة ألف ميل ولم تسبب مشكلة، تعال وعاين بنفسك، لا تقفز إلى الكابينة قفزاً، استخدم السلم، لا نريد أن ينكسر قدمك من أول يوم.

يشعر أحمد بشيء من الألفة بينه وبين الشاحنة، ويشعر أن هذه الألفة ستزداد في المستقبل، وسوف يألف الموقف بأرضيته المتكسرة، والمباني المحيطة المنخفضة وأظهرها التي علاها السخام، وذلك الصندوق الكبير للقمامة الذي ينزوي في الركن وقد صدئ من الإهمال، أو عدم الاستعمال. تتناهى إلى أذنيه أصوات السيارات في الشارع البعيد، أصوات بعيدة عميقة كأنها قادمة من عرض البحر. يشعر أحمد أيضًا أن هذا المكان سيكون لـــه شأن في حياته، شأن غامض لا يمت بصلة إلى هذا العالم، شأن لـــه صلة بخالق الأمكنة جميعاً.

ينزل أحمد من الكابينة على السلم بدرجاته الأربع الخشبية السميكة، ويقف أمام الشاحنة وجهًا لوجه. يفتح تشارلي الباب ويخاطبه مداعباً:

– ها هي شاحنتك أيها الشاب المغفل، اصعد.

تعبق الكابينة برائحة أجساد رجالية وسجائر من النوع الرديء، وقهوة باردة، وساندويتشات لحم إيطالية كان يتناولها سائقو الشاحنة أثناء عملهم. يتملك أحمد العجب؛ لأنه بعد ساعات كثيرة من دراسة كتيبات الرخصة، بكل ما تتضمنه من حديث عن الدعس المزدوج على الكلتش، ونقل الحركة إلى الخلف عند السير على المنحدرات الخطرة، لا يجد لعصا النقل أثراً، فكيف ينقل الحركة؟ ولذا يخبره تشارلي بوجه متجعد وصوت بارد:

– لا نحتاج هنا إلى ناقل حركة؛ لأن السيارة آلية الحركة، كما في سيارتكم السوبارو.

يقصد سيارة أمه السوبارو المتهالكة. يبدو أن صديقه الجديد يشعر بحرجه من ذكر سيارة الأم فيضيف معتذراً:

- أقصد أن ناقل الحركة يضيف إلي السائق همًا على هم. ترك أحد السائقين ذات مرة طفلاً في الكابينة فقام الطفل بجذب ناقل الحركة إلى الوضع الخلفي وهي على حافة تل.

- ولكن ألا يجب أن ننقل الحركة إلى الأمام على المنحدرات الخطرة بدلاً من استخدام الفرامل واستهلاك التيل؟

- الأفضل في هذه الحالة أن تواصل السير وتقلل السرعة، وهذا الجزء من نيوجرسي لا تكثر به التلال مثلما تكثر في غرب فرجينيا.

يعرف تشارلي الولايات المتحدة جيدًا لخبرته الكبيرة في السفر. يحوم حول الكابينة هنيهة ثم يقفز إلى مقعد الراكب مثل القرد. يخيل لأحمد أن تشارلي وثب إلى جواره على سريره. يُخرِج تشارلي علبة سجائر حمراء حتى المنتصف من جيب قميصه القطني، ويضربها على إصبعه فيقفز منها عدد من السجائر بمقدار بوصة إلى الأمام، ويدعو أحمد:

- التدخين يهدئ أعصابك.

- شكرًا يا سيد، لست من المدخنين.

- صحيح؟ عظيم، أبشر بطول العمر إذًا أيها المغفل، لا داعي لاستخدام كلمة "سيد" في حديثك معي، أفضل أن تناديني تشارلي فقط، على كلٍ دعنا نر كيف تقود هذه الكارثة.

- الآن؟

يطلق تشارلي صيحة استنكار من حنجرته، يخرج على أثرها الدخان كثيفًا أمام عيني أحمد.

– وهل تريد ذلك الأسبوع القادم؟ لماذا جئت اليوم إذاً؟ لا تقلق، ستكتشف أن الأمر أسهل مما تتخيل. المغفلون يقودون الشاحنات كل يوم، والشاحنة ليست صاروخاً يحتاج إلى علم.

الساعة الآن الثامنة والنصف صباحاً. يشعر أحمد أن الوقت لم يحن بعد ليبدأ أولى خطواته في المهنة. ولكن إذا كان النبي قد ائتمن ذلك البراق المهيب على نفسه، فإن أحمد يستلهم ذلك الحدث ليصعد إلى المقعد الأسود المرتفع الذي أصابته الشقوق، ولوثته السوائل التي أراقها الذين جلسوا عليه قبله، ويبدأ في توجيه دفة هذا العملاق المخيف، ويجيء صوت الموتور عميقاً كأنه قادم من جوف بحر، كأن وقوده من مادة سميكة، أثقل من الغازولين، فيسأل أحمد:

– هل تدور بالديزل؟

يطلق تشارلي دفعة جديدة من الدخان القادم من أعماق الرئتين، ويجيب على سؤال أحمد بشيء من السخط:

– هل تهرج؟ وهل تريدنا أن نديرها بالديزل، ويشم الناس رائحته في كل مكان، وتحتاج إلى نهار كامل حتى تسخن كل صباح؟ على العموم أريد أن ألفت نظرك إلى شيء هام، وهو أن السيارة ليس بها مرآة خلفية، فما عليك إلا استخدام المرآتين الجانبيتين. شيء آخر أريد أن ألفت إليه نظرك وهو أن كل شيء يستغرق وقتاً طويلاً مع هذه السيارة سواء عند الوقوف أو عند بداية السير. لا تسرع عند الإشارات الحمراء، إنها مثل سيدة عجوز، فلا ترغمها على ما لا تريد، ولا تزدريها أيضاً. الغفلة عن الطريق ثانية واحدة تكفي لقتل حي، واعلم أني لا أخيفك. لنجرب الآن، انتظر: تأكد أولاً من أنك نقلت الحركة إلى الإطارات الخلفية، أكثر من مرة ننسى ذلك

ونصطدم بالرصيف. هل تعرف ماذا تعلمت في السنين الماضية؟ تعلمت أن الناس لا تمل من ارتكاب الحماقات. استعد، وليكن رأسك مستقيمًا على جسدك، أنت الآن في شارع ١٣، اتجه إلى شارع ريغان، لا يمكنك السير في اليسار لأن أمامك حاجزًا أسمنتيًا، ولكن، كما قلت لك، الناس لا تمل من ارتكاب الحماقات.

يواصل تشارلي الحديث بينما يطلق أحمد الشاحنة من عقالها، ويرجع بها إلى الخلف. يدور بها نصف دائرة، ثم ينقل الحركة إلى الأمام ويخرج من الكراج، ليكتشف من علوه الشاهق أنه يطفو وهو يطل على السيارات الأخرى. وعندما يخرج إلى الشارع الكبير يسعى للدوران فيعلو الرصيف بالعجلتين الخلفيتين دون أن يلاحظ ما حدث، ويجد نفسه في مكان آخر غير المكان الذي كان يريده. في تلك الأثناء ينشغل تشارلي في إطفاء سيجارته في منفضة السجائر على اللوحة ولم ينوه بالارتطام.

بعد مسافة قصيرة تتكون لدى أحمد عادة التطلع في المرآة الأمامية على الجانب الأيسر، ومن خلال نافذة الراكب يتطلع في مرآة الجانب الأيمن. ولم يعد يهتم بما تعكسه المرآتان من أجزاء السيارة، ولكنه يسير في طريقه المرسوم بتركيز شديد. كان في أحلام طفولته يطير فوق الردهات والمداخل، أو يطفو فوق المماشي والأرصفة، وكثيرًا ما كان يستيقظ على انتصاب، أو يغشاه خجل حين يرى على بيجامته بقعة مبللة بماء الحياة. بحث في القرآن عن آية تهديه إلى الطريق الصحيح في مثل هذه الأمور ولم يجد. لا يتحدث القرآن عن النجاسة إلا حين يتحدث عن المرأة، الحيض والنفاس والرضاعة. وفي السورة الثانية (البقرة) يقرأ هذه الآيات الغامضات: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي الآية التي تسبق هذه الآية

يقرأ أن النساء دنس: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ويشعر أحمد أنه طاهر وهو في الشاحنة، مقطوع الصلة بالعالم المدنس الذي تمتلئ شوارعه بأدران البشر ومخلفاته، يشعر الآن أنه طاهر وحر، يطير بكابينته ويرى خلفه من خلال المرايا الجانبية صندوقه الخشبي البرتقالي.

وفجأة ينصحه تشارلي بصوت حاد فيه شيء من الذعر بألا يسير على اليمين. يبطئ أحمد بمركبته ولم يدرك أنه تخطى السيارات الأخرى على يساره، في الحارة التي تلي الحاجز المروري، وهي سلسلة من الحواجز المصمتة يسمونها حواجز جرسي. وهنا يسأل أحمد مدربه:

– ولماذا يسمونها حواجز جرسي؟ وماذا يسمونها في ميريلاند؟

– لا تغير الموضوع يا مغفل، قيادة شاحنة ليس معناه أن تجلس في الكابينة وتجتر أحلام يقظتك. أنت هنا تمارس لعبة الحياة والموت، ناهيك عن إصلاح الأعطال التي قد تبتلع أقساط التأمين كلها إذا ارتكبت أخطاءً كبيرة. القيادة هنا ليس معناها أكل السجق والثرثرة في الموبايل مثلما يفعل الناس في السيارات، أنت أكبر من هذا، وينبغي أن تسعى لما هو أفضل.

– يا رجل؟! ولماذا لا تذهب السيارات الأخرى عن طريقي؟

يسعى أحمد في الواقع إلى التخفيف من الجد الذي يُظهره صديقه اللبناني الأمريكي، والخروج به من وقاره المستفز. ولكن تشارلي لم يعره اهتمامًا يذكر، ويُثَبت عينيه على الطريق من خلال الزجاج الأمامي ويقول:

– لا تكن غبياً، طبعًا لا يمكن أن نطلب من السيارات أن تفسح لنا الطريق، السيارات يا بني مثل الحيوانات، هل نضع الفئران والأرانب بجوار

الأفيال؟ وهل نضع العراق، بحجمها الصغير، بجوار الولايات المتحدة الأمريكية؟ الأفضل لك أن تسعى لتحسين مستواك.

يستغرب أحمد لتلك الملاحظة السياسية التي ينطوي عليها كلام صديقه، ويراها خارج السياق. ولكنه أصبح هو وتشارلي في مركب واحد، وعليه الإذعان.

...

- إيه... الله الله. أليس هذا هو الهدف الذي من أجله خلقنا؟ أليست هذه هي لذة الدنيا؟ لقد نسيتها ولم أتوقع أن يُذّكِرَني بها أحد.

يقول جاك ليفي بصوت مشوب بالحسرة والبهجة في آن، ويشي في نفس الوقت بما كان بينه وبين زوجته بالأمس البعيد، حين كانت تُذَكِّرَه ببهجة الحياة التي لا تعدلها بهجة أخرى، وتوافقه على ذلك تيريزا مولوي التي ترقد إلى جواره وقد تجردت من ملابسها تماماً:

- هي كذلك.

تقول في نبرة أسى محملة بأمنيات المستقبل، وقد غشيت وجهها حمرة الخجل فتواري النمش المنتشر على صفحته في موجة من لون قرنفلي فاتح:

- ولكنها لا تدوم.

- وأي شيء يدوم؟

لم تكن في الواقع تنتظر سؤالاً كهذا السؤال، ولم تكن الحمرة التي خضبت وجهها إلا توطئة لهجمة عتاب عاتية تواجه بها ضعفها وقلة حيلتها أمام مغامرة تعرف أن طريقها مسدود. وماذا تفعل بخليل متزوج؟ وهل

يهجر من أجلها بــث البدينة؟ حتى هي لا تريد ذلك، إنه أكبر منها بــثلاث وعشرين عامًا على الأقل، ما تحتاجه حقًا رجلاً يرافقها ما بقي لها من سنين العمر.

استقر الصيف في مدينة نيوجرسي على درجة فظة من حرارة يوليو المستعرة، بيد أنهما يحسان برطوبة محببة تحت الملاءات التي ابتلت بالعرق. يتهالك جاك على وسادة مرتفعة، ويحبس أنفاسه المتلاحقة. تبرز على ذراعيه عضلاته المتهالكة، ويظهر على صدره شعره المتهافت. وإلى جواره ترقد تيري وقد انحسرت الملاءة عن الجزء الأعلى من جسدها، فظهر ثدياها في بياض الصابون، كأنهما لم يتعرضا لأشعة الشمس قط. هنالك كان جاك مطلق اليد واللسان، تتسلل أصابعه إليها، ويبدي إعجابه كلما أراد. ولكن جاك يريد أن يذهب لشأنه، وتسأله تيري بصوت مجهد:

- أين تريد أن تذهب الآن يا جاك؟

العاشقة تعرف أن الرجل يكذب، والزوجة تتقاذفها الشكوك.

- عندي درس خصوصي، هذه المرة درس حقيقي، في وسط البلد، السيارة معي وبــث تحتاجها بعد ساعة أو ساعة ونصف من الآن، تريد أن تذهب بها إلى المكتبة.

- جاك، لماذا تستعجل الانصراف؟ هل تشم من جسدي رائحة منفرة أو شيئًا من هذا القبيل؟ أم أن هذا شأن اليهود حين يشعرون بالذنب عند اقتراف خطيئة ويعتقدون أن الله لا يلوم أحدًا في هذا الكون غيرهم حسب العهد الذي قطعه الرب على نفسه لبني إسرائيل، شعب الله المختار؟

هذا ظلم بين؛ لأن بــث هي التي تنبعث من جسدها الروائح المنفرة وهي راقدة إلى جواره يكاد يمتلئ بها السرير. ينطلق زفيرها فيلهب ظهره بحرارته، ويحرمه من النوم فيقضي ليله مؤرقًا ساخطاً.

ولكنها تهم بارتداء ملابسها ساخطة محتدمة؛ لأنها تحس أن جاك ليفي يستعجل الذهاب بعد أن قضى وطره. ولا يريد جاك أن يغضبها، ولا يريد أن يخسر صداقتها. يرجع عن قرار الذهاب، ويضع يديه على منكبيها فيشعر بالشعر الخفيف على مؤخرة عنقها. ولا يزال يستعطفها حتى ترضى، يسألها عن أحمد، وهي تجيب في شيء من الإحجام؛ لأنها لم تستسغ تلك النقلة المباغتة من حالها كغانية إلى وضعها كأم:

- يبدو أنه يشق طريقه بشيء من النجاح؛ لأنه يحب الناس الذين يعمل لديهم، أب لبناني وابنه، يدربانه على المهنة، ويبدو أن ابني لـــه شخصية، قال لي إنه يحب الشاحنة.

- الشاحنة؟

- أقصد هذه الشاحنة بالذات، يشعر أنها شاحنته. أنت تعرف الإنسان عندما يحب شيئاً. كل صباح يقيس ضغط الهواء داخل الإطارات، ويفحص الفرامل، وزيت الفرامل، وزيت الموتور، وجميع الزيوت. ويحكي عن كل شيء، عن زيت الموتور، ومروحة الريداتير، وزجاج السيارة الأمامي، والبطاريات، ومجموعة عجلة القيادة، ومجموعة التروس .. وهذا حسب ظني أهم ما في السيارة. إنه يفحص براغي المروحة حتى يعرف كيف يضبطها، ويفحص أشياء أخرى لا أتذكرها. يقول إن الفنيين في الورشة مستعجلون، ولا يتقنون عمليات الإصلاح. حتى الشاحنة لها اسم: (إكسلانسي) أي التميز للأثاث المنزلي. وهم يعتقدون أنها تعني الامتياز.

- هي كذلك. هذا ذكاء منهم.

يحس جاك ليفي بعودة للانتصاب تلعب تيري أدوارًا مختلفة: أم ومساعدة ممرضة محترفة، ورسامة تجريدية، وشخصية متعددة المواهب، يسره أن يعرفها حتى إن لم تكن من الجنس الناعم. يتوقف جاك ليفي عن التفكير في ملابسها الداخلية الحريرية المختلطة بقماش أحمر غامق. يفكر في طيشها معه، وأولئك الخلان الذين رافقتهم طيلة الخمس عشرة عامًا بعد أن أخفق أبو أحمد في فهم اللغز الأمريكي وفر هارباً. فتاة تربت على الكاثوليكية، تجازف بالارتباط بمسلم مخبول، فهل كان ذلك تطرفاً، أم جموحاً، أم خروجًا عن المألوف؟ يسألها:

- ومن أخبرك عن اليهود، والميثاق، والعهد؟

- لن أخبرك، رجل عرفته في يوم من الأيام.

- وكيف عرفتِه؟

- عرفته وكفى. جاك لا تسأل عن أشياء لا تخصك من فضلك، لن أخبرك بشيء. أنا سيدة تركها زوجها في أحلى سنوات عمرها، الآن أنا في الأربعين من العمر. لا تحسدني على أيام عمري القليلة التي التمست فيها شيئًا من السعادة.

- لن أحسدك طبعاً، ولكنك - كما قلت لك - عندما تهتمين بأحد فإنك تسعين لامتلاكه.

- هل قلت ذلك؟ لم أسمعك، كل ما سمعته أنك تفكر في بــث وإشفاقك عليها.

- بــث لا تثير شفقة أحد وهي في المكتبة، فهي تجلس خلف مكتبها تتصفح الإنترنت، ربما أفضل مني.

- يبدو أنها امرأة باهرة.

- لا.. ولكنها حواء.

- عظيم، ومن منا ليس من أبناء آدم و حواء؟ أو تظن أني لا أستحق أن أكون من بنات حواء؟

- كلنا أبناء آدم وحواء.

ثم يقول كأنه يسعى للتهدئة:

- خاصة أنت، وبالنسبة للعهود والمواثيق أنا من اليهود الذين لا يهتمون بهذه الأمور. كان أبي يكره الدين، وكل ما سمعته عن العهود والمواثيق هو ما رأيته في الجيرة حين لم يكن يُسْمح لليهود بالدخول، وكيف حال أحمد مع دينه هذه الأيام؟

تتراخى على وسادتها الحانية، وتتجاوز عيناه حدود بلوزتها السوداء إلى جلدها المنمش أعلى الصدر، جزء متجعد استقرت سمرته من سفع الشمس على مر السنين، فيختلف عن الجزء الآخر الذي لم يتعرض لأشعة الشمس قط فاحتفظ ببياض الصابون، ويناجي جاك نفسه:

- ها هي تعترف، على هذا الفراش صال يهودي آخر وجال. ود لو عرف الآخرين، أمصريين كانوا أم صينيين؟ الله وحده يعلم، أم هؤلاء الرسامون الذين لا يصلون إلى نصف عمرها؟ إنهم غلمان لا يرونها غير أم، أو في مقام الأم، ربما كان ذلك هو سبب غرابة ابنها.

- أحمد هذا لا أفهمه، إنه لا يتكلم كثيرًا عن دينه. الولد مسكين، صغير على هذا العبء. كأنه يبدو منساقًا خائفًا عندما كنت أوصله إلى

المسجد. كان يصعد الدرج متردداً، وعندما كنت أسأله بعد ذلك عن الأحوال لم يكن يجيب إلا بكلمة واحدة: "ممتازة،" ثم يلوذ بصمت مطبق، أو يحمر وجهه ارتباكاً. أعتقد أنه يمارس شيئًا أكبر من سنه. وعندما بدأ يتردد إلى وظيفته أخبرني أنه لا يستطيع أن يواظب على الذهاب إلى المسجد في أيام الجمع؛ لأن تشارلي هذا لا يتركه، ولا يبدو عليه التدين مثل أحمد. ولكن ما يطمئنني أن أحمد يبدو مستريحاً، بدأت أشعر حين أحدثه بأنني أحدث رجلاً كامل الرجولة. إنه سعيد بنفسه وبكسب المال، وأنا أعتقد أنه أكثر انفتاحًا على العالم من ذلك الدين الذي لا يعرف التسامح الذي يؤمن به. وأظن أنه مستعد لتقبل الأفكار الجديدة.

هنا يسأل جاك ليفي وقد خفف من توتره تحول تيري إلى موضوع آخر بعيدًا عن أسباب ضعفه:

- وهل لـــه خليلة؟

- لا، ليس لـــه خليلة، ولو كانت لـــه خليلة لعرفت. إنه يعود مجهدًا ويطلب مني العشاء، ويستغرق في قراءة القرآن، أو يطالع جريدة جاء بها من عمله، يقرأ فيها ما كُتب عن هذه الحرب الغبية التي يسمونها الحرب على الإرهاب، حتى يستطيع الحديث عنها مع المدعو تشارلي، ثم يذهب إلى فراشه، ولا أجد هذه الأيام بقعًا على ملاءاته كما كنت أجد في الماضي القريب.

ويقول جاك ملحاً:

- وكيف تعرفين أن لـــه خليلة من عدمه؟

- لو كانت لــه خليلة لحدثني عنها، على الأقل لكي يغيظني، كان دائمًا يعبر لي عن عدم رضاه عن صداقتي بالرجال، وأحياناً كان يريد أن يخرج ليلاً ولكنه لا يفعل، كأنه كان يريد أن يحرسني.

- هذا شيء لا يستقيم مع التفكير السليم، إنه شاب حسن الطلعة، أيمكن أن يكون شاذاً؟

لم يفاجئها السؤال:

- لو كان كذلك لعرفت أيضاً، الشيخ رشيد خبيث، ولكن أحمد واعٍ بما يدور حوله، إنه يحترم الشيخ رشيد ولكنه لا يحبه.

- قلتِ إنكِ قابلت الرجل، صح؟

- قابلته مرة أو مرتين حين كنت أوصل أحمد إلى المسجد، كان رجلاً دمث الخلق، وكان مؤدبًا معي، مع أني أحس أنه يكرهني، أنا بالنسبة لــه قطعة من اللحم النجس.

- اللحم النجس!

- وهل يقضي أحمد ساعات طويلة في عمله الجديد؟

- من وقت لآخر، بعض الأيام يعود مبكراً، وأغلب الأيام يعود متأخراً. في بعض الأوقات يسلم بضاعته في كامبدن، أو مدينة أتلانتك.

- هذه مسافة بعيدة جداً، لا تستحق عناء سيرها من أجل قطعة أثاث.

- تسليم وتسلم، أغلب بضاعتهم من المستعمل، يدخلون المناقصات وينقلون ما ظفروا به بالشاحنة. لديهم شبكة عمل، ولا أعلم أين الإسلام من هذا كله؟ أغلب زبائنهم من مدينة نيو بروسبكت وما حولها، من السود

خاصة. يقول لي أحمد إن بعض بيوتهم لطيفة إلى درجة مدهشة وأحمد يحب الذهاب إلى المناطق الجديدة، والاطلاع على طرق الحياة المختلفة.

- يريد أن يرى العالم، أما أنا فلم أخرج من نيوجرسي.

يحب تشارلي شهاب الجلوس بجوار أحمد في كابينة الشاحنة حتى بعد أن أتقن أحمد عمليات تحميل الأثاث وتفريغه للزبائن. يزداد أحمد خبرة وقوة مع الأيام والقيام بالرفع والسحب. طلب من آل شهاب أن تكتب الشيكات باسمه (أحمد عشماوي) - خمسمائة دولار في الأسبوع أي ضعف ما كان يدفعه لــه السوبر ماركت بالساعة - رغم أنه لا يزال يعيش مع أمه في بيت واحد، ويظهر اسمها "مولوي" في رخصة قيادته وبطاقته الشخصية. ذهبت معه إلى بنك في وسط البلد في أحد المباني الزجاجية الجديدة وملأت استمارات فتح حساب جديد لــه منفصل عن حسابها القديم. هكذا دون أن تظهر اعتراضا يذكر كدأبها في الأيام الأخيرة، والحق أنها لم تظهر اعتراضًا كبيرًا على شيء طوال حياته. لا يرى أحمد أمه إلا سيدة أمريكية كغيرها من السيدات الأمريكيات اللاتي تتقصهن القناعات القوية والشجاعة الضرورية وراحة البال التي تجلبها تلك القناعات. إنها ضحية المذاهب الأمريكية والحرية الأمريكية التي تعلو فوق كل شيء، رغم أن الحريات ذهبت مع الريح في السنوات القليلة الأخيرة. تبخرت الحريات الأمريكية مع دوي القنابل وهدير الانفجارات، ولم يبق منها إلا شعارات جوفاء. يؤكد تشارلي ما يقوله الشيخ رشيد من أن هذه البلاد تحتاج إلى أن تتحول إلى أمة واحدة يحكمها قانون إلهي يذعن لــه الناس جميعًا الأغنياء منهم والفقراء. قانون يضطرهم جميعًا إلى الانحناء أمامه والتسليم به، قانون يحبب إليهم التضحية بالنفس بخضوع تام. ولكن المجتمع الأمريكي مجتمع متفسخ،

يبحث كل فرد فيه عن شأنه الخاص ولسان حاله يقول: "اقتنص الفرصة، لا ينفرد الشيطان إلا بالكسالى والعاطلين، والله في عون العبد ما كان العبد في عون نفسه، أي باختصار لا يوجد إله، ولا توجد قيامة، ولا يوجد إلا الأنا، فلا تساعدن إلا نفسك، وخذ ما تستطيع من متاع الدنيا." على ذلك النحو يتحدث الشيخ رشيد مزدهيا بتمكنه من الإنجليزية بعد عشرين سنة قضاها بين الكفار. يراود أحمد الإحساس أحيانًا بأن الشيخ رشيد يعيش عالمًا وسطًا بين الحقيقة و الخيال، عالمًا نُسِجَت عناصره من كلمات اللغة العربية، ينجذب إلى القرآن الكريم بسبب لغته التي تصنع لـــه عالمًا ساحرًا من اللغة. يسحره التدفق البهيج لحروف اللام والسين والصاد والقاف والعين. يستمد قواه من صيحات الجنود وبسالة الفرسان على رمال صحراء العرب، وتحت سماء الجزيرة الصافية!!

لا يرى أحمد أمه إلا كهلة متصابية تسعى وراء المتعة الحرام. استشعرت مؤخرًا إحساسه بأن الهواء محمل بعبق عاشق جديد يزور الشقة ويلقي شباكه من أجل موعد قريب. هي أمه ولكنها لا تجد بأسًا من أن تجعل جسدها مأوى لعابر أو زائر. تسير على الطريقة الأمريكية التي تغلب الشهوة على ما عداها من روابط الأسرة. يكره الأمريكيون الأسرة ويهربون من مسؤولياتها الجسام. حتى الوالدان يتآمران على هذا البناء الذي صنعاه بأيديهما حين يرحبان بأول إشارة يدل بها الابن على رغبة في الاستقلال، لا يعيران تمرده اهتمامًا يذكر. لا توجد في الثقافة الأمريكية رابطة عميقة بين أفراد الأسرة كما عبر عنها النبي في علاقته بابنته فاطمة: "فاطمة مني ومن آذاها فقط آذاني ومن آذاني فقد آذى الله." أحمد لا يكره أمه، هو لا يراها إلا قليلاً؛ لأنها مشغولة دائمًا بسعيها وراء اللهو، فمتى يحبها أو يكرهها؟ لا

يراها رغم أنهما يعيشان معًا في شقة واحدة تعبق بعرق جسديهما وروائح ألوان الزيت التي تنبعث من مرسمها. لا تعلم شيئًا عن شخصيته التي يظهر بها في عالم النهار إلا بمقدار ما تعلم عن بيجامته التي يأوي بها إلى مرقده ممتزجة بالعرق الذي يتسلل منه أثناء الليل، ويتسلل منه قبيل دخوله تحت الدش في الصباح قبل أن يذهب إلى عمله. ألم يكن غريبًا أن يتقاسما شقة ضيقة حتى بعد أن شب أحمد عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال؟ لم تكن تتورع في الظهور أمامه بملابسها الداخلية أو قميص النوم الذي كان ينحسر أحيانًا عن عورتها. وعند خروجها إلى الشارع، في الصيف، كانت ترتدي الأحزمة التي تضيق على تنورتها القصيرة، وبلوزاتها التي أطلقت أزرارها عند القمة، والجينز المشدود عند أجزاء جسدها الممتلئة. وعندما كان يلفت نظرها إلى ذلك كانت تسخر منه وتتهمه بمغازلتها. لم تكن ترتدي تلك الأسمال الشاحبة المحببة لديه إلا عندما كانت تذهب إلى عملها في المستشفى. حينئذٍ فقط كان يسري عليها قول القرآن للنساء في سورة النور: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يتذكر حين كان طفلاً في العاشرة وكانت تأخذه معها إلى مستشفى القديس فرانسيس؛ لأنها لم تكن تستطيع دفع أجر جليسة أطفال، وكان يسره أن يرى العرق يغشى وجهها بسبب الجهد الذي تبذله في عملها في بنطلونها القديم، وحذائها السميك النعل، ويديها العاطلتين من الزينة. يتذكر أيضًا تلك

اللحظة المحملة بالانفعالات حين وصل إلى سن الخامسة عشرة بما حملت معها من بدايات الرجولة الأولى؛ فأصبح أطول من أمه، وظهر الشعر الخفيف الداكن على شاربه وهي لم تتجاوز الأربعين، تراودها الأحلام في اصطياد الرجال، أو استقطاب أحد الأطباء الأغنياء الذين تحيط بهم المساعدات الحسناوات في الغدو والرواح.

كان أحمد يراها متصابية تفتعل الشباب كما لا ينبغي لأم أن تفعل. في بلاد الشرق يرضى النساء بالتجاعيد، وتَسْتَعِن بها على حياتهن الجديدة المتدثرة بالفضيلة. لا يُسمح لهن بالخلط بين دور الأم ودور العاشقة. يشكر أحمد الله لأن أمه لم تكن قط طيفًا في أحلام يقظته أو منامه. تفكيره في أمه على ذلك النحو معناه أنها لم تكن النموذج الذي يحتذيه. لا يحب لونها الأبيض المخضب بالحمرة، ولا ذلك النمش الذي ينتشر على صدرها كما ينتشر البرص في جسم العليل. تغير ذوقه خلال السنوات التي قضاها في سنترال الثانوية فرغب عن اللون الأبيض وأصبح يرغب في اللون الداكن، لون الكوكاكولا والكراميل والشيكولاتة. عشق العيون السود، وهي عيون الحور العين كما جاء وصفها في سورة الواقعة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تيريزا خطأ ارتكبه أبوه ولن يرتكب مثله.

تشارلي متزوج من سيدة لبنانية نادرًا ما يراها أحمد. تطوف أحيانًا بمحل الأثاث بعد أن تنتهي من عملها في مكتب الضرائب القريب. يرى في ثيابها الغربية وبنطلونها مسحة رجولية، وفي بشرتها الزيتونية، وحاجبيها الكثيفين ما يميزها من نساء الكفار. في صورة الزفاف يجلس تشارلي إلى مكتبه بينما تقف هي مبتسمة بين طفلين وعلى رأسها وشاح أبيض يخفي

شعرها كله. لا يتكلم تشارلي عن زوجته، ولكنه يتكلم عن النساء على وجه العموم، ولا سيما اللاتي يظهرن في إعلانات التفاز. يقول:

- هل رأيت المرأة التي تعلن عن عقار الليفترا المقوي للشباب الذين يرغبون في اعتلائها؟

- أنا لا أحب التلفاز خاصة أني لم أعد طفلاً؟

- غلطان !! وكيف تعرف كيف تدار هذه البلاد إلا من خلال التلفاز؟ الشركات الكبرى هي التي تحكم أمريكا وتحكمنا. إذا أردت أن تعرف نموذج الأنثى الكاملة انظر إلى الفتاة التي تعلن عن عقار اللفترا. إنها تئن تحت وطأة الرغبة وراء الذكر الذي ينتصب عضوه حين يراها، وكيف يصبح هذا الانتصاب كاملاً بعد أن يستخدم هذا الرجل العقار. ضعف الانتصاب هو المشكلة التي كسبت منها شركات الدواء الملايين منذ ابتداع الفاليوم. انظر إلى الطريقة التي تحدق بها تلك المرأة إلى هذا الشيء الذي يتوسط جسم الرجل بعينين عاهرتين، تعرف كيف أصبح هذا الشيء في صلابة الحديد، ثم انظر إلى اللعاب الذي يكاد يسيل من فم جميل حين تهتز شفتاها الرقيقتان وهي ترمق ذلك الفتى الموديل (ربما كان هذا الفتى شاذاً في حياته الحقيقية) وهي تشير إليه وتقول: "انظروا إليه!" وتضع أناملها على غمازة وجنته فيرتبك الفتى بعض الشيء، ثم تخبره أنه كان عظيماً، ثم تقول إن العقار حقق نجاحًا مبهراً. من أين جاءوا بهذه الغانية اللعوب؟ امرأة بمعنى الكلمة.

هذا حديث كان أحمد يتجنبه في المدرسة الثانوية. لو كان أبوه - عمر عشماوي - يعيش الآن ويضطلع بدوره كأب، لتحدث مع ابنه في هذه الأمور حديثًا معتدلاً بعيدًا عن الفحش. ورغم ذلك يشكر أحمد تشارلي لأنه جعله عضوًا في نادي الرجال. تشارلي أكبر من أحمد بخمسة عشر عامًا أو

نحو ذلك، ورغم ذلك يفترض تشارلي أن أحمد يعرف ما يعرف، أو على الأقل لديه الرغبة الصادقة في المعرفة. وأحمد قادر على الحديث مع تشارلي حديث الند، وهو يحدق أمامه في زجاج الشاحنة الأمامي ويداه لا تبرح عجلة القيادة. وها هو يخبر تشارلي بأن التلفاز لا يشجع على حياة الطهر والنقاء:

- أنت طيب، وهل تريد من التلفاز أن يدعو إلى حياة الطهر والنقاء؟

لا طبعاً؛ لأن كل ما يظهر في التلفاز مجرد هراء لملء الفراغ الذي يتخلل الفواصل الإعلانية. هذا ما كنت أريد أن أكونه: رجل إعلانات من الدرجة الأولى. لم أكن أطمح إلى العمل في مهنة أبي. عمي يعمل في مهنة بيع الأثاث، وهو الآن في فلوريدا نرسل لــه نقودًا في بعض الأحيان. كنت أريد أن أتخصص في الإعلانات وإدارتها والمساعدة في إخراجها مع المخرج والممثلين وكتاب السيناريو، ثم تقنع الناس بأنهم لا يستطيعون العيش دون هذه السلعة أو تلك، هذه صناعة أهم من صناعة الأخبار. الأخبار يكتبها كتاب التقارير من مثل ديانا سوير، عن أطفال أفغانستان المساكين، أو من أجل الدعاية المباشرة للرؤساء - بوش وبوتين. بوش يشكو من أن بوتين سيتحول إلى ستالين آخر، وحكامنا في الواقع أسوأ من حكام الكرملين القديم. كان الشيوعيون يسعون لغسيل عقولنا، اليوم تفعل القوى الجديدة، وهي الشركات عابرة القارات، الشيء نفسه. تريد أن تحولنا إلى آلات مستهلِكة. كل ما تشاهده في التلفاز من تسلية يا مغفل، هراء في هراء: نفس الهراء القديم الذي جعل الناس لا تهتم بالكساد الكبير.[1] كان الناس يقفون في طوابير ويدفعون ربع دولار لمشاهدة الفيلم، اليوم تشاهده مجاناً، وفوق ذلك

يدفع المعلن ملايين الدولارات ثمناً للإعلان في الدقيقة الواحدة، فرصة يتمكن من خلالها التاجر من الوصول إلى المشتري وهو جالس في منزله.

يريد أحمد أن يرد على هذا الكلام وكفى:

- إنهم ليسوا على الطريق المستقيم.

- ألا زلت تمزح؟ إنه طريق الذهب المعبد بالنوايا الماكرة.

يتذكر أحمد أنه كان يستمع إلى موعظة ذات مرة، ويرى من جانب من عينيه رذاذ اللعاب يتسرب من فم تشارلي بسبب تدفق الكلمات السريع على لسانه، يقول تشارلي وهو يبصق:

- الرياضة، إنهم يدفعون البلايين من أجل شراء حقوق بث المباريات على التلفاز، وهذا هو ما دمر اتحادات المحترفين، لم يعد أحد يريد هذه الاتحادات أو كسب ودها. لقد اختفى الولاء للفريق والهوية المحلية، أما جماهير الملاعب فمغفلون لا يعرفون ما يريدون. أصبحت الرياضة مثل ألعاب الفيديو، واللاعبون أشباح. ناهيك عن تلك المسرحيات التي يسمونها كوميدية، التي تصطنعها شبكات الإنترنت، يا إلهي! من يضحك على هذا السخف الذي تبثه؟ إنها أشبه بفضلات طعام. ولكن الإعلانات عجيبة حقاً، هم يريدون تحقيق مبيعات فيصيحون ويزرفون العرق. كيف تعرف أن الأمريكيين مرضى بعسر الهضم، والعجز الجنسي، والصلع، وسلس البول، وتغطي الدمامل مؤخراتهم إلا من الإعلانات؟ أعرف أنك لا تشاهد الإعلانات، ولكنك تظلم نفسك إذا لم تشاهد إعلان "الإكس لاكس"، وتلك الفاتنة التي تقدمه بشعرها المسترسل وأسنانها الماكرة، وهي تطل من خلال عدسات الكاميرا وتخبرك، وكأنها تخبرك أنت فقط ، وأنت مسترخ على أريكة، وإلى جوارك كيس "الشبسي"، أنها ضعيفة أمام "الجنك

فوود"، وهي في صلابة عود الحديد، تشكو من ضعف أمام "الجنك فوود!" وتعاني من الإمساك! ترى كم عمرها؟ خمس وعشرون؟ في صحة لانس آرمسترونج ويمكنك أن تراهن على أنها لم تصب بشيء طوال حياتها. ولكن شركات الأدوية والملينات تريد من السيدات الطاعنات في السن ألا يخجلن من آلام القولون في بطونهن. تريد أن تقول لهن: "انظرن إلى هؤلاء الفتيات الصغار المفعمات بالحيوية كهذه الفتاة التي أمامكن، هن يقضين الساعات أحيانًا في الحمام، ويعانين من البواسير أيضاً، فأنتِ لست وحدك يا جدتي! لستِ تلك القطعة من اللحم الطاعنة في السن والملقاة فوق كوم القمامة، أنت في القارب نفسه مع هؤلاء الفتيات الصغار المقبلات على الحياة."

يوافق أحمد على ما يقوله تشارلي وهو يضغط برشاقة على الفرامل توطئة للوصول إلى إشارة خضراء ستتحول إلى الأحمر قبل أن تصل الشاحنة، ويقول معلقاً:

– إنه مجتمع يخاف من كبر السن! الكفار يخشون الموت.

– لا.

ثم يضيف بعد صمت كأنه يختار كلماته:

– ومن ذا الذي يريد الموت؟ المؤمنون الحقيقيون لا يخشون الموت؛ لأنهم يعرفون أن الجنة في انتظار الأتقياء.

لا تزال عيناه معلقتين بزجاج النافذة الأمامي حيث الطريق الرملي الذي تنتشر عليه بقع متناثرة من الشحم، والأنوار الخلفية الحمراء، والمساحات المتألقة في أشعة الشمس المنعكسة على طريق شاحنات نيوجرسي، وها هو يتلو من القرآن: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

– طبعاً. شيء جميل لا شك في ذلك. عن نفسي إذا جاء الموت لسبب وجيه لن أسعى للهرب. أنت صغير جدًا ولا زالت الحياة كلها أمامك.

لم يشعر أحمد في إجابة تشارلي المستفزة برعشة الشك ووميض السخرية التي أحسهما في صوت الشيخ رشيد. تشارلي رجل الحياة نعم، ولكن الإسلام جزء من الحياة أيضا، وليس اللبنانيون في ذكاء اليمنيين وخطورتهم، وليسوا في وسامة المصريين وسرعة اختفائهم. يقول أحمد بحذر:

– لقد عشت أطول مما عاش الكثير من الشهداء في إيران والعراق.

ولكن تشارلي لم يفرغ من حديثه عن النساء اللاتي يراهن في إعلانات التلفاز، وهو يضيف:

– لقد كسب منتجو الدواء أرباحًا طائلة من بيع عقار الفياجرا وغيره من العقاقير التي تقوي الرغبة الجنسية عند النساء. وهناك إعلان، من المرجح أنك لم تره لأنه لا يظهر كثيراً، تظهر فيه امرأة حساسة وبسيطة، مدرسة، أو مديرة مكتب لشركة إلكترونيات محدودة، على وجهها تكشيرة ناعمة، تعرف منها أنها [illegible] شيئاً، وتعضد الموسيقى المصاحبة هذا الإحساس لديك، ثم تراها وهي ماشية على الماء عارية القدمين تسابق الموج، على مقربة من الشاطئ. وهي تحاول، بالتسريحة النسائية، والماكياج الرهيب والعيون الساهية، أن تعرف السبب، والسبب هو أنها أخذت هرمون مقوي لشهوتها جعلها تستمتع بأكثر من ذروة جماع واحدة. لم يكن التلفاز يسمح بهذه الإعلانات في الماضي. ولكن هذا ما تريده النساء، الجماع! إنه يخفف التوتر ويزيد الجمال. ولكن ما شأنك أنت يا مغفل بهذا كله؟ هل لك من شقاوة الشباب؟

- ماذا؟

هما الآن في وسط مدينة بيواي، لا يجدان غير المواقف الضيقة التي لا تكاد تسمح للشاحنة بالوقوف، وحين يمر أمام الشاحنة أتوبيس مدرسة بطيء يحمل طالبات يحدقن من النوافذ بوجوههن البريئة، يشيعهن تشارلي بكلمة نابية يحمر لها وجه أحمد خجلاً، ولكن تشارلي ينصح أحمد بشيء من الجد بأنه يجب أن يتمرس على مضاجعة النساء، وأنه، أي تشارلي، سيعينه على ذلك.

تتشابه مدن نيوجرسي بواجهات محلاتها ومواقفها وأضوائها، والمساحات الخضراء القليلة التي تنبث هنا وهناك، وتتشابه أيضًا بطرقاتها الضيقة، وروائحها المشبعة برائحة النفط والزيت المتسرب من مواتير السيارات، وبقايا الأكل المتروك على الطريق. ومع ذلك فأحمد يلحظ شيئًا من الثراء في بعض الأحياء التي تنتشر في شوارعها وأزقتها الشجيرات الصغيرة الأنيقة أمام مداخل بيوتها كأنها حراس أمن في ملابس نظيفة. أحيانًا يقوم بتسليم بضاعة في بيت من هذه البيوت فيلحظ نعومة العيش، وأحيانًا يسمع أصوات التلفاز تجيء من الحجرات الخلفية، وأحيانًا يلمح سكان هذه البيوت من السود، يروحون ويجيئون. وأحيانًا أخرى يجد علامات على ممارسات إسلامية: سجادة صلاة، ونساء محتجبات، وصور مؤطرة للأئمة الاثني عشر، يتوسطهم المهدي المنتظر دون ملامح ظاهرة على وجهه، مما يدل على أن القوم من الشيعة. لا يطمئن أحمد إلى هذه الأمور، ولا يطمئن إلى تلك الدكاكين التي تضع على واجهاتها إعلانات مكتوب عليها بمزيج من الإنجليزية والعربية، ولا يطمئن إلى المساجد التي أقيمت مكان كنائس بروتستنتية انقضى زمنها، ولم يبق إلا استبدال الهلال

بالصليب. لا يحب أحمد أيضًا التلكؤ والثرثرة كما يفعل تشارلي الذي ينهي أموره بما يعرف من اللهجة العربية، وبعض الضحك والإيماءات التي يستخدمها لتقريب الفهم بينه وبين الآخرين. يشعر أحمد بأن هويته التي اختارها، وديانته التي اعتنقها عرضة للاضطهاد من قبل الكثرة التي اعتنقت الإسلام من باب التغيير لا أكثر. ومع أنه لم يكن المسلم الوحيد في مدرسة سنترال الثانوية، فقد كان متفردًا بينهم؛ لأنه كان الوحيد المنحدر من زواج مختلط، والوحيد الذي كان يتحمس لعقيدته التي اختارها ولم يفرضها عليه أب أو أم. كان أحمد أمريكيًا أصيلاً، وكان في أسفاره في بلدان ولاية نيوجرسي أقل اهتمامًا ببيوت الشرق أوسطيين المنبثة هنا وهناك من اهتمامه بالواقع الأمريكي من حوله. كان يرى هذا الواقع منطويًا على تجربة تثبت فشلها كل يوم.

هذه أمة هشة جديرة بالازدراء، لها تاريخ شائن لا يكاد يدل عليه مبنى مجلس مدينة نيوبروسبكت المهيب، وبحيرة الركام التي تقع علي جانبيها المدرسة الثانوية وكنيسة السود، وعلى نوافذ المبنيين قامت قضبان الحديد، وكثرت الأتربة، وانتشر السخام. في وسط كل مدينة آثارها التي ترجع إلى القرن التاسع عشر، مبنية من الأحجار البنية الثقيلة، أو الطوب الأحمر، وأفاريز ناتئة، ومداخل مقوسة لمباني فخمة قوية صمدت للزمن، وسوف تصمد أكثر مما تصمد مباني القرن العشرين الضعيفة. يجد المرء قوة وصلابة في المباني القديمة، ويجد فيها تعبيرًا عن رخاء اقتصادي غابر، وثراء في الصناعة، وميكنة وطرق وسكك حديدية أعدت لأبناء أمة يعملون ولا يتوقفون عن العمل، في زمن سادت الوحدة العضوية بين أبنائها، ورغبة أكيدة في الترحاب بالمهاجرين الجدد من أقطار العالم قاطبة. تقعقع الشاحنة

البرتقالية في مرورها أمام علامات حديدية صغيرة، وآثار عابرة تحيي ذكرى فورة تحولت إلى ثورة، انطلقت من "فورت لي" إلى "ريد بانك،" واندلعت معاركها وانطفأت، مخلفة مئات من الشباب موتى تحت العشب.

تزدحم رأس تشارلي شهاب بالمعلومات الكثيرة المتناقضة، يعرف كمًا مدهشًا من أحداث الثورة البعيدة: "في نيوجرسي سلكت الثورة مسارًا آخر، تحولت في "لونغ أيلاند" إلى كارثة. كان التراجع في مدينة نيويورك على أشده. كثرت الأمراض والانشقاقات والفرار من الخدمة العسكرية. شق البريطانيون طريقهم قبيل شتاء ٧٧/٧٦ من قاعدة "لي" إلى نيوآرك، ثم إلى "برونزويك" و"برنستون" و"ترنتون" بسهولة، مثل مرور السكين في الزبد. تاه واشنطن في براري ديلاوير بجيشه المُتعَب؛ كثير من أفراد جيشه كانوا حفاة الأقدام، صدق أو لا تصدق، حفاة على أبواب الشتاء، يمشون كالسكارى. في "فيلاديلفيا" كان الجميع يسعون للهرب ما عدا المحافظين. وفي نيوإنغلاند تمكن قائد أسطول إنجليزي من احتلال نيوبورت وورد أيلاند دون مقاومة. يسأل أحمد نفسه: "ما الذي يجعل تشارلي يخبره عن هذه الحكاية التاريخية بهذا الحماس؟" ويستمر تشارلي:

– حدثت أحداث كثيرة بعضها جيد. وذات يوم قرر الكونجرس التوقف عن إدارة الحرب. قالوا: "لن نهتم، لنترك واشنطن يتصرف بنفسه ولنرى."

– وهل من أجل ذلك سارت عبارة "لنترك جورج يتصرف."

– سؤال جيد، ولكني لا أظن ذلك، قرر الجنرال الآخر المسئول، شخص أحمق يدعى تشارلي لي – سميت قاعدة "لي" باسمه – قرر البقاء في فندق "باسكنغ ريدج" حتى قبضوا عليه تاركًا واشنطن يتحمل المسئولية

كاملة. في تلك اللحظة كان واشنطن محظوظًا لأنه كان يمتلك جيشاً، أي جيش! استطاع البريطانيون، بعد معركة رود أيلاند التغلب علينا بسهولة، تركوا الجيش الأمريكي يتراجع وعبروا هم إلى "ديلاوير،" وقد ثبت أن ذلك كان خطأ ارتكبوه كما عرفت من دروس التاريخ في المدرسة، بالمناسبة ماذا يعلمونك في هذه المدرسة يا مغفل؟ استطاع واشنطن أن يعبر برجاله المحاربين الشجعان، بثيابهم الرثة، عبر ديلاوير في يوم عيد الميلاد، وهزموا القوات الألمانية المتمركزة في ترنتون، وأسروا عددًا كبيراً. وعندما حضرت قوات كبيرة بقيادة كورنواليس من نيويورك، واعتقد الناس أن الأمريكيين حوصروا في جنوب ترنتون، تسلل واشنطن عبر الغابات، والتف حول بارنز وبركة الدب الأكبر متجهًا شمالاً صوب برنستون! ظل جنوده الحفاة أيامًا بلا نوم! كان الناس في الماضي أقوى من اليوم، لم يكونوا يخشون الموت. وعندما واجه واشنطن قوات بريطانية جنوب برنستون، أسر البريطانيون جنرالاً أمريكيًا اسمه مرسر، وحاولوا استمالته إلى صفهم ولكنه رفض فقتلوه. لا يعرف البريطانيون شيئًا اسمه أخلاق الحرب. وعندما ساءت الأمور في برنستون، قاد واشنطن رجاله وهو على حصانه الأبيض– والحصان الأبيض حقيقة ولم يكن أسطورة – قاد رجاله وسط النيران البريطانية، واندفع وراء البريطانيين وهو يصيح: "طاردوا الثعالب يا رجال! عليكم بالثعالب." وهنا يعلق أحمد:

– كان قاسياً.

يشخر تشارلي مستهزئًا بالطريقة الأمريكية ويقول:

– لم يكن قاسياً، الحرب قاسية بطبيعتها، ولكن الرجال الذين يشعلونها ليسوا قساة بالضرورة. كان واشنطن رجلاً نبيلاً. عندما انتهت المعركة في

برنستون، وقف ليؤدي التحية العسكرية لجندي بريطاني جريح لما أبداه من بسالة في ميدان القتال. وفي فيلادلفيا تكفل بحماية الأسرى الألمان من غضب الجماهير التي أرادت الفتك بهم. أرأيت؟ كان الألمان، مثل أغلب الجنود الأوربيين المحترفين، يذبحون الأسرى، هذا ما فعلوه في لونغ أيلاند، ذبحونا، وبعد ذلك كانوا مندهشين للمعاملة الإنسانية التي تلقوها، حتى إن عددًا كبيرًا منهم آثروا البقاء بعد انتهاء الحرب، وتزوجوا من الهولنديات والبنسلفانيات، وأصبحوا أمريكيين.

– يبدو أنك مفتون بجورج واشنطن.

– طبعاً، ولم لا؟

– أنت مضطر إلى الافتتان به إذا كنت تحب نيوجرسي؛ هنا حقق شهرته ونال مجده. كان الشيء العظيم فيه أنه يعتبر نفسه تلميذًا عظيماً. تعلم، فيما تعلم، التصالح مع أهل نيوإنغلاند الذين كانوا – من وجهة نظر مزارع فرجينيا – فوضويين أجلافًا يضمون في صفوفهم سودًا وهنودًا حمرًا ويعاملونهم معاملة البيض. اتخذ واشنطن لنفسه شابًا أسود أنيقًا رفيقًا وجليساً، وكان يسمى "لي" أيضاً، ولكن لا علاقة لــه بروبرت لي. وعندما انتهت الثورة أعتقه إكرامًا لخدماته للثورة. كان واشنطن يعتقد أن العبودية شيء بغيض، وكان يجول البلاد يشجع الناس على تجنيد السود في الجيش في شيء من التردد في البداية، هل سمعت عن كلمة براغماتي؟

– طبعًا سمعت.

– إنه مصطلح أطلقه جورج واشنطن بعد أن تعلم كيف يستفيد بالمتاح الممكن، ويحارب على طريقة حرب العصابات، يضرب ويختفي، يضرب

ويختفي. كان يتراجع ولكنه لم يكن يستسلم. كان "هوشي منه" عصره. وكنا نفعل كما تفعل حماس أو القاعدة اليوم. أما عن نيوجرسي فقد مال البريطانيون إلى التهدئة وكسب القلوب واستمالة العقول. عرفوا أن ما فعلوه في رود أيلاند لم يكن مفيداً، بل استدعى مقاومة عنيفة، فسعوا إلى التهدئة والظهور بمظهر المسالم، والتذكير بأن الجميع بريطانيو المنشأ في الأصل. كان جورج واشنطن يقول لهم في ترنتون: "هذا حقيقي، هذا أكثر من رائع."

ويكرر أحمد:

- "أكثر من رائع!" هذه عبارة تصلح لأن تكون عنوانًا لمسلسل من إخراجك.

لا يقبل تشارلي المزاح، إنه لا يعبث، وهو ماض إلى غايته:

لقد بين واشنطن للعالم ما يمكن أن يفعله أبناء الوطن بالدخلاء، حتى لو كان الدخلاء قوة عظمي. أظهر واشنطن للعالم كلـــه – وهذا بالضبط ما حدث في فيتنام وما يحدث الآن في العراق– أنه في أي حرب بين محتل مستعمر وأصحاب البلد المغلوب، سيكون النصر في النهاية لأبناء البلد على المحتل الدخيل؛ لأن أصحاب البلد يعرفون الأرض، ولديهم العقيدة الكافية، وليس لهم مكان آخر يلجئون إليه. لم تكن نيوجرسي مقر الجيش الثوري فقط، وإنما كانت مقر مليشيات محلية، وعصابات صغيرة متسللة من القرى يعملون لحساب أنفسهم ولا يخضعون لقواعد اللعبة، يخطفون الجنود البريطانيين واحدًا تلو الآخر، ويختفون في أعماق الريف. بدأ الهجوم على الألمان في يوم إجازتهم وأثناء عاصفة ثلجية، وكان واشنطن يهتف في جنوده قائلاً: "هيه، هذه حربنا، هذه لعبتنا، إلى فالي فورج،" ولذا نالت فالي فورج الشهرة. كان الشتاء التالي باردًا للغاية، واضطروا إلى إزالة ستمائة

فدان من أشجار البلوط والكستناء؛ كي يصنعوا منها أكواخاً، ويستدفئوا بالحطب المتبقي. كان البرد قارساً، وكان الثلج في كل مكان، حتى إنه أصبح عائقًا أمام وصول الإمدادات، وكاد الجيش يموت جوعاً. ولو حدث ذلك لكان العالم اليوم أفضل حالاً." ولكن أثناء فصول الشتاء التي تلت استقر في نيوجرسي، في مدلبروك وجبال وشتنغ، ثم في موريستاون.

يقاطعه أحمد بقوله:

– ولربما أصبحت الولايات المتحدة، مثل كندا، بلدًا مسالمًا رغم كفرها.

يضحك تشارلي ضحكًا يخرج من أنفه، ويواصل:

– أنت تحلم أيها الرجل الطيب.

ثم يتحدث عن أشياء مثل السلام والعقلانية والحفاظ على الطاقات، ويتحرك في كرسيه، ويضرب علبة المارلبورو، فتقفز منها سيجارة ثم يشرع في تدخينها، ويغطي الدخان وجهه بينما ينظر بعينين مغمضتين من خلال زجاج السيارة الأمامي كأنه يتأمل فيما يقوله لسائق شاحنته الشاب.

– في الإشارة القادمة سنصبح على طريق ٩، ننتقل بعدها إلى مونموث باتفيلد. تراجع الأمريكيون ولكنهم صمدوا أمام البريطانيين حتى اقتنع الفرنسيون والأسبان والهولنديون بأن الأمريكيين يستحقون الدعم. جميع دول أوربا كانت تريد انسحاب بريطانيا وتراجعها. يحدث نفس الشيء اليوم مع الولايات المتحدة، الجميع يريدها أن تتراجع. وكان في دعم الفرنسيين أيام لويس سيز(٢) الذي أنفق الكثير من أجل دعمنا، مما دعاه لفرض الكثير

من الضرائب على الفرنسيين حتى إنهم ثاروا عليه وقطعوا رأسه، وأدت الثورة ضده إلى ثورة أخرى في أمريكا.

ينفث تشارلي دخان سيجارته بقوة، ويقول بصوت أكثر فخامة وزيفًا كأنه كان يشك في أن أحمد يسمعه:

- أحداث التاريخ لا تقع ثم تنتهي إلى الأبد، إنه يوجد في الحاضر أيضاً، وكذلك الثورات لا تقع ثم تنتهي، إنك تقطع رأسها، ولكنها سرعان ما تبدأ في النمو من جديد.

- تقصد مثل الهيدرا ؟

يقول أحمد معلقًا كي لا يُتهم بالجهل وعدم المتابعة. سمع عن الهيدرا في دروس الشيخ رشيد وهو يعلق على فشل الحملة الصليبية الأمريكية على العالم الإسلامي، ورآها في برامج الكرتون أيام السبت على شاشة التلفاز، هذا الصندوق الإلكتروني المتوتر، وما يبثه من أغنيات شعبية وحوادث مرورية وأصوات صاخبة مثيرة. يعمد أحمد إليه أحيانًا فيخفض صوته مما يجعل الأم تغرق في النوم ويفوتها موعد الليلة. الهيدرا مخلوق كوميدي تتلوى رؤوسه في موجات متتالية. ويستمر تشارلي بثقة:

- في الثورات القديمة كثير من الدروس التي تنفعنا في جهادنا الذي هو من صلب عقيدتنا.

وحين يأنس تشارلي من أحمد ضعفًا في التركيز يسأله بحزم:

- بالمناسبة، هل أنت مع الجهاد؟

- وكيف لا أكون مع الجهاد؟ لقد أمرنا به الله ورسوله، ويتلو أحمد من القرآن: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾

وليكن، أين الجهاد من هذا كله؟ يقوم هو وتشارلي بتسليم قطع الأثاث الحديث، وجمع الأثاث القديم الذي كان حديثًا عند أصحابه الذين رحلوا. يمران بالشاحنة عبر غابة من المحلات المتراصة: محلات البيتزا، وصالونات تجميل الأظافر، ومحلات الصرافة، ومحطات البنزين، ومطاعم القلعة البيضاء لساندويتشات الهامبرجر، وسلسلة مطاعم بلمبيز، وسلسلة مطاعم كرسبي كريم للفطائر، ومحلات الغسيل بالبخار، ومحلات بيع جنوط وإطارات السيارات، وسلسلة فنادق ستارلايت موتل، وأجنحة المكاتب الفاخرة للإيجار والتمليك، والبنك الأمريكي، وشركة مترو لتمزيق المستندات، وكنيسة شهود يهوه، وكنيسة خيمة المسيح الجديدة: علامات على حشود حمقاء من البشر الذين يعلنون عن حياة صاخبة تراكمت عبر الزمن على مساحات كانت ذات يوم مراع خضراء، ومصانع صغيرة تدار بالماء. ومن الجدران السميكة التي بنيت بها المباني الحكومية يظهر طمع الإنسان في الدنيا الفانية، أصبح بعضها متاحفًا أو شققًا سكنية ومقرات لمؤسسات مدنية. هنالك تخفق الأعلام الأمريكية، بعضها ممزق، وبعضها بهت لونه، أو نسيت، على ما يبدو، على عوارضها الخشبية. يرى أحمد من خلال زجاج النافذة الأمامي حشودًا من ذكور وإناث في سنه وأكبر منه وأصغر بلا عمل، يثرثرون ولا يعرفون أنهم على حافة الخطر. نساء ترتدين السراويل القصيرة التي شدت إلى أعناقهن بحاملات رقيقة فظهرت جلودهن البنية، ورجال ارتدوا ثيابًا ليس لها أكمام، وبنطلونات متدلية بطريقة غريبة، وأقراط وقلانس صوفية، ويطلقون نكاتًا فظة على غيرهم وعلى أنفسهم. يشعر أحمد بشقاء ممض في حياة يحياها مع هذه الحيوانات الفانية، مع هذه الكائنات المحتشدة في جحيم العشق والفساد، يحيون في أنس العشيرة، كلٌ تحدوه الرغبة في تحقيق أمل بعيد أو قريب: وظيفة، مصلحة عاجلة، طموح قديم، ولو اضطر إلى وضع يده في أيدي تجار المخدرات وسماسرة

الفاحشة. هذا يحدث بينما تخلو رأس أحمد من خطة يستعين بها على مستقبله، هو في معية خالقه لا يفارقه حتى تغادر روحه جسده، الله لا يأبه بأصحاب الخطط والأعمال الدنيوية، يريد الله منه الخضوع الكامل، وأحمد يصلي خمس مرات في اليوم والليلة، على بطانيته المفروشة في صندوق الشاحنة، أو على مساحات صغيرة من الحصباء خلف استراحات الطرق. هنالك ينشر مصليته، ويؤدي فرض الله، ويطهر قلبه من أدران الشهوة خمس دقائق في كل مرة. رغم ذلك كلــه لم يمن الله عليه برؤيا تضيء لــه طريقه نحو مهنة من المهن، كأن هذه الخلوة، وتلك الصلوات، قد وقفت بينه وبين مستقبله المهني. أحياناً، وفي دفء المسير، يبث همه لتشارلي بينما الشاحنة سائرة تنهب الطريق، وأحيانًا يبدو تشارلي ثرثارًا مراوغًا محبطاً.

– في أقل من ثلاث سنوات سيكون بين يديك رخصة قيادة شاحنات درجة أولى، عندئذ ستسير بأية حمولة داخل المدينة وخارجها، حتى لو كانت مواد خطرة، وسوف تكسب كثيراً، كثيرًا جداً.

– ولكن ما نتيجة ذلك كله؟ كي نشتري سلعًا ونستهلكها؟! وكي نشتري بها الملابس والطعام الذي يستهلكه الجسد الذي سيفنى في النهاية و يتحلل ويصبح لا قيمة لــه.

– قد يكون الحق معك، ولكن هذه وجهة نظر، نعيش فترة ثم نرحل، ولكن من ناحية أخرى نترك وراءنا الكثير.

– كثير؟ تقصد زوجة وأولادًا كما يقول الناس؟

– أجل، زوجة وأولاد، ولكننا نهمل مثل هذه الأسئلة الوجودية الكبرى في حياتنا.

– أنت مثلاً لديك زوجة وأطفال ونادرًا ما تتحدث معهم.

– ماذا تقول؟ أنا أحب أولادي وأمهم. ماذا تقول في الحب يا مغفل؟ ألم يداعب قلبك مرة؟ قلت مرة إنك في حاجة إلى بعض التدريب.

– أشكرك على مشاعرك، ولكني لن أقترف هذا الإثم دون زواج، لأن ذلك ضد الدين.

– لا تعقد المسائل يا رجل، الرسول نفسه لم يكن ناسكاً، كان يقول إن للرجل أن يتزوج من أربع. سنغري بك فتاة من الكفار تعينك على التخلص من الخجل، وتفتح لك الطريق، إنها كافرة سواء رضيت أم لم ترض.

– لا أحب النجاسة.

– وماذا تحب، حيرتني. انس النجاسة، أنا آسف لأني فتحت معك هذا الموضوع. ما رأيك في الحياة لمجرد الحياة؟ تتنفس النسيم العليل، وتتفرج على السحب؟ أليس هذا لون من ألوان الموت؟

الوقت صيف والسماء صافية، ورغم ذلك أرسلت السماء بعض قطرات المطر على زجاج الشاحنة الأمامي من بقعة من السحاب المحمل بقطرات الندى داهمتها الشمس، وبلمسة من إصبع أحمد راحت الماسحتان تخفقان ببطء، في حين تركت الماسحة اليسرى قوسًا من الندى لم يُمْسَح لوجود فرجة في أسفل شفرتها المطاطية.

– الكافرون وحدهم يخشون الموت.

– وماذا عن سعادتك في هذه الحياة الدنيا؟ أنت تحب الحياة يا مغفل بلا شك، لا تنكر ذلك؛ لأن ذلك واضح من مواظبتك على العمل في الصباح الباكر، وسؤالك عن جدول اليوم. كان لدينا صبيان في الماضي لم يكونا يهتمان مثلك، ولم يأبها إلا بالتوقف عند محلات الوجبات السريعة لتناول

طن من الطعام، يذهبان بعده إلى الحمام، وبعد أن ينقضي النهار يخرجان إلى الحانات ويشربان مع الشاربين. أما أنت فأرى أن فيك قوة كامنة.

- أخبرني بعض من قابلتهم بما تقول، ولكني أعتبر حبي للحياة هبة من الله، وهو قادر على سلبها متى شاء.

- على رأيك، الله قادر على كل شيء. أنت ولد طيب.

وفي أحد أيام يوليو، في طريق العودة، يأمر تشارلي أحمد أن ينعطف إلى طريق مدينة جرسي، في منطقة مستودعات غنية بالأسوار السلكية، ولفات السلك الشائك المتوهجة، وتروس مهجورة لسيارات شحن. يمران أمام عمارات جديدة جدرانها زجاجية خالصة، شيدت مكان مستودعات قديمة، ثم يتجهان إلى ساحة يلوح منها تمثال الحرية ومنطقة مانهاتن. يرتدي أحمد بنطلون جينز أسود، ويرتدي تشارلي أفرول زيتوني فاتح، وحذاء العمل الأصفر. يرمقهما السائحون المسيحيون المسنون الواقفون على الرصيف الأسمنتي المرتفع بنظرات الريبة. وعلى مقربة يقفز أطفال مركز علوم الحرية ذي القبة، من فوق السور الحديدي المنخفض الذي يحرسهم من الوقوع في النهر. تجلب هبات النسيم معها أسراب الشرر كالبعوض المتألق القادم من خليج نيويورك الشمالي. ومن هذه الزاوية، ترى التمثال ذي الشهرة العالمية (تمثال الحرية)، الذي تحول لونه على صفحة الماء من النحاسي إلى الأخضر، كشبح ضعيف متراجع. ومن هذه الزاوية أيضًا تظهر منطقة جنوب مانهاتن مثل مقدمة مركب منتصبة على نحو مهيب. ويبدي تشارلي ملاحظة:

- أجمل شيء أننا لا نرى برجي مبنى التجارة العالمي.

لكن أحمد يبدو مستغرقًا في التفكير فلم ير المشهد، ولم يسمع ما قاله تشارلي، ما جعل تشارلي يواصل كلامه بصوت أعلى هذه المرة:

– كان منظرًا مستفزًا خارجًا عن السياق، أو لا ينتمي للمدينة.

ويعلق أحمد:

– كنا نراهما حتى من خلال تلال نيوبرسبكت.

– نصف سكان نيوجرسي كانوا يرون هذين البرجين اللعينين. أغلب الذين ماتوا كانوا من سكان نيوجرسي.

– قلبي مع الجميع، خاصة الذي قفزوا من النوافذ، كان المنظر بشعاً، تخيل نفسك وقد حوصرت بين ألسنة اللهب، وليس أمامك غير الموت قفزاً، تخيل ما يصيبك من دوار وأنت تهوي.

يجيب تشارلي بسرعة كأنه يملي نصاً:

– كان أولئك الذين يعملون في الاقتصاد يهدفون إلى زيادة أرباح الإمبراطورية الأمريكية التي تدعم إسرائيل وتصب الموت صبًا على الفلسطينيين والشيشانيين والأفغان والعراقيين. أثناء الحروب انس أشياء مثل الشفقة والرحمة.

– كثير منهم كانوا حراس أمن وفتيات تعملن كساقيات.

– ولكنهن كن في خدمة الإمبراطورية في كل الأحوال.

– ومنهم مسلمون.

– أحمد، إنها الحرب، والحروب ليست نظيفة دائماً، فيها المهزوم وفيها المنتصر، على أنها لا تعفي طرفًا من خسارة. أولئك الألمان الذين

أيقظهم جورج واشنطن من النوم وأطلق عليهم الرصاص كانوا أولاد ناس ما في ذلك شك. كانوا يرسلون مرتباتهم إلى ذويهم في ألمانيا. ومن طبيعة الإمبراطورية أن تمتص دماء رعاياها بلا شفقة، وهم لا يعرفون لماذا كانوا يساقون إلى الموت وهم ينظرون، ولا لماذا سُلبوا القدرة على الاعتراض. انظر كيف كثر أعداؤنا حولنا، حتى الأطفال يكرهوننا، انظر كيف ينظر إلينا ثقيلو الأبدان بعيون نصف مغمضة – هل لاحظت؟ إنهم لا يعرفون أنهم قتلة أبناء قتلة، بالعكس، يرون أنفسهم مشغولين في حياتهم في براءة الأطفال، كل واحد منهم يرى نفسه بريئاً، حتى الذين قفزوا من أعلى البرجين. كان جورج واشنطن بريئاً، وجورج بوش اليوم بريء، مزارع طيب من تكساس يحب زوجته الحسناء وبنتيه المشاغبتين. ولكن ما كل هذا الشر الذي يخبئونه تحت البراءة التي يظهرون بها؟ إنهم يحتلون أرضنا، ويسرقون بترولنا.

ويقاطع أحمد تشارلي في لهفة من يريد أن يضيف شيئاً:

– قل إنهم يسلبوننا إلهنا.

ويحدق تشارلي في أحمد برهة ثم يوافقه على ما يقول، كأنه يتساءل لماذا لم يطرأ ذلك على ذهنه:

– أجل، هذا حقيقي، إنهم يريدون حرمان المسلمين من عاداتهم وتقاليدهم وإحساسهم بأنفسهم. يريدون حرمانهم من الكبرياء التي يفخرون بها.

لم يكن ذلك ما قاله أحمد بالضبط. زيف تشارلي حديثه، وأدخل فيه ما ليس منه. أحمد يقصد 'الله' الذي يعيش داخله، يكاد يلمسه بيده، يقف إلى

جواره، في قربه مثل سطوع الشمس التي تدفئ وجهه. يجلس تشارلي أمام أحمد بحاجبيه الكثيفين، ووجهه المقطب، وفمه المعقود بصرامة الجنود. يتذكر أحمد أن صحبة تشارلي لا تنطوي على خير كثير. لم يحلق تشارلي هذا الصباح لحيته، ويكاد حاجباه أن يلتقيا فوق الطريق إلى أنفه. أخفق أن يتسق مع بهجة النهار وجماله. كانت السماء خالية من الغيوم ما خلا نتفًا صغيرة تنتشر من بعيد فوق لونغ أيلاند. يبدو الأوزون في ارتفاعه الشاهق مثل حفرة عميقة قدت جدرانها من النار الزرقاء. تومض أبراج جنوب مانهاتن على البعد ككتل من لهب. يسمع أحمد هدير زوارق السباق، ويسمع تأرجح الزوارق الشراعية في الخليج وسط جمع السائحين المنهمكين في أحاديثهم. يقول لنفسه:

– هذا الجمال الخلاب لابد أنه رسالة إلهية، لعله ظل الجنة على الأرض.

يطرح تشارلي في تلك اللحظة سؤالاً مباغتًا على أحمد:

– أنت إذًا لا تجد مانعًا من قتالهم؟

بوغت أحمد بالسؤال، لم يفهم إلى أي شيء يعود ضمير الغائبين "ـــهم" في سؤال تشارلي، ولكن أحمد يجيب كأنه جندي يجيب قائده:

– أجل.

ويبدو تشارلي كأنه يكرر السؤال نفسه:

– أعني هل تضحي بحياتك في سبيل محاربتهم؟

– ماذا تقصد؟

يقول تشارلي بحزم:

- أعني هل تضحي بحياتك تلبية لنداء الجهاد؟

تتكئ الشمس على رأس أحمد ورقبته وهو يجيب تشارلي بإجابة مصحوبة بإشارة من يده اليمنى:

- طبعاً، إذا أراد الله.

يتراجع تشارلي الزائف الخطير، ويحل محله تشارلي الطيب ذو الفم النشيط، يصبح تشارلي أخًا أكبر ينسى تشارلي القديم، أو يلقي به بعيداً:

- كما خمنت، أنت رجل طيب وشجاع يا ولد يا مغفل.

يبدو أحمد في بعض الأحيان منافسًا قوياً، عضوًا موثوقًا به في شركة (إكسلانسي) لبيع الأثاث المنزلي. يستطيع الاضطلاع بالعمل كله وحده، من تسليم وتسلم، وأحيانًا يرافقه اثنان من السود - العمالة الرخيصة أو "العضلات" كما يسميهم تشارلي - يُحَمّلون الشاحنة في العاشرة صباحًا وينطلق أحمد بقائمة من العناوين، وحزمة من الكمبيالات، ومجموعة من خرائط الهاجستورم(٣) الملونة لمدن المنطقة وأحيائها. تشمل بضاعة اليوم أريكة تركية من الطراز القديم محشوة بشعر حصان، يريد أن يسلمها لزبون في مدينة "آبر شور" في جنوب آسبري بارك، أطول طريق يشقه. يسير في طريق جاردن ستيت على مبعدة من مستودع ذخيرة سلاح البحرية الأمريكية، ينتهي به عند طريق ١٩٥ غربًا على مقربة من كامب إيفانز بمحاذاة البحر فتتناهى إلى أنفه رائحة الملح، وإلى أذنيه أصوات الأمواج المتكسرة التي تصطدم بالشاطئ على فترات متساوية.

يرى بمحاذاة الشاطئ غرائب العمارة لمبانٍ على هيئة أفيال، أو جرار في شكل الكعك، أو طواحين هواء ومنارات من الجبس، ومقابر تضم أضرحة قدت من الصخر على هيئة حذاء عملاق أو مصباح كبير أو سيارة مرسيدس كانت عشق صاحبها. ويرى أيضًا في غابات الصنوبر، وعلى طول الطرق الجبلية، عددًا من القصور المهجورة العامرة بالأشباح، ومصحات الأمراض النفسية، تومض في عيني أحمد ولا تلبث أن تزول مع ضوء النهار. تصطدم أضواء الشاحنة الأمامية بأكواخ قائمة على الشاطئ في صفوف محكمة بأفنية زهيدة من رمال انتشر عليها قليل من الحشائش، وفنادق ومحال تعلن عن نفسها بمصابيح نيون تسمع أزيزها على مشهد من الغسق، وبيوت أنيقة كانت مبنية لقضاء العائلات الغنية أصحاب الخدم الكثير إجازاتهم، وقد تحولت إلى عروض متواضعة لمبيت مقتضب مع إفطار بسيط. حتى في أغسطس لا يمتلئ هذا المنتجع بالمصيفين. وعلى طول ما يسمى بالشارع الرئيسي، يُرى مطعم أو مطعمان مهجوران أقيما من خشب الأبلكاش، لم تزل الإعلانات عن أكلاتها البحرية ملصقة عليهما.

ومن المماشي الخشبية الباهتة التي تقوم مقام أرصفة المشاة تحدق جموع الناس في شاحنته البرتقالية المخططة كأن ظهورها حدث غريب، ينظرون وهم في ملابس الشاطئ، وعلى مناكبهم فوط التنشيف، وعلى سيقانهم سراويل قصيرة بالية، وعلى صدورهم قمصان طبعت عليها شعارات تشير إلى السعي وراء المتعة، أو السخرية من الحياة، مثلهم كمثل لاجئين اضطروا إلى مغادرة الديار دون أن يمنحوا الوقت لجمع أثقالهم. يرتدي أطفالهم قبعات مسرفة في الضخامة من البلاستك، وتخلى أجدادهم عن كل تفكير في الكرامة، فجعلوا من أنفسهم مسخرة في ارتدائهم لملابس

ذات ألوان زاهية ونقوش غريبة. يلهو البعض، وقد ظهرت على أجسامهم سفعة الشمس وكثرة الأكل، بالسخرية المقصودة من الذات، بارتداء القبعات المسرفة في الزخرفة والحجم التي يرتديها الأحفاد، قبعات صنعت على هيئة أسماك القرش مفتوحة الأفواه، أو سرطانات بحرية تمد مخالبها العملاقة الحمراء. الشياطين!! تتدلى بطون الرجال كالبراميل، وتهتز أرداف النساء بشكل مزعج بينما يطأن المماشي الخشبية بأحذيتهن الضخمة. يتحدى الأجداد منهم دواعي الذوق، ويرتدون الملابس المزخرفة، ويدبون على الأرض بخطى قلقة كأنهم يعرفون أن ما بينهم وبين الموت ليس إلا خطوات قليلة.

يسير أحمد بشاحنته في بحثه عن العنوان في آخر كمبيالة لهذا اليوم عبر شبكة من الشوارع البعيدة عن الشاطئ. لا وجود لأرصفة أو مماشي، وحتى الطريق التي كانت تغطيها الحصباء، تقلصت إلى مساحة ضيقة من العشب الذي حمصته الشمس. تنخفض البيوت وتصغر وتتزاحم ويظهر عليها إهمال عمال الصيانة وقلة الزبائن، أقل من نصفها تلوح منها علامات على الحياة – أنوار وشاشات تليفزيون تومض من بعيد. تنتشر على بعد ياردات ألعاب أطفال، ألواح خشبية للمشي فوق الماء، ووحوش بحرية من نوع "النيسي" و"سبونج بوبس" من المطاط القابل للنفخ في الانتظار على الأروقة المحجوبة استعدادًا لصخب اليوم القادم على صفحة المحيط.

لا يظهر الكوخ رقم ٢٩٢ على طريق ولسن أية إشارات خارجية تدل على وجود سكان، وتختفي النوافذ خلف ستائر فينسية مسدلة، لذا يفزع أحمد عندما ينفتح الباب الأمامي فجأة بعد ثوان معدودة من ضغطه على زر جرس الباب، ويظهر منه رجل طويل القامة ذو رأس صغير ظهرت أصغر في عيني أحمد بوحيٍ من عيني الرجل المقفلتين، وشعره الممشط، يقف

وراء ستارة الباب. يرتدي – على عكس ما يرتدي القوم المنتشرون على الشاطئ – ملابس مقاومة لأشعة الشمس وبنطلونات رمادية وقميص بأكمام طويلة في لون بقعة الزيت التي لا يعرف لها لون، محكمة الغلق عند رسغيه ورقبته. لا يحس أحمد في عينيه بالود المتبادل، ويشي جسده كله بتوتر واضح يظهرعلى بطنه المستوي.

ينظر أحمد في الكمبيالة ويقرأ الاسم أمام الرجل:

– السيد كاريني؟ عندي لك بضاعة من شركة (إكسلانسي) لبيع الأثاث المنزلي في نيوبروسبكت.

ثم وهو يعاود القراءة في الكمبيالة:

– أريكة عثمانية ملونة ذات غطاء جلدي ملون.

يرد الرجل ذو البطن المستوية:

– من نيوبروسبكت؟ وأين تشارلي؟

لم يفهم أحمد شيئًا في البداية ولكنه يجيب:

– أنا أقود الشاحنة الآن؛ لأن تشارلي مشغول في المكتب، والأب مريض بالسكر.

يخشى أحمد ألا يفهم الزبون هذه العبارات التي لا تهمه فيضطرب وجهه محتميًا في ظلام الليل. ويحول الرجل وجهه إلى الداخل ويصيح: "نيوبروسبكت" ليسمعه زملاؤه الثلاثة. كان أحدهم قصيرًا وبدينًا وأكبر سنًا من الاثنين الآخرين اللذين لم يكونا أكبر سنًا من أحمد بكثير. لا يرتدون أردية البحر على ما يبدو إلا للقيام بأعمال يدوية، هنالك يجلسون على الأثاث المستأجر كأنهم ينتظرون بدء العمل. وتصدر منهم غمغمة تشي

بالموافقة يظن أحمد أنه سمع منها كلمات في ثنايا المحادثة: كلمات مثل "فلوس" و"كافر." ويلاحظ الرجل الطويل أن أحمد ينصت، فيسأله بلغة عربية حادة:

إنت بتِحكي عربي؟

يضطرب أحمد قليلاً، ويجيبه باللغة العربية أيضاً:

- لا - أنا آسف، إنجليزي.

يدعوه الرجل للدخول ويقول لـــه في شيء من الرضى:

- ادخل من فضلك، إننا ننتظرك طوال اليوم.

لا تبيع شركة (إكسلانسي) للأثاث المنزلي الكثير من الأرائك العثمانية التي تنتمي، كما ينتمي مبنى بلدية نيوبروسبكت، إلى عصر أكثر أناقة. الأريكة عبارة عن أسطوانة محشوة فيها من الصلابة ما يكفي لتحمل وزن الجالس، ومن المرونة ما يكفي لتحمل أقدام المسترخي على المعقد ذي الذراعين. كانت ملفوفةً في دثار من البلاستك الشفاف السميك لحماية سطحها الجلدي الباهت، خيط بعضه إلى بعض على هيئة رقع سداسية الشكل. كانت في حوزة أحد الأثرياء الذي حافظ عليها ولم يهملها. يحس أحمد بخفة وزنها وهو يحملها بين ذراعيه، تحْدِث حفيفاً بينما ينقلها أحمد من الشاحنة عبر العشب الباهت إلى الحجرة الأمامية حيث يجلس الرجال الأربعة على ضوء صادر من لمبة على الطاولة. لم يتطوع أحد لمساعدته، ولكنه سمع من يأمره بأن يضعها على الأرض، فيضعها أحمد على الأرض ويقول وهو يريد أن يحطم السكون وكفى:

- أظن أن هنا أفضل مكان لـــها.

ثم وهو ينتصب واقفاً:

- هل لك أن توقع هنا يا سيد كاريني؟

- السيد كاريني ليس هنا، سأوقع عنه.

- ليس منكم من يسمى كاريني؟

يبتسم الثلاثة ابتسامة من لم يفهم شيئًا مما يقوله أحمد، ولكن قائدهم يقول مصراً:

- أنا أوقع عن كاريني، أنا زميله.

لم يُبْدِ أحمد مقاومة إضافية. يضع الكمبيالة على طرف المنضدة أمام الرجل على ضوء المصباح الخافت، ويشير إلى مكان التوقيع. ويوقع الرجل النحيف الذي لا يعرف لــه أحمد اسمًا بتوقيع لا يُقْرَأ. ويلاحظ أحمد للمرة الأولى أن أحد الشهابيين، الأب أو الابن قد كتب على الفاتورة حرفين اختصارًا لعبارة "دون تكاليف شحن،" ما يعني دفع أقل من مئة دولار وهو الحد الأدنى للتسليم المجاني.

وبينما يغلق الباب خلفه، يلاحظ أحمد أن مزيدًا من الأضواء تتدفق على الحجرة الأمامية للكوخ. وبينما هو يمضي عبر العشب إلى شاحنته يسمع ضحكًا وثرثرة نشطة باللغة العربية. يصعد أحمد إلى الشاحنة ويدير المحرك ليتأكد من أنهم يسمعونه وهو يرحل. يسير عبر طريق ولسن إلى أول تقاطع ثم يتجه إلى اليمين، ويركن الشاحنة أمام كوخ يبدو خالياً. ثم يتسلل عبر العشب عائدًا إلى الكوخ الأول في خفة وهدوء وقد كتم أنفاسه القادمة من أعماق رئتيه. لا يسمع صوتًا ولا يرى أحدًا يمشي في الشارع الصغير الحقير الذي تكثر فيه النباتات، وتزدهر فيه الزهور. يتلصص بحذر

شديد ليرى ما لم يكن في الحسبان: يجرد الرجال الأريكة من غلافها البلاستيكي، ويضعونها علي منضدة قهوة صغيرة أمام أريكة أخرى منقوشة قديمة. ويقوم قائدهم، بضغط خفيف على زرها الأصغر من حجم الدولار الفضة بفك غرز إحدى الرقع المثلثة التي تشكل نجمة واحدة بستة حواف، مستعيناً بمطواة. وإذ تتحطم النجمة السداسية تغوص يد الرجل النحيلة داخل الأريكة وتعود. ماذا علق بين أصابعه الطويلة؟ إنها أوراق مالية أمريكية خضراء لا يعلم أحمد كم عددها. لا يرى أحمد إلا القليل عبر الشجيرات الكثيفة، ولكنه يستطيع أن يحكم من خلال الطريقة التي يعد بها الرجال النقود، والكلمات الهادئة التي يتبادلونها، أن يجزم أن المبلغ كبير.

الفصل الرابع

نادرًا ما يسافر موريس – عم تشارلي وأخو حبيب شهاب – خارج ولاية فلوريدا، ولكن الحر والرطوبة في ميامي خلال شهري يوليو وأغسطس يضطرانه إلى السفر شمالاً في هذين الشهرين من كل عام. هناك يقيم في بيت حبيب في بحيرات بومبتون، ويظهر بين الفينة والفينة في شركة بيع الأثاث المنزلي حيث يراه أحمد؛ لا يختلف كثيرًا عن أخيه شكلاً وإن اختلف عنه في السن والملبس والشخصية. موريس أكبر سنًا وأكثر وقاراً، لا يمل من ارتداء بذلات قطنية مخططة، وأحذية جلدية بيضاء، وقمصان منشية، وأربطة عنق متسقة بطريقة مستفزة. يصافح يد أحمد بطريقة رسمية عند أول مقابلة، ويراود الفتى إحساس قلق بأنه أصغر حجمًا من الواقع أمام نظرات موريس اللتين يطل منهما حذر أكثر قوة من الحذر الذي يطل من عيني حبيب، وهو أقل استعدادًا لإبداء وميض الفرح. ظهر أنه الأخ الأصغر سنًا ولكنه يتصرف، رغم ذلك، تصرف الكبار، ويسلك سلوكهم. كان أحمد – الولد الوحيد – يصبو إلى أخ شقيق بما في ذلك من المزايا والعيوب. تمنى لو كان لـــه أخ شقيق فلا يشعر بالوحدة التي يشعر بها الآن رغم استحضاره للإله الذي يؤمن به في كل الأوقات. يرى موريس أحمد أحيانًا في شركة الأثاث فيخصه بابتسامة وإيماءة كأنه يقول لـــه: هاأنذا أعرفك أيها الشاب، أنا أخوك المفتقد.

لا تزال رؤية أحمد للدولارات التي سلمها للرجال الأربعة في ذلك الكوخ في أبر شوَر عالقة في ذهنه كصورة غريبة. يتساءل هل يفضي بما رأى وسمع لتشارلي؟ وهل كان تشارلي عارفًا بما تحتويه الأريكة؟ وكم

قطعة من الأثاث التي أرسلوها أو جلبوها انطوت على سر كذلك السر في تجاويفها وجحورها الباطنية؟ ولماذا؟ يحس في السر مذاق الأحداث التي تنقلها الجرائد بين الحين والحين على عناوينها الرئيسية التي يلم بها أحيانًا إلمامًا عابراً، عن العنف السياسي في الخارج، والعنف السياسي في الداخل، وفي النشرات الليلية التي يتصفحها بالريموت.

لبث أحمد زمنًا يبحث في التلفاز عن علامات على وجود الله في هذا المجتمع الكافر. لم ير غير مسابقات الجمال التي تتنافس فيها فتيات بأجساد متألقة بالفتنة والسحر، وأسنان ناصعة البياض، وفتاة أو فتاتين من ذوي اللون المختلف ذرًا للرماد في العيون، يتنافسن على جذب انتباه سيد المهرجانات بالأغاني العذاب والرقصات الآسرات، والعبارات المألوفة المتعجلة التي يطلقنها للتعبير عن شكرهن وامتنانهن للرب الذي منحهن نعمة الجمال على وعد أن يضعن هذه النعمة – بعد أن يفرغن من مهرجان الغناء وهن في ثياب السباحة – في خدمة الناس، بما تعلمنه من فنون الحياة النبيلة كالطب والتدريس والزراعة، أو من خلال أقدس مهنة وهي مهنة ربة البيت. ويكتشف أحمد قناة نصرانية متخصصة في التبشير يظهر فيها رجل كهل في ثياب غير مألوفة الألوان، وياقة عريضة تنعكس عليها أضواء القاعة، وينطق بكلمات تخرق ما اعتادوه من مألوف الخطابة؛ فهو لا يقول مثلاً: "هل أنتم جاهزون لملاقاة يسوع؟" ولا يسأل: "هل قبلتم يسوع مخلصًا من كل قلوبكم؟" وإنما يستغرق، على غير المتوقع، في غزل بارع مع الكهلات الجالسات وسط الجمهور، أو يمضي إليهن ويمس أصابعهن ليحثهن على الغناء. تجذب أغاني النصارى أحمد أكثر من جميع الأغنيات التي يرسلها رجال الكورس في ثيابهم كثيرة الألوان، ونساؤه البدينات اللاتي يثبن ويدرن بحماس مفتعل أحيانًا وطبيعي أحيانًا أخرى، حين تحتدم العواطف مع الوقت. ترفع النساء أيديهن مع ارتفاع الأصوات، وتصفقن بشيء من الحماس

فتنتشر العدوى حتى إلى العدد القليل من البيض بينهن. هذا جانب من جوانب الحياة الأمريكية، مثل الرياضة والجريمة، التي تمت فيها السيادة للجنس الأسود. عرف أحمد من دروس الشيخ رشيد شيئًا عن الحماس الصوفي، والنشوة التي اختبرها بعض المسلمين في الأزمنة القديمة، ولكنه لا يجد دليلاً عليها في القنوات الإسلامية التي تبــث من مانهاتن ومدينة نيوجرسي، والتي لا تعرض على شاشاتها إلا الصلوات الخمس من مسجد محمد علي في قلعة صلاح الدين، وجماعات من الشيوخ والملالي المتدثرين في ثياب الوقار والهيبة، وقد ثبتوا النظارات السمكية على وجوههم يستقصون هذه الهجمة الشرسة التي يقودها الغرب في الوقت الراهن على الإسلام، وهؤلاء الأئمة المعممين الجالسين على الأرض يلقون الخطب الطويلة من أستوديو مجرد من الصور.

إن تشارلي هو الذي يفاتح أحمد في الأمر، إذ يسأله ذات يوم وهما في كابينة الشاحنة التي تسير بهما عبر منطقة في شمال مدينة نيوجرسي خالية من الناس على غير العادة، بين قرافة مترامية ومساحة باقية من المروج – من أعشاب البرك والقصب المورق النابت في الماء المالح:

– أرى أنك لست على ما يرام أيها المغفل، خاصة في الأيام الأخيرة، تبدو هادئًا على غير عادتك. ماذا بك؟

– بالعكس، أنا هادئ دائماً.

– نعم، ولكن هدوءك ليس طبيعيًا هذه المرة، أنت أكثر هدوءًا هذه الأيام.

لا يريد أحمد أن يخسر صديقًا مع قلة الأصدقاء في هذا العالم الموحش، وفي الوقت نفسه لا يجد مخرجًا من هذا المفترق إلا أن يخبر تشارلي بما رأى وسمع.

- منذ أيام كنت أسلم بضاعة ولم تكن أنت معي، رأيت أمرًا غريباً: رأيت رجالاً ينقلون لفائف من أوراق مالية من جوف تلك الأريكة العثمانية التي سلمتها في شور.

- وهل فتحوها أمامك؟

- لا.. تظاهرت بالمغادرة ثم عدت متسللاً ورحت أنظر من النافذة. طريقتهم هي التي أثارت شكي وفضولي.

- هل رأيت ماذا فعل الفضول بالقط؟

- قتله، ولكن الجهل أيضًا قاتل، إذا كنت سأسلم شيئًا فيجب أن أعرف ما سأسلمه.

- لا عليك، رأيتك لا تأبه إلا بما بين يديك، الحقيقة أن تسعة وتسعين في المائة من الأثاث الذي تسلمه هو أثاث فعلاً.

- ولكن ما شأن النسبة المتبقية، الواحد في المائة؟ من صاحب الحظ الذي تذهب إليه؟

ويشعر أحمد أنه يتخفف من عبء الكتمان لينطلق إلى أفق جديد من الإفضاء والسعي وراء المعرفة. حتى تشارلي يتخلص من المداراة ويقول بصوت رزين:

- المحظوظون هم المؤمنون الحقيقيون.

- الذين يؤمنون بالجهاد؟

- بل الذين يؤمنون بالأفعال لا بالأقوال. الذين يؤمنون بقدرتهم على فعل الأشياء. الذين يؤمنون بأن الفلاح المسلم في مندناو لا يجب أن يقضى

جوعاً، وبأن الطفل البنغالي لا يجب أن يقضى غرقاً، وبأن الفلاح المصري لا يجب أن يموت بالبلهارسيا، وبأن الفلسطيني لا يجب أن تقصفه طائرات الهيلوكبتر الإسرائيلية، وبأن المسلم لا يجب أن يأكل من فضلات طعام العالم بينما الشيطان الأكبر يأكل حتى التخمة، وخنازيره تكثر حتى تسد عين الشمس عددًا بعد أن وضع أموال بترولنا في جيبه. إنهم المؤمنون بأن المليار مسلم في هذا العالم لا يجب أن تعمى عيونهم وتصم آذانهم وتتبلد أرواحهم بما يصدره لهم الأعداء من أفلام أخرجت في هوليود، وأن عجلة الإمبريالية الاقتصادية لا ترحم لأن رائدها إلـــه نصراني – يهودي، أو شبح قديم ليس لـــه دين، أو قناع صفيق يخفي وراءه يأس الملحدين.

وهنا يسأل أحمد بعد أن فعلت كلمات تشارلي – وهي لا تختلف في جوهرها عن كلمات الشيخ رشيد– فعلها:

– وما هو المصدر الأصلى لهذه النقود؟ وماذا تفعلون بهذه الأموال؟

– إن الأموال تأتي من الذين يحبون الله داخل الولايات المتحدة وخارجها، ولم يكن هؤلاء الأربعة الذين رأيتهم غير بذور مطمورة في التربة، ولم تكن الأموال التي تلقوها إلا ماءً يساعدهم على النمو، حتى إذا جاء اليوم الموعود تفتحت البراعم عن بذورها وأتت أكلها. الله أكبر.

– وهل تأتي الأموال عن طريق العم موريس؟ فقد لاحظت أن وصوله إلى هنا كان مثيرًا رغم أنه يمقت العمل اليومي في الشركة. وأبوك الطيب، كيف يشارك في كل ذلك؟

ويضحك تشارلي ملء فيه؛ فهو يعرف أن أباه لا يعرف عن كل هذا شيئاً.

– هون عليك. هل أنت محقق من السي آي إيه؟ أبي مهاجر قديم الطراز، يكن الولاء للنظام الذي آواه ومكنه من الغنى. ولو عرف كلمة واحدة كما نتحدث به الآن لأبلغ مكتب التحقيق الفيدرالي.

هنا يضحك أحمد بدوره ويقول مازحاً:

- وهل تحسب أني سأضيع تقريرًا مهمًا كهذا؟

ولم يضحك تشارلي هذه المرة، ويضيف:

- هذه أسرار غاية في الأهمية استخلصتها مني الآن، أي مسألة حياة أو موت يا مغفل، وإني أسأل نفسي هل ارتكبت خطأ الآن بالحديث معك في شئوني خاصة؟

يحاول أحمد التقليل من أثر المزاح على تشارلي، وهو يعرف أن المعلومات التي عرفها لا تقبل الإفشاء. تذكر شعار "المعرفة حرية" الذي كان يقرؤه على واجهة مدرسة سنترال الثانوية، علم الآن أن المعرفة يمكن أن تكون سجنًا لا فكاك منه.

- هون عليك يا أخي، أنت لم تقترف خطأ حين أخبرتني بهذه المعلومات التافهة، فأنت لم تكن الذي عدت متسللاً لتعرف بقصة الأموال التي استخلصوها من الأريكة العثمانية، وكان في وسعك أن تنكر معرفتك بها وكنت سأصدقك.

- نعم كان في وسعي أن أنكر، وربما كان يجب أن أفعل.

- لو كنت فعلت لكان ذلك خيانة منك، ثم أين الثقة بين الأخوة؟

- إذن يجب أن تخبرني، هل أنت معنا؟

- أنا مع الذين مع الله.

- حسناً، هذا يكفي، فلتلزم الصمت فيما عرفت وانتويت، لا تخبر أمك، ولا تخبر خليلتك.

- ليس لي خليلة.

- أي نعم تذكرت، ووعدتك بأن ندبر لك ذلك؟

- نعم، قلت إنك ستفعل.

- سأفعل.

- لا تفعل، من فضلك، لأن هذا ليس من شأنك.

- بل على الصديق أن يكون في عون صديقه.

يصر تشارلي على مد يد العون لصديقه السائق، ويضع يده على كتفه في حنان طارئ، ولكن أحمد لا يحب هذه اليد التي استقرت على كتفه إذ تذكره بيد تايلنول التي أمسكت بجانب عنقه تلك المرة في فناء المدرسة الثانوية.

ويسأل الفتى وقد عادت إليه ثقته في نفسه، وأصبح الناس يعاملونه كرجل مكتمل الرجولة، آخر سؤال لتشارلي:

- سؤال أخير بعده لن أسألك عن شيء حتى تسأل أنت، هل لديكم خطة مع هؤلاء الناس الذين قلت إنكم تزودونهم بالمال.

يعرف أحمد تعبيرات وجه تشارلي جيدًا فلا يجد داعيًا للنظر في وجهه بعيدًا عن الشاحنة، يرى شفتي الرجل المطاطيتين تضطربان كأنه يريد أن يستكشف شكل أسنانه، ويتنهد في غيظ:

- مثلما قلت لك، لدينا عدد من الخطط قيد الدراسة، ولكني لا أعرف أكثر من ذلك. ماذا يقول القرآن أيها المغفل؟ إنه يقول: "وقد مكر اليهود،

ومكر الله، ولكن الله أحسن الماكرين. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (١)

- وهل بقي لي دور أؤديه في خطتكم؟

- قد ندخر لك دوراً، هل تحب ذلك فعلاً يا ولد؟

يخالج أحمد شعور جديد بأنه على مفترق طرق، وأن بابًا يوشك أن يوصد أمامه:

- أظن أني أريد ذلك.

- تظن؟ عليك أن تحزم أمرك أكثر من ذلك.

- أمهلني وقتاً، ولكن الخطوط واضحة.

- أية خطوط؟

- خطوط المعركة، جيوش الشيطان في مواجهة جيوش الرحمن، وكما جاء في القرآن: ﴿الفتنة أشد من القتل.﴾

- صدقت.

يوافق تشارلي، ويضرب على وركه كأنه يريد أن يوقظ نفسه وهو جالس هناك في كابينة الشاحنة:

- أنا أحب ذلك، "أشد من القتل."

إنه رجل ثرثار بطبعه، يحب المزاح وتؤذيه الصراحة، يتحدث مع أحمد كأنه يتمشى معه في قرافة، ويشير إلى الموضع الذي سيرقد فيه في يوم من الأيام، ويضيف:

شيء واحد أريد أن ألفت نظرك إليه ، وهو أن الذكرى السنوية في سبتمبر القادم.

***

يفرغ يعقوب وتيريزا من فاصل غرام آخر، ويسدلا الملاءة على جسديهما العاريين بعد أن مستهما نسمات الصيف القادمة من نافذة الحجرة. سبتمبر على الأبواب، وأوراق الشجر تخضبت باللون الأصفر استعدادًا للسقوط. ما أجدر أن ينقص بضعة أرطال من وزنه بعد حمامه الدافئ في جسدها البض. يتطلع إلى مساحة بشرتها بعيدًا عن منطقة النمش فيراها أكثر شحوبًا من دمية البلاستيك. يمس جلدها بإبهامه فيشيع فيه اللون القرنفلي ولا يلبث أن يعود إلى لونه الشاحب بعد فترة قد تطول. يؤلمه منظر ذراعيه المتهالكتين وصدره الغائر. يتطلع إلى نفسه في مرايا الحمام في بيته فيطالع علامات الشيخوخة بما تجلبه من ثديين علتهما التجاعيد البغيضة والشعيرات البيضاء المنتصبة كقرون الاستشعار عند الحيوان. تلتصقُ تيري به في عناق مفاجئ وقد دنا أنفها الأفطس من تحت إبطه فتنطلق من أحشائه موجة تبعث على الغثيان، بينما تناديه فيما يشبه الغنج:

- جاك؟

يجيبها وقد بدا صوته أكثر قسوة مما قصد:

- نعم؟

- ألمس فيك حزنًا عميقًا على غير العادة، ففيم الحزن؟

- حزين على نفسي، لم أعد ذلك الرجل.

– دعك من المزاح، لم تجب عن سؤالي، لم هذا الحزن الغريب؟

– ربما لأني أفكر في عيد العمال القادم وما سوف أقولــه لبـــث.

يذكر المشقة التي يلاقيها في خداع زوجته دون أن يجري اسم بـــث على لسانه؛ لأن تيري لا تريد سماعه لسبب غير مفهوم، فإذا انكشف المستور أحرى ببـــث أن تكون الخاسرة. ولكن تيري لا يخفى عليها ما يدور في خلده فتسأله في شيء من الحقد:

– بل أنت خائف أن تكشف بـــث ما بيننا، وماذا يضيرنا لو عرفت كل شيء؟ أين ستذهب؟ ومن ذا الذي يرغب فيها على حالها الراهن؟

– وهل هذا ما ينبغي أن نفكر فيه؟

– وفيم نفكر؟ قل أنت!

– نفكر في ألا نؤذي مشاعر الناس.

– وهل تظن أنني التي تفعل ذلك؟ ألا تلوح بالهجران بعد ساعة من مضاجعتي على فراشي؟ ألا يؤذي ذلك مشاعري؟

يتنهد جاك وهو يبحث عن كلمات اعتذار مناسبة:

– أنا آسف، كنت أتمنى أن تطول فترة صداقتنا.

الهجر قبل الملل هو ما يسعى إليه، النساء مملات؛ يجعلن من كل شيء مشكلة شخصية، يستغرقن في عشق أنفسهن وأنانيتهن إلى حد الملل. المناورة معهن جهد ضائع. معاملة امرأة أشبه بالمصارعة اليابانية، حيث يبحث كل طرف عن موضع الضعف لدى الطرف الآخر. على أي حال تشعر هي بنبرة الملل في حديثه فتقول مهدئة أو متذمرة:

– ألا تتوقع أنها عرفت كل شيء بالحدس؟

– كيف؟

تيري على حق طبعاً، تزيد الاحتكاك به، وتداعب شعر بطنه المترهل رغم شعوره بالضيق، وتقول في شيء من الفخر ببنات جنسها:

– النساء تعرفن رجالهن بالحاسة السادسة كما يقولون.

ثم تضيف:

– قلت في نفسي: لماذا لا تخففي من حبك لــه يا بنت، لمصلحتك ومصلحته؟

ولكن تيري تستشعر الآن تحولاً مفاجئًا في مشاعرها يريحها ولا يقلقها. ماذا لو انتهت هذه العلاقة البائسة مع ذلك العجوز الخاسر الذي يعمل مرشدًا للتلاميذ في مدرسة ثانوية. عندما وصلت الأربعين قطعت علاقتها برجال خير منه. من منهم تريده أن يعود الآن؟ تعودت في فترات الراحة أن تلتمس في حياة العزلة صراحة مع النفس ومراجعة للذات، ثم لا تلبــث أن تفتح الدائرة من جديد أملاً في مكالمة تليفونية يخفق لها القلب، أو قرع على الباب، أو غزو يأتي من الخارج يقلب الموازين ويبدأ فصلاً جديدًا. جاك ليفي بارع وحساس في كثير من الأوقات، ولكنه أصبح ثقيل الظل يحمل خطايا اليهود على كاهله، وهي خطيئة من خطاياه، فلماذا تكلفه فوق ما يطيق؟ هي في حاجة إلى رجل قريب من سنها ولا يعول، المتزوج مشدود بين حبلين، وهو إلى خندقه القديم أميل. يسألها في نغمة حانية أقرب إلى نغمة الأب:

– ما أحوال أحمد هذه الأيام؟

لا يفتأ يسألها عن أحمد على غير رغبتها، تود لو ينتقل بها من الأمومة إلى شيء تعرفه وتولع به.

- في الأيام الأخيرة يمكث الليل ويذهب في النهار، يعمل في تسليم بضاعة من الصباح حتى يدلهم الليل ونادرًا ما نلتقي. تحسنت صحته ونضر وجهه وقويت عضلاته مع كثرة الرفع والسحب. يعرج إليه تشارلي لا لشيء إلا ليوصله في طريقه. هؤلاء اللبنانيون لا يتركون حقوقهم، وقد ذكر لي أحمد أن العمال يشكون منهم مر الشكوى، ويبدو أنهم يقدرون أحمد خير تقدير، على الأقل يأتي إلى البيت متأخراً، والمرات القليلة التي أراه فيها يكون مشغولاً.

- مشغول؟

جاك نفسه مشغول بأمر بـــث. لن تخسر شيئًا من هجرها جاك سوى خفة دمه في الفراش، سيكون قرار التخلص منه في محله. لعلها ترنو إلى فارس جديد حتى لو كان مثل "ليو" الذي لم يكن لـــه قلب أسد على الإطلاق، ليو الذي كان لا يبرح مكانه حين تضرب عقله الخمر أو المخدر، ولكنه كان يُضْحِكها ولا يزجرها، زاعمًا أنه قادر على أن يصبح أمًا لأحمد أفضل منها. أو لعلها تظفر بطبيب امتياز، كذلك الطبيب الذي كان يصطنع اضطرابًا في عينيه؛ لأنه كان يريد أن يصبح جراح أعصاب، ولكن الواقع أن أطباء الامتياز أحرى أن يكونوا لها أبناءً وليسوا عشاقاً. على أي حال هم لا يدخرون جهدًا لغير الممرضات اللاتي يغازلونهن في الغدو والرواح. لا يزال التفكير في عالم الرجال يقض مضجعها ويودي بها إلى حزن عظيم. حتى في سنها هذه تحتاج إلى ذلك الكائن سقيم الوجدان غريب الرائحة ممل

الصحبة، أو لعلها أوتيت من الشجاعة ما يجعلها تتخلص منه. تقول موضحة:

- كتوم ومتحفظ، أتمنى أن يجد ضالته في فتاة تحبه، فقد حان الوقت.

- لدى الشباب اليوم أمور تقلقهم أكثر مما كان لدينا، لا ينبغي أن أتحدث وكأنني في مثل سنه.

- استمر، تفضل.

- لا اقصد الإيدز وسائر تلك الأمراض، ولكني أقصد أن الشباب لديهم شغف بالكمال مع أن كل شيء نسبي في هذا العالم، والمؤسسات الاقتصادية توفر لهم كل شيء من خلال بطاقات الصرف. شباب اليوم غير شباب الأمس، إنه زمن الحق المسيحي،[٢] زمن أشكروفت واجتماعه الديني صباح كل يوم في العاصمة الأمريكية. نرى هذا الزمن متجسدًا في أحمد، ونراه متجسدًا في المسلمين السود. يتوق الناس إلى العودة إلى البساطة القديمة: الأسود والأبيض، الحق والباطل، في زمن ندرت فيه البساطة.

- تقصد أن تفكير ابني سطحي.

- إلى حد ما، ولكن التفكير السطحي سمة من سمات البشر جميعاً، وإلا كانت الحياة أقسى مما نتخيل، فالناس يختلفون عن سائر الحيوان في مقدار معرفتهم؛ لأن الحيوان لا يعرف إلا ما يعينه على أداء المهمة وبعدها الموت، يأكل وينام ويضاجع ويتوالد ثم يموت.

- أراك متشائمًا اليوم.

– أريد أن أقول: إن الشباب أمثال أحمد يريدون أن يحققوا شيئًا مختلفًا عما يريدهم مجتمعهم أن يحققوه، يصر المجتمع على أنهم أبرياء، وهم لا يحفلون بهذا المديح. كان العرب المجانين على حق، ماذا قدمنا للبشرية؟ ابتدعنا مذهبي المتعة والعدمية! استمعي إلى أغاني الروك آند راب، جميع المطربين أشبال، ومَن وراءهم متعهدون خبــثاء. على المجتمع أن يمنح الشباب الفرصة لاتخاذ قرارات أكثر مما اعتادوا أن يتخذوها، لا ينبغي للكبار أن يعلموا الشباب كل شيء؛ لأن الكبار أنفسهم لا يعرفون كل شيء، وليس لدى الكبار إجابات على كل الأسئلة، بل إن الكبار أساتذة في تضييع الوقت، وحب الراحة، والتخفف من المسؤولية، ولذا نجد أن الشباب هم الذين يسعون لتحمل المسؤولية. حتى في سنترال الثانوية نجد أن زيادة عدد الطلاب يجهض كل فرصة للنجاح، فضلاً عن هذه الرغبة لدى الجميع في القيام بما يرونه صحيحًا دون رغبة الشباب، يريد الجميع أن يقلل من همة الشباب وقدرتهم على الإنجاز. ولكن شبابنا لا يأبه بهم، ويفعلون ما يريدون، تراهم مفعمين بالأمل، تحدوهم الرغبة الصادقة في العمل الصادق، هذه هي أمريكا.

– أخبريني يا تيري لماذا أثرثر كثيرًا اليوم ؟

وتحس بالاشمئزاز من أعماقها وتقول:

– ربما لأنك تحس أن هذه فرصتك الأخيرة؟

– عم تتحدثين؟

– بخصوص حياتنا معاً.

– ماذا تقولين؟

- جاك، الأمر ليس سهلاً، أرى أن علاقتنا تؤذي زواجك ولا تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية. كانت علاقة رائعة في البداية، أنت شخص رائع، كل ما في الأمر أنك لست الشخص المناسب لي. لقد جربت الكثير من الرجال، أنت قديس بالمقارنة، وأنا أعني ما أقول، ولكني أريد أن أتعامل مع الواقع، أريد أن أفكر في مستقبلي. أحمد قد ذهب، وكل ما سيحتاجه مني هو بعض الطعام الذي أضعه لـــه في الثلاجة.

- أنا لا أستغني عنك يا تيري.

- أنت تحتاجني ولا تحتاجني، أنت حتى لا تحب لوحاتي.

- بالعكس أنا أحب لوحاتك، كل ما كنت أريده هو أن يتحسن مستواك.

قال لنفسه إنها تحن إلى أصلها الأيرلندي، وهو ما يعجبه فيها، حيويتها وقوة شخصيتها، تلك الجمرة المتقدة من التحدي والجنون التي تستقر في قلوب الأيرلنديين والسود واليهود، ولكنه لا يرى لها أثرًا في قلبه. كان في الماضي يريد أن يكون ممثلاً كوميدياً، وها هو اليوم يعمل في وظيفة لا يؤمن بها. يستيقظ كل صباح مع الطيور وهو في الموت أرغب منه في الحياة. تساءل: ماذا قال إمرسن عن الموت؟(٣) كان ذلك يعجبه منذ أربعين عامًا خلت، حين كان الناس يجدون ما يستحق القراءة، وتلك المرأة اللحيمة حمراء الشعر لا تزال على قيد الحياة:

- لماذا لا نتركها وشأنها مع عاهتها؟ لن تستطيع التخلص من دهونها.

- كلام فارغ، إذا لم تستطع هي فمن يستطيع؟ وأما حكاية تركها وشأنها فهذا ما أتمناه يا جاك، ولكن المشكلة فيك أنت، إنها تأتي معك في كل

مرة. هذا ما أقرأه في وجهك كلما أتيت إلى هنا، وكأن لسان حالك يقول: "سامحني يا رب ... ساعة واحدة ليس إلا." أنت تتعامل معي وكأني حصة من خمسين دقيقة تدرسها في المدرسة، أكاد أشعر بك وأنت تنتظر أن يدق الجرس.

إذًا هذه هي طريقتها، هكذا تريد أن تتخلص مني، أن تظهر وجهًا قبيحًا وتحمل على زوجتي.

- أنت متزوج يا جاك، وأنا لا أطيق.

- لا.

- حاولت نسيان هذه الحقيقة ولكنك لم تساعدني، وها أنذا اليوم أحزم أمري على أن يذهب كل منا لشأنه.

- وماذا عن أحمد؟

- ماذا عن أحمد؟

- يهمني أمره، وأجد ما يريب في أصحاب شركة الأثاث الذين يعمل لديهم.

- ثم ماذا؟ كل شيء يريب هذه الأيام، وأنا لا أعيش لأحمد حياته، وليس في وسعي أن أعيش لك حياتك أيضاً. أتمنى لك كل خير يا جاك، من كل قلبي. أنت رجل حزين ولكنك طيب، ولكن إذا اتصلت بي أو حاولت زيارتي بعد أن تخرج من هذا الباب الآن فسأعده من قبيل التحرش.

- هوني عليك.

ينعقد وجهه، ويعد العدة للذهاب بقلب منكسر يود لو يعود به الزمن ساعة واحدة إلى الوراء حين حيته بقبلة ندية انساب سحرها في الشرايين فلم يوصدا باب الشقة. أحب أن تكون لـــه عشيقة غير زوجته البدينة. أحبها أمًا وعشيقة ورسامة ومساعدة ممرضة تداوي الجروح ولا تنفر من أجساد المرضى.

تنهض من فراشها الذي لا يزال يعبق برائحة جسديهما، وتخبره بقامة منتصبة تراوح منكبيه:

- حان وقت الذهاب يا جاك.

وبانحناءة خفيفة تلتقط ما سقط من ملابسها على الأرض، وتخبره بصوت مؤنب حاد:

- لا تكن متطفلاً، أراهن أنك كنت كذلك مع بـــث، أنت خبير في امتصاص رحيق الحياة من كل امرأة تصادفها في طريقك، ثم تشعرها بعد ذلك أنك حزين من أجلها، ولذا ليس غريبًا أن تضع كل همها في الأكل. لقد منحتك كل ما أستطيع يا جاك وحان وقت الفراق الآن، من فضلك لا تضطرني إلى ما لا أريد.

ويحتد ولكنه يقاوم صوتها المستفز وتأنيبها المنتقد.

- لا أصدق أنك تقولين ذلك بلا سبب واضح.

تخور قواه، وتضعف حركاته، وتثبط همته فلا يقوى على النهوض من فوق سريرها. وقع عليه كلامها وقع الصاعقة، ربما كانت على حق؛ لقد أصبح حملاً ثقيلاً على الحياة وعلى نفسه.

- لنجعل الوقت حكمًا بيننا، سأتصل بك خلال أسبوع.

- إياك أن تفعل.

أثارت هذه اللهجة الآمرة سخطه فيقول غاضباً:

- أسألك مرة أخرى، ما السبب؟ لا أفهمك أبداً.

- أنت معلم في مدرسة، هل سمعت عن الملف النظيف؟

- لست معلماً، أنا مرشد طلابي.

- عظيم، عليك الآن بإرشاد نفسك.

- ماذا لو تخلصت من بـــث؟

- لا أعرف، لن يتغير الكثير على أي حال، ولكن قل لي كيف تتخلص منها؟

حقًا ! كيف يتخلص من زوجته؟ ها هي تعيد حمالة ثدييها وترتدي بنطلونها الجينز فلا يؤنسه في عريه أحد فيشعر بالخجل والخزي، ويقول بعد لأي:

- أنا آسف لأني أثقلت.

- لم تكن ذكيًا بما فيه الكفاية.

يركل الملاءة بعصبية فيرى نفسه عاريًا حتى المنكبين، ويظهر شعره منتشرًا على جسده المتهالك، وقدميه اللتين تنبعث منهما رائحة ملح، ويرى علامات الدهشة علي عينيها الناتئتين. هنالك يقف جاك عارياً، يرثي لحاله بعد أن تجاوز الستين ليخبرها بصوت محمل بمشاعر الوداع.

- سأفتقدك يا تيري.

يتذكر في تلك اللحظة العالِم ليكي[٤] الذي اكتشف الهيكل العظمى للإنسان في كهف أولدفاي. كان ليكي يقول إن الإنسان الأول كان بوسعه قتل أي حيوان مفترس دون سلاح، حتى الحيوانات الضارية ذوات الأنياب. ينتابه شعور الآن بأنه ذلك الإنسان القديم. فهل يطرح هذا الكائن الأنثوي الذي يقف أمامه أرضًا ويسلبه رحيق الحياة، ولكنه يقول:

- كنتِ آخر ...

- آخر ماذا؟ قصدك آخر حمقاء تعرفها، إنها مشكلتك وليست مشكلتي، تستطيع البحث عن حمقاء أخرى وأنت تعرف الطريق.

يتدفق دم التحدي إلى وجهها المنمش فيغشاه اللون القرنفلي. تريد قفل باب الجدل والتوقف عن النقاش. ويظهر الغضب على وجهه، ويستولي عليه شعور بالإخفاق فيزداد إحساسه بجسده العاري ككتلة من اللحم المنبوذ.

- أقصد آخر سبب لي لمواصلة الحياة، هذا ما كنت أريد قوله، آخر سبب لي في حياة سعيدة.

- لا تحاول استمالتي بالعواطف يا جاك، سوف أفتقدك أنا أيضاً.

ثم وهي تحسم الأمر:

- ولكن ليس لما تبقى من حياتي.

* * *

يحيي تشارلي أحمد ذات صباح باكر من أيام سبتمبر بقولـــه:

- هذا يومك يا بطل!

- كيف؟

- سترى.

كان تشارلي في الفترة الأخيرة هادئًا بيد أنه كان فظًا غليظًا كأن شيئًا يقلقه ويقض مضجعه، ولكن ابتسامة باهتة تلوح على وجنتيه وتظهر من جانب فمه.

- أولاً لدينا حمولة طن من البضاعة، جزء منها سنسلمه في كامبدن.

- وهل تحتاج هذه الشحنة إلى كلينا؟ لا مانع عندي في تسليمها بمفردي.

أحب الوحدة، وعشق العزلة في كابينة الشاحنة؛ لأنه لا يكون وحده، هناك يكون في معية الله الواحد الأحد.

- لأنها تشمل أرائك تزن الواحدة طنًا بما تحتويه من سرر، وتحتوي شحنة كامبدن على أريكة كبيرة بأرجل عريضة، بعناها لصاحب عيادة نفسية متخصصة في علاج الأطفال المختلين، أنصحك ألا ترفعها بذراعيك كما فعل أحدهم قبلك فأحدث بها شرخًا كبيراً.

- المختلين؟؟

- غير المختلين يا سيدي؟ على أي حال نحن نجني من ورائها ربحًا لأن لها مقعدين كبيرين بذراعين، ونحن لا نبيع هذه الأشياء كل يوم، احترس من شاحنة النفط التي وراءك، أعتقد أن سائقها سكران.

لم يحول أحمد عينيه عن الشاحنة الصهريجية التي غطاها النفط، يسأل نفسه إن كان سائقها يعرف شيئًا عن اندفاع السائل والعوامل الأخرى

التي تحتاج إلى الحذر. سبتمبر مجلبة لأخطار شتى في الشوارع والطرقات العامة لكثرة العائدين من إجازاتهم إلى بيوتهم وأعمالهم. يقول تشارلي:

– تعتبر مؤسستنا من المؤسسات الرابحة في عالم بيع الأثاث. تزداد البيوت التي تبيع لنا وتشتري كل عام. كان أبي وعمي قصيري النظر عندما اقتصرا على بيع البضاعة الرخيصة والبسيطة. اليوم يأتي إلينا الناس من مونتكلير وشورت هلز، وحتى نيوبروسبكت الفقيرة نكسب منها.

يقول أحمد في شيء من المرح أملاً في مجاراة طريقة تشارلي المتفائلة في الحديث:

– عظيم أن تزدهر هذه المهنة، لعل في تجاويف أثاثكم كنوزًا من المال ليست في الحسبان.

لم يسمح تشارلي لهذه الدعابة أن تمر، وآثر أن يكون حديثه أقرب إلى الجد:

– دفعنا كل ديوننا وعاد عمي موريس إلى ميامي، لم يبق الآن غير أنا وأنت لتسليم البضاعة.

ثم تزداد نبرة صوته حدة وهو يخاطب أحمد:

– أرجو ألا تحدث أحدًا بعملك معنا أيها المغفل، لا تفعل ذلك مع أي شخص حتى ولو كانت أمك أو أي من الذين يرتادون بيتكم.

– أمي مشغولة بنفسها، ولا تجد من الوقت ما تخصصه لشؤوني، تنفست الصعداء عندما حصلت على عمل ثابت وأساهم معها في مصاريف البيت.

ولم يكن ذلك صحيحًا تمامًا وإن كان يحدث بين الفينة والفينة، وفي إحدى الليالي، بعد أن تناولا طعام العشاء معاً، على غير العادة، على المائدة المستديرة التي كان أحمد يذاكر عليها، سألته أمه عن شركة الأثاث التي يعمل بها، وهل يأنس للذين يعمل عندهم، وها هو يخبر تشارلي إمعانًا في الصدق:

- سألتني أمي بالأمس عن أحوالي معكم، كانت تمر بحالة من الرومانسية التي لا تكرر كثيراً، كأنها تذكرت أني لا زلت على قيد الحياة. كان غياب أبي حاجزًا بيني وبينها، ثم جاءت عقيدتي التي اعتنقتها وأنا في الحادية عشرة لتزيد المسافة بيننا. إنها امرأة دافئة المشاعر يُحسد مرضاها على ذلك، ولكني أعتقد أنها لا تحب الأمومة، أو أشبه بالقطة التي تسمح للصغار برضاعة ثدييها زمنًا ثم تنقلب عليهم وتعاملهم كالأعداء، لم أصل إلى السن الذي أصبح فيه عدواً، ولكنها لا تبالي بشأني.

- ولكن كيف ترى حياتك وأنتِ دون رفيقة؟

- أعتقد أنها مرتاحة لذلك، اهتمامي بحياتي كان خليقًا بتعقيد حياتها، وجود امرأة أخرى كان من شأنه أن يدفعها إلى الحذر الذي لا تريده.

ويقاطعه تشارلي:

- احترس، أمامك منحنى خطر، بعد الإشارة القادمة سنصل إلى طريق ٥١٢، هناك سنترك طقم السفرة الكموني، هل مارست الجنس من قبل؟

يظن تشارلي أن صمت أحمد علامة على رضاه فيضيف:

- عظيم.

وتلوح ابتسامة خفيفة على وجه أحمد تظهر منها غمازتا خديه المحببتين. تعود أحمد أن يرى جانب من وجه تشارلي ففوجئ عندما تحول إليه الرجل بكامل وجهه، ولكن تشارلي ما لبث أن تحول به إلى مطالعة أنوار الشارع عبر حاجب الريح، ويضيف وقد التقط خيطًا قديمًا من حوار دار بينهم:

– كنت على حق بشأن الإعلانات الأمريكية، إنهم يستغلون الجنس لتشجيع الناس على شراء السلع، من طعام الأطفال إلى سيارات الرياضة و ....

ويكمل أحمد:

– وأطقم السفرة.

في الجد يكتسب وجه تشارلي سمتًا منفراً، تطرف عين واحدة من عينيه ويضطرب فمه بحركات مفاجئة كأنه يهم بالإفصاح عن حقيقة مرة.

– كنت أريد أن أقول إن هؤلاء الشباب يتورطون في الإنفاق والاستدانة لأنهم يبدءون ببيتًا كبيرًا، وهذا ما يريده المرابون اليهود بالضبط، إنهم يدفعونهم إلى فخ لا فكاك منه تحت شعار "اشتر الآن وادفع فيما بعد،" وهو ما يغريهم. نحن تجار، ولكن كما يقول أبي، الأسعار المعقولة هي السر. كان ينصحنا بألا نشجع الزبون على شراء أشياء فوق طاقته على الدفع، فينقلب علينا في نهاية الأمر. لم نكن نقبل حتى بطاقات الائتمان، الآن نقبلها لأننا نريد أن نجاري العصر ليس إلا، حتى تجيء اللحظة المناسبة.

– حتى تجيء اللحظة المناسبة؟

– نعم، اللحظة التي نضرب ضربتنا من الداخل.

يظهر على وجهه نفاد الصبر، ربما كان أحمد يعرف أكثر مما يعرف، ويسأل:

– ومتى تجيء هذه اللحظة المناسبة؟

يفكر تشارلي مليًا ثم يقول:

– تجيء عندما نخلقها، أو ربما لا تجيء أبداً، وربما تجيء أسرع مما نتوقع.

وينتاب أحمد شعور بأنه واقف على كومة من قش في ذلك الفضاء المضطرب في عقيدتهما المشتركة. لعل ذلك بسبب ذكر المرابين اليهود مما دفع الفتى إلى آفاق أرحب من رغبة تشارلي في الإفضاء، وها هو يسهم بدوره في المكاشفة فيقول:

– إني أتجه إلى الله خمس مرات في اليوم والليلة، وقلبي ليس في حاجة إلى رفيق آخر. حب الجنس يفضح خواء الكفار وبشاعتهم.

وينشط تشارلي:

– لا تستهجن شيئًا قبل أن تجربه، ها نحن وصلنا، رقم ٨١١ شارع مونرو، طاقم السفرة الكموني وطاولة وأربعة كراسي.

بيت قديم من أيام الاستعمار البريطاني، مبني من طوب أحمر وخشب أبيض على مساحة من عشب مشبع بالماء. تخرج سيدة شابة، ربة منزل، أمريكية من أصل صيني، تمشى الهوينى وتحييهما بوقار وهما يحملان المقاعد، والطاولة البيضاوية، ويتقدمان نحو الداخل فيما كان طفلاها – فتاة في سن الحضانة ترتدي بنطلونًا ضيقًا أحمر فاتح، وقميصًا مزخرفاً، وطفل قلق الخطى يرتدي تي شيرت عليه بقايا طعام، وحفاض يتدلى من بين

رجليه – يحدقان في الرجلين بفضول غامض. تقدم الأم الشابة وهي، سعيدة بممتلكاتها الجديدة عشرة دولارات هبة لتشارلي، ولكن تشارلي يرفض ليظهر لها أن الأمريكيين متساوون في كل شيء، ويقول لها مؤكداً:

– نحن سعداء لسعادتك يا مدام، شكراً.

لا يزال لديهم أربع عشرة طلبًا لتسليمها اليوم والوقت لا يسعف. محلات كثيرة مقفلة والشمس تغيب شيئًا فشيئًا عن شارع ريغان العام. يتجاوزا شركة (إكسلانسي) للأثاث، وعلى الجانب الآخر من شارع ١٣ يعرجان إلى محل لبيع الإطارات كان في الماضي محطة بنزين. لا يزال خزان الغاز هناك قائمًا رغم اختفاء المضخات، يليها مباشرة بيت حانوتي، كان قصرًا قبل أن يتحول هذا الجزء من المدينة إلى حي تجاري، بشرفة واسعة ومظلات بيضاء، ولافتة باهتة مكتوب عليها "أنغر وولده". هناك يوقفان الشاحنة ويصعدان في تثاقل على رصيف الشحن إلى الباب الخلفي والردهة، حيث يمضي أحمد إلى مكان التوقيع ليثبت حضوره بالساعة والدقيقة، يخبره تشارلي:

– لا تنس أن لك عندي مفاجأة.

أنست زحمة العمل أحمد بأنه كبر على التسلي باللعب مفاجأة تشارلي. ولكن تشارلي يؤكد لــه بصوت هامس حتى لا يسمع الأب الذي يعمل في مكتبه حتى وقت متأخر من الليل.

– المفاجأة تنتظر في الطابق الأعلى، عندما تنتهي ارجع واضبط المنبه.

يظهر رأس حبيب شهاب الصلعاء كالرخام من وراء باب مكتبه في شركة الأثاث، ويحيي أحمد مبتهجاً:

- كيف حالك؟

- على خير ما يرام يا سيد شهاب.

يتأمل العجوز سائقه الشاب، ويهم بقول شيء يتوج به عمل صيف كامل من الخدمة الصادقة:

- أنت أفضل ولد عرفناه، مئات الأميال دون حادث واحد، أو ثقب في إطار، أو عراك مع أحد، أو غرامة سرعة، مدهش.

- شكرًا لك يا سيدي، هذه شهادة أعتز بها.

ولكن السيد شهاب يمعن فيه النظر إعجابًا وفضولاً:

- هل تبقى معنا في عيد العمال القادم؟

- طبعاً. ولم لا؟ أنا عمومًا أحب القيادة.

- حسبتك تواصل تعليمك كما يفعل الأذكياء أمثالك.

- فكرت في ذلك وشجعني البعض، بيد أني لا أشعر الآن بحاجة إليه.

خشي أحمد أن يكون المزيد من التعليم عاملاً على إضعاف عقيدته. جرب الشك في المرحلة الثانوية فخشي أن يزداد شكًا كلما استزاد من دروس الجامعة، هو الآن على الطريق المستقيم ولا يريد أن يعرف طريقًا آخر. تساءل أحمد هل يعرف العجوز شيئًا عن الأموال المهربة، والرجال الأربعة في كوخ شور، وعن اتجاه ابنه المعادي للولايات المتحدة الأمريكية، وعن اتصالات أخيه في فلوريدا؟ وهل يعقل أن يجهل كل ذلك جهلاً تاماً؟ يتذكر أن العائلات شبكات من الأسرار المعقدة، وأن أعضاءها كالبيض الذي

يتماس دون أن ينفرج عما ينطوي عليه من أسرار، تذكر أسرته المكونة من اثنين وكيف يحتفظ كلٌّ بسره.

وعندما يمضي الرجلان إلى الباب الخلفي حيث سيارة حبيب "البويك"، وسيارة تشارلي "الساب"، يكرر تشارلي تعليماته لأحمد عن تشغيل المنبه، وإغلاق الباب بالقفل المزدوج ثم يتحول إلى السيد شهاب ليخبره:

– أحمد سوف يبقى قليلاً.

ويضع تشارلي يدًا حانية على منكبيه لكي يشجعه ثم يتحول إلى الأب ليشرح لــه الموقف:

– لدى أحمد موعد في الطابق الأعلى، وعندما يفرغ منه سوف يغلق الباب ويعيد المفتاح.

– إنه ولد طيب ويستأهل كل خير.

ولكن المفاجأة تعقد لسان أحمد. لقد كان يعتقد أن تكون مفاجأة تشارلي مصلية جديدة، أو مكافأة مالية بمناسبة نهاية الصيف. ويمضي إلى الحمام فيغتسل قبل أن يشق طريقه بخطوات صامتة إلى الطابق الأعلى، حيث تنتشر الأسرة والمناضد والطاولات والدواليب والمرايا والمصابيح على ضوء خافت لمصباح خلفي، وأضواء أخرى لمصابيح أمامية ترسلها عبر النوافذ المرتفعة. ويزدحم المكان أيضًا بمجالس مزخرفة، ومراتب مرصوصة بعضها فوق بعض، ويخفق قلبه، وتشم أنفه رائحة دخان سجائر ممنوعة، وتلتقط أذنيه صوتًا ليس بغريب:

– أحمد! لم يقل لي إنه أنت.

– جورلين؟ أهو أنت؟ لم يقل لي أحد شيئاً!

وتقبل الفتاة السمراء من خلف أضواء المصابيح الخافتة وقد ظهر دخان سيجارتها التي أودعتها طفاية السجائر في الحال، وتقف هنالك مثل تمثال برونزي تميل في تؤدة وهي تطالع الدهشة في عيني أحمد التي تتجه إلى تنورتها القصيرة الحمراء وقميصها الضيق ذي الياقة البيضاوية المنخفضة عند الصدر كتلك التي تلبسها راقصات الباليه. ويرى خصرها في قالب جديد أنحف عوداً، وشعرها في تسريحة جديدة أقصر وأكثر لمعانًا عما كان عليه في مدرسة سنترال الثانوية، ويرى حذاءً أبيض يزدان بخياطة متعرجة تظهر منه أصابع قدميها طويلة ملونة.

– كل ما طلبوه مني أن أنتظر هنا صبيًا يحتاج لمن يخلصه من عذريته.

– يمارس الجنس؟

– نعم، قال إنه رئيسك في العمل في هذه الشركة، تحدث في البداية مع تايلنول، ثم طلب رؤيتي ليعاين بضاعته، ثم أخبرني أن الشاب الهدف عربي طويل القامة ذا فم جميل كثير الحركة. ساورني الشك في هذا الرجل، ولكن أمواله كانت أقوى من شكي، كلها ورق جديد ونظيف.

تعقد المفاجأة لسان أحمد، لم يكن يعرف أن تشارلي بهذا المكر.

– هم لبنانيون هاجروا إلى أمريكا، تشارلي بالذات ولد ونشأ أمريكيًا خالصاً، وهو ليس رئيسي في العمل، إنه ابن صاحب الشركة، ونحن نسلم الأثاث معًا في شاحنة واحدة.

– سامحني يا أحمد، كنت أعتقد أنك ستجد عملاً أفضل من هذا يتناسب مع مستواك وشخصيتك.

- أستطيع أن أقول نفس الشيء لك، حين رأيتك في الكنيسة كنتِ أفضل بكثير في ثياب الكورس، ماذا تفعلين في ثياب العاهرات، وتتحدثين عن فض العذرية؟

تنشط للدفاع عن نفسها، وتضع يدها على رأسها، وتمط فمها إلى الأمام فيظهر الأحمر على شفتيها في لون القرنفل الغامق. وتشرح:

- لا تظن بي الظنون، هذه ليست مهنتي الدائمة، هي مرة أو مرتين حسبما يطلب مني تايلنول إلى أن يتم لنا الاستقرار في بيت مستقل.

ولكن جورلين تعاين المكان بنظرة شاملة، وتسأل وقد عرجت إلى موضوع آخر:

- تريد أن تقنعني أن حفنة من العرب يمتلكون كل هذا المتاع؟ ومن أين يأتون بالمال؟

- أنتِ لا تفهمين في التجارة، إنهم يقترضون من البنوك، ويشترون هذه البضاعة وبها تتضاعف أموالهم، هذه هي الرأسمالية، أتت عائلة شهاب إلى هنا في الستينيات عندما كان كل شيء أسهل بكثير.

- نعم كانت الأمور أسهل بكثير.

تعتدل في جلستها، وتتحسس المرتبة التي تجلس عليها، وتلمس قماشها الفضي المطرز. ويتطلع هو إلى تنورتها القصيرة الضيقة فيرى منها فخذيها اللذين فاضا على المرتبة، ويذهب به الخيال إلى ما خفي منها، فيضطرب لسانه ويبلع ريقه. إن البهجة تشع على شفتيها، وعلى خصلات شعرها المنتصبة.

- ولماذا لا يسعى تايلنول للحصول على وظيفة ليوفر لنفسه المال الذي يريد؟

- يعتقد أنه أكبر من أي وظيفة، يقول إن لديه خطة لأن يصبح رجلاً عظيمًا في يوم الأيام. ولذا يطلب أن أساعده في الوقت الراهن في مصاريف البيت، إنه لا يضطرني إلى العمل في الشارع، ويقول لي: "عندما تستقر بنا الأحوال سيعاملني كملكة."

- الآن أنا تحت أمرك! أريد أن أرضيك كما أوصاني السيد شهاب، لقد دفع لي الرجل أموالاً من أجل متعتك الكاملة، تحت أمرك. اخبرني أنك خجول.

- جورلين، لا أطيق أن أسمعك تتكلمين هذا الكلام.

- وكيف تريدني أن أتكلم يا أحمد؟ ألا زلت تفكر في بلاد العرب التي لا تعرفها؟ أنا أريد أن أكون واضحة معك، سأخلع ملابسي الآن وأنتظرك على واحد من هذه الأسرة، آه لو كان لنا مثلها!

- جورلين، لا تخلعي ثيابك وتفقدين احترامك لدي، على أي حال لا أريد أن أمارس الجنس حتى أتزوج الزواج الشرعي من امرأة مسلمة صالحة كما يأمرني بذلك القرآن.

- الزوجة الصالحة هناك في بلادكم العربية التي لم تزرها قط يا حبيبي، أنا هنا مستعدة لآخذك في رحلة حول العالم.

- ماذا تقصدين برحلة حول العالم؟

- سأطلعك على ما تحب، لا حاجة لأن تخلع هذا القميص الأبيض.

وإذ يصبح وجهها في محاذاة عضوه التناسلي، تنفرج شفتاها عن فم متوهج بالرغبة، ويرى من خلاله لثتها تلمع عند الجزء الملاصق لأسنانها المتألقة، ويرى كذلك لسانًا رطبًا يعلوه شحوب، ويتّسع بياض عينيها وهي تتطلع إلى وجهه البريء، عندئذ يقول وهو يغالب رغبة غالبة:

لا تثيري اشمئزازي.

يتقد وجه جورلين غضبًا وسخطاً:

- وهل تريدني أن أعيد النقود التي أخذتها من السيد تشارلي؟ وهل تريد من تايلنول أن ينهال على ضربًا عندما أعود إليه خالية الوفاض.

- وهل يفعل ذلك؟

- لا يصر على سعر محدد، يخبره القوادون الكبار بأن ذلك خطأ في حقه.

تداعبه بضربة خفيفة تحت الحزام وهي تميل برأسها بحركات مضطربة أشبه بحركات كلب يلهث لرؤية طعام.

- أنت تحبني، أعرف ذلك من عينيك.

ثم تمسه مسًا رقيقًا عند موضع الرغبة المتقد، فينزعج أحمد من جرأتها وهو يوشك أن يذعن لشيطان الخطيئة الكامن وراء الأبواب الموصدة، ويحس بجسده يتهالك كأنه وقع تحت تأثير مخدر بارع لــه حلاوة تسري في شرايينه الخاملة، هنالك يحس برجولته لأول مرة في حياته، ويتذكر أن النساء ما خلقن إلا ليكن للرجال موطئاً، وهن على الأرائك المنتشرة في الحدائق الغناء، عندئذ يخبر جورلين:

- أحبك كثيرًا يا جورلين، ولكني أكره أن أعاملك كما تعامل البغايا.

- لنبدأ بالقبلات، أظن أنها ليست حرامًا في قرآنكم، وهل خلقنا الله إلا لهذا يا أحمد؟ وحتى هذا لا يدوم إلى الأبد، إننا نكبر ونمرض ثم نموت. اترك لي نفسك ساعة من الزمان وسوف ترى أنك أسديت لي خدمة ولنفسك أيضاً، ألا تريد أن ترى معالم جسدي؟ ألم يكن جسدي مثار إعجابك في المدرسة؟

ولكن أحمد يتراجع إلى الخلف قليلاً، ويتهالك على المرتبة المجاورة وقد أسكرته العاطفة التي سرت في دمه سريان النار في الهشيم، فلم يبد اعتراضًا وهي تتخلى عن ملابسها شيئًا فشيئًا فيظهر ثدياها في لون الباذنجان الأسود. عندئذ يقول بلسان ثقيل وحلق جاف:

- لا تخبري تايلنول بما حدث بيننا وبما لم يحدث.

- لا تقلق، لن أخبره بشيء، حتى هو لا يحب أن يسمع مني ما فعلت مع الرجال.

- تحدوني الرغبة في الرقاد إلى جوارك وتبادل الحديث ساعة من الزمان.

تتحمس لرغبته، وتطيح بحذائها الأبيض وما بقي من ملابسها، وتصالب ذراعيها فوق ثدييها في انتظار مبادرة من فارسها الحرون. ولكن الدهشة تعقد لسانه وترده إلى اضطراب عميق. ها هو يرى جورلين على حقيقتها، عارية لا حول لها ولا قوة. ولكنه يقرر النوم إلى جوارها بملابسه كاملة، ويكتفي بأن يطوقها بذراعيه الطويلتين ويخوض معها في حديث لين:

– ولكن ما الذي يدفعك إلى هذا العمل؟ لماذا تسمحين لتايلنول أن يرسلك إلى هذه المهام المشينة؟

– أنت لا تعرف شيئًا عن الحب، إنه رجلي، وبدوني لا يساوي شيئاً، سيكون في حال يرثى لها، ربما أحبه أكثر مما يعرف هو. السود في مدينة نيو بروسبكت الفقيرة لا يشعرون بالعار حين يرسلون زوجاتهم في تلك المهام، بالعكس، إنها علامة عندهم على الرجولة.

– علامة على رجولته هو، وماذا يفيدك أنتِ؟

– أن أحيا حياتي بالطول والعرض، أنا لا أتاجر في المخدرات كما تفعل الكثير من الفتيات اللاتي تورطن، وأستطيع أن أتوقف عندما تتغير الظروف.

– ولكن كيف تتغير الظروف يا جورلين؟

– أن يرتبط هو بفتاة جديدة، أو أعلن أنا رغبتي في ترك هذا العمل.

– لا أظن أنه سيتركك بسهولة، أنت نفسك قلت منذ قليل إنه لا يستغني عنك.

الصمت بالحق ينطق. في أنفاسها الدافئة التي تصطدم بوجهه يطالع معاناة خفية يعرف عنها القليل. تقول لـه في صوت مرتعش:

– لا نريد أن نتحدث عني أكثر من اللازم، هذا حديث يؤلمني.

ولكنه يقول ملحاً:

– فيم كان الذهاب إلى الكنيسة والغناء مع الكورس؟ كيف يتفق ذلك مع ما تفعلينه الآن؟

- لا يتفق، لم أعد أذهب إلى الكنيسة، حتى أمي لا تعرف لماذا توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة. إنها تقول إن تايلنول ذو تأثير سيئ. ولا تعرف كم هي محقة، اسمع: إذا كنت لا تريد مني شيئًا فلا تعذبني.

- كل ما أريده هو أن أقترب منك أكثر.

- سمعتك تقول ذلك من قبل، قل لي: كيف حالك مع الله الذي تؤمن به؟ كيف تشعر مع ورعك وتقواك خاصة بعد المدرسة الثانوية ودخولك في العالم الحقيقي؟

وتتحرك شفتاه بوصة إلى الأمام، قرر أن يكون صريحًا معها، عن هذا الشيء في حياته الذي قرر الدفاع عنه بكل ما يستطيع.

- لا زلت على الطريق المستقيم، لا يزال الإسلام عزائي ومرشدي. ولكن ...

- ولكن ماذا يا حبيبي؟

- عندما أفكر في الله أشعر به عظيمًا متوحدًا مستقرًا عند تلك النجوم المنتشرة، ثم أتذكر أنه يصف نفسه في القرآن بأنه الودود القيوم المحب لخلقه. أعجب للناس يفكرون في أنفسهم ولا يفكرون فيه. إن مجرد الرغبة في رسم صورة لـــه في الذهن كفر وزندقة في نظر الشيخ رشيد تستوجب الخلود في الجحيم.

- يا إلهي، إنك تحمل الكثير من الهم، وربما قضت إرادة إلهك هذا أن نجتمع اليوم حتى لا نعاني ما يعانيه من عزلة، نقرأ هذا كثيرًا في الإنـجيل.

- ولكن من نحن؟ هل نحن إلا حيوانات منفرة؟ حاجاتنا حيوانية وأعمارنا أقصر من أعمار السلاحف.

- وتضحك جورلين من ذكر السلاحف، وعندما تضحك يهتز جسدها العاري اهتزازات متشنجة يجعل بطنها تصطدم بجسده مما يجعله يفكر فيما داخل بطنها من أمعاء ومعدة وأشياء أخرى، تقول:

- أفضل لك أن تتخلى عن كل هذه الأفكار وإلا دفعتك للجنون.

- أحيانًا يدفعني الشوق إلى لقائه لأخفف عنه وحدته.

ولا يكاد ينطق بهذه الكلمات حتى يعرف أن ذلك من كلام الملحدين الذين لا يرون لله وقاراً، وأن القرآن قد حسم هذه الأمور في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

- تقصد الموت؟ ألا تخشى الموت؟ إنك تدخل الخوف في قلبي يا أحمد.

تطارده بمزيد من الدلال سعيًا لاستدراجه بعيدًا عن موضوع حديثه المخيف.

- لم تزل بكرًا فكيف ستقابل زوجتك ذات الوشاح؟

- تقصدين الحجاب، ربما لا أتزوج أبداً.

- لقد أوتيت كل شيء بالإضافة إلى العمل المناسب.

- مجرد إحساس يراودني منذ زمن.

- لا أدري من أين أتيت بهذا الإحساس الفظيع؟ أعتقد أن صاحبك تشارلي هذا خبيث. لماذا يرتب لك هذا اللقاء وأنت لم تطلبه؟

– اعتقد أني كنت أريد ذلك، وربما كنت أريد ذلك بالفعل، شكرًا لك يا جورلين، رغم أن الأمر، كما قلت، بعيدًا عن الطهارة.

– وكأنهم يطعمونك لهدف ما.

– من هم؟ وما الهدف؟

– حبيبي، لا أعرف، إذا كنت تسمع نصيحتي، ابتعد عن هؤلاء القوم، اترك لهم شاحنتهم.

– هب أني طلبت منك أن تتركي تايلنول؟

– ليس هذا سهلاً؛ إنه في حكم زوجي.

يحاول أحمد أن يفهم:

– إننا نبحث عن الارتباطات، مهما كانت غير موفقة.

– أنت تعرف كل شيء.

تحاول التخلص من يديه ويضمها إليه بقوة هذه المرة:

– هل حصلتِ على نقودك؟

يقبل الليل خارج شركة (إكسلانسي) للأثاث، لا يفصلهما عن المصباح الوحيد المضاء إلا سريران يبدو وجهها على الضوء الخافت على الوسادة البيضاء متشحًا بالسواد، يطلق شرارات فضية من حركات شفتيها وجفون عينيها. لقد ضلت طريقها إلى الله وتهب حياتها لمخلوق من خلقه، تهب حياتها للبغل المدعو تايلنول حتى يعيش مسترخيًا بلا عمل. يقول لها أحمد:

– أطلب منك شيئًا واحدًا قبل الذهاب.

– اطلب.

– أريد أن أسمعك وأنتِ تغنين.

– يا رجل!

– أغنية واحدة فقط، أحببت صوتك في الكنيسة، كنت أميزه من جميع الأصوات الأخرى.

– من علمك هذا الكلام الحلو؟ إذن يجب أن أقف لأن الغناء لا يصح مع النوم، النوم للأشياء الأخرى.

تدندن جورلين بتلك الكلمات التي كانت تغنيها في الكنيسة مع الكورس: "يسوع نصيرنا يا له من نصير، يحمل عنا جميع خطايانا وأحزاننا... إلى الرب في علاه عند الصلاة." ويراها أحمد وهي تعيد ملابسها إلى جسدها بسرعة وخفة تأهبًا للرحيل. الساعة لا تتجاوز السابعة بكثير، لعله أقام معها ساعة أو أقل من ساعة، ولعل أمه قد عادت من عملها وتنتظره لكي تقدم لـــه العشاء. لقد وجدت من وقتها في الأيام الأخيرة فسحة لتجلس معه وتؤنس وحدته، فليذهب إليها مثقلة جفونه بالنوم الذي أرسله إلى عينيه مقدم جورلين وذهابها.

يحييه الشيخ رشيد بلغة القرآن: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ ويتوقف أحمد عند الكلمات هنيهة يستعيد معناها بعد ثلاثة أشهر من الغياب عن دروس الشيخ مما أصدأ لغته العربية. يعرف أنها من السور المكية التي أخذت مكانها في آخر الكتاب مع قصار السور التي يعشقها الشيخ لبلاغتها وما

تنطوي عليه من أسرار لا حصر لها، ولأن الله يخاطب فيها نبيه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾

جاء لقاؤه مع جورلين يوم الجمعة الذي سبق عيد العمال، ولذا لن يطلب منه تشارلي شهاب العودة إلى العمل إلا يوم الثلاثاء. وحين سأله تشارلي عن اللقاء أجاب أحمد أنه كان لقاءً جيدًا وأدى الغرض، وأخبر تشارلي أنه كان يعرف الفتاة من أيام المدرسة الثانوية. وأخبره تشارلي أن القواد الذي تعيش معه قال لــه: "إنها تستطيع أن تؤدي المهمة على أكمل وجه." ثم سأله: "وهل تشعر أنك رجل جديد الآن؟" فأجابه أحمد: "طبعاً، أشعر الآن أني أرى الدنيا بمنظار جديد."

– عظيم، عظيم، هذه الدنيا الجديدة التي يدخلها المرء دخلتها حين كنت في السادسة عشرة، ولكن الأمور كانت أكثر براءة، قبل أن يظهر الإيدز ويبدأ الناس في اتخاذ الحيطة والحذر.

– كنت حذرًا فعلاً.

ولكنه لا يخبر تشارلي بما لم يفعله مع جورلين. يحرص على ألا يحبط الرجل الذي أراد لــه شيئًا آخر غير مجرد العناق والحديث والاحتفاظ بعذريته. كانت بينهما إفضاءات لا حصر لها في كابينة الشاحنة في طريق الذهاب والإياب. والحق أن نصيحة جورلين أن يترك الشاحنة وأصحابها لا تزال تفعل فعلها في نفسه. في ذلك الصباح كان تشارلي يعاني من حزن غامض، ربما كان بسبب الأعمال الكثيرة الملقاة على عاتقه. زادت التجاعيد على وجهه، وكثرت حركات فمه السريعة وهو جالس هناك خلف مكتبه في حجرة المعرض حيث فرغ من قهوة الصباح وخطة عمل اليوم. ملابس

العمل في انتظار الرجلين لجولة أخرى لتسليم البضاعة قد تستغرق أياماً. يقول تشارلي فجأة:

- زرت الشيخ رشيد في إجازة نهاية الأسبوع.

- يا رجل!!

يعرف أحمد أن تشارلي وسائر أفراد أسرته من رواد المسجد المواظبين، فليس غريبًا أن يسعى تشارلي للقاء الشيخ رشيد بين الحين والحين.

- يريد أن يراك في المركز الإسلامي.

- وماذا يريد؟ ربما يريد لومي بعد أن بدأت العمل وأهملت دروس القرآن وصلاة الجمعة رغم مواظبتي على الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة في أي مكان طاهر أحل به.

يعبس وجه تشارلي وهو يقول:

- عملت الواجب، إن الله أرسل رسوله الذي أنشأ مجتمعًا مسلمًا تحول إلى أمة كاملة بدونها لا تقوم العقيدة ولا تزدهر.

- هل هذا ما قاله لك الشيخ رشيد وأوصاك بأن تخبره لي.

حانت من الرجل ابتسامة غامضة انحسرت عن أسنانه كأنه طفل فوجئ بلعبة غريبة.

- في وسع الشيخ رشيد أن يتحدث عن نفسه، ولكنه يريد أن يراك لا ليلومك على شيء، بالعكس، إنه يريد أن يقدم لك فرصة، لتكف يا فمي عن الكلام، كدت أبوح بالسر، لتسمع منه هو أفضل من أن تسمع مني،

سننتهي من تسليم البضاعة في وقت مبكر اليوم وسأوصلك إلى المسجد بنفسي.

يذهب الشاب إلى إمامه اليمني، وهناك يرى صاحب شركة تجميل الأظافر يقرأ في مجلة، ويرى مكتب صرف الشيكات ذي النافذة التي لا تسمح، من خلال ستائرها الفيتنامية الطويلة، إلا بفتحة صغيرة تطل على جانب صغير من المكتب الذي قامت أمامه قضبان الحديد لحمايته من تطفل الزبائن، يجلس إليه رجل ثقيل الوزن يتثاءب في تكاسل. يفتح أحمد الباب القائم بين هذه المحال، وهو باب أخضر حقير كتب عليه رقم ٢٧٨١½، ويصعد الدرج الضيق إلى الردهة التي كانت فيما مضى صالة تلقى فيها دروس الرقص. لا تزال اللوحة الكبيرة التي تقع أمام مكتب الإمام قائمة وعليها الإعلانات التي كتبت بالكومبيوتر، تعلن عن دروس اللغة العربية أو دروس الإفتاء في الزواج والطلاق في العصر الحديث، وعن محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط يلقيها هذا الشيخ أو غيره ممن يأتون إلى هذا المسجد من المركز الإسلامي. ويقبل الشيخ رشيد، في قفطانه المزخرف بخيوط فضية، على أحمد هاشًا باشًا يوشك أن يأخذه بالأحضان. ويبدو أن الصيف لم يغير فيه شيئًا رغم الشعيرات الباهتة التي بدأت تعلو لحيته متسقة مع لون عينيه الرماديتين. ولم يكد يفرغ أحمد من معرفة معنى الآيات التي حياه بها في مستهل المقابلة، حتى يضيف الشيخ رشيد إليها: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وعرف أحمد أنها من السور المكية القصار التي كان الشيخ يحبها، وهي من سورة "الشرح" التي تبشر المؤمنين بأن لهم حياة مشرقة متألقة في الآخرة. عندئذ يخاطب الشيخ رشيد الفتى بلغة إنجليزية واضحة:

- ولدي الحبيب، افتقدتك والساعات التي كنا ندرس فيها القرآن الكريم، وحديثنا معًا في جلائل الأمور، أنا نفسي تعلمت الكثير من بساطة عقيدتك وقوتها، إن أمثالك قليلون يا بني.

يمضى بالشاب إلى مكتبه، ويجلس الشيخ على الأريكة المهيبة في صدر الغرفة، وإذ يستقر كلٌ على مقعده القديم إلى الطاولة التي خلت إلا من نسخة من القرآن، يبدأ الشيخ في الحديث إلى الشاب:

- سافرت في أصقاع هذا العالم الكافر طولاً وعرضاً، العالم الذي يسميه إخواننا المسلمون السود "العالم الميت." فهل كان لهذه الأسفار تأثير على معتقداتك؟

- لا يا سيدي، لا أظن أنها تركت أثرًا على معتقداتي، لا زلت أشعر أن الله معي، أقرب إليّ من حبل الوريد، ويخصني بحب أرجو أن أسديه حقه.

- ألم تشاهد بعيني رأسك، في تلك المدن التي زرتها، من مظاهر الفقر والبؤس ما يجعلك ترتاب في رحمته، ومن مظاهر التوزيع غير العادل للثروة ما يجعلك ترتاب في عدلـــه؟ ألم تر الكثير من آيات التبذير والجشع، وآيات الفسوق والانغماس في ملذات الدنيا، وآيات البؤس في هذا المجتمع الأمريكي؟ ألم تر كيف ضلوا وابتعدوا عن طريق النبي؟

يحن أحمد إلى أسلوب الإمام البلاغي ولكنه لا يأنس لهذا الصوت الذي يجمع بين الإقدام والإحجام. ويقرر أحمد أن يجيب عن أسئلة الشيخ بصراحة وأمانة، بلغة أشبه باللغة التي يتحدث بها صديقه تشارلي فيقول للشيخ:

- لا أظن أن هذه البلاد أجمل بقاع العالم وفيها من الخاسرين ما في غيرها من سائر البقاع، لقد سافرت في أنحائها ووجدت متعة في ذلك، أهلها ظرفاء مهذبون، كنا نسلمهم متاعًا يحتاجون إليه في حياتهم، وكان تشارلي خير رفيق في الطريق؛ إنه يعرف الكثير عن تاريخ هذه المناطق.

يميل الشيخ إلى الأمام حتى يمس حذاؤه الأرض، ويضع أصابع يده اليمنى على أصابع يده اليسرى لعله يتخلص من تلك الرعشة التي سرت إلي يديه، ويتساءل أحمد فيم كانت عصبية الشيخ؟ أو لعل ما أحنقه أن يكون في حياة أحمد رجل آخر يسمع منه ويتعلم. وها هو يعلق في هدوء:

- عندك حق، تشارلي مصدر متعة حقًا ولكنه جاد في حياته أيضاً، قال لي ذات يوم: إنك على استعداد للموت في ميدان الجهاد.

- نعم قلت ذلك بالفعل.

- أظنك قلته في مقابلة في ساحة الحرية في مانهاتن، المكان الذي هوى فيه البرجان اللذان شهدا اضطهاد الرأسمالية وظلم البشرية.

- أية مقابلة؟

يستغرب أحمد من أن حديثًا عاديًا في الهواء الطلق يسميه الشيخ مقابلة رسمية، ويستغرب أن كلامًا كهذا قد وصل إلى أسماع الشيخ في مكانه المغلق في هذا المسجد الصغير الذي قامت على نوافذه قضبان الحديد فلم تترك لــه إلا فتحات ضيقة تظهر منها سحائب الصيف خفيفة محدودة. يتذكر حين تحدث بهذا الحديث في ساحات التنزه على مرأى من جماعات الأطفال التي يطارد بعضها بعضاً، والبالونات التي كانت تملأ السماء،

وطيور النورس التي كانت تجوب الفضاء. ولكن أحمد يقول بـثقة لا تتزعزع:

- لا أهاب الموت إذا كان في سبيل الله.

يرد الإمام في شيء من الحذر:

- في وسعك أن توجه ضربة ساحقة لأعداء الله إذا أردت.

- هل تقصد مؤامرة؟

يكرر الشيخ بإصرار وعزم:

- إنها الطريق المؤكد إلى الشهادة ودخول الجنة التي يستحقها من يحب الله ويضحي بالحياة في سبيل نصرته. فهل أنت ذلك الرجل يا أحمد؟

ولكن صوت الشيخ اختلف وهو يسأل سؤاله الأخير. إن صوته الآن خفيض بطيء مصحوب بميل إلى الأمام والخلف، وإغلاق للعينين كأنه يطالع ضوءًا مبهراً. ولكنه يعقب سؤاله على الفور بلهجة آمرة:

- كن أمينًا صادقًا في إجابتك من فضلك.

يعود إلى أحمد إحساسه بالقلق، إحساسه بأنه يقف على حبل مشدود فوق فضاء لا قرار لـه كما يفعل لاعبو السيرك. ومرة أخرى يجد نفسه في المنطقة الوسطى بين الشك واليقين، بعد زمن قضاه في الاعتقاد الراسخ، ها هو يخبر معلمه في شيء من التردد:

- أنا لها، ولكني لم أوت مهارة حربية.

- بالعكس، لقد وجدنا فيك كل المواصفات التي تؤهلك للمهمة؛ فالمهمة لا تحتاج إلا إلى رجل يقود شاحنة إلى جهة مقصودة، ثم يقوم

بتوصيل ميكانيكي بسيط لا يكلفه شيئاً، وسوف يشرح لك العارفون بهذه الأمور من خبرائنا الذين وهبوا حياتهم للحرب المقدسة، والذين لا يقلون خبرة وموهبة عن خبرات الأعداء ومواهبهم، بل زادوا عنهم إرادة لا تلين وروحًا وثابة لا تهزم. هل تذكر ما جاء في سورة النور:

ينسدل جفنا الإمام على عينيه، و يشحذ كل قوته فتظهر فوقهما العروق الحمراء الدقيقة وهو يتلو الآيات: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ويشرح الإمام معنى الآية بعد أن فرغ من التلاوة، ويزعم أن الأعداء لا يملكون غير السراب، سراب الأنانية، وسراب الرغبات الدنيوية الفانية، ويزعم أن المسلمين إنما يقاتلون من أجل المبادئ العليا، وأنهم في قتالهم لا يأبهون لمكسب أو مغنم لأنهم لا يذعنون إلا لله. يغلق الإمام عينيه مرة أخرى كأنه يغالب نشوة الإلهام التي تغالب الرسل، ويضطرب جسده استجابة للحظة الحاسمة، وينطلق صوته من فمه قويًا هذه المرة:

– سيكون لك قصر في الجنة تنتقل إليه في الحال، وسوف يكون لأسرتك – أمك – تعويض كبير يعوضها عن خسارتها فيك، حتى لو كانت من أهل الكفر، وربما دفعها حب ابنها للجهاد والتضحية بنفسه في سبيل الحق إلى دخول الإسلام وترك النصرانية، وما ذلك على الله بكثير يا بني.

– أما أمي فلا تحب إلا نفسها، ولن تأبه بتضحيتي بنفسي، فهل أذكر اسمًا آخر لفتاة في سني تأخذ هذا التعويض؟ لعله يحقق لها الحرية التي تتوق إليها.

يسأله الشيخ رشيد بعد أن فتح عينيه وتخلى عن إلهامه:

- لا حرية لنا مادمنا سجناء هذه الأجساد وحاجاتها النتنة، لكم أحسدك يا بني العزيز، ليتني كنت في مثل شبابك قادرًا على خوض غمرات المعارك، ولكني تقدمت في السن وفقدت القدرة على التضحية بالنفس ونيل الخلود في النعيم.

ويسأل أحمد بعد نوبة من الصمت لم تطل:

- ومتى يكون استشهادي؟

أصبحت التضحية أمرًا مفروغًا منه، جزءًا من نفسه، شيئًا يحس به كدقات قلبه، شيئًا أصبح يدخل في تركيبه العضوي، ويقول إمامه في شيء من السرعة:

- تقصد تضحيتك البطولية بنفسك، لعلها تكون في بحر أسبوع، ولكن التفاصيل ليست كلها عندي، بعد أسبوع سيكون الاحتفال بالذكرى السنوية لانهيار البرجين، وسيكون علينا أن نرسل رسالة قوية للشيطان الأكبر تقول: "إننا نضرب وقتما نريد."

- وهل تقصد الشاحنة نفسها التي أعمل عليها لحساب شركة (إكسلانسي) للأثاث؟

- هي شاحنة مثلها لن تجلب لك المتاعب، تقودها لمسافة قصيرة، وأما الشاحنة التي تعمل عليها فلا تصلح لأنها قد تجلب الشبهات لآل شهاب أنفسهم إذا ما بقي منها ما يدل عليها. وآمل ألا يبقى منها شيء. أنت لا تذكر حين تم تفجير مبنى التجارة العالمي الأول، لعلك كنت صغيرًا فلا تذكر شيئاً، لقد استطاع البوليس معرفة هوية الشاحنة بيسر غريب. هذه المرة

سوف نعمل على طمس أية معالم مادية دالة، أو إغراق هذه المعالم تمامًا كما يقول العظيم شكسبير "في أعمق الأعماق."

وتصدم كلمة "طمس" أذني أحمد، ليست من الكلمات التي اعتاد سماعها. يشعر الآن أن شيئًا ما يحول بينه وبين هذا العالم المادي الذي يعيش فيه. وعلى النقيض، يخرج الشيخ رشيد من نوبة الإلهام التي ألمت به وقد وخزه إحساس بأن الفتى متقلب قد لا يرسو على رأي قاطع. وها هو يحدثه في إلحاح حديث الواثق الخبير:

– لن تكون هنا حتى تشهد الشاحنة بعد تحطمها؛ ستكون قد دلفت إلى الجنة في الحال، إلى الفردوس تطالع جمال وجه الخالق، وسوف يحييك ويناديك باسمك كما ينادي الأب ابنه.

ثم لا يلبث أن يتغير وجه الشيخ ويميل إلى الأمام وهو يقول:

– اسمع يا أحمد، أنت لست مضطرًا إلى مثل هذا العمل، اعترافاتك لتشارلي لا تجبرك على القيام بما لا يطاوعك عليه قلبك، كثيرون مستعدون للتضحية لنيل الفردوس الأعلى. وللجهاد متطوعون بلا حصر حتى في هذه البلاد، بلاد الشر والكفر.

يجيب أحمد وقد غشيته الغيرة من هذه الجموع المستعدة للجهاد في سبيل الله من دونه:

– لا، حبي لله مطلق لا شك فيه، وجميلك يطوق عنقي.

ثم يقول وقد رأى إحجامًا على وجه معلمه، مزيجًا من الرضا والسخط، منطقة وسطى بين الإنسان والشيطان:

;

- إذن لم تضع هباءً تلك الساعات التي قضيناها معًا ندرس القرآن الكريم.

- كثيرون يقرأون القرآن، قليلون مستعدون للموت في سبيله، وأقل منهم عددًا من رزقوا الفرصة مثلك لإحقاق الحق. فإذا ساورك أدنى شك يا بني في عظم المهمة، أفصح عما في نفسك الآن، واعلم أنك لم تسمع مني شيئًا أو أسمع منك شيئاً، الصمت هو كل ما أطلب.

يعرف الفتى أن الشيخ يتلاعب بعواطفه، ولكنه يوافقه على ما يريد:

- بالعكس، أنا لها رغم أني لا أحس بأني أقوم بجلائل الأعمال.

- توكلنا على الله.

يميل الشيخ إلى الخلف قليلاً، ويضع حذاءه الأسود الصغير على مسند القدمين الفضي إعلانًا للرغبة في إنهاء الحديث مع الفتى بكلمة أخيرة:

- اعلم أن ما دار بيننا اليوم سر لا يجب أن يعلمه غيرنا، واعلم أنك لن تأتي إلى هنا مرة أخرى، فقد وصلتني أخبار بأن المركز الإسلامي مراقب. أخْبِر تشارلي شهاب بما عقدت العزم عليه، وسوف يرتب كل شيء وتتلقى التعليمات المفصلة على الفور. أعطه اسم " العاهرة" التي تريدها أن تأخذ التعويض بدلاً من أمك، أنا لا أوافقك على ذلك؛ لأن الرجال هم من نتعامل معهم، وأمنا هي الأرض نفسها، منها خلقنا وإليها نعود.

- أستاذي، أفضل أن أأتمنك أنت على الاسم، فلتشارلي صلة بها قد لا تدفعه إلى احترام رغبتي.

لكن الشيخ رشيد لا يحب تعقيد الأمور، ويذعن لرغبة تلميذه بشيء من الإحجام:

- على راحتك.

ويكتب أحمد على قصاصة ورق اسم جورلين غرانت كما رآه منذ أشهر قليلة منقوشاً بحروف بارزة على حاشية كتاب من كتبها المدرسية. كانا زميلين في مدرسة واحدة منذ زمن ليس ببعيد. لقد عرف طريقه إلى الجنة، ولعلها عرفت طريقها إلى جهنم، وهي درجة من درجات النار. كانت عروسه في الدنيا. ترتعش يدا أحمد وهو يكتب الاسم مثلما ارتعشت يدا الشيخ ذات مرة. يشعر أن روحه تحلق مثل نحلة خرجت من سربها، تطن وترتطم بزجاج نافذة مشبع بضوء الشمس في مكان ما خارج الأسوار حيث تلقى حتفها المحتوم.

يستيقظ أحمد مبكرًا في ذلك اليوم، يوم الأربعاء، كأنه يستيقظ على صوت صياح لا يلبث أن يخفت. وفي المطبخ، في ظلام السادسة صباحًا يرتطم بأمه التي عادت من نوبتها الصباحية في مستشفى القديس فرانسيس وقد ارتدت فستانًا فاتحًا وسترة زرقاء ألقتها كيفما اتفق على منكبيها. كانت خطواتها تطأ أرض الحجرة في صمت وقد دست قدميها في أحذية النيكيز البيضاء التي ترتديها لتقطع بها الطريق الطويل إلى المستشفى. يشعر أنها هادئة لا يفسد صفوها موعد خيب أملها. لا تضع المساحيق على غير عادتها فظهر الشحوب أسفل عينيها اللتين احمرتا بسبب النوم المتقطع. وتحييه دَهِشة من استيقاظه المبكر:

- أنت اليوم من طيور البكور!

- أمي -

– حبيبي، ماذا بك؟ سأذهب إلى المستشفى خلال أربعين دقيقة.

– كنت أريد أن أشكرك على تحملك لي طوال السنوات الماضية.

– ماذا تقول؟ أنت اليوم غريب! الأم لا تتحمل ابنها، إنه السبب الذي من أجله تعيش في هذه الدنيا.

– لعلي قيَّدت حريتك، فبدوني كنت ستكونين حرة في ممارسة هواياتك في الرسم أو أي شيء آخر.

– لا، في الواقع أنا أرسم على قدر موهبتي. ولكن أنت أهم شيء في حياتي، وعلى العموم أنت ولد طيب ولم تسبب لي أي مشاكل حقيقية كالتي أراها وأسمعها في المستشفى كل يوم، ليس فقط من زميلاتي مساعدات الممرضات، ولكن من الطبيبات رغم مستوى التعليم الذي حصلن عليه، والبيوت الجميلة التي يعشن فيها. إنهن يعطين أبناءهن كل شيء، كل شيء، ومع ذلك فالأبناء يتحولون إلى شياطين مدمرة لنفسها ولغيرها، وأنا لا أعرف كيف أشكر الديانة المحمدية التي تدين بها، حتى حين كنت طفلاً صغيرًا كنت طفلاً محبوبًا هادئاً، كنت تستحسن كل شيء أقوله أو أفعله، فكان كل ما يقلقني أن تصبح ضعيف الشخصية سهل الانقياد، وكنت أخشى أن يؤثر عليك الأشرار من أقرانك بسهولة عندما تكبر. ولكنك أصبحت رجلاً تخوض غمرات الدنيا، وتكسب المال من عرق جبينك كما قلت ذات يوم، إلى جانب أنك حسن الطلعة، فيك من قامة أبيك الطويلة ونحافته، وفيك من عينيه الجميلتين، وفيك من فمه الذي كان يثير شهوتي، ولكن، ولحسن الحظ، لم ترث منه جبنه وحبه للحلول السريعة للمشكلات.

لم يخبرها طبعًا عن الحل السريع الذي أزمع أن يدخل به الجنة، ولكنه يخبرها في شيء من الأناة:

– لا نسمي ديننا الدين المحمدي كما قلتِ منذ قليل يا أمي؛ لأن ذلك يعني أننا نعبد محمداً، ومحمد لم يطلب من المسلمين أن يعبدوه من دون الله، لأنه كان يقول: إنه نبي الله لا أكثر ولا أقل، ومعجزته الأولى هي القرآن الكريم.

– نعم يا حبيبي. حتى الديانة الكاثوليكية تمتلئ بمثل هذه التفاصيل عن الأشياء التي لا يراها أحد رأي العين. إن الناس يختلقون هذه الأشياء بسبب أمراضهم النفسية، ولكنها تتحول مع الزمن إلى إنجيل أو حقيقة مؤكدة. صور القديس كريستوفر،(٥) وعدم قطع حلوى الوفر بالأسنان، وضرورة تلاوة القداس باللغة اللاتينية، وعدم أكل اللحم في أيام الجمع، ورسم علامة الصليب باستمرار، ثم بعد ذلك يأتي مجلس الفاتيكان الثاني(٦) بكل برود ويلغي كل هذه الطقوس، أشياء اعتقدها الناس منذ ألفي عام يلغونها بجرة قلم! وحتى الراهبات كن يضفن إليها الكثير من عندياتهن، وكن يردن منا نحن الأطفال أن نفعل الشيء نفسه، ولكني لم أر حولي غير أن العالم يزخر بالجمال وأردت أن أرسمه.

– الرسم في الإسلام حرام وخروج عن العقيدة الصحيحة؛ لأنه سعي لانتحال قدرة الله على الخلق والتصوير.

– أعلم ذلك؛ ولذا تجد جدران المساجد خالية من التماثيل والصور، مما يضفي عليها كآبة لا داعي لها، فيم خلق الله لنا العينين إذن؟

تتحدث وهي مشغولة بشطف طبق السيريال ووضعه على رف الأطباق، وإخراج الخبز المحمص من المحمصة الكهربائية، وارتشاف

القهوة من قدح القهوة الذي أعدته، وأخذ ملعقة من مربى الفاكهة. يقول أحمد:

– إن الله منزه عن الصور والتماثيل والوصف، ألم تخبرك الراهبات بذلك؟

– لم تخبرنني بذلك بالضبط، ولكن عندما كنت في مدرسة دينية وأنا طفلة صغيرة سمعت شيئًا من هذا القبيل، وعندما انتقلت إلى المدارس العامة لم يُسمح لنا بذكر الله من قريب أو بعيد حتى لا يسمعنا طفل من اليهود ويخبر أبويه المحاميين.

تلقي نظرة إلى ساعتها التي تشبه ساعة الغطس بأرقامها الكبيرة وإطارها الضخم وتقول لــه:

– حبيبي، كنت أريد أن يستمر بيننا هذا الحوار الجميل، وقد تفلح في إقناعي بترك دين المسيح لولا أنني مرتبطة بعمل تأخرت عنه وعلي أن أسرع، لا وقت لدي يسمح حتى بتوصيلك إلى الشركة التي تعمل بها، فأنا آسفة جداً، ولكن لماذا لا تفرغ من طعامك وتركض إلى هناك خاصة وأن المسافة ليست بعيدة ولا تتجاوز عشرة عمارات من هنا.

– بل اثني عشرة.

– هل تذكر عندما كنت تركض في كل مكان بسروالك القصير؟ كنت فخورة بك غاية الفخر، وكنت جميلاً وجذاباً.

– أمي، إني أحبك.

تتحرك مشاعرها المدفونة، أو قل تفاجأ بشيء لم تتوقعه يجعلها تشعر بفراغ في قلبه يريد أن يملأه فلا يبلغ منه ما يريد. وتعاجله تيريزا بقبلة على وجنتيه وهي تقول:

- وأنا أيضًا أحبك يا أغلى شيء عندي.

تغشى وجهه حمرة الخجل، ولم يجد بدًا من الاعتراف لها قبيل مغامرته المنتظرة:

- إني أعجب من كل هذه السنين التي قضيناها معًا وأنا مغرم بصورة أبي، وأنت التي تعتنين بي وتقومين على أمري.

تطلق يدها بحثًا في جيوبها لتتأكد من أنها لم تنس شيئًا وأن كل شيء في مكانه، وتعاود النظر إلى ساعتها وهي في عجلة من أمرها. يستطيع أن يرى عقلها وقد تشتت فيشك في أنها سمعت آخر كلماته.

- أعرف يا حبيبي، كلنا يرتكب أخطاء في علاقاته مع الآخرين، أرجو أن تهتم بنفسك هذه الليلة لأني سأتأخر في المعرض، وسأبحث عن عارضة تعرض لوحاتي لقاء المال. الأمر الآخر سوف أقابل ليو وايلد، اتصل بي أول أمس ووعدته بالخروج معه. هل تذكر ليو؟ ذلك القصير الممتلئ الذي يسدل شعره خلف ظهره كذيل حصان ويرتدي النظارات الغريبة.

يرد أحمد ببرود.

- أتذكره يا أمي.

يشاهد اندفاعها نحو الباب، ويسمع وقع خطواتها السريعة في الممر، ويسمع صوت المصعد المكتوم وقد أجاب نداءها. يتوجه إلى حوض الغسيل فيغسل الأطباق والأكواب بحماس غريب، حماس المرة الأخيرة، ويضعها على المنشفة نظيفة تماماً، مثل صباح الصحراء، الهلال يشارك كوكب الزهرة صفحة السماء.

وفي شركة الأثاث يقف هو وتشارلي بين الشاحنة التي فرغا من تحميلها بالبضاعة منذ قليل، ونافذة مكتب ذلك العجوز الأصلع السيد حبيب شهاب التي قد يطل منها ويراهما يتحادثان فيشم رائحة مؤامرة من نوع ما، ولذا يخبر هو تشارلي:

- سأذهب إلى الصالة.

- اذهب.

يرمي تشارلي أحمد بنظرة نافذة، ويحس أحمد كأنه لم ير عيني تشارلي اللبنانيتين من قبل، صافيتي الخضرة، شاحبتي الجفون. تذكر أن تشارلي لــه زوجة وأبناء وأب على قيد الحياة، وأن أسبابه أكثر ارتباطًا بهذا العالم المادي. وها هو تشارلي يهتف به:

- أأنت واثق من نفسك أيها المغفل؟

- يشهد الله أني أتحرق شوقًا للشهادة.

لا يعرف أحمد لماذا يضطرب وجه تشارلي عندما يأتي ذكر الله، يتغير وجه الرجل ويزم شفتيه ويحكم غلق فمه كأنه يوصده على سر يضن به على غيره.

- لم يبق إلا أن تقابل بعض المتخصصين. سأتولى أنا ترتيب اللقاء.

ثم يقول بعد تردد:

- هذه الأمور تحتاج إلى أقصى درجات الحذر. كيف أعصابك؟

- وهبت نفسي وحياتي لنصرة دين الله باقتناع، وتركت الدنيا وراء ظهري.

- الحق معك.

يرفع تشارلي يده المكورة ويلكز بها أحمد على منكبه علامة على التضامن والتهنئة كما يفعل أبطال الرياضة داخل الحلبات. تختلط ابتسامته الساخرة بنظراته اليقظة. قد لا تحدث المغامرة اليوم أو غداً، ولكنها ستحدث بعد الغد، أو في يوم من أيام الجمع. يجلس تشارلي على المقعد الذي يجاور السائق، ويأمر سائقه أن يتجه إلى شارع ريغان، ثم يتجه يسارًا مسترشدًا بأضواء شارع ١٦ المتفرع من شارع "غرب مين" الذي يمتد إلى بعض العمارات غرب المركز الإسلامي الذي يكثر حولــه المهاجرون من بلاد الشرق الأوسط: الأتراك والسوريون والأكراد، من الذين قدموا إلى هذه البلاد على الدرجة الثانية في السفن العملاقة، للعمل في صباغة الحرير أو دبغ الجلود، حين كانت تلك المصانع تزدهر بآلاتها التي لم تعد كما كانت. كانت لافتات المحلات مكتوبة باللسان العربي والحروف اللاتينية بألوان صفراء وأخرى سوداء وثالثة خضراء: "بقالة المدينة،" و"الجمال التركي،" و"الباشا،" و"بيت الواحد الأحمدية." تخلى كبار السن في هذه البلدة عن الجلابية والطربوش منذ سنوات بعيدة، واستبدلوا بها تلك الثياب الإفرنجية الداكنة التي بليت من فرط الاستعمال، ويعشقها القادمون من دول حوض البحر الأبيض المتوسط، وأهل صقلية واليونان الذين سبقوا أولئك وهؤلاء إلى هذا الحي الذي تزدحم فيه البيوت على جانبي الشوارع الضيقة. أما العرب الأمريكيون من الشباب العاطلين فقد أدمنوا ارتداء الأحذية الرياضية الواسعة، وبنطلونات الجينز الفضفاضة، والسويترات المتقلنسة الداكنة. لا

ينسجم أحمد، بقميصه الأبيض المتأنق وبنطلونه الجينز الأسود الذي يدس فيه ساقين نحيلين أشبه بعودي ذرة، مع سكان هذا المكان الغريب. لا يمثل الإسلام لهؤلاء المتدينين مثله عقيدة خالصة، وإنما يعدونه وسيلة إلى عالم الخوارق أكثر منه عادة اعتادوها، أو علامة على انتمائهم إلى الطبقة المنحطة، غرباء في أمة تصر على أنها أمة من البيض؛ لأن الإنجليزية لسانها والنصرانية دينها.

أما تشارلي فلا يحس بغربة في هذا المكان، يلوح لهم بالتحية ردًا على تحيتهم لــه، ويبادلهم حديثًا بحديث وهو يشير لأحمد أن يركن الشاحنة في موقف مزدحم بالسيارات الواقفة خلف متجر "الأقصى" للأدوات المعدنية. يرفع تشارلي أصابعه مشيرًا إلى عامل المتجر الذي لا يسمح لــه بأكثر من عشرة دقائق لا غير، معضدًا طلبه بورقة من ذات العشرة دولارات. يقول تشارلي لأحمد بتذمر:

- تقف الشاحنة اللعينة في الشارع مثل عربة السيرك.

وكأن أحمد يفهم:

- لا تريد أن يلاحظك أحد، ولكن من يلاحظ؟

- ومن يدري؟

وهي إجابة غامضة.

يركض هو وأحمد على غير العادة عبر زقاق خلفي يوازي شارع مين، محفوف كيفما اتفق بسور من السلك الشائك، ومواقف إسفلتية مكتوب عليها بحروف كبيرة "ملكية خاصة" و"للزبائن فقط" ومداخل بيوت تحولت إلى مواقف ضيقة تغطت جوانبها بألواح الألومونيوم، أو صفائح المعدن

أخذت شكل قوالب الطوب. بنايات محدودة غير مألوفة من طوب حقيقي داكن لونه بفعل الزمن، تستخدم كمستودعات خلفية للدكاكين التي تؤم شارع مين، بعضها أكشاك خشبية تحطمت جميع نوافذها المنخفضة تحت وطأة هجمات الجانحين، ومن أخرى تنطلق قعقعات أعمال إصلاح على نطاق محدود. أحد هذه الأكشاك مطلي بلون كئيب غمقت نوافذه بطبقة من دهان كئيب كتب عليه بحروف كئيبة بخط اليد "شركة كوستللو لإصلاح السيارات" أو "جميع أعمال الصيانة والسمكرة." بهت لونها وصدئت فلا تكاد تقرأ. يطرق تشارلي طرقًا خفيفًا على باب معدني، عليه قفل من النحاس الأصفر اللامع، وبعد صمت، طال أو قصر، يجيء صوت من الداخل يسأل:

– نعم؟ من؟

يجيب تشارلي:

– شهاب والسائق.

يهمس تشارلي، يشك أحمد في أن الرجل قد سمعه بالوضوح المطلوب، ولكن الباب يُفتح ويطل منه شاب بوجه داكن يظن أحمد أنه رآه قبل ذلك بينما يأخذه تشارلي من ذراعه بشيء من العنف وهو يدفع به إلى الداخل. في الداخل يشم أحمد رائحة أسمنت مخلوط بنفط ومادة أخرى لا يعرفها. يخمن، من خلال خبرة لـــه بجماعة كشفية في مراهقته الأولى، أنها رائحة سماد تغشى أنفه والتجاويف الداخلية، مختلطة بروائح أسيتيلين اللحام، وأجساد رجال يغطون في نوم عميق في حاجة ماسة للاستحمام والتعرض بعد ذلك للهواء. يتساءل أحمد هل رأى هذه الوجوه من قبل؟ لأن اثنين منهم، الأصغر سنًا والآخر القصير الممتلئ الذي وضح أنه مهندس المتفجرات، كانوا ضمن الأربعة الذين رآهم في الكوخ في جرسي شور

دقائق معدودة في حجرة مظلمة من نافذة قذرة. إنهم يشيعون نفس التوتر الكئيب الذي يشيعه أبطال الجري في المسافات الطويلة. يأنفون من السؤال ويتضررون من الإجابات، ولكنهم يكنون الاحترام لتشارلي بوصفه الممول؛ أي أهمهم جميعاً. وهم ينظرون إلى أحمد برهبة وخوف: فهو الشهيد عما قريب، الشبح!! ويحييهم تشارلي ليبث في نفوسهم الطمأنينة:

- لا إله إلا الله.

ويردد أصغرهم، وكان أكبر من أحمد ببضع سنين، ترديد الخائف الوجل:

- محمد رسول الله.

يحس أحمد أنه وسط عصابة منظمة لها شروطها السرية، وطقوسها المخفية. يقف بينهم باحثًا في وجوههم عن رأيهم فيه، وإحساسهم بدوره.

يحفل المكان بآثار الماضي القريب حين كان ورشة لإصلاح السيارات. فوق الرأس مباشرة دعامات أفقية وسلاسل وبكرات رفع، ومحاور عجلات وطاولات وصفوف من أدراج صغيرة اسودت مقابضها من كثرة استعمال الأصابع الملطخة بالشحم لها، وموائد مدهونة بصور ظلية لأدوات غائبة، وتجاويف غائرة مليئة بعلب زيت ملقاة، وحبال وأحزمة جر وأجزاء من صناديق فارغة منتشرة خلف أسطوانات زيت تستخدم كصفائح قمامة. وعلى الأرض الأسمنتية، وتحت الأضواء الخافتة والحبال الممتدة التي تصل إلى الكابينة مثل الأنابيب التي تصل إلى مريض في العناية المركزة، تستقر شاحنة في نفس حجم وشكل شاحنة شركة (إكسلانسي) للأثاث لا يفرقها إلا موديلها (الجيمس) ولونها الأبيض، لون المصنع. كُتِبَ

على أحد جوانبها بحروف كبيرة سوداء غير متقنة كلمات "إصلاح جميع كسور زجاج السيارات."

يكره أحمد الشاحنة من أول نظرة؛ فيها غموض السرقة البغيض، تنطوي على سر لا يُسْبَر غوره، تشم منها رائحة الفقر، من هيكلها المتهالك تشم رائحة الأحياء المعدمة. كثيرًا ما كان يرى عند بوابة دخول نيوجرسي الرئيسية سيارات سيدان قديمة متهالكة من الستينيات والسبعينيات، وأخرى متداعية في لون الكروم، أو بألوان كثيرة مختلطة في انتظار الخلاص منها بأقل الأثمان. يشي لون هذه الشاحنة بفقر المكان الذي جاءت منه، رغم محاولاتها اليائسة للبقاء في أمريكا أو السير مثل خلق الله سبعين ميلاً في الساعة حسب معدل السرعة الطبيعي. تبعث شاحنة شركة (إكسلانسي) البرتقالية الفاتحة، وحروفها المحفوفة باللون الذهبي، على بهجة محببة أنيقة أو ما يسميه تشارلي "جو سرك." يشير الرجل القصير إلى أحمد أن يأتي معه كي يلقي نظرة على باب الكابينة المفتوح. تمتد يداه الملطختان بالزيت حتى تمس صندوقًا معدنيًا في حجم علبة السيجار. كان صندوقًا بني اللون مثبتًا على قفص بلاستيكي في البئر الواقع بين مقعد السائق ومقعد الراكب، لــه مقبض متصل بأسلاك معزولة تمر خلف جسم الشاحنة. يشير الرجل إلى زر أحمر ويستمر في الشرح:

– هذا هو زر الأمان، ما عليك إلا أن تحركه ناحية اليمين ثم ترفعه بكل قوتك ثم تدفع به إلى أسفل وتتوقف قليلاً بعدها يحدث انفجار أربعة آلاف كيلوغرامًا من نيترات الأمونيوم المحملة في صندوق الشاحنة. كان لابد من حمل هذه الكمية الكبيرة حتى نتأكد من تحطم الحديد الداخل في سقف النفق.

إنه يشير بأطراف يديه المتسختين، ولكن أحمد يقول مستطلعاً:

– النفق؟

ينطق أحمد هذه الكلمة وهو يجهلها جهلاً تاماً؛ فلم يتحدث أحد منهم عن نفق.

– أي نفق؟

يجيبه الرجل بدهشة مقننة:

نفق لنكولن، نفق هولندا لا يُسمح فيه بمرور الشاحنات.

يلوذ أحمد بالصمت، ويتحول الرجل إلى تشارلي:

– هل يعرف؟

ويجيبه تشارلي:

– يعرف الآن كل شيء.

وكأن الرجل يريد أن يبدأ صداقة ما بينه وبين أحمد، فيرمي أحمد بابتسامة بلهاء فتنحسر شفتاه عن أسنانه كلها تقريباً، ويستمر في الشرح:

– اعلم أن ساعة الذروة تكون في الصباح، وأن الجهة اليمنى من النفق هي المخصصة لمرور الشاحنات، وهي المبنى الأحدث فيه، تم بناؤه عام ١٩٥١، ولكنه ليس الأقوى، المباني القديمة أقوى دائماً، وبعد أن تسير لمسافة ثلثي النفق تصبح عند أ[illegible] جزء منه، وهو الجزء الذي ينعطف قبل فوهة النفق. وحتى لو استطاع الغلاف الخارجي حجز المياه عن الدخول إلى النفق فإن أجهزة التهوية سوف تُدمر على أية حال، وسوف يختنق الجميع من الدخان والضغط، أما أنت فلن تشعر بألم، لن تشعر حتى

بالرعب، بالعكس ستجرب السعادة الحقيقية لأن روحك سوف تصعد إلى بارئها في ثوان.

يتذكر أحمد اسمًا نسيه منذ أسابيع.

هل أنت السيد كاريني؟

- لا لا لا لا لا، ولا حتى صديق السيد كاريني، ولا صديق صديق السيد كاريني، كلنا نحارب أمريكا في سبيل الجهاد الذي أمرنا به الله.

وعندما يسمع الشاب الآخر كلمة "أمريكا" ينطق بجملة طويلة باللغة العربية بتوتر، جملة لا يفهمها أحمد، فيسأل أحمد تشارلي:

- ماذا يقول؟

ويهز تشارلي منكبيه، ويكتفي بكلمة واحدة:

- كالعادة.

- وهل أنت واثق من هذا الجهاز؟

- طبعاً، سيكون الانفجار قويًا جداً، سوف يلفت النظر إلى قضيتنا، سيتصدر عناوين الأخبار في كل صحف العالم. غدًا يرقص الناس في شوارع دمشق وكراتشي ويهتفون باسمك يا مغفل.

ويضيف الرجل الأول:

- وفي شوارع القاهرة أيضاً.

ويعيد هذا الرجل ابتسامته البلهاء التي تكشف عن أسنانه المتباعدة الملطخة بدخان السجائر، ويضرب أحمد على صدره بيده وهو يقول:

- مصري.

ويبادر أحمد بالقول:

- كان أبي مصرياً.

ثم يسأله أحمد كأنه يستجوب الرجل إمعانًا في توثيق المعرفة:

- ما رأيك في حسني مبارك؟

تختفي ابتسامته وهو يجيب:

- أداة في يد أمريكا.

ويسأل تشارلي كأنه ينضم للعبة:

- وما رأيك في أمراء السعودية؟

- أدوات أيضاً.

- وما رأيك في معمر القذافي؟

- أصبح هو الآخر أداة، للأسف.

ويبدي أحمد تبرمه لتطفل تشارلي على الحوار بين اللاعبين الأساسيين: المهندس والشهيد. لقد وافق على الاستشهاد، ولكنه لا يريد أن يجعل من نفسه لعبة يتقاذفها الناس، ولذا فهو يؤكد وجوده بسؤال:

- وأسامة بن لادن؟

يجيبه الرجل ذو الأصابع الملطخة بالشحم:

- بطل عظيم. مثلما كان عرفات؛ لا يمكن الإمساك بـــه، ثعلب.

تعلو وجهه ابتسامة، ولكنه لا ينسى الهدف من وجوده هنا، ويخاطب أحمد بلغة إنجليزية غاية في الحذر:

- أرني ما ستفعله.

وكأن الفتى قد فوجئ بالسؤال، وكأن الحقيقة تسفر عن وجه قبيح لم يكن يراه، وإذا به أمام الشاحنة الكريهة التي يريدون التخلص منها كما يريدون التخلص منه، وعندما يرى فتيل التفجير يرمي ذلك المهندس القصير الممتلئ بنظرة فاحصة كأنه يريد أن يسأله شيئاً، ولكن المهندس يجيبه دون انتظار حتى يطمئنه:

- لا تقلق، ليست موصلة بالكهرباء، أرني الآن ما ستفعله.

- أدير هذا المفتاح إلى اليمين.

ثم يقول وهو يغمض عينيه دون وعي منه كأنهما غاصتا في محجريهما نصف بوصة:

- وأضغط علي هذا الزر إلى أسفل.

فيقول معلمه:

- وتمسك به قليلاً حتى...

يكمل أحمد:

- نعم وأمسك به قليلاً حتى يتم الانفجار ... بووم.

يرافقه المهندس:

- أحسنت.

عندئذ يعلق الشاب الآخر – وكان أطول الباقين وأنحفهم – بلغة إنجليزية خالية من الرطانة.

– أنت شجاع جداً.

يضيف تشارلي:

– إنه ابن الإسلام المخلص. جميعنا يحسده، صح؟

مرة أخرى لم يرتح أحمد لتطفل تشارلي الذي يريد أن يدعي لنفسه دورًا أكبر من دوره. أحمد في الواقع هو صاحب العمل كلـــه، هو الفاعل والفعل. يحس أحمد أن تشارلي يتقمص دور الرئيس الآمر، مما يضفي شكًا على طبيعة الاستشهاد وسمت الشهيد الذي ينبغي أن يلقي الرهبة في النفوس.

ربما يحس المهندس بغياب الانسجام بين المحاربين، فيضع يدًا حانية على كتف أحمد تاركًا بذلك بصماته الملطخة ببقع الشحم على قميص أحمد الأبيض، ثم يستمر موجهًا حديثه للباقين:

– ما أحسن الطريق، أن يصبح المرء جنديًا من جند الله.

يعود أحمد وتشارلي إلى الشاحنة البرتقالية المتألقة، ويفضي تشارلي لأحمد بتبرمه من حديث الرجلين:

– شيء عظيم أن تراهما يفكران، الناس عندهما إما أدوات وإما أبطال؟ ألا يوجد شيء بينهما؟ كأن مبارك وعرفات والسعوديين ليس لديهم ظروفهم الخاصة بهم، وسياساتهم المعقدة التي ينتهجونها.

مرة أخرى لا يرتاح أحمد لحديث تشارلي بعد إحساسه الجدي بأنه صانع الأحداث الحقيقي رغم بساطة مظهره. ويعلق أحمد في شيء من الأدب:

– الله نفسه بسيط بحب البسطاء ويدفعهمْ لتغيير العالم.

وهنا يقول تشارلي بسخرية وهو يحدق أمامه عبر الزجاج الأمامي للشاحنة الذي يقوم أحمد بمسحه وتنظيفه كل صباح لأنه يتسخ في نهاية كل يوم:

– أدوات، كلنا أدوات، بارك الله في الأدْوات الغبية، صح يا مغفل.

تغشى أحمد حالة من الصدق الواثق في المنطقة الوسطى بين الرعب والسمو الذي يجيء بعد أن ينفد الصبر فيصبو للفعل، يريد أن ينفض يديه ويسلم أمره مهما كانت المصائر. يريد أن يبرح موقعه بجوار المجهول. العالم من حوله سادر في تفاصيله الدنيوية، لاه في لعبه الزهيد في خضم أعماله السخيفة، يتثاءب في تكاسل الباطل، إناء متألق من الخواء الأجوف، يتضاد مع ما يعتمل داخله من يقين مظلم مجلل بالرعب. يعتصره القلق مما ينتظره من مسخ قريب خلف مصاريع الكاميرات الصاخبة، وإن كانت حواسه الخمس لم تزل تستقبل قصفها المعتاد من المشاهد والأصوات والروائح والنكهات. يتسرب بريق الجنة من بعيد فيخضب حياته اليومية بعبق حبيب. يُطمْئِن نفسه بأن الأشياء هناك ستكون أجمل وأعظم، حيث العالم المحدود ليس لــه مكان، في طفولته التي لم تدم طويلاً في هذا الحياة الزائفة، كان يختبر في نومه اتساع اللانهاية، كل خلية عالم، فعرف حقيقة الدين طفلاً لم يبلغ الحلم.

نقصت ساعات عمله في شركة الأثاث، وتُرك وشأنه مع نفسه وتلاوة القرآن، أو الاطلاع على الكتيبات القادمة من مصدر ما وراء البحار كتبت خصيصًا لإعداد الشهيد –الوضوء وتطهير الروح مما قد يعلق بها من أدران الدنيا – لمجابهة نهايته، أو نهايتها، إذ النساء اليوم تخفين تحت براقعهن

المظلمة أحزمتهن الناسفة ويؤذن لهن، في فلسطين، بنيل الشهادة. ولكن القلق يحول بينه وبين الاستغراق في القراءة. يضطرب وجوده كله بالبهجة التي شاعت الرجفة في جسد الرسول حين نزل عليه جبريل ليملي عليه سور القرآن الكريم. كرس أحمد كل دقيقة للصلاة وإعادة الصلاة ومناجاة النفس، نفس غير النفس، نفس أقرب إليه من حبل الوريد. يصلي أحمد الصلوات الخمس وأكثر كل يوم، يتربص الأوقات والأمكنة فيطرح سجادته مستقبلاً الشرق ويطول السجود، يختبر الخضوع والإذعان لله الواحد. يقض مضجعه الحمل الذي ينوء تحته ويصرف انتباهه عن العالم من حوله.

اليوم هو السبت صباحًا الحادي عشر من سبتمبر، يجلس أحمد قبل أن يفتح الشركة على رصيف التحميل، يراقب خنفسًا أسود يجاهد مقلوبًا على ظهره فوق أسمنت الموقف، يريد أن يعتدل. الصيف لا يزال يأبى الرحيل، وأشعة الشمس الباكرة تنحرف بعيدًا عن أرض الموقف الشاحبة التي تعلوها الشروخ استعدادًا للوداع، تاركة وراءها علامات على يوم مقبل مشبع بالحرارة والرطوبة. وفي الشروخ نمت أعشاب مائية طويلة إشارة إلى رحيل الصيف بالسائل اللبني اللون الذي يقطر منها، والشعر الخفيف الذي يعلو أوراقها مشبعًا بندى الخريف الثقيل. خلت السماء فوقه من السحب ما خلا نتفًا صغيرة من الغيوم، وآثارًا من خيط طويل من الدخان الذي تركته طائرة نفاثة في السماء في طريقه إلى الزوال. شَابَ زرقتها الصافية إعتام خفيف يشي بقرب عهدها بعالم الليل والنجوم. يرى سيقان الحشرة السوداء دقيقة تهتز في الهواء تبحث عن منقذ ينقذها من وضعها المقلوب بأي ثمن، مخلفة ظلالاً نحيلة تظهر طويلة على أضواء الشمس الطازجة. تضطرب سيقان المخلوق الصغير وتتلوى في عنف شديد ثم لا تلبث أن تهدأ كأنه

استسلم لتأمل عميق، كأنه يبحث عن مخرج يخرجه من ورطته. يتساءل أحمد من أين جاء هذا المخلوق الضئيل؟ وكيف أوردته الأقدار هذه الحفرة التي عجز فيها عن تحريك أجنحته؟ ولكن المقاومة تستمر رغم كل شيء. كم هي دقيقة تلك الظلال التي تجلت من سيقان تلك الحشرة المسكينة التي استهدفتها أشعة الشمس بعد أن قطعت ثلاثة وتسعين ميلاً لتصل إلى تلك البقعة خاصة!

ينهض أحمد من فوق مقعده ويشرف بقامته المديدة على ذلك الخنفس الضئيل، فيحس بعظم هيكله عند المقارنة. ومع ذلك فهو يخجل من الاقتراب من ذلك الكيان الدقيق الغامض أو لمسه بيده. لعله يعاني من لدغة سامة من كائن آخر أكثر منه خطراً، أو لعله رسول ضئيل قادم من الجحيم مكلف بالالتصاق بأصابعه فلا يغادرها حتى ينال منه. يسحق الفتيان – مثل تايلنول – مثل هذه الكائنات تحت أقدامهم في العادة، ولكنه لن يفعل أبدًا مثلما يفعلون، ولم يسحقه فيتمدد جسده على الأرض كتلة متشابكة من العروق الدقيقة، وسائلاً حيًا مراقًا يبعث على الاشمئزاز عند النظر، يبحث حوله عن أداة؛ شيء صلب يقيل به هذا المخلوق المسكين من عثرته، ولكنه لم يجد شيئاً. يهتم أصحاب (إكسلانسي) للأثاث بنظافة موقف الشاحنة خاليًا من الركام. يرسلون الشاب الأمريكي الأفريقي "العضلات" مع أحمد بكيس من البلاستيك في مهمة تنظيف كل يوم. ولكنه في لحظة إلهام طارئة يتذكر رخصة القيادة في حافظتها البلاستيكية وعليها صورة نفسه العابسة مطمورة في جملة من الأرقام التي تهتم بها بلدية ولاية نيوجرسي، وصورة أخرى كريهة لخاتم الولاية الرسمي. ويسعى أحمد بهذه البطاقة بعد عدد من المحاولات المتعثرة أن يقيل المخلوق الضعيف من عثرته. حينئذ أرسلت

الشمس أشعتها القزحية الأرجوانية التي تشوبها الخضرة على الأجنحة المنطوية. يعود أحمد إلى مكانه السابق على درج الموقف ليتأمل ما آل إليه عمله وليحث المخلوق على الهرب.

ولكن الخنفس لم يهرب، بل اعتمد على جنبه الأيمن لكي يعتدل بجسمه على سيقانه فوق الأسمنت المتكسر، ليزحف لمسافة لا تذكر، لا يلبــث بعدها أن يستقر على الأرض بلا حراك. تضطرب قرون استشعاره ثم تتوقف. يستمر المشهد خمس دقائق كأنها أبدية. ويعيد أحمد رخصة القيادة إلى محفظته بما عليها من بيانات. تدوي حوله السيارات على طريق ريغان العام بألحان شتى علوًا وانخفاضاً. ويرى طائرة تشق سماء نيوارك بعيدًا عن صخب الأرض الذي يزداد وطأة. ركَنَ الخنفس إلى هدوئه الأبدي بعد أن تضاعف حجمه بفعل الظلال التي أرسلها من حولــه.

يختبر الموت بعد مخاض أليم تاركًا لهذا العالم جثة أكبر من حجمه الطبيعي، وأحمد يتأمل.

الفصل الخامس

يعاني وزير الأمن الداخلي سوء المزاج هذه الأيام مما يؤثر على العاملين معه، وأولهم نائبته المخلصة التي تسعى، بكل ما أوتيت من كياسة، لاسترضائه وتهدئته وتملقه كلما دعت الضرورة. ولكن موجات غضبه تسحق هرميون كما تنسحق الأسماك الضعيفة باندفاع الماء خلف الزوارق الآلية. فأكثر ما يُسْخِط الوزير أن يُضْطَر إلى الخروج من بيته أيام الآحاد؛ لأن ذلك يفسد عليه ساعات صفوه التي يقضيها مع السيدة هافنريفر وأفراد أسرته حيث يمارس لعبه، أو حتى يتمشى قليلاً في منتزه الصخرة الخضراء مع أطفاله ما خلا الابن الخامس، أصغرهم، ذي الأعوام الثلاثة؛ لأنه يصر على المشي معهم ولكن فوق عربته الصغيرة ذات العجلات الأربعة فيحتاج لمن يدفعه. ولا ينبغي للسيدة فوغل أن تغار من زوجته وأسرته؛ لأنهم بالنسبة لها جزء غير مرئي في حياته. أحيانًا يلم طيفه في أحلام يقظتها فتراه أكثر هدوءًا وإظهارًا للود من ذلك الشخص العنيف الذي يحارب الأشباح الذين يظهرون لــه وهو جالس في مكتبه المنعزل. تعرف هرميون بالحدس، بعد أن ولت أخيرًا حرارة الصيف المشبعة بالرطوبة، وتجللت أوراق أشجار الصفصاف والبلانيرة حول المنتزهات بالألوان الباهتة، أن الوزير يشتاق لمغادرة الأبواب الموصدة. تعرف ذلك من التوتر الذي يبدو عليه وهو في بذلته السوداء. كان الموظفون في أمريكا يلبسون البذلات الزرقاء أو البنية، ولكن الناس الآن لا يرتدون إلا اللون الأسود أو الأزرق الغامق؛ ربما حدادًا على الأيام الخوالي التي ازدهرت فيها الحرية بلا ثمن.

تهاجمه هذه الأيام نوبات هياج بسبب إهمال أمن المطارات الذي انتشر. يتأهب كل كاتب ساخر وكل عضو ديمقراطي لسن سكاكينه، وإعداد هراواته، والتلويح بأسلحته المحشوة التي نجح في تهريبها عبر الحواجز وأجهزة الفحص بالأشعة السينية في المطارات. تؤرق الوزير ونائبته المهام الأمنية في المطارات التي شلت حركتها تقريبًا بسبب سير الحقائب الذي لا ينتهي، وما تحتويه من أشياء تظهر كالأشباح على شاشات الأجهزة بألوان غير ألوانها الأقرب إلى الزرقاء أو الخضراء، أو الأقرب إلى الخوخي، أو الأحمر الضارب إلى الأرجواني، ودرجات الأزرق الغامق التي تشي بوجود معادن: مفاتيح سيارة، أو حلقات معدنية، أو سلاسل صغيرة، أو أدوات هدايا تذكارية، أو عدسات قراءة صغيرة مدورة وضعت في أكياس صغيرة من القماش، أو زنبرك على شكل هياكل عظمية، أو ثعابين متناهية الصغر، أو عناقيد من عملات معدنية متروكة في جيوب البنطلونات، أو مجموعات متآلفة من مجوهرات ذهبية وفضية، أو سلاسل معدنية مثبتة في أحذية خفيفة صيغت من أقمشة غليظة وأخرى جلدية، أو مقابض بالغة الصغر من المعدن، أو أسنان معدنية على ساعات كبيرة، أو مجففات شعر، أو أمواس كهربية، أو وكمانانت، أو كاميرات غاية في الصغر، جميعها تفضي إلى اللون الأزرق الغامق أمام ذبذبات الأشعة السينية، أو مفاتيح منزل عُلّقت بميدالية أخذت شكل مروحة ورقية. وليس غريبًا أن تمر أسلحة خطرة أمام عيون غشيت بعد ثمان ساعات من الفحص المتواصل لصور عتاد معبأ، بحثًا عن إشارات مزعومة لتعمد الأذى، أو إشارات إلى نية قاتلة وسط التدفق الهائل. وبينما يوفقون في العثور على أشياء مثل مقص أظافر أو إبرة خياطة، ويصادرونها فإنهم لا يوفقون في العثور على سكاكين طولها أحيانًا يصل إلى أربع بوصات تمر أمام عيون الفحص المرهقة. لا يمر مسدس بلاستيكي تصادف أن كان داخل إناء مغطى بالقصدير، من المفترض أنه

هدية لرضيع على موعد مع العماد. وينتهي الفحص في كل مرة، أي كان لا بد أن ينتهي، بالوزير وهو يلاطف كلب الحراسة الذي لا يأخذ أجراً، وهو يضع يده على ظهره ليشجعه على المضي قدمًا في البحث عن الإرهابيين وحماية الديمقراطية.

يترك النافذة المتألقة التي تطل على الميدان البيضاوي والمتنزه حيث رجاله المكلفون بالبحث عن الإرهابيين، يطأون المروج التي داستها أقدام كثيرة، في عدوهم الوئيد وبذلاتهم أو سراويلهم القصيرة المزخرفة وأحذيتهم المطاطية، أشبه برواد الفضاء الذين جاء ذكرهم في قصص الثلاثينيات الكوميدية. يقول الوزير لهرميون بصوت هادئ:

ماذا لو وضعنا منطقة وسط الأطلنطي في درجة الاستعداد من اللون البرتقالي؟

– اسمح لي سيدي، فقد تحدثت مع أختي في نيوجرسي وعرفت أن الناس هناك، حتى في حالة رفع درجة الاستعداد، لا يتعاونون.

يفكر الوزير فيما تقوله نائبته، حتى ترتجف عضلات فكيه يأسًا ويقول مؤكداً:

– ولكن رجالنا هناك يرفعون درجات استعدادهم الخاصة بهم؛ لأن لديهم قائمة كاملة بإجراءات الطوارئ الجاهزة.

حتى عندما ينطق بهذا الكلام المشجع فإنه يكون متوتراً، تعرف هي ذلك من الطريقة التي تضيق بها عيناه تحت حاجبيه السمراوين القويتين، ولكنهما جذابتان. يستولي عليه القلق لإدراكه بالهوة الكائنة بين رغبته الصادقة في خدمة وطنه وبطء الحركة عند عدد كبير من الضباط المكلفين،

فيهم الأكفاء وفيهم غير الأكفاء، وفيهم الفاسدون وفيهم الصادقون، تقول هرميون في شيء من الإحساس بالعجز:

– ولكن الناس تحب ذلك الإحساس بأننا نتخذ إجراءات ما، وبأن وزارة بأكملها تحتشد من أجل الحفاظ على أمن الوطن.

يقول الوزير دون تفكير، وهو أيضًا يحس بالعجز:

– مشكلتي أني أحب هذا البلد اللعين لدرجة أني لا أتصور أن أحدًا يريد لـــه أن ينهار، وأسأل نفسي: ما البديل الذي يريد أن يقدمه هؤلاء الذين يسعون لتدميره؟ هل يريدون لنا مزيدًا من حكم طالبان؟ أم مزيدًا من اضطهاد المرأة؟ أم مزيدًا من تماثيل بوذا المحطمة؟ إن رجال الدين في شمال نيجيريا يطلبون من الناس ألا يأخذوا أبناءهم إلى الوحدات الصحية لتطعيمهم ضد شلل الأطفال! ينتظرون حتى يصاب أولادهم بالشلل ثم يأتون إلى العيادات الصحية بعد أن يكونوا قد جربوا جميع أشكال الخرافات المحلية!!

ترد هرميون وقد اهتز جسدها بما يشي بدرجة جديدة من الحميمية:

– إنهم يخشون أن يضيعوا شيئًا ثميناً؛ شيئًا يستحق التضحية من أجله بالأبناء. يحدث الشيء نفسه هنا في هذه البلاد، حيث يتولى شخص لـــه "كاريزما" القائد في بعض الطبقات المهمشة فيحول بين الآخرين وبين الإحساس الطبيعي، وينتج عن ذلك أن يموت الأطفال، ويأتي الآباء يبكون في المحاكم فيخلى سبيلهم؛ هم أنفسهم أطفال! شيء مرعب، تلك القدرة الغريبة عند الكبار على الإساءة لأطفالهم. وبصراحة أنا سعيدة لأني لم أنجب أطفالاً.

هل تلتمس هذه السيدة لنفسها الأعذار؟ أم تشكو لرئيسها من أنها العانس وهو المتزوج الذي كان يجب أن يكون، بحكم الدين والقانون، بين أبنائه الآن في يوم أحد كهذا في عاصمة أقوى دولة على وجه الأرض؟ كان يجب أن يكونوا أبناءها هي؛ لأنها هي التي تراه أكثر مما تراه زوجته. أربع عشرة ساعة من العمل الشاق في غرفة مكتبه، أو في غرفة مجاورة، حقيقة بأن تخلق بينهما ألفة أقوى من الألفة التي بين الأزواج. إحساس يجلب لنفسها الرضى فتتخلص من ابتسامة طارئة على وجهها.

وها هو ينفجر غضبًا وقد أحنقه أن يعود إلى مكتبه في يوم كان ينبغي أن يكون فيه بين أبنائه مثل بقية خلق الله:

– اللعنة! إني أكره أن أخسر جاسوسًا واحدًا خاصة أن الذين يندسون في المجتمع المسلم قلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، وهذه نقطة ضعفنا، ثم إننا نفتقر إلى الجواسيس الذي يتحدثون العربية، وأغلب الذين نعرفهم لا يفكرون مثلما نفكر. أعتقد أن لغتهم هي السبب؛ في لغتهم شيء غريب لا نتبينه؛ شيء يجعل عقولهم ضعيفة هزيلة تفتقر إلى النشاط. قرأت جملة على دردشات الإنترنت يقول فيها صاحبها: "ستنشق السماء تحت نهر الغرب، والنور قادم لا محالة." ماذا يعني ذلك بالله عليك؟ مشكلتنا هي أن جاسوسنا ماكر خبيث، يحتفظ لنفسه بأوراق كثيرة لا يطلعنا عليها. لا يتبع الإجراءات التي نضعها لـــه، ويتبع بدلاً من ذلك إجراءاته هو. يعتقد أن لديه رؤية ستسفر عن مفاجأة رهيبة وأخبار نوعية كما يحدث في الأفلام. عرفنا منه شيئًا عن الجهة التي تزود الإرهابيين بالمال في فلوريدا، ولكن حامل الحقيبة اختفى، عرفنا أنه وأخاه يمتلكان محلاً لبيع الأثاث في شمال نيوجرسي، ولكن تليفوناتهم لا ترد، ولا يجيبنا أحد إن طرقنا الأبواب. لدينا أيضًا

معلومات عن شاحنة، ولكننا لا نعرف أين هي ومن سائقها. وأما فريق التفجير فقد عرفنا منهم اثنين ولكنهما لا يتحدثان، أو أن المترجم لا يريد أن يطلعنا على ما يقولان بالضبط. إنهم يساعدون بعضهم بعضًا على الهرب والمداراة، حتى الذين ندفع لهم مرتباتهم، بتنا لا نثق في رجالنا الذين ندفع مرتباتهم من مالنا. إنه مأزق بشع، وها نحن ننتظر لعل صباح الأحد القادم يكشف لنا عن شيء ذي بال.

الناس في بنسلفانيا، كما تعلم هرميون، يمكن الوثوق بهم.. طافت هي والوزير بعيدًا عن أرض البيوت المتراصة التي تعلوها النوافذ المرتفعة ذات الزجاج الملون بألوان شتى، وأبناء عمال المناجم الذين أصبحوا نجوم كرة قدم، ونقانق الخنزير التي تنز دهنًا وقد نقعت في عصير القيقب، أطعمة محملة بالكولسترول القاتل. إنها تتوق لتهدئة روع الوزير، لتصنع من جسدها النحيل كمّادة كبيرة تضعها فوق موضع الألم منه لتخفف عنه المسؤولية الثقيلة، لأن تأخذ جسده اللحيم، الذي لا يتسق مع بذلة الميدان التي يرتديها، على حجرها الضيق، ولكنها بدلاً من ذلك تسأله:

- وأين يقع هذا المحل؟

- في مدينة مجهولة تسمى نيوبروسبكت لا يرتادها أحد.

- أختي تعيش هناك.

- حقاً؟ انصحيها بتركها فوراً، إنها مليئة بالعرب، يسمون أنفسهم العرب الأمريكيين. جاءوا في الماضي للعمل في المصانع القديمة ولكن زاد عددهم. تسير حياة الأمريكيين من سيئ إلى أسوأ. فيما عدا صناعة السينما، التي بدأت تسوء أيضاً. كنا أنا وزوجتي - أنت قابلت جريس طبعاً؟ - نذهب

إلى السينما قبل أن يجيء الأبناء ونضطر إلى استقدام الجليسات. كان كيرك دوغلاس وغودي غارلاند وغيرهما يمثلون تمثيلاً حقيقياً. قارني بينهم وبين ما يفعله الممثلون هذه الأيام، حتى الممثلات لا ترغبن في تسميتهن ممثلات، يردن أن تسميهن "ممثلين،" وتقدن سياراتهن وهن سكارى، وتنجبن الأطفال بلا زواج. إنهن تغرين فتيات السود المراهقات الفقيرات بإنجاب أطفال دون آباء، العم سام وكفى. لقد أخطأ هذا الوطن حين منح الناس حقوقًا أكثر مما منحهم من الواجبات، يتمتع المواطنون هنا بحقوق أكثر مما يتمتع به المواطنون في فرنسا مثلاً أو النرويج. لننتظر إذًا حتى تجيء الجامعة العربية وتحكمنا، عندئذٍ يعرف الناس ما هي الواجبات.

- بالضبط يا سيدي، ما قلت هو الحق.

تريد بكلمة "سيدي" أن توقظه من سكرة الثرثرة إلى ما ينتظره من مهام اللحظة الحرجة.

ويذعن لما تريد، فيعود إلى عقله المشغول بأحوال العاصمة يوم الأحد الهادئ، حين تصطدم عيناه بالمشهد البعيد لحوض تيدال[١] ومقبض نصب جيفرسون التذكاري، الذي يشبه مرصدًا يخلو من فتحة التليسكوب. يلوم الناس جفرسون اليوم حين أحب إحدى إمائه وأنجب منها أطفالاً. ولكنهم ينسون الأحوال الاقتصادية في تلك الأيام، وينسون أن بشرة سالي همنجز كانت بيضاء تقريباً.[٢] يخاطب الوزير نفسه: "مدينة بلا قلب، شبكة من قوى مراوغة، جملة متناثرة من المباني العظيمة البيضاء، أشبه بالجبال الثلجية التي تسببت في غرق التايتانك." ثم يتحول إلى نائبته ويقول:

- إن نجح الإرهابيون في تفجير نيوجرسي فسأخسر حوافزي ومكافآتي، ولن أتقاضى أجرًا على مقابلاتي في وسائل الإعلام، ولن أتعاقد على نشر مذكراتي بمليون دولار.

لون من الإفضاء لا يدلي به المرء إلا لزوجته، أما هرميون فتشعر بصدمة. أصبح منها أقرب مما تتخيل، بيد أنه أصبح هدفًا لتقييمها، وميدانًا للإدلاء برأيها فيه، تذكره بأنه موظف عام عليه أن يرعى غيره لا أن يرعى نفسه:

- سيدي الوزير، لا يقدر خادم أن يخدم سيدين: الرب والآخر أنت تعرفه.

يكتم الوزير حنقه، وتطرف عيناه الزرقاوان ويقول:

- أشكر الرب أنك تعملين معي يا هرميون، لقد نسيت الرب بالفعل.

يستقر على مكتبه الهزيل ويضغط على أزرار بارزة على لوحة مفاتيح إليكترونية، ويميل بجسده الضخم إلى الوراء، على مقعده الدوار، ويبدأ في الصراخ في الهاتف.

عادة لا تحب هرميون الاتصال بالهاتف أيام الآحاد. تفضل الاتصال في باقي أيام الأسبوع حين تتأكد ـ أن جاك غير موجود في البيت. لا تجد عندها في الواقع ما يصل حديثها مع جاك بسبب مقبول، مما كان يسبب لـبـث حرجًا ما؛ كأن هرميون لم تزل مثقلة بميراث العداء اللوثري القديم للسامية الذي حمله الآباء عن الأجداد. اليوم تتصل ولاتزال أجراس الكنائس تدق، وتفرح بـث لسماع صوتها، تريد أن تزف إليها أخبارها السارة:

– هِرْم، نقصت اثني عشرة رطلاً في خمسة أيام فقط بسبب الحمية التي اتبعتها.

وتقول لها هرميون جريًا على عادتها في التقليل من شأن كل ما تفعله بـــث أو تقولـــه:

– عمومًا الأرطال الأولى أسهل؛ لأنك في الواقع تخسرين بعض الماء الذي قد يعود في أي وقت. إنما يأتي الاختبار الحقيقي عندما ترين الفرق قد ظهر بين وزنك القديم ووزنك الجديد، وتقررين الاحتفال بالتهام كميات ضخمة من الطعام. بالمناسبة أي حمية تتبعين؟ أهو حمية آتكنز؟ لأنهم يقولون إنها حمية خطِرة على الصحة، وقد قرر أكثر من ألف من الذين اتبعوها رفع قضايا ضد آتكنز في المحاكم، ولذا كان موته المفاجئ محاطًا بالشكوك.

– إنها حمية الجذر والكرفس لا أكثر، أتناول قليلاً من الجذر كلما أحسست بالحاجة إلى ذلك. هل تذكرين كيف كان الجذر يأتي إلي فيلادلفيا من مزارع ديلاوير القريبة طازجًا في شكل حزم صغيرة، وكان التراب والرمل لا يزالان عليه؟ كنت أتناوله وكأني ارتكب جرماً، ثم اكتشفت عدم وجود خطر من ذلك لأن هذا الجذر كان يأتي نظيفًا ومقشراً، وأن الخطر كل الخطر كان في بقائه في الصناديق مدة طويلة فيخرج بعد ذلك لزجًا متسخاً، ومشكلة الكرفس أنك حين تمضغين منه ساقًا أو ساقين تتجمع أوتاره في فمك وتعوق حركة لسانك، ولكني سأستمر رغم كل شيء. كان أسهل لي أن أتناول الكعك المحلي الصغير، ولكن المشكلة أنه يوجد في كل قضمة مائة وثلاثون سعرًا حرارياً، لقد صُدِمت حين قرأت ذلك مكتوبًا على العلبة بشكل جذاب! إنه عمل شيطاني!

الغريب أن هرميون لم تقطع حديثها المسترسل؛ وتعرف بــث أن حديثها في موضوع الحمية ممل، ولكنها لا تعرف غيره، والحديث فيه يشجعها على المضي في الطريق رغم نوبات الإغماء والمغص التي تهاجمها. لا تفهم معدتها سبب هذا العقاب، لا تعلم أنها عدوتها اللدود منذ سنوات وسنوات، تصيح من مكانها هناك تحت القلب تطلب الامتلاء. لم يعد كارميلا يرقد على حجرها من كثرة نهوضها وعصبيتها، ولكن هرميون تسألها:

- وماذا يفعل جاك مع كل ذلك؟

يبدو صوتها محايدًا رزيناً، رفيقًا حزينًا كأنها تزن كلماتها قبل أن تخرج من فمها، فالمشهد الجديد لأخت نحيلة ممشوقة قد يبعث على ضحكها أكثر مما يبعث على أي شيء آخر، هل تعود بهما الأيام حين كانتا تتقاسمان حجرة في منزل في شارع بليزانت، والبهجة الخالصة التي تجلبها الحياة، مجرد الحياة؟ لم تعد هرميون تعرف طريق الضحك بعد أن جادت الحياة بأعبائها الجسام، وها هي تجد صعوبة في اصطناع البهجة. وقد يكون ذلك - في نظر بــث - ما يجعلها عاجزة عن الحصول على زوج. لا تعرف هِرْم كيف تعين الرجال على التخفف من أثقال الحياة. تعوزها المرونة والإحساس بالبهجة كما قالت الآنسة ديمتروفا.

تخفض بــث من صوتها، فجاك في حجرة النوم مشغول بالقراءة، وربما قرأ ما أرسله إلى نوم عميق. بدأ العام الدراسي في سنترال الثانوية، وتطوع جاك لتدريس مقرر في التربية الوطنية، يقول إنه يحتاج إلى الاقتراب من هؤلاء الطلاب الذين يفترض أنه مرشدهم. يزعم أحيانًا أنهم

يعرضون عنه كلما رأوه، ويزعم أحيانًا أخرى أنه تقدم في السن. ولكن جاك في الواقع مكتئب حزين. تخبر بــث هرميون بذلك في إجابتها على سؤالها:

– لا يتكلم كثيراً، أعتقد أنه يخشى جلب الحظ السيئ إلى حياته، ولكن الإحساس بالبهجة مهم بالنسبة لــه، وأنا لا أتبع الحمية إلا من أجله.

لكن هِرْم لم تسكت هذه المرة:

– وهل هذا تفكير سليم، تفعلين ما تفعلين لأن زوجك يريد ذلك؟ أنا أسأل فقط لأني لم أجرب الزواج.

هِرْم المسكينة، لن يبرح الندم على حرمان نفسها من الزواج عقلها ما دامت تتنفس.

– ولكنك ...

ولكن لسان بــث يتوقف، توشك أن تقول إن هرميون سعيدة مع رئيسها في العمل الذي تشبه رأسه رأس الثور، ولكنها تستمر:

– مثل أي زوجة أخرى، أنا أفعل ذلك من أجل نفسي أيضاً. أشعر بتحسن كبير منذ بدأت الحمية وخسرت اثني عشرة رطلاً من وزني. حتى الفتيات اللاتي يعملن معي في المكتبة تلاحظن الفرق، إنهن تشجعنني. قلت لهن: أريد أن أساعدكن في ترتيب الكتب على الأرفف بدلاً من الجلوس على عجيزتي الضخمة خلف المكتب والبحث عن أشياء في الحاسوب لطلاب لا يبحثون عنها بأنفسهم من فرط الكسل.

– وكيف قبل جاك هذا التغير في طعامه؟

– لم أغير طعامه، لا زلت أقدم لــه اللحم والبطاطس، ولكنه يقول إنه سيقنع قريبًا بالسَلَطَة. ويقول إنه كلما تقدمت به السن شعر بنفور من الطعام.

تقاطعها هرميون:

– هذه طباع اليهود.

ترد بــث بشيء من الاعتراض:

– لا أعتقد ذلك.

تصمت هرميون، وتظن بــث أن الخط قد قُطِع، تذكرت الإرهابيين الذين يقومون بضرب أنابيب النفط ومحطات الكهرباء في العراق، لا شيء اليوم في مأمن.

وتسألها بــث:

– كيف حال الطقس عندك؟

– لا يزال حاراً، يشعر المرء بــه عند خروجه من المبنى. شهر سبتمبر في ضاحية واشنطن لا يزال رطبًا حاراً، لم تعد أشجار حديقة البيت الأبيض تزدان بألوانها الزاهية. فصل الربيع هو السائد هنا، وأزهار الكرز مزدهرة.

ثم تقول بــث وهي تشعر بوخز مفاجئ في معدتها المحرومة يجعلها تتشبــث بمقعد المطبخ:

– شعرت اليوم كأني أطير في الهواء، كانت السماء صافية مثلما كانت يوم ...

كادت تقول يوم الحادي عشر من سبتمبر، ولكنها تتوقف إذ تتذكر أن ذلك مما لا يليق قولــه لوكيلة وزارة الأمن الداخلي، صفاء السماء الذي أصبح تاريخاً، سخرية السماء!! أو أسطورة من الأساطير الأمريكية الغابرة.

لابد أنهما تتقاسمان الأفكار نفسها، لأن هرميون تسألها:

- هل تذكرين الشاب العربي الأمريكي الذي قلتِ إن جاك يوليه اهتمامًا خاصاً، الذي لم يأخذ بنصيحته بمواصلة دراسته الجامعية وأخذ، بدلاً من ذلك، بنصيحة إمام المسجد باستخراج رخصة قيادة شاحنة.

- أظن ذلك. مضت مدة لم يذكره.

- وهل هو موجود الآن؟ هل أستطيع التحدث معه؟

- مع جاك؟

لم يسبق أن طلبت هرميون الحديث إلى جاك.

- أجل، مع زوجك من فضلك يا بِني. الأمر جد خطير.

- أعرف أنه يريد أن يخلد إلى الراحة بعد أن خرج معي يساعدني على تمرينات الجري، الجري مهم للحمية لأنه يعيد تشكيل الجسم.

- من فضلك، اذهبي وتأكدي.

- من أنه نام؟ ربما استطعت إخباره بذلك بعد أن يستيقظ.

- بل أفضل الحديث معه بنفسي في هذا الأمر، وسوف نكمل حديثنا في وقت آخر وأنت أمام التلفاز تشاهدين مسلسلاتك.

- رغبت عن مشاهدة المسلسلات أيضًا بعد أن وجدت نفسي أتناول أثناءها الكثير من الحلوى والأطعمة، ووجدت شخصياتها تزدحم في ذهني وتسبب لي الاضطراب. سأذهب وأرى إن كان لا يزال مستيقظاً.

أخافها حديث بـــث عن الإرهاب.

– بِثي، حتى إذا كان نائمًا هلاً أيقظتيه من فضلك؟

– أكره أن أفعل ذلك لأنه ينام قليلاً في الليل.

– حبيبتي، أريد أن أسأله عن أشياء مهمة الآن؛ أشياء لا تحتمل الانتظار، أنا آسفة، هذه المرة وحسب.

هي الأخت الكبرى دائماً، تعلم أكثر مما تعلم، وتهديها إلى ما ينبغي عمله، وها هي تقرأ ما يدور في عقلها مرة أخرى، عبر الأسلاك، تنصح هرميون بـــث بشيء من الحنان الطارئ، في صوت أشبه ما يكون بصوت الأم:

– لكن مهما حدث من أحداث، لا تتركي حميتك.

يخشى أحمد أن يعجز عن النوم في تلك الليلة – ليلة الأحد –التي ربما تكون أطول ليلة في حياته كلها. تبدو الحجرة التي ينام فيها غريبة. يؤكد لـــه الشيخ رشيد الذي يزوره في وقت مبكر ذلك الصباح أنها حجرة بعيدة عن أعين البوليس. عندئذ يسأله أحمد:

– ومن هؤلاء الذين يبحثون عني؟

لكن الشيخ يكتفي بحركة خفيفة من منكبيه. يلاحظ أحمد، وهو يقف بجوار الشيخ رشيد، أنه أطول بكثير من معلمه وأستاذه، لم يلحظ أحمد ذلك من قبل؛ لأن الشيخ كان يستعين على قصر قامته بذلك المقعد المرتفع حين كان يلقي على تلميذه دروس القرآن في ذلك المسجد الصغير. لم يكن الرجل يرتدي قفطانه المطرز تلك الليلة، وإنما كان يرتدي بذلـــة رمادية "غربية،" وكأنه كان يسعى في رحلة عمل بين الكفار، وإلا كيف نفسر حلقه لحيته الرمادية التي كانت تخفي تحتها، كما يرى أحمد الآن، عددًا من الندوب،

وآثارًا كثيرة على جلده الشمعي تشي بمرض ألم به طفلاً في اليمن وعولج منه في الغرب؟ كره أحمد شيئًا آخر في الشيخ رشيد تلك الليلة، وهو ذلك العبوس الكريه الذي ظهر على شفتيه البنفسجيتين في غياب الشعر على صفحة وجهه. لم يكن الشيخ يرتدي عمامته البيضاء تلك الليلة فانكشف وجهه عن خط نحيف من الشعر الصامد. ضؤل حجمه في نظر أحمد وهو يسأله:

– هل تقلق عليك أمك فتبلغ الشرطة؟

– أمي عندها نوبة عمل في المستشفى هذه الليلة، وقد تركت لها رسالة سوف تقرؤها عندما تعود، قلت فيها إنني سأقضي الليلة مع صديق، وقد تظن أنها صديقة؛ لأنها كثيرًا ما كانت تحثني على أن أتخذ لي خليلة.

– بل ستقضي الليلة مع صديق لا يخذلك أبداً، صديق أفضل من أي "عاهرة" مهما بلغ جمالها؛ ستقضيها مع القرآن الكريم، كلام الله الأبدي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

على منضدة بجانب السرير في تلك الحجرة الضيقة التي تكاد تخلو من الأثاث، نسخة من المصحف، كُتبت فيه الآيات باللغة العربية في صفحة ومعانيها بالإنجليزية في الصفحة المقابلة، في غلاف من جلد وردي خفيف. كانت هذه النسخة من القرآن هي الشيء الجديد والغالي الثمن في تلك الحجرة الضيقة بنافذتها المطلة على برج مبنى مجلس مدينة نيوبروسبكت وسط البلد. كان مبنى البلدية، بحجمه الضخم وواجهته المزدانة بأشكال مربعة من الخشب، يشرف على ما حوله من المباني الصغيرة، مثل تنين بحري خرافي تجمد لحظة الانقضاض. تنتشرعلى صفحة سماء المساء، خلف المبنى، قطع صغيرة من السحب أخذت لون القرنفل الفاتح، آثار باقية

من شمس غربت منذ قليل. تنعكس صورتها البرتقالية على النوافذ الزجاجية التي تسنمت البرج المبني على الطراز الفيكتوري على درج حلزوني أغلق أمام السائحين منذ زمن بعيد. وبينما يجتهد أحمد كي يطل برأسه من خلال النافذة الضيقة، إذ يرى ألواح الزجاج قذرة ملوثة تعلوها آثار بائدة من صناعة قديمة، ويرى ضوء الشمس الآفل مسلطًا على قمة المبنى المهيب، ويرى على برج مبنى البلدية، ذي المنحدرين، ساعة كبيرة خشي أن تحول إيقاعاتها بينه وبين النوم طوال الليل فينال ذلك من كفاءته كشهيد، ولكن قرعها الوئيد يهدِّئ من روعه ويطمئنه بأن الحجرة آمنة خاصة عندما تركه الشيخ رشيد وحيدا وانصرف. كانت الساعة تدق كل ربع ساعة وتنتهي بنغمة بطيئة أشبه بارتداد الطرف، يتلوه قرع ثقيل إيذانًا بالرحيل الحزين للساعة الكاملة.

ترك رواد تلك الحجرة الصغيرة علامات قليلة على مرورهم العابر؛ آثار أقدام على بلاط الأرض، وبقايا سيجارة أو سيجارتين محترقتين على عتبة النافذة وفوق الطاولة، ولمعانًا على مقبض الباب وثقب المفتاح بسبب الاستخدام المتكرر، وتلك الرائحة الخفيفة التي تنبعث من البطانية الزرقاء الخشنة. كانت الحجرة نظيفة مما يغضب الله، بل هي أكثر نظافة من حجرته في شقة أمه التي لم تزل تزخر بأشياء آثمة كألعاب تدار بالبطاريات، ومجلات قديمة خاصة بالرياضة أو ميكانيكا السيارات، وثياب قصد بها من ألوانها وأناقتها أن تظهر منه تفاهة وخيلاء حقيقة بعالم المراهقة الأولى. استطاع في الثمانية عشر عامًا التي عاشها أن يجمع من المعلومات المهمة ما يصبح مادة نافعة في أيدي وسائل الإعلام: صورة تضم أولاد مدرسة ألفا أديسون الابتدائية وهم يقفون على درج المدرسة المبني من الحجر الأحمر، يتطلعون إلى قرص الشمس بعيون نصف مغمضة تجنبًا للأشعة، يتوسطهم

أحمد بعينين سوداوين وفم عابس بين صفوف اتسعت للجميع، أغلبهم من السود وآخرين من البيض والملونين. اصطفوا جميعًا وتعاهدوا على الولاء لأمريكا وتلقي العلم. وصورة أخرى لفريق العدو يظهر فيها أحمد مولوي أكبر سنًا واقفًا بين أقرانه وقد أضاءت وجهه ابتسامة مكبوتة، تزين صدره شرائط كسبها من لعبة الجري بهت لونها الرخيص، وعلم بطولة فريق نيويورك للبيسبول أثناء رحلة بالأتوبيس في الصف التاسع إلى مباراة في إستاد ويليام آلفرد شيا، وقائمة مكتوبة بخط يد جميل لأسماء الذين كانوا يحضرون معه دروس القرآن قبل أن يتوقفوا عن الحضور ولم يبق إلا هو، وشهادة رخصة القيادة من الدرجة الثالثة التي حصل عليها مؤخراً، وصورة لأبيه يبدو فيها مبتسمًا وعلى وجهه شارب نحيل أنيق أو غريب، يرجع تاريخها إلى عام ١٩٨٦. عندئذ كان شعره لامعًا مفروقًا متدليًا مرتفعًا في كبرياء كحلوى الهلام، لا يشبهه إلا شعر أحمد الآنْ في الكثافة والنعومة. ستقول وسائل الإعلام: إن شعره يشبه شعر أبيه، وإن وجهه أيضًا قريب الشبه من وجه أبيه، وسيقولون أيضاً: إن وجه الأب كان أكثر إشراقًا من وجه الابن، رغم أن وجه الابن كان أكثر غموضاً. وستظهر أمه في التلفاز كما يظهر ضحايا الفيضانات والأعاصير، تدلي بالحديث تلو الحديث، تظهر عليها – في البداية – الصدمة، وتزرف أنهارًا من الدموع، ثم لا تلبث أن تهدأ وتتناول الحدث كذكرى حزينة. ستملأ صورتها الصحف فتصيب شهرة لم تكن تتوقعها، ولكنها شهرة مؤقتة، وربما كانت عقبة في سبيل بيع لوحاتها.

يشعر أحمد بالاطمئنان لأن الحجرة آمنة وخالية من كل علامة تدل عليه، أشبه بالحجرة التي يستعد فيها رواد الفضاء للحظة الانفجار العنيف والصعود الرهيب، هو الآن على أجنحة البراق الأبيض العتيد. يبدو الشيخ

رشيد محجما عن الوداع، هو أيضًا في وضع الاستعداد، حلق لحيته وتخلى عن جبته وقفطانه وارتدى البذلة الغربية، ويتململ في تلك الحجرة الضيقة، يسحب أدراج الطاولة ولا تريد أن تفتح، ويلقي نظرة على الحمام ليطمئن بأنه مزود بفوطة سوف يحتاجها أحمد بعد كل وضوء، ويضع سجادة على الأرض متوجهًا بمحرابها صوب الشرق حيث مكة والبيت الحرام، ثم يلقي نظرة على الثلاجة فيتأكد من احتوائها على برتقالة وكسرة خبز وعلبة زبادي من أجل إفطار الشهيد – خبز من نوع خاص يسمونه خبز العباس يصنعه الشيعة في لبنان في الاحتفال الديني الذي يسمونه عاشوراء، يقول الشيخ:

– إنه مصنوع من العسل والسمسم وبذور الينسون، وبه يسرى العزم في جسدك، وتمتلئ بالقوة إذا أشرق الصباح.

– ربما لن أشعر بالجوع في الصباح.

– بل يجب أن تأكل، هل ضعف إيمانك؟

– لا يا سيدي، لم يضعف أبداً.

– اعلم أنك بهذا العمل المجيد سوف ينزلك الله أفضل منزلة، وبه سوف تسبقني بخطوات عملاقة إلى جنات الخلد.

في تلك اللحظة تتسع عينا الشيخ الرماديتان، وتترقرق فيهما الدموع، وتضطرب أهدابه الطويلة، ويلزم النظر إلى الأرض كأنه يداري حزنه:

– هل لديك ساعة؟

– أجل.

كان لدى أحمد ساعة تايمكس اشتراها بأول أجر أخذه من عمله، ساعة تفتقر للجمال كالساعة التي تضعها أمه على معصمها، على سطحها أرقام كبيرة وعقارب مضيئة تيسر القراءة عندما كان الظلام يفاجئه وهو في كابينة الشاحنة.

- وهل ساعتك هذه مضبوطة؟

- أعتقد أنها مضبوطة.

لا يجلس أحمد على المقعد الوحيد في الحجرة، مقعد قديم متهالك، ولكنه يرقد على السرير واضعًا يديه وراء رأسه ليوحي للشيخ بأنه لا ينوي النوم تلك الليلة رغم إحساس مفاجئ بالتعب يشعره كأنه يشم غازًا منومًا في تلك الحجرة الضيقة. ومع ذلك كلـــه فلا يأنس لنظرات الشيخ الثاقبة، ويتمنى لو أن الرجل يفتح الباب ويختفي. يتوق للخلوة بنفسه متشحًا بأمان الحجرة النسبي، يريد أن يناجي ربه، يطمئن لسعيه، يسمع صوت القبول بنفسه. تذكره نظرات الإمام بنظراته حين كان يشرف على الدودة المنسحقة، والخنفس الغريب. كان الشيخ رشيد ولعًا بالفتى ولعه بمخلوق بغيض متشح بهالات القداسة.

- ولدي العزيز، لم أجبرك على شيء، هل أجبرتك على شيء؟

- ولم تقل هذا يا أستاذي؟ لا .. لم تجبرني على شيء.

- أعني أنك تطوعت لهذا الأمر بكامل إرادتك، أليس كذلك؟

- أجل، ولأني أكره هؤلاء القوم الذين يتخذون إلههم سخرياً.

- عظيم، ألا تشعر أنك لعبة في أيدي من هم أكبر منك سناً؟

يتذكر أحمد أن جورلين أيضًا قالت لــه ذلك:

- لا طبعاً، بل أشعر أني اهتديت بحكمتهم إلى ما هو صواب.

- وهل طريقك واضح إذا أقبل الصبح؟

- نعم، سأقابل تشارلي في السابعة والنصف في شركة الأثاث، وسأسير بالشاحنة الممتلئة بالمتفجرات، ويصحبني هو لبعض الطريق إلى النفق ثم يتركني لشأني.

في تلك اللحظة تغشى وجه الشيخ الحليق مسحة بغيضة هي مزيج من الغضب والتحفز تشوه وجهه النظيف. يظهر أمام تلميذه بلا لحيته وقفطانه المطرز غريب الهيئة. كان الشيخ مفرطًا في النحول، قلقًا كأنه يرتجف، شاحبًا كأنه خائف، زايلته علامات الشباب التي كانت تظهر عليه في المسجد. كان أحمد مستلقيًا على السرير فوق البطانية الزرقاء الخشنة، واعيًا بتفوقه على الشيخ بشبابه الغض، وطولــه المديد، وقوته المتوثبة، ورهبة معلمه منه التي تشبه رهبة المرء من أشباح الأموات. يسأله الشيخ رشيد في تردد الوَجِل:

- وهب أن تشارلي لم يأت لأمر ما أو لسوء حظ ألم به، فهل تواصل عملك وتكمل الخطة؟ هل تعرف الشاحنة البيضاء دون مساعدة؟

- أجل، أنا أعلم منه بالزقاق، ولكن لم تفترض ذلك؟

- بل إني واثق من مقدمه، وأعلم أنه جندي شجاع من جنود قضيتنا، قضية الحق والدين، والله لا يخذل جنده أبداً. الله أكبر!

تختلط كلمات الشيخ بمقاطع الموسيقى البعيدة القادمة من ساعة مبنى مجلس المدينة. كل شيء الآن تتصل أسبابه بتلك الساعة المحدقة، كل شيء يتضاءل الآن شيئًا فشيئاً، ويواصل الشيخ حديثه:

- في الحرب عندما يسقط الجندي الذي بجانبك، ولو كان أعز أصدقائك، ولو كان هو الذي علمك الجندية، فهل تفر وتختبئ أم تواصل وتواجه العدو؟

- بل أواصل وأواجه العدو.

- تمام، أحسنت.

يلقي الشيخ رشيد نظرة فاحصة حذرة مشبعة مع ذلك بالعطف على الفتى المستلقي على السرير ويقول:

- حان وقت الرحيل يا تلميذي العزيز أحمد، بعد أن اطمأننت عليك.

- أشكرك على كل شيء.

- وأنا مؤمن بأنك لم تقرأ شيئًا يفضي بك إلى شك في سرمدية القرآن ومكانته بوصفه كتاب الكتب.

- الحق ما قلت يا سيدي، لا يوجد ما يريبني في أمر القرآن.

كان أحمد يحس أن شيخه لم يكن كامل اليقين في جميع أمور الدين؛ بل كان يحس أنه يضمر شيئًا من الشك في كثير من المسائل، ويوشك أن يناقشه في ذلك فلا يجد من الوقت متسعاً، لقد سبق السيف العذل، وغدًا سوف يلتقي الاثنان عند بوابة الفراق، كلٌ بما في قلبه من إيمان. يسأل أحمد نفسه: هل كان إيمانه ساذجًا لا يعدو أن يكون تجليًا من تجليات المراهقة

الأولى، أم كان وسيلة أراد بها أن يتميز من الكافرين الذين سيخلدون في النار أبدًا مثل جورلين وتايلنول وسائر الأخسرين أعمالا، الأموات على قيد الحياة في مدرسة سنترال الثانوية؟

يضطرب جسد الشيخ تأهبًا للرحيل، ولكنه لا يقوى على ترك تلميذه دون أن يسديه آخر نصيحة يستعين بها على مهمته المقبلة.

- تركت لك كتيبًا فيه كل ما يحتاجه الشهيد استعدادًا للشهادة...

ويقاطعه أحمد:

- نعم.

لكن الشيخ رشيد يقول ملحاً:

- اعلم أن قراءة القرآن الكريم أهم من قراءة التعليمات والكتب، وإني أنصحك أن تقرأ من كتاب الله كلما أحسست بخذلان الروح وضعف الإيمان خاصة في هذه الليلة الطويلة. اقرأ القرآن الكريم فستجد الله إلى جوارك، هو الذي يتحدث إليك بلسان رسوله الخاتم، الإنسان الكامل. ألم تر كيف يندهش الكفار لقوة الإسلام الذي جاء به محمد، ذلك الصوت الصادق القادم من الصحراء؟ لقد كان محمد رجلاً مثلنا كسائر البشر، يعرف أمور الدنيا كما نعرفها، ولكنه يمتاز منا بما يوحي إليه، ويمتاز منا أيضًا بإذعانه لهذا الوحي الذي هو من عند الله، رغم أن الكثيرين سخروا منه وآذوه.

- أستاذي .. لن أضعف بإذن الله.

يمتزج صوت أحمد بنفاد صبره، وعندما يغادر الرجل أخيراً، يغلق أحمد الباب خلفه. يتخفف الفتى من ملابسه، وبعد أن يفرغ من الوضوء،

يتناول المصحف الهدية ذي الحواف الذهبية بين يديه بكل احترام وتوقير، ويشرع في قراءة الترجمة الإنجليزية لسورة "ق" إذ تذكره بما كان يقوله الشيخ رشيد منذ قليل: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب* أء ذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد.﴾ تتحدث إليه الكلمات بالفعل، ولكنها لا تعني لـــه الكثير. يقرأ في الأصل العربي فيدرك أن القرآن يتحدث عن رأي الكفار في القيامة؛ إنهم لا يؤمنون بقيامة الجسد بعد الموت، حتى أحمد كان يشك في قيامة جسده بعد أن تغادره الروح. يرى روحه كيانًا متناهيًا في الصغر يهتف عند الخروج من الجسد تأهبًا لدخول الحياة الأبدية كأنه ينفذ من باب من زجاج. شأنه في ذلك شأن الكفار حين قال فيهم القرآن الكريم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ عندئذ يخاطب الله الكافرين بضمير جمع الغائب فيمحق حجتهم محقاً: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[٣]

وبينما يلتفت أحمد إلى السماء فوق مدينة نيوبروسبكت إذ يراها غائمة ينتشر على صفحتها دخان عادم السيارات ورطوبة الصيف فتتكون طبقة من ضباب بني غامق تشرف على أسطح البيوت. ولكن الله يعد أحمد بسماء ليس لها فروج، مرصعة بالنجوم الزرقاء الباهرة، وتقع فوق هذه السماء الدنيا. ثم يقرأ في القرآن: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أجل، غدًا يصبح أحمد من عباد الله المنيبين، أو لعل هذا الغد قد جاء، فليس إلا سويعات تفصله عن الصبح. ثم إن الله يصف المطر الذي ينزل من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها ويوجد به الحدائق الغناء وحب الحصيد: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أمريكا هي البلدة

الميتة التي يتحدث عنها القرآن! ثم يوبخ الله منكري البعث، ويعبر عن حيرتهم منه بين مصدق ومكذب: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

يحس أحمد أن الآية الأخيرة تخاطبه، فيغلق المصحف ويتجه بقلبه وبصره ويناجي خالقه، يستشعر وجوده الذي تمتلئ به تلك الحجرة الضيقة غريبة الرائحة، يختلس السمع إلى همسات روحه المستعدة، ينصت إلى اضطرابها فلا يسمع شيئاً، يسمع خفقات حبل الوريد كدقات على باب الدخول، ويسمع ضوضاء المرور في شوارع نيوبروسبكت كالهمس يتحول إلى هدير (هدير دراجات بخارية وعوادم مهترئة) على بعد عمارات من بحيرة الركام العظيمة، يتوارى لحظات خلف دقات ساعة مبنى مجلس المدينة تعلن عن قدوم الحادية عشرة، يستسلم للنوم أملاً في الاستيقاظ على أنغام دقاتها القادمة، تختلط هدهدة النوم بآمال النعيم الوشيك.

يقبل صبح الاثنين فيستيقظ على ضجيج الشارع وأنغام القلق المختزن، لم يسمع تلك الصرخة التي لا تلبث أن تتوارى في المجهول شيئًا فشيئاً. يحس بألم مفاجئ في معدته يربكه، يتذكر ما كان من أمسه وما سيكون، يتحسس أجزاء في جسده فيتأكد أنه لا يزال على قيد الحياة، اليوم يوم السفر الطويل، يوم الرحيل بلا عودة.

يعاود النظر إلى ساعته الموضوعة برفق فوق المنضدة بجوار المصحف. الساعة الآن السابعة إلا ثلثاً، لا تزال حركة المرور متدفقة، ذلك التدفق الواثق الذي سوف يعطله أحمد اليوم. غدًا يسمع الغرب صوت الحق، غدًا يصاب الغرب كلـــه بالشلل إن شاء الله. يغتسل في ذلك الحمام ذي

الستارة البلاستيكية الممزقة، يقنع بالماء البارد بعد أن طال انتظاره للماء الساخن، ويهم بإزالة ما على وجهه من شعر فيتذكر أن الله يحب أن يلقى شهداءه على ما كانوا عليه، لكنه يتذكر أن آل شهاب ينصحونه بحلاقة الشعر من فوق لحيته ووجهه لأن الكفار يرتعدون من رؤية اللحى فوق وجوه الرجال. كان محمد عطا حليق اللحية، وكذلك كان أغلب الثماني عشرة الذين كانوا خير إلهام لشهداء المستقبل. مرت ذكرى عملهم البطولي السبت الماضي مرور الكرام، وسيخفف العدو من إجراءاته، ويطمئن كما اطمأن أصحاب الفيل قبيل هجوم الطير الأبابيل. يفتح أحمد حقيبته الرياضية، ويخرج منها ملابس داخلية نظيفة، وقميصًا نظيفًا مكوياً، ويستعد لأداء الصلاة على سجادته التي يفترشها على أرض الحجرة، وقد ضبط محرابها ناحية القبلة في مكة، أو كذلك كان يظن، فجغرافية مدينة نيوبروسبكت مراوغة خادعة. وبينا يضع جبهته على السجادة إذ يشم رائحة عرق بشري ينبعث من البطانية الزرقاء، ها هو يلحق بموكب الذين وطئت أقداهم هذه الحجرة الضيقة، ليجمعوا أمرهم من أجل الهدف الأسمى، وقد مست أجسامهم قطرات الماء القادم من هذا الصنبور الضيق، الذين كانوا ينفثون دخان سجائرهم على مسمع من دقات الساعة القريبة. يريد أحمد أن يصيب من الطعام رغم أن شهيته توارت خلف نوبات القلق الممض، ولكنه يُرْغِم نفسه على تناول ستة أقسام من البرتقالة، ونصف كوب الزبادي، وجزء لا بأس به من خبز العباس، رغم أنه لم يستسغ ما به من عسل وينسون في تلك اللحظة التي يسمع فيها صوت البطولة قادمًا من حلقه أشبه بصيحات الحرب. يضع الجزء المتبقي من خبز العباس في الثلاجة، مع ما تبقى من الزبادي والبرتقالة، كأنه يدخر ذلك لشهيد آخر قد يجيء بعده. إن رأسه يمتلئ بضباب رقيق، تغشاه ظلمة كتلك الظلمة التي سبقت القيامة كما

جاء ذكرها في سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾

تدق الساعة السابعة إلا ربعاً، ويغادر أحمد الحجرة ويغلق خلفه الباب وقد ترك المصحف وكتيب التعليمات، فقد ينتفع بها شهيد جديد، ولكنه يأخذ حقيبة الرياضة التي اتسعت لشرابه وقميصه وملابسه الداخلية المتسخة، ويمضي بها عبر ردهة مظلمة تفضي به إلى شارع جانبي مهجور رطبته قطرات قليلة من مطر سقط بليل. ويتجه أحمد شمالاً على هدى برج مبنى مجلس المدينة، إلى شارع ريغان العام حيث تقع شركة (إكسلانسي) للأثاث. ويتخلص من حقيبته الرياضية في أقرب سلة قمامة في طريقه.

لم تكن السماء صافية كعين الديك، بل كانت مشبعة برطوبة وآثار خفيفة من بقايا غيوم منقشعة. كانت تبدو قريبة من الأرض ترسل خيوطا دقيقة من الزغب الرقيق. تركت الليلة الماضية وميضا على الشوارع الإسفلتية وفتحات البالوعات وبقع القار اللامعة. التصقت الرطوبة بأوراق الشجيرات الخضراء التي انتشرت بجوار الدرج الأمامي وقريبا من الأعتاب والنوافذ. لم يكن في أغلب البيوت المتجاورة التي مر بها أحمد في طريقه ما يلفت النظر خلا أصوات الأطباق والقدور التي انطلقت من نوافذ تنبعث منها أضواء خافتة خلف البيوت حيث تقع المطابخ، ثم تسمع صوت أجهزة الراديو تنطلق منها برامج الصباح كاستعراض اليوم، وبرنامج صباح الخير يا أمريكا، علامات على إفطار ازدُرِد، وعلى يوم اثنين في أمريكا كسائر الأيام.

ينبح كلب خلف سور أحد المنازل على وقع أقدام أحمد في الشارع، ويربض قط بني أعور يشبه جسده رخام أبيض مجزّع بالقرب من الباب

الأمامي كأنه في انتظار الإفراج، يُقَوِسُ ظهره ويرسل شررًا ذهبيًا من عينه السليمة التي ضيقها قليلاً وقد استشعر شيئًا غريبًا في هذا الرجل الغريب الطويل. يحس أحمد بالهواء يداعب وجهه بقسوة محتملة، ويحس بقليل من الرذاذ يسقط على قميصه فيتغضن قماشه القطني على منكبيه، ويلتصق بنطلونه الجينز الضيق على ساقيه الطويلتين الطافيتين. ينهب حذاؤه المندفع المسافة بين الجسد والمصير القريب، على أرض رصيف المشاة الملساء، تاركًا طبعات نعليه المبللين على الأرض. تقفز إلى ذهنه الآيتان اللتان كان يتلوهما بالأمس: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ! لم يبق إلا نصف ميل ويصل إلى محل الأثاث، ست عمارات ومحل دنكن دونتز المفتوح، ودكان بقالة مغلق في الركن، ومكتب رهانات وشركة تأمين مغلقة. يزدحم شارع ريغان العام بالمارة وسيارات نقل الطلاب التي تطوف الشوارع والحواري وترسل ومضاتها الحمراء الغاضبة المتأرجحة وهي تزدرد طوابير الأطفال المنتظرين بحقائبهم التي علقوها خلف ظهورهم. يتذكر أحمد أن عهده بالمدارس قد ولى. تبدو مدرسة سنترال الثانوية في عينيه الآن – بكل ما لقيه فيها من سخرية من دينه وتهديد حاقد – قلعة متناهية الصغر أشبه بلعبة أطفال، مكانًا سخيفًا يخلو من الأمان ولا يصلح لاتخاذ قرار.

ينتظر إشارة المرور حتى تأذن بمرور المشاة قبل أن يعبر شارع ريغان الذي يألف أرضه الملطخة بالقار أكثر مما يألف هذا الممر الضيق الذي يطؤه الآن. يتجه يسارًا ويقترب من بيت الحانوتي برواقه الواسع ومظلاته البيضاء – "أنغر وولده" – اسم غريب تواق للدفن، ومحل بيع إطارات كان في الماضي محطة بنزين اجتثت مضخاتها وبقي الحوض لم يمس. توقف أحمد هنيهة عند رصيف شارع ١٣ ريثما يهتدي بصره إلى

حيث تقف شاحنة شركة (إكسلانسي) للأثاث. كان الموقف خاليًا من الشاحنة، ولم تكن سيارة تشارلي "الساب" هناك أيضاً، بل سيارتان مختلفتان مجهولتان، واحدة رمادية والأخرى سوداء، وقفتا هناك كيفما اتفق، تحتلان المساحة المخصصة للشاحنة دون اكتراث، تكتنفانهما علامات على تصرفات مريبة؛ فضلات مبعثرة من أكواب بلاستيكية تنبعث منها رائحة قهوة تركية، وعلب مطاعم الوجبات السريعة التي ألقيت جزافاً، وداستها عجلات الشاحنات فالتصقت بالأرض.

تتقد الشمس فوق الرؤوس، وتلقي بضوء أبيض ضعيف كأنه وميض من خلال الضباب الكثيف. ينحرف أحمد بخفة ناحية اليمين كالشبح في العتمة الجزئية إلى شارع ١٣. يعبر الشارع متسللاً وراء حاجز الشجيرات والنباتات البرية التي نمت بكثافة حول صندوق القمامة العملاق، على أرض ليست ملك لشركة " إكسلانسي،" ولكنها ملك لمطعم قديم اندثر منذ زمن بعيد وأخذ شكل عربة مترو من الطراز القديم. يقع هذا المطعم البائد في ركن شارع ضيق يسمي "فرانك هوغ تيراس"، يخيم الصمت على مبانيه، التي تتجاور دون أن تتماس، وتدب فيها الحياة من جديد خلال العطلات مع عودة طلاب المدارس.

ينظر أحمد في ساعته فيراها السابعة وسبعًا وعشرين. يقرر انتظار تشارلي حتى الثامنة إلا ربعًا رغم أنهما تواعدا على السابعة والنصف. وتمر الدقائق سريعة كالفئران المذعورة، فيضطرب أحمد وتتسارع دقات قلبه تحسبًا لطارئ مجهول، لا يظهر تشارلي، وهذا المكان لا يبعث على الاطمئنان. ما فتئ هذا الفضاء الواقع وراء المتجر يبعث في نفسه الإحساس بأنه مراقب من علٍ. ولكنه لا يحس في تلك اللحظة أن الله يراقبه، في تلك

اللحظة لا يحس بأن الله أقرب إليه من حبل الوريد، إنه لا يرى غير نفسه، ولا يحس بغير أنفاسه.

ويتمخض الطريق فجأة عن رجل خلف المتجر، على مشارف رصيف التحميل الذي لا تزال ألواحه السميكة تنضح بماء أخشاب الصنوبر. يرتدي الرجل بذلة ويعتلي الدرج الذي اعتاد أحمد أن يجلس عليه بعد أن ينال منه التعب. هنا طارح جورلين الغرام هنيهة ثم افترقا إلى الأبد. ويمضي الرجل إلى سيارته بثقة، ويتبادل حديثًا مع شخص عبر هاتف السيارة. يبدو من صوته أنه من رجال الشرطة؛ لأنه لا يأبه بمن يسمعه، ولكن أحمد لا يفهم شيئًا مما قالـــه الرجل وسط ضجيج السيارات. يتجه في أقل من ثانية بكامل وجهه إلى أحمد، وجه ممتلئ تبدو عليه علامات القلق، وجه عميل لحكومات كافرة تفقد شيئًا من قوتها كل يوم، ولكنه لا يرى وجه الفتى العربي، وما كان لـــه أن يرى شيئًا غير صندوق القمامة العملاق يعلوه الصدأ وسط نباتات غريبة.

وتتسارع دقات قلب أحمد كما تسارعت تلك الليلة عند لقائه جورلين. إنه يندم الآن على فرصة ضاعت لم يستغلها حين أخذت الثمن من تشارلي. ولكنه يقول لنفسه: إن المرء لا ينبغي أن ييأس على شر فاته. ويسائل نفسه كيف يستغل امرأة لحظة سقوطها؟ وهل كان الشيخ رشيد يوافق على ذلك؟ لقد بدا الشيخ مضطربًا الليلة الماضية كأنه كان يعاني من شيء يعتمل في صدره لا يريد أن يشاركه فيه أحد. ربما كان شكًا يختلج في نفسه. كان أحمد يفهم شكوك معلمه ومخاوفه. يشعر الآن أن الخوف يدب في أعضائه، ووجهه ينتفخ. لقد حلت اللعنة على هذا المكان الآمن الذي كان ملاذه عند الخوف، وواحته عند الرجاء.

يشرع أحمد في المضي في شارع هوغ تيراس الخالي من الناس بعد أن ذهب الأطفال إلى مدارسهم، والآباء إلى أعمالهم. ويختصر المسافة إلى شارع ريغان العام حيث الحي الذي يأوي الأمريكيين العرب، وحيث الشاحنة البيضاء قابعة في مكان ما بعيدة عن العيون. يستنفر همته لعراك مع تشارلي عندما يقابله. يسرع الخطى وقد انحدرت علي خديه قطرات قليلة من عرق رغم غياب الشمس وراء قطع من السحب. تنشط حركة التجارة في شارع ريغان العام، وتتدفق الأرباح على أصحاب المحلات بلا حساب: محلات إطارات سيارات وسجاد وورق حائط، ودهانات وأدوات مطبخ. أهمها محلات بيع السيارات بمواقفها الفسيحة التي تتسع للأعداد الكبيرة من السيارات المرصوصة كطوابير الجنود. تقف السيارات الجديدة على مساحات شاسعة فتصطدم بها أشعة الشمس كأنها تصطدم بحقول قمح مالت بعيدانها الرياح. تطلق في الجو خيوطًا من الأشعة مثلثة تنثني في أشكال لولبية تدور في هدوء. يستخدم التجار أفانين التكنولوجيا الحديثة لجذب انتباه الزبائن، كهذه الأنابيب البلاستيكية التي يُنفَخ فيها الهواء من أسفل فتستوي كائنًا بذراعين يلوح للمارة يمنة ويسرة كأنه يهيب بهم أن يشتروا السيارات، أو يصيبوا من أكوام الكعك التي وضعت أمام المبنى. أحمد هو المار الوحيد أمام هذه المحال التجارية على رصيف شارع ريغان العام، ويرى هذا العملاق الأنبوبي – أطول منه مرتين – يطل على المارة كأنه عفريت، يشير إليهم من خلال ابتسامة هستيرية وعيون بارزة. يمر أحمد أمامه بحذر، يحس بالهواء المنبعث يضرب وجهه وكاحليه؛ هذا الوحش البلاستيكي ذو الابتسامة الغاضبة يتشبه بالأحياء، يقول أحمد لنفسه: "الله وحده هو المحيي والمميت".

يعبر أحمد الشارع العريض حتى إشارة المرور، ويتقدم في شارع ١٦ قاصدًا شارع غرب مين، عبر مسافة مظلمة أشبه بالشارع الذي صحب فيه جورلين إلى منزلها عندما زارها في الكنيسة. يتذكر طريقتها في الغناء وكيف كانت تفتح فمها فيظهر لونه من الداخل كالقرنفل الفاتح. ويتذكر يوم جاءت إليه إلى الطابق الثاني بتحريض من تشارلي، ويتذكر الأسرة والمراتب الكثيرة المتراصة، ربما كان عليه أن يتركها تشجعه كما عرضت، يومها قالت: إن جميع البنات في مثل سنها يفعلن ذلك؛ يشجعن المراهقين أمثاله على الفعل. وقالت أيضاً: إنها كانت تسمع من زميلاتها في المدرسة كلامًا خليعًا كثيرًا عما تفعله البنات مع الشباب. ويتذكر آية سورة التوبة: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمركُمْ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

وبينما يمضي أحمد إلى وجهته المقصودة، في قميصه الأبيض وبنطلونه الأسود، بخطوات يقلد بها الأمريكيين في مشيهم وإسراعهم، إذ يرى شوارع رثة قذرة، ألقيت على جنباتها علب مطاعم الوجبات السريعة، وألعاب بلاستيكية تالفة، وإذ يرى واجهات المنازل بلا طلاء، والمداخل مظلمة والنوافذ مهترئة، وتكاد الأفاريز تتوارى تحت عجلات السيارات المركونة، سيارات متهالكة أمريكية الصنع من القرن الماضي. أكبر حجمًا مما ينبغي، أنوارها الخلفية تالفة، وجنوطها غائبة، وإطاراتها نائمة. يسمع صيحات النساء بأطفالهن قادمة من الحجرات الخلفية، تجأرن بالشكوى من أطفالهن الذين ولدنهم دون قصد، والآن تحتشدن حول التلفاز. يمتلئ الزنوج النازحون من جزر الكاريبي أو كيب فردي في غرب السنغال، بالطاقة والأمل لأنهم أصبحوا أمريكيين، يزرعون الورود ويقومون بطلاء الجدران

والشرفات. ولكن الأبناء الذين ولدوا هنا يستحبون القذارة، ويعانقون الكسل جيلاً بعد جيل، كأنهم يحتجون على انحطاط أحوالهم، ولكن هذا الاحتجاج أصبح من طبيعتهم، كأنهم يرفضون أوامر الأديان جميعًا بنظافة البدن. أحمد اليوم نظيف. يتألق جسده بالحمام الذي أخذه هذا الصباح استعدادًا للتطهر الكبير الذي يندفع إليه اندفاعاً. وينظر إلى ساعته ويجدها الساعة الثامنة وعشر دقائق.

ويغذ الخطى دون أن يجري، لا ينبغي أن يلفت إليه الانتباه، يجب أن يتسلل إلى داخل المدينة دون أن يلحظه أحد. غدًا يتصدر اسمه عناوين الأنباء الرئيسية في قناة السي إن إن وغيرها. غدًا يُذاع النبأ فيرقص الشرق الأوسط طربًا لفعلته. غدًا يرتعش الطغاة على مقاعدهم المترفة في واشنطن. يخفق اليوم قلبه، يطوي سره، يستجمع قواه لمهمته، وغدًا تخفق قلوب الملايين فرحًا أو رهباً. يتذكر كيف كان يمارس الجري في المدرسة، يتذكر كيف كان ينحني ويحرك ذراعيه ويديه العاريتين لتليينها انتظارًا لصوت مسدس الانطلاق، حتى إذا انطلق الصوت اضطربت صفوف المتسابقين، واندفعوا إلى الأمام وسط التهليل والهتاف الغاضب على مضمار المدرسة العتيق المغطى بالرماد الأحمر. حينئذٍ لا يكف قلبه عن الخفقان، ولا يتوقف عن القلق حتى تستقر أعصابه ويختفي الأدرينالين من رأسه. حينئذٍ كان قلبه يخفق أشد من خفقانه اليوم، وكان قلقه أكثر وطأة على نفسه من اليوم؛ اليوم هو بين يدي خالقه، في قبضة الرحمن ذي الجلال. يتذكر أحمد كيف قطع الميل في أربعة دقائق وثمان وأربعين ثانية على مضمار أحد المدارس الثانوية في بلفيل. كان ترتيبه الثالث حين أحس أن رئتيه تحترقان قبل المائة ياردة الأخيرة.

يلتقي شارع ١٦ بشارع غرب مين بعد ستة عمارات. هناك يقف المتسكعون من كهول المسلمين كالتماثيل الضعيفة، في بذلاتهم الغامقة أو جلابيبهم القذرة. يصل أحمد عند واجهة محل يسمى بب بويز لجميع خدمات المركبات وآخر يسمى الأقصى للأسعار الحقيقية، ويمضي إلى الزقاق الذي يقع خلفهما والذي يفضي إلى ورشة كوستيللو لإصلاح جميع المركبات التي زارها هو وتشارلي ذات مرة. يفحص المكان بعينين قلقتين ليتأكد من أن أحدًا لا يراه وهو يقترب من الباب الجانبي المغطي بطبقة معدنية عليها طلاء أسمر مقزز. ولم يجد تشارلي واقفًا هناك كما كان يتوقع. وينصت لعله يسمع صوتًا قادمًا من الداخل، ولكنه لا يسمع شيئاً. تشتد حرارة الشمس ويحس أحمد بالعرق يغزو منكبيه وظهره، يفسد بياض قميصه النظيف، يسمع أصوات المارة تختلط بأصوات المرور على بعد عمارة منه في شارع غرب مين. يفتح الباب بالمقبض النحاسي الجديد فلا ينفتح، يستمر في المحاولة وقد احتقن وجهه غيظاً، ولكن الباب لا ينفتح. كيف تقف هذه العقبة الصغيرة أمام إرادة الله الواحد؟

يقاوم الذعر، يحاول فتح الباب الكبير، بدفعه من مقبضه الأسفل فيندفع إلى أعلى بسهولة كأنه يطير في الهواء، ويستقر في ظلمة التجويف الذي يجاور السقف. يشعل أحمد ضوءاً، يبحث عن تشارلي داخل ذلك المكان الذي تعلوه القذارة فلا يجده، ولا يجد الرجلين الآخرين، خبير المتفجرات ومساعده الشاب. يجد الطاولات ولوحات الأوتاد كما هي في مكانها، تبعثرت حولها بقايا ركام لفضلات منتشرة في الأركان، تبدو أقل مما تركها عليه الليلة الماضية. ثمة يد امتدت لتنظيف الكراج. يطبق السكون على المكان كأنه قبر معتم سرقت منه الجثث. ترسل السيارات المارقة في

ظلمة الزقاق بومضات من النور يضطرب لها الباحث عن الحقيقة في الكراج. يجد أحمد نفسه وحيدًا مع الشاحنة "الجيمس" التي تشبه الصندوق الضخم، كتب عليها بيد لا تحسن الكتابة عبارة "لإصلاح نوافذ السيارات."

يفتح أحمد باب السائق بحذر شديد، ويعاين صندوقًا أقرب في لونه الأسمر من لون المعدات العسكرية، لا زال يرقد هناك بين المقعدين، يتصل بصندوق الشاحنة الأبيض من خلال أنبوب مثبت بشريط. يتدلى مفتاح التشغيل من لوحة أجهزة القياس كأنه يدعو العابر لإدارته. يتصل جسد الشاحنة بفتيل التفجير بسلكين سميكين. باب الدخول إلى صندوق الشاحنة ضيق يتسع بالكاد لرجل جاثم، ينفتح على أسلاك متشابكة متصلة بــه بإحكام. يشم أحمد خليطًا من سماد نترات الأمونيوم والنتروميثين. يرى الأسطوانات الشاحبة، كل أسطوانة في ارتفاع خصره، وكل أسطوانة تحتوي على مائة وستين كيلوجرامًا من المزيج المتفجر. تلتمع الأسطوانات المتألقة مثل لون جلد البشر. من أغطيتها البلاستيكية الملغومة تنعقد حبال صفراء مجدولة تنتهي إلى قاع كل أسطوانة بمسحوق الألومونيوم ومادة البنترايت المتفجرة. رُتبت الأسطوانات الخمس والعشرين، التي يستطيع رؤيتها من خلال الظلمة الجزئية على شكل مربعات خمسة في خمسة، شُدَّت جميعًا بإحكام بحبل مجدول في حبل آخر، وحيل بينها وبين الانزلاق بربطها بإحكام بأوتاد ومزاليج جانبية مثبتة في جسد الشاحنة. إن التوصيلات مجتمعة تبدو عملاً فنيًا ماهراً، فيه الكثير من الجهد والدقة والغموض. يتذكر أحمد ذلك المهندس الجاثم على الأرض، والإيماءات الهادئة خفيفة الظل التي كان يصنعها بأطراف أصابعه الملطخة بالشحم. يستعيد ابتسامته التي تكشف عن أسنان فمه الواسع. كان يبتسم بشيء من غرور العامل الساذج. إنهم

جميعًا – في هذه المكيدة – أجزاء في آلة جميلة، يألف كل جزء منها بقية الأجزاء. اختفى الجميع وبقي أحمد؛ بقي لكي يضع الجزء الأخير في مكانه المطلوب.

يعود أحمد برفق إلى الباب الخشبي الضيق، يستعيد منظومة الأسطوانات البلاستيكية المحشوة إلى ما كانت فيه من ظلمة موحية. يتعهدها الآن بالرعاية، هم مثله جنود في سبيل الحق وإن تمادوا في الصمت، وزهدوا في النصح. كان باب الشاحنة الخلفي مغلقًا بقفل غليظ من تلك الأقفال ذات الأرقام. ولم يُحَطْ أحمد علمًا برقم القفل، وهو يفهم المراد من ذلك الغموض المقصود: فهو ينبغي أن يثق في إخوانه كما يثقون هم فيه، ينبغي أن يفهم غيابهم الغامض، وأن يمضي قدمًا في تنفيذ الخطة. لقد ذهبوا جميعًا وبقي هو جندي ينزل عند أوامر خالقه الرحمن المتصف وحده بالكمال. سوف يقود تلك الشاحنة التي تشبه الشاحنة التي اعتاد قيادتها في السابق، كي يكون طريقه سهلاً ميسوراً. يجرب الجلوس على مقعد السائق فيشعر ببطانته الجلد السوداء دافئة كأنها لم تهجر قط.

يتذكر دروس الفيزياء التي كان يدرسها في سنترال الثانوية. يتذكر أن أستاذ الفيزياء كان يقول لــه إن الانفجار ما هو إلا مادة صلبة أو سائلة تتحول بسرعة مدهشة إلى غاز يتمدد في أقل من الثانية الواحدة إلى أضعاف حجمه السابق مئات المرات. وعلى هدي هذه النظرية الجامدة يصعد إلى كابينة شاحنته الغريبة، ويدير المحرك برفق، وينطلق في يسر عبر الزقاق.

يبقى شيء واحد يريد أن يفعله ويلح عليه: يريد أن يترك الشاحنة دقيقة واحدة يجذب فيها باب الكراج إلى أسفل ثم يعود. يستأذن شاحنته وما عليها من أسطوانات، رفاقه في السفر. يضغط عصير البرتقال على مثانته،

يزيد من توتره، تراوده الرغبة في التخفف من هذا التوتر استعدادًا للرحلة القادمة. على جانب من الزقاق يوقف شاحنته. مرة أخرى يرفع باب الكراج، ويرى الحمام خلف باب متسخ بلا علامة تدل عليه، يفرغ من غسل يديه على الحوض بمطهر يزيل الشحوم، ويشد باب الكراج إلى أسفل، ويعود إلى شاحنته. يتذكر أنه كان مخطئًا حين ترك شاحنته – والمحرك يعمل – ولو لدقيقة واحدة أو دقيقتين، ولو للضرورة القصوى. هل يفقد القدرة على التفكير السليم في هذه اللحظات المثيرة التي تسبق النهاية؟ عليه أن يثبت عند نقطة، عند إرادة واحدة هي إرادة الله، هو أداة من أدوات الله ولا شيء آخر. يجب ألا يفكر في شيء آخر، فليجمد عند هذه النقطة، وليمض في طريقه دون تفكير كما ينبغي للأداة أن تفعل.

وينظر في ساعته التايمكس: إنها تشير إلى الثامنة وتسع دقائق. ضاعت أربعة دقائق أخرى. يمضي بشاحنته. يتجنب أخاديد الطريق والتوقف المفاجئ. لقد تخلف عن الجدول الذي حدده هو وتشارلي بعشرين دقيقة إلا قليلاً. هو الآن أهدأ بالاً والشاحنة تشق طريقها وسط الزحام، تصبح جزءًا من تيار المرور العالمي. يتجه بها يمينًا بعيدًا عن الزقاق، ثم يسارًا إلى شارع غرب مين. يرى شركة بب بويز والتمثال الكارتوني المربك للرجال الثلاثة: ماي وموي وجاك، الجسد واحد والرؤوس ثلاثة.

المدينة كلها مستيقظة من حولـــه، يسير الناس في الشوارع، كلٌ إلى وجهة مقصودة. يتخيل شاحنته نقطة في بحر، مستطيل ضربت عليه دائرة في صورة التقطتها هيلوكبتر لسيارة مطاردة تشق طريقها بحذر عبر الشوارع والإشارات. هذه الشاحنة مختلفة عن شاحنة الأثاث التي كان يسيطر عليها بسهولة. لا يحس مع هذه الشاحنة بانسجام تام. عجلة القيادة لا

تناسب يديه، تهتز لأية عقبة في الطريق. تنحرف عجلاتها الأمامية قليلاً إلى اليسار كأنها تعرضت لحادث أخل توازنها. تدفعه الحمولة من الخلف عندما يمسك الفرامل عند إشارة حمراء، أو يتركه عند إشارة خضراء.

ينحرف أحمد إلى شارع واشنطن كي يبتعد عن مركز المدينة، والمدرسة الثانوية، ومبنى مجلس المدينة، والكنيسة، وبحيرة الركام، وناطحة السحاب الزجاجية التي بنتها الحكومة ذرًا للرماد في العيون. أخبره تشارلي أن الاسم جاء من أن الجنرال العظيم (واشنطن) استخدم القصر الوحيد في الشارع مركزًا للقيادة في نيوجرسي. أخبره أيضًا أن الجهاد والثورة الأمريكية أشعلا نفس الحرب التي يشعلها المظلوم على الظالم، الحرب التي يخوضها المغلوب ضد الغالب المستعمر الذي يفرض شروطه.

يفتح أحمد راديو الشاحنة فتنطلق منه موسيقى البوب البغيضة. يصل بالمؤشر إلى محطة إخبارية فيسمع امرأة تذيع أخبار المرور، تقول بصوت لاهث إن الزحام على أشده كالعادة على طريق نفق لنكولن. يتوقف ثم يمضي. يسمع صوت طائرة عمودية يختلط بصوت موسيقى البوب الصاخبة. يغلق الراديو. لا يجد المرء ما يستحق سماعه في هذا المجتمع الكافر. الصمت أفضل. الصمت موسيقى الله. فليلق الله طاهرًا من أدران المادية. يُشعِره اللقاء القريب بالقلق، الله أقرب إليه من حبل الوريد، يشعر بقربه دائماً، أخ، أب، وإن كان سيعجز عن رؤيته وجهًا لوجه من فرط نوره الساطع. هو الآن، ذلك اليتيم محروم الأخ، يحمل مشيئة الله التي لا تلين في قلبه، وقد أمره الله أن يشعل الحطمة، نار الله الموقدة، كي تطلع على أفئدة الكفرة. وقد شرح لــه الشيخ رشيد أن الحطمة هي كل ما يتحطم ويتحول إلى أجزاء.

لا يوجد غير تقاطع واحد مع طريق ٨٠ في نيوبروسبكت. يتحول أحمد بالشاحنة نحو الجنوب الشرقي إذ يتقابل طريق واشنطن مع طريق تِلْدِن العام، الذي يلتقي مباشرة مع شارع ٨٠ بزحام رهيب في ذلك الوقت من النهار؛ لأنه يفضي إلى مدينة نيويورك. سيصل إلى التقاطع بعد ثلاث عمارات. هناك على الناصية، تقع محطة بنزين مواجهة لمحطة موبل التي تشتمل على محل "شوب أسِك." على البعد يرى أحمد شبحًا لرجل يقف على الرصيف كأنه يبحث في يأس عن تاكسي. ولكن الرجل يشير إلى أحمد دون غيره، يراه أحمد من خلال الزجاج يلوح بكلتا يديه، إنه السيد ليفي ببذلته البنية التي لا تتسق مع لون بنطلونه الرمادي، إنه الزى الذي يذهب به إلى سنترال الثانوية. ولكن سنترال الثانوية على مسافة ميل من هنا.

يضطرب أحمد لظهور جاك ليفي المفاجئ. يقاوم وقع المفاجأة بالبحث عن الأسباب؛ ربما كان السيد ليفي يحمل إليه رسالة من تشارلي. ولكن تشارلي لا يعرف ليفي، لا يعرف المرشد الطلابي الذي كان ينصح أحمد بالتخلي عن الحصول على رخصة قيادة الشاحنات. وربما كان ليفي يحمل إليه رسالة من أمه التي كانت تخجل في الأيام الأخيرة من ذكر السيد ليفي على لسانها. هل يتوقف؟ لن يتوقف.

ولكن النور في الركن يتغير، والمرور يتباطأ، ويضطر إلى التوقف. إن السيد ليفي يتحرك بسرعة عبر الحارات والسيارات، ويصل إلى الشاحنة، ويطرق على النافذة بيد آمرة وقد اربد وجهه واضطربت أعصابه. لم يكن من طبيعة أحمد أن يغمط معلميه حقوقهم من الاحترام، فهو يفتح لـــه الباب، لن يتركه واقفًا خارج الشاحنة، من الأفضل أن يجلس إلى جواره داخل الكابينة. ويدخل السيد ليفي، ويجلس إلى جوار أحمد على المقعد الداكن، ويغلق الباب بقوة وهو يلهث.

- شكراً، خِفْتُ ألا ألحق بك.

- كيف عرفت بوجودي هنا؟

- قلت في نفسي إن طريق ٨٠ لا نصل إليه إلا من طريق واحد.

- وكيف عرفت أن هذه الشاحنة ليست هي الشاحنة التي أعمل عليها؟

- كنت أعرف.

- كيف؟

- إنها قصة طويلة لا أعلم منها غير أجزاء بسيطة، "شركة إصلاح زجاج النوافذ" - غريبة!!

لا يزال السيد ليفي يلهث، لا يزال يحدق في صورته الجانبية في المرآة، يستغرب أحمد كيف تقدم السيد ليفي في السن، كيف بعدت الشقة بينه وبين عالم الشباب في المدرسة الثانوية؟ لقد هده التعب والسن، تدلت شفتاه، تراخى الجلد تحت حاجبيه. يتساءل أحمد كيف يشعر المرء وهو يسعى إلى حتفه شيئًا فشيئًا بفعل السنين؟ لن يمر بهذه التجربة، لن يختبر هذا المصير. لا يزال السيد ليفي يحاول التقاط أنفاسه، يخفف من قلقه نجاحه في الوصول إلى الشاحنة والجلوس إلى جوار أحمد.

- ما هذا؟

يسأل ليفي عن الصندوق الأسمر المعدني المتصل بشريط بالصندوق البلاستيك القائم بين المقعدين.

- لا تلمسه!

تخرج الكلمات من أحمد حادة محذرة حتى ليضطر إلى أن يعقبها بكلمة "سيدي" تداركًا للاحترام الذي يجب أن يبديه للسيد ليفي.

ويقول السيد ليفي:

- لن ألمسه، ولكن لا تلمسه أنت أيضاً.

يصمت، يتفحص ذلك الشيء بعينيه ولكنه لا يلمسه.

- صناعة مستوردة، ربما من جمهورية التشيك أو الصين، بالتأكيد ليس هو المفجر التقليدي الذي نصنعه في مصانعنا ونسميه LD20. كنت في الجيش، رغم أنهم لم يرسلوني إلى فيتنام، وهذا ما ضايقني. لم أكن أريد أن أذهب، ولكني كنت أريد أن أثبت وجودي، أنت تفهم هذا طبعًا حين يسعى المرء لإثبات وجوده.

- لا. لا أفهم.

يضطرب أحمد لهذا التدخل المفاجئ، تنقلب الأفكار في رأسه إلى أفواج من النحل الشارد يرتطم بجدران جمجمته في جنون. ولكنه يواصل توجيه شاحنته بيسر ودقة، يمضي بالجيمس عبر المنحنى المفضي إلى طريق ٨٠ في هذه الساعة المزدحمة بالذاهبين إلى أعمالهم. يريد أن يسيطر على الشاحنة حتى يصل إلى الجهة المنشودة.

- كانوا يضعون المتفجرات داخل حفر يسمونها حفر القناصة، أو يسمونها حفر القندس، ويحكمون غلقها ثم تنفجر فيما بعد، لم يكن ذلك بالشيء الجيد، ولا أظن أن الحرب كلها آنذاك كانت شيئًا جميلاً. إلا النساء، ولكني سمعت أنك لا تثق بالنساء. كُنّ محاربات أيضاً.

لا يزال أحمد يسمع الطنين في رأسه، يسعى لإطلاع السيد ليفي بحقيقة الأمر:

- سيدي.. إذا قمت بأي حركة لتحطيم الأسلاك أو التدخل في قيادتي، فسوف أطلق العنان لأربعة أطنان من المتفجرات، الزر الأصفر هو زر الأمان، وهو الزر الذي أضع عليه يدي الآن.

يحركه ناحية اليمين وينزعه. ينتظران على أعصابهما. يخاطب أحمد نفسه: "عند الانفجار لن نعرف بما سيحدث أصلاً،" ويغلق المفتاح، ولم يبق إلا أن يدفعه إلى أسفل في ذلك البئر الضحل، وينتظر الثواني القليلة جدًا التي لا تكاد تذكر لإشعال المسحوق المتفجر، ليشتعل بدوره في مادة البنترايت والبنزين فتضطرم النار في تلك الأطنان من مركب النترات. يشعر أحمد بالزر الأحمر ناعم الملمس على باطن إبهامه دون أن يتحول ببصره عن الشارع المزدحم. إذا فكر هذا اليهودي الحقير في أن ينعطف بي عن الطريق فسوف أقذف به خارج الشاحنة كقصاصة من الورق، أو كالعهن المنفوش.

- ليس عندي أية نية في فعل أي شيء.

يخبره السيد ليفي بصوت منخفض يزعم به الهدوء، نفس الصوت الذي ينصح به الطلاب الراسبين في مدرسة سنترال الثانوية، أو الطلاب الذين يتحدون سلطة المدرسة، أو الطلاب الذين يقررون ترك المدرسة من وحي أنفسهم. يواصل السيد ليفي حديثه:

- أريد فقط أن أطلعك على بعض الأشياء التي قد يهمك الاطلاع عليها.

- وما هذه الأشياء؟ أخبرني بها بسرعة، وسأسمح لك بالخروج إذا بلغت هدفي.

- أظن أن أول شيء من هذه الأشياء هو أن تشارلي قد لقي حتفه.

- مات؟

- أو حزت رأسه في الواقع. شيء رهيب! صح؟ لقد نكلوا به قبل أن يقطعوا رأسه. وجد البوليس جثته صباح الأمس ملقاة بين أشجار في قناة جنوب إستاد العملقة. كأن القتلة كانوا يقصدون ذلك. أن يعثر البوليس على جثته في هذا المكان بالذات. وجدوا خطابًا باللغة العربية بجوار الجثة. من الواضح أن تشارلي كان جاسوسًا لدى السي آي إيه، واكْتُشف أمره عند زملائه فقتلوه.

كان لأحمد أب اختفى قبل أن تعى الذاكرة من صورته شيئًا ذا بال، الآن ذهب تشارلي الذي علمه السير في الطرق. والآن يجلس هذا اليهودي العجوز الذي ارتدى السواد بجواره.

- وماذا كانت الرسالة تقول بالضبط؟

- لا أعرف، شيء معناه أن من ينقض العهد إنما ينقضه على نفسه، وسوف يتولى الله عقابه.

- قرأت شيئًا كهذا في القرآن الكريم، في سورة الفتح.[٤]

- وقرأت مثله أيضًا في التوراة، على العموم لا تتوفر لدي المعلومات الكافية، فقد وصلت إلى هناك متأخراً.

- هل لي أن أسألك كيف عرفت كل ذلك؟

- أخت زوجتي تعمل في واشنطن وكيلة وزير الأمن الداخلي، اتصلت بي أمس بعد أن ذكرت زوجتي لها اهتمامي بك، وتساءلت عن

صلتك بهم، راحوا يبحثون عنك في كل مكان ولم يجدوا لك أثراً، وفكرت في المحاولة.

– وكيف تريدني أن أصدق كل ما تقول؟

– صدق أو لا تصدق. أو قس على ما أحطت به الآن علماً، أين تشارلي إذا كنت من الكاذبين؟ تقول زوجته إنه اختفى، وتقسم أنه في محل الأثاث.

– وهل تعرف عن آل شهاب الآخرين شيئاً؟ وهل تعرف شيئًا عن الرجال الذين كانوا يزودونهم بالمال؟

يلاحظ أحمد أن سيارة مرسيدس ذات لون أسود غامق تتعقبه يقودها سائق يبدو عليه نفاد الصبر، شاب في أول عهده بالشباب لا يمكن أن يكون قد كسب ثمنها إلا إذا كان قد لعب في البورصة فأصاب حظاً، ولعب غيره فخسر. يعيش أمثال هؤلاء عيش الترف في فنادق نيوجرسي، ولكنهم يقذفون بأنفسهم من تلك الأبراج حين يقدر الله عليهم الخسران. يشعر أحمد بتفوقه على سائق المرسيدس القلِق، غير عابئ بصيحات نفيره، وانحرافه إلى الخلف والأمام، ورغبته في أن يظهر سائق الشاحنة البيضاء بمظهر المهتز على الحارة الوسطى.

ويجيب السيد ليفي:

– أظن أنهم لقوا حتفهم أيضاً، أمسكوا برجلين كانا يزمعان السفر إلى باريس من مطار نيوارك، ويرقد أبو تشارلي في المستشفى من أثر جلطة ألمت بــه.

– أعرف أنه يعاني من مرض السكر.

- وليكن، قال إنه يحب هذه البلاد، وإن ابنه أحب هذه البلاد ومات من أجلها. ويقول البعض إن الأب هو من وشي بابنه، لهم عم في فلوريدا وضعته المباحث الفيدرالية تحت المراقبة منذ زمن ليس بقريب. البوليس هنا لا يترك شيئًا إلا أحاط به علماً، وسوف يتحدث العم، أو يتحدث عنه من يتحدث، فهم لا يصدقون أن الأخ لا يتصل بأخيه ويعرف عنه الكثير. هؤلاء العرب يُكْرِهون بعضهم بعضًا على فعل الأشياء من خلال الإسلام، إذ كيف ترفض ما يريده الله؟

- لا علم لي بهذه الأمور. لقد حرمت نعمة الأخ.

- نعمة لا يؤسى عليها، شاهدي على ذلك ما أراه في المدرسة. قرأت مرة أن صغار الثعالب يقاتل بعضها بعضًا حتى الموت بعد الولادة مباشرة.

يقول أحمد وقد غشي قلبه بعض الخوف:

- كان تشارلي من أفضل دعاة الجهاد.

- كان ذلك نشاطًا من نشاطاته الظاهرة، لا أعرف الرجل، ولكني أحسبه أشبه بالمدفع الفالت، قالت لي أخت زوجتي: إن خطأ تشارلي القاتل كان انتظاره الطويل حتى يضع فخه، كأنه كان يرى الكثير من الأفلام الأمريكية.

- نعم، كان يجلس أمام التلفاز وقتًا طويلاً، كان يريد أن يكون مخرج إعلانات في يوم من الأيام.

- أرى الآن أنه لا داعي لأن تفعل ما تريد أن تفعله اليوم. لقد انتهى كل شيء كما ترى، وحتى تشارلي لم يكن يقصد أن تفعل ذلك، كل ما فعله أنه استغلك في خداع الآخرين.

يستعرض أحمد كل ما سمعه بعين فاحصة ويعلق:

- بل سأحقق نصرًا كبيرًا للإسلام.

- الإسلام؟ كيف؟

- سأقتل الكثير من الكفار، وأزلزل الأرض تحت أقدام كثيرين آخرين.

- أنت تمزح بالتأكيد.

يحاول أحمد الخروج من شارع ٨٠ غربًا إلى شارع ٩٥ جنوباً، يشغل الحارة الوسطى ولا يسمح للمرسيدس بتجاوزه من ناحية اليمين. حشود من البشر والسيارات تسعى لعبور جسر واشنطن. وعلى الناحية اليسرى يجري نهر أوفربك على أنغام هبات النسيم إلى جهته المقصودة في هاكنساك. وتصل الشاحنة إلى بوابة نيوجرسي الإلكترونية، أقيمت على أرض مستنقعات استُغِل كل شبر منها استطاعوا تجفيفه. تنقسم البوابة إلى قسمين، قسم يتجه إلى اليسار حيث مخرج نفق لنكولن، وقد رأى المتآمرون أن المرور به سيعرض الشاحنة لرادار مثبت في جانب من النفق، ولكنه في نفس الوقت سوف يتسنى لـــه المرور بسهولة على كشك تحصيل الرسوم دون أن تصطدم عينا المحصل أو عينا الحارس الذي يقف إلى جواره بعيني السائق الشاب.

- فكر في أمك، لن تفقدك فقط، وإنما سيشار إليها بعد ذلك بأنها أم حيوان غريب قاس القلب.. وحش مجنون.

يتوارى الهدوء في صوت السيد ليفي خلف درجة من الحدة الطارئة، ويبدو أن أحمد بدأ يجد المتعة في عدم التأثر بمثل هذه العواطف التي تصدر عن هذا اليهودي المتطفل، ويجيبه:

– لم أك شيئًا بالنسبة لأمي في يوم من الأيام، رغم أنني أعترف بأنها قامت على العناية بي بعد ولادتي البائسة، وعلى أي حال لن تكون أم الوحش في الشرق الأوسط، ستكون أم الشهيد، وأمهات الشهداء لهن كل التقدير والاحترام، وسوف تحصل على معاش ضخم.

– أنا متأكد من أنها تفضلك أنت على أموال الدنيا.

– وكيف تأكدت من ذلك؟ هل لي أن أسألك؟ كيف عرفت بكل ثقة أنها تفضل ذلك؟

يرى أحمد وفدًا من طيور النورس يبدو لـــه من خلال زجاج الشاحنة الأمامي في البداية قليل العدد، ثم يرى عشرات قادمة كأنها تقصده، ثم تتحول العشرات إلى مئات تدور حول موقع نفاية. وخلف أجنحتها المحتشدة، وخلف نهر هدسون الغاضب، يلوح شبح المدينة العظيمة، قلب الشيطان، على مرمى البصر في لون الأحجار، تتخلله ثقوب فيبدو كمفتاح ضخم، تنبعث الأضواء من جهتها الشرقية فتتحول أبراجها ظلالاً على جهة الشرق، يتخللها سديم من غبار رقيق. ينبئ صمت السيد ليفي عن هجوم جديد على قناعات أحمد، ولكن السائق والراكب كليهما يرقبان في صمت عجيبة من عجائب الدنيا، لا يلبثا أن يتحولا عنها إلى زحام الشارع الذي انطفأ ولم يعد لـــه وجود. تسير المركبة الآن في مساحات خلت من المارة على شارع ٩٥ الذي يحفه العشب والزرع على الجانبين، وقطع من سحب السماء الزرقاء تنعكس بين الفينة والفينة على قنوات مائية. وعلى البعد يراقب أحمد من مكانه المرتفع وميض في شكل الصليب لا يكاد يمهل العيون حين يمر على مطار نيوارك الدولي، ينقش في السماء البيضاء بياض الحليب ممرًا بطرفين

أشبه بطريق سريع لا تنبو عنه العيون. وتمر لحظة يشعر أحمد فيها بانتعاش غريب، أشبه بطائرة تطفو فوق المطار هربًا من الجاذبية.

يحطم السيد ليفي صمت اللحظة بقولـــه:

– ألديك شيء آخر نتحدث عنه؟ إستاد العمالقة، هل رأيت مباراة فريق "الجتز" أمس؟ عندما أخطأ اللاعب كارتر في ضربة البداية، قلت في نفسي "ها قد بدأنا نفس البداية التي بدأناها الموسم الماضي." ولكن حدث العكس، كسبنا المباراة واحد وثلاثون لأربع وعشرين، رغم أن التوتر كان هو السائد حتى قام اللاعب الجديد، كولمان، باعتراض الكرة في الدقيقة الأخيرة في هجوم فريق البنجال.

حديث من قبيل تضييع الوقت، يحدثك به يهودي معتوه لا يعيره أحمد انتباهاً، ولكن في صوت أكثر صدقًا وهدوءًا يقول السيد ليفي:

– لا أصدق أنك تنوي قتل المئات من الأبرياء؟

– ومن قال إن الكفار أبرياء؟ الكفار يقولون ذلك، ولكن القرآن أمرنا أن نكون أشداء عليهم.[٥] أمرنا أن نحرقهم بالنار، ونسحقهم تحت الأقدام؛ لأنهم نسوا الله، ويريدون الاكتفاء بأنفسهم من دونه في هذه الحياة الدنيا، ولأنهم يحبون هذه الحياة الدنيا أكثر من حبهم للآخرة.

– و تريد أنت أن تقتلهم الآن؟ أليس ذلك غاية في القسوة والخطر؟

– أنت تراها قسوة طبعًا لأنك يهودي كفرت باليهودية، ولا تؤمن بشيء على مبلغ علمي. وقد جاء ذكر أمثالك في القرآن الكريم في سورة آل عمران ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون.﴾

يتنهد السيد ليفي بحرارة، ويستشعر أحمد قطرات صغيرة من الخوف تختلط بأنفاس الرجل وهو يقول:

– نعم، أعرف أن التوراة أيضًا تشتمل على مثل هذا الهراء البغيض السخيف. يكثر الحديث عن الوباء والمذابح في التوراة أيضاً. وأما القبائل التي لم يحالفها الحظ ولم يخترها الله لمهمة فتحل عليها اللعنة وتحرم من نعمة الرحمة، ولا يجد أبناؤها من العذاب مخرجاً، وهذا ما نجده أيضًا عند المسيحيين. ولعلمك، لا يزال رجال الدين يسعون للسيطرة على الناس من خلال تخويفهم بالنار، فكر في أمر الجحيم تجد أنها أقدم وسيلة تخويف في العالم. هل تصدق في هذه الأشياء حقاً؟ هل تصدق أن الله أداة لتعذيب البشر؟ المعَذِّب الأكبر؟ ملك أفعال الإبادة الجماعية بلا منازع؟

– إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. أتعلم أن الله قد ذكر إبراهيم بكل الخير في القرآن. هل كنت تؤمن في السابق؟ وكيف كفرت بعد إيمان؟

– لقد ولدت منكرًا للدين، كان أبي يكره اليهودية، وكان جدي كذلك. كانا ينحيان باللائمة على الدين لأنه السبب في شقاء العالم، ولأنه يروض الناس على قبول مشكلاتهم. ولكنهما تحولا إلى دين آخر وهو الشيوعية. ولكنك لا تريد أن تسمع مني شيئاً.

– لا يهمك، تكلم. من الأفضل أن نبحث عن أرضية مشتركة بيننا. قبل ظهور إسرائيل كان المسلمون واليهود أخوة، كانوا يعيشون على هامش العالم المسيحي الذي كان ينظر إليهم على أنهم "الآخر" الذي يرتدي تلك الملابس المضحكة. وكان العالم المسيحي يتخذ منا مادة للسخرية والاستهزاء وهو آمن في رفاهيته وأمواله، وفي لون بشرة أبنائه البيضاء بياض الورق. حتى مع ظهور النفط في بلادنا كانوا يزدروننا.

يتنهد السيد ليفي مرة أخرى، ويقول:

-- هذا بعض خصالنا فعلاً، يبدو أنك قارئ جيد يا ولد.

يزداد الزحام وطأة وتتباطأ حركة السيارات وتتعقد الأمور، ويقرأ أحمد لوحات مكتوب عليها "شمال برغن،" و"سيكوكس،" و"ويهوكن،" و"طريق ٤٥٩،" و"نفق لنكولن." يجد أحمد راحة في الالتزام بالإشارات، حتى وهو يرى شارع ٤٩٥ الذي وصل فيه الزحام غايته، كأنه أصبح مركز تجمع رهيب تنطلق منه السيارات بعد ذلك إلى تل "ويكهوكن" إلى حذاء النهر. وفي خضم هذا المهرجان الرهيب يسمع أحمد صوتًا يناديه بأن أقدم على فعلتك: "لا تتراجع أيها المغفل. لقد اقتربت الآن من غايتك، غايتك سهلة، إنك لا تصنع صاروخاً."

وبينما تتهادى حشود السيارات من الطرق الرافدة في الجنوب والغرب، يعرف أحمد من مكانه المرتفع وجهاتها النهائية، مبنى طويل مبني بأحجار سمراء وأخرى بيضاء، ثلاثة قناطر مستديرة تشتمل كل قنطرة على حارتين، ولافتة مكتوب عليها "الشاحنات تتجه إلى اليمين." ويرى شاحنات أخرى أقل شأنًا وأصغر حجماً، سيارات شحن صغيرة بنية وصفراء ومتعددة الألوان، وجرارات لمقطورات تنفث الدخان وتطلق الأصوات النحيفة وهي تشق طريقها، بحمولتها الضخمة من المنتجات الطازجة من مزارع نيوجرسي في طريقها إلى مطابخ مانهاتن، تتجه قسرًا ناحية اليمين، تسير ببطء ممل، وتتوقف.

- الآن حان وقت القفز يا سيد ليفي، إذا دخلنا النفق لن أتوقف.

يضع المرشد الطلابي يديه على ركبتيه وبنطلونه الذي لا يتسق لونه البني مع لون القميص حتى يعرف أحمد أن ليفي لن يلمس الباب، ولن يخرج من الشاحنة.

- لا أفكر في الخروج أبداً؛ أنا وأنت في مركب واحد يا بني.

موقف ليفي شجاع، ولكن صوته يشي باضطراب و [illegible] يسكن أعماقه.

- لا تقل بني، لست ابنك، وإذا حاولت لفت انتباه أحد سأفجر الشاحنة هنا، في هذا الزحام المروري. أعرف أن ذلك ليس هو الهدف المنشود، ولكني سأقتل الكثير من الناس على أي حال.

- أراهن على أنك لا تريد ذلك من أعماق قلبك، أنت غلام طيب غاية في الطيبة، أخبرتني أمك أنك لم تكن تتحمل دهس حشرة بقدمك، وكنت تحملها على قصاصة ورق وتلقي بها من النافذة.

- يبدو أنك تحدثت كثيرًا مع أمي، وكانت بينكما حوارات!

- استشارات وليست حوارات. كلانا كان يريد لك الخير.

- صحيح لم أكن أحب الوقوف على الحشرات بقدمي لأني لم أكن أحب لمسها. كنت أخشى أن تتغوط على يدي.

ويضحك السيد ليفي مستفزًا أحمد:

- نعم، الحشرات تتغوط، تعلمنا ذلك في دروس الأحياء، وعرفنا أن لها أجهزة هضم وفتحات شرج وكل شيء، مثلنا تماماً.

يحس أحمد أن عقلــه في سباق مع الزمن، يرتطم بجدران حدوده المعرفية، ولا يوجد وقت للملاحاة. لم يبق إلا أن يقبل وجود السيد ليفي إلى جواره كشيء موضوع، أو كشبح مفروض، أو كتاب خلت صفحاته الفردية من الحروف، فيقرأ فيه صفحة ويترك الأخرى، أو كنفسه التي بين جنبيه، لا يراها ولكنه يخاطبها بين الحين والحين. ويعجب أحمد من وجود أشجار ومساحات خضراء فوق مداخل نفق لنكولن الثلاثة، ماني وماو وجاك، على رؤوس الحشود المندفعة من المركبات، وهياج أنوار فرملاتها وإشاراتها التي تومض وتنطفئ، هضبة عالية من الأرض تنهض عليها مساحة خضراء على شكل مثلث من العشب المجزوز. يقول أحمد لنفسه:

- لعل هذه آخر قطعة من الأرض تقع عليها عيناي، هذه المرجة التي لم تطأها قدم إنسان.

يقف عدد من الرجال والنساء بملابس زرقاء وبنية رسمية حول حشود المرور بطيئة الحركة. إنهم أفراد الشرطة الذين يشرفون على المشهد بعيون محايدة، ويتبادلون أطراف الحديث كلٌ مع زميله، وينعمون بأشعة الشمس التي تظهر بين الحين والحين من رحم السحب الثقال. يعرفون أن هذا الاختناق المروري يحدث في العطلات، وفي هذه الساعات نفسها من كل أسبوع، يعدونه من طبائع الأشياء كإشراق الشمس، والمد والجذر، وسير الكواكب. إحداهن قوية البنية تضع على شعرها الملموم قبعة ثقيلة فتظهر رقبتها وأذناها، ويندفع ثدياها من وراء جيوب قميص البذلة الرسمية التي تزين بشارة الشرطة والحزام الذي ضرب على منكبها. أثارت غريزة اثنين من زملاء المهنة تتدلى من خصريهما الأسلحة، وتنحسر الشفاه عن ابتسامات تتقد بالشهوة. يتطلع أحمد إلى ساعته التايمكس فيراها تتجاوز

الثامنة والخامسة والخمسين. مضت خمس وأربعون دقيقة وهو داخل الشاحنة. سوف تنتهي المهمة مع حلول التاسعة والربع.

يحاول أحمد السير بشاحنته على الجهة اليمنى من النفق مستعينًا بالمرايا، يستغل التردد القليل لسائق مركبة تسير بجواره. يحس في البداية أن الاختناق لا يمكن النفاذ من خلاله؛ لأنه يسير الآن في حارات تتجه مباشرة نحو النفقين المتجهين إلى مانهاتن. وفجأة لا يرى أحمد غير عدد من السيارات لا يتجاوز أصابع اليدين، سيارات النقل الصغيرة تسير بينه وبين مدخل النفق الأيمن. سيارات أجرة وحافلات نقل أطعمة مجهزة ومحكمة الغلق، وعدد آخر من السيارات الأخرى، سيارات في لون البرونز وأخرى من نوع الفولفو يرى داخلها أسرة من الزنوج. وبإشارة حانية يسمح أحمد لسائقها بتجاوز شاحنته في الحارة المجاورة. يحذره السيد ليفي بصوت متوتر، كأن ثورًا يضغط على صدره من الخلف:

– أمامك كشك تحصيل الرسوم، وتبدو أصغر من أن تقود شاحنة خارج الولاية.

ولكن الكشك يخلو من حارسه. ويرى أحمد إشارة اللون الأخضر التي تسمح بدخول النفق. تبدو الأنوار في عيني أحمد داخل النفق غريبة: يبدو اللون الأبيض على الجدران باهتًا أقرب إلى الأصفر الشاحب. يستحضر أحمد الإحساس بأنه يسير تحت الماء بالفعل، يتخيل نهر هدسون الذي يمر فوق سقف النفق بمياهه الثقيلة. تنتشر الأنوار داخل النفق على مساحة كبيرة منه دون سطوع. تسير المركبات ببطء شديد خلال ظلمة خفيفة. من الشاحنات المارة ما يلامس السقف طولاً، ومن السيارات ما يمازج الشاحنات أثناء التزاحم عند المدخل. وبينما ينظر أحمد إلى النافذة

الخلفية للسيارة البرونزية، الفولفو ٩٠، إذ يجد طفلين يجلسان على المقعد الخلفي يتطلعان إليه، ربما طمعًا في مداعبة، يرتديان ملابس مبهرجة كما يفعل أبناء البيض في الرحلات. كانت هذه الأسرة الزنجية تواصل السير بنجاح قبل أن يسمح لها أحمد بتجاوزه.

وبعد فورة من النشاط المفاجئ، تتزحزح المركبات قليلاً في الفضاء المكتسب، بعد انفراج طفيف في الاختناق المتشابك خارج النفق، ثم لا يلبث أن يتوقف المرور من جديد بسبب عائق لا مرئي، اختناق جديد خارج النفق. يبدو إحراز أي تقدم للأمام ضرب من الوهم. يضغط السائقون على فرملاتهم، وتسطع أنوار التوقف الخلفية. يجد أحمد نفسه وقد ألف البطء، وغير مبغض لذلك التوقف والسير، فقد يدفعه الانحدار بأسرع مما يريد إلى أسفل النفق، عند موضع الانحناء الذي قيل إنه النقطة الأضعف فيه. هناك ستنتهي حياته. يشعر بوميض في رأسه أشبه بسراب ساخن مشرب بصورة تلك المساحة من العشب المقصوص المعلق عند فوهة النفق، وداخل رأسه. يشفق على العشب من الوحدة.

تصدر منه نحنحة خفيفة، ينظف بها ما علق في حلقه، توطئة لتكملة الحوار مع السيد ليفي:

- نحن أبناء الشرق الأوسط لا نبدو صغارًا في السن؛ لأننا نكبر قبل الميعاد بعكس البيض الأنجلوساكسون. كان تشارلي يقول لي: إنني أبدو في الواحد والعشرين، وكنت أفوز دائمًا في لعبة سباق الشاحنات في البلاي ستيشن.

يجيبه السيد ليفي بصوت مخنوق يصدر من أعماق حلقه:

– واضح أن ذلك المدعو تشارلي كان يتكلم كثيرًا معك.

يرد أحمد:

– طبعًا أنت تتمنى ألا أتكلم لأن الوقت يقترب من ساعة الصفر، لكني أقترح عليك أن تصلي رغم أنك لا تؤمن بدين، ما رأيك؟

تحاول إحدى البنتين الصغيرتين اللتين تجلسان على المقعد الخلفي في السيارة الفولفو أن تلفت نظر أحمد إليها بابتساماتها الملحة، البنت شعرها كثيف مربوط فوق رأسها على هيئة كرتين مستديرتين غريبتين، أشبه بأذني الفأر الشهير الذي يظهر في أفلام الكرتون، ولكن أحمد لا يأبه بها.

– لا.

وكأن هذه الكلمة ذات المقطع الواحد قد آلمته لدى خروجها، ولكن ليفي يواصل:

– كلام يعني من أجل الكلام!! اسألني آخر سؤال.

– الشيخ رشيد. عندك معلومات عنه، بعد هذا الكشف الرهيب؟

– إلى الآن هو مختفٍ. ولكن إلي أين يذهب؟ لن يستطيع العودة إلى اليمن على أي حال. لا يفلت المجرمون من جريمتهم إفلاتًا كاملاً.

– زارني الليلة الماضية. أحسست بالحزن في عينيه.

– وطبعًا لم يقل لك إن اللعبة انتهت، وأنهم وجدوا تشارلي مقتولاً مع أول خيوط صباح الأمس؟

- لا، بالعكس أخبرني أن تشارلي سيقابلني حسب الخطة، وتمنى لي النجاح في المهمة.

- حملك المسؤولية كلها.

يستشعر أحمد سخرية في صوت ليفي، ويقول جازماً:

- وأنا لها، رأيت هذا الصباح سيارتين غريبتين عند محل الأثاث، ورأيت رجلاً ذا صوت كريه عال يبدو أنه من المخابرات، كان يتحدث في هاتف لاسلكي. رأيته ولكنه لم يرني.

وبتحريض من الفتاة الصغيرة على ما يبدو، تضع هي وأخوها وجهيهما ملاصقًا الزجاج الخلفي ويتطلعان إلى أحمد بعينين ناتئتين وفمين ملتويين، سعيًا لحمل أحمد على الابتسام، ويكسبا الرهان.

يترنح السيد ليفي على مقعده متظاهرًا بعدم المبالاة، أو قل يداري رعبه وراء حشد من الصور التي استدعاها من أعماق الذاكرة. يقول:

- أود أن أخبرك عن شيء آخر وأخير، لقد كنت أضاجع أمك.

تتقد الجدران بلون أحمر وردي وقد سقطت عليها الأنوار الخلفية للمركبات الواقفة التي لا تتقدم خطوة حتى تتوقف، ويستغل ليفي صمت أحمد ويستمر في حديثه:

- كنا نتطارح الغرام طوال الصيف، كانت رائعة، لا أعتقد أني سأقع في حب امرأة بهذا الصدق في المستقبل.

ولكن أحمد يجيب بعد تفكير لم يطل:

- أعتقد أن أمي كانت تستسهل النوم مع الرجال، كانت مساعدة ممرضة وكانت علاقتها بالجسد علاقة حميمة، أضف إلى أنها ترى نفسها سيدة عصرية متحررة.

- إذن لا ينبغي أن يغضبك ذلك، لقد أحببتها، أصبحت هي كل عالمي، وخسارتها ستكون قاصمة لظهري. يبدو أني آذيت مشاعرك، تعرف أني أشرب كثيراً، طبعًا لا تفهم هذه الأمور.

- لا يهمك يا سيدي. أنا فاهم. وأنا لا يهمني أن تزني أمي مع يهودي.

ويضحك ليفي، ويخرج ضحكه مثل نباح فظ، ويقول:

- على رسلك، كلنا هنا أمريكان، ألم تتعلم ذلك في سنترال الثانوية؟ أيرلنديون أمريكان، وأفارقة أمريكان، ويهود أمريكان، وحتى عرب أمريكان.

- هل تعرف اسمًا عربيًا واحداً؟

ويؤخذ ليفي على غرة، ولكنه يبادر:

- عمر الشريف.

يستطيع ذكر آخرين كثيرين لو كان في موقف غير هذا الموقف الذي يحدق فيه الموت.

- عمر الشريف ليس أمريكياً. أعد المحاولة.

- يوه. نسيت اسمه، لوي آلسندر.

ويصحح لــه أحمد الاسم:

– تقصد كريم عبد الجبار.

– شكراً، ولكن ذلك في زمن غير زمنك.

– ولكنه كان بطلاً. استطاع الفوز على التعصب.

– أظن أن ما تقصده هو جاكي روبنسون.

– هل نقترب من المنطقة الضعيفة في جسد النفق؟

– لا أدري، إننا نقترب من كل شيء في الواقع. ثم إن النفق لا ينبئنا بشيء إذا دخلناه. كنت في الماضي أرى نفرًا من رجال الشرطة يخفرون هذه المماشي، ولكنهم اختفوا، لم أعد أراهم. أعتقد أنهم ملوا من خرق الناس للنظام.

يتوقف الحشد لبضع دقائق، تبدأ السيارات خلف الشاحنة وأمامها في إطلاق أبواقها. تصطدم الأصوات بالجدران وترتد كأنها تصدر من آلات موسيقية عملاقة. وكأن هذا التوقف يفسح الطريق أمام الحديث، فيسأل أحمد السيد ليفي:

– هل قرأت عن الشاعر والفقيه السياسي المصري سيد قطب؟ قدم إلى الولايات المتحدة في أواخر الأربعينيات، وهاله ما رأى في أمريكا من تفرقة عنصرية وإباحية جنسية، وانتهي به الأمر إلى أن الشعب الأمريكي شعب منحل ضل الطريق، غارق في المادية والجاهلية. زعم أيضًا أن من بين المسلمين أنفسهم في كل مكان أناسًا علمانيين جهلة، وعلى المسلمين الحقيقيين التخلص منهم.

– عين العقل. سأقرر كتبه على الطلاب في مادة القراءة الحرة، هذا إذا عشت. طلبت منهم تدريس مقرر في التربية الوطنية هذا الفصل، زهقت

من الجلوس في تلك الحجرة الضيقة القديمة طوال اليوم، والحديث في السياسة والاجتماع وهجر الطلاب للمدرسة. اتخذت لنفسي فلسفة جديدة شعارها دعهم يهجرون المدرسة.

- سيدي، يؤسفني أن أخبرك بأنك لن تعيش بعد الآن، خلال دقائق معدودة ستلقى وجه الله. قلبي يرقص طربًا لذلك.

يتقدم المرور قليلاً، ويتخلى الطفلان في مقعد "الفولفو" الخلفي عن سعيهما للفت انتباه أحمد. يتكور الفتى الذي يرتدي قبعة حمراء بمنقار، وقميص بخطوط صغيرة، على النسق الأمريكي، يتكور حول نفسه بعد أن أخذته سنة من النوم بسبب هذا التوقف المتكرر، وبسبب صرير الفرامل في هذا الجحيم الذي تحول فيه عادم السيارات إلى ثاني أوكسيد الكربون. وتتوسد الفتاة ذات الضفائر الكثيفة، وقد وضعت إبهامها في فمها، كتف أخيها، وترمي أحمد بنظرة بلهاء لا تظهر فيها رغبتها في جذب انتباهه. ويجيبه جاك ليفي بعد لأي وقد توقف عن التظاهر باللامبالاة، وتخلى عن وجنتيه لون الحياة من فرط القلق:

- الآن لنقابل ابن ... الفاعلة، لنلق هذا الوجه كما تقول، بدأت أتشوق مثلك للقائه، ولم لا وقد رزأني بامرأة أحببتها حتى الجنون فنبذتني، وأصبحت وظيفتي كالأشغال الشاقة، أستيقظ كل صباح في الرابعة ولا أعود إلى النوم أبداً. زوجتي تتعذب لعذابي لأنها تعرف أنها المسئولة عن هذا العذاب بسبب وزنها الزائد وعدم قدرتها على إنقاصه لا بالحمية ولا بالمشي. وتتعذب هي أيضًا لأنها لا تأكل بسبب الحمية التي توشك أن تقتلها. أريد أن أصارحها بالحقيقة؛ أريد أن أقول لها: "بــث، هوني عليك! انسي الموضوع تماماً، لا شيء يعيد إلينا ما فات عندما كنا في أول الشباب." لم

نحد عن حياتنا العادية القديمة. كنا نضحك قليلاً، كان كل منا يضاحك الآخر ويدفعه للاستمتاع بالأشياء البسيطة. كنا نتغدى معًا مرة في الأسبوع، ونذهب إلى السينما كلما وجدنا الحماس، وكنا نذهب بين الحين والآخر للتنزه عند الشلالات. والابن الوحيد الذي أنجبناه، مارك، يعيش في "ألبكيركي" ولا يريد أن يرى وجهينا، ومن يلومه؟ كنا كذلك مع والدينا، نهرب منهم لأنهم لا يفهموننا، ويسببون لنا الإزعاج. ما اسم فيلسوفك هذا الذي تتحدث عنه؟

– سيد قُطُبْ، أو إن شئت الدقة "قُطْبْ"

– يبدو أنه على حق في كلامه عن أمريكا. التعصب العرقي، الجنس – أشياء مخيفة. بعد أن تنفد قوتك لا تجد أمريكا في عونك. ولا حتى تتركك تموت، بل تسلط عليك المستشفيات تمتص كل ما معك من مال. لقد استحال الأطباء إلى محتالين بفضل شركات الأدوية. فلماذا أبقى على هذه الأرض حتى يحيلني الأطباء – جماعة النصابين – إلى بقرة يحلبونها؟ فلتنعم بـث بالقليل الذي ترثه؛ هذا ما أزمعه. لقد حولتني الحياة إلى عبء بغيض كل ما يفعله أنه يشغل فراغًا في هذا العالم. استمر .. اضغط على الزر اللعين، ومثلما قال ذلك الرجل الذي كان على متن إحدى طائرات الحادي عشر من سبتمبر لزميل لـه في هاتفه اللاسلكي: "سيكون الأمر كشكة دبوس." ويمد جاك يده إلى الجهاز المفجر ويمسك أحمد بيده بقوة للمرة الثانية في يده:

– من فضلك يا سيد ليفي، لا تتدخل في عملي حتى لا يتحول المعنى من نصر إلى هزيمة إذا كنت أنت الفاعل.

– يا إلهي، كان المفروض أن تصبح محامياً، صح؟ خفف قبضتك، ما كنت إلا مازحاً.

تلاحظ الفتاة الجالسة على مقعد "الفولفو" الخلفي ذلك الصراع المقتضب، وكان اهتمامها سببًا في إيقاظ أخيها، ويحدقان فيهما بعيون مشرقة سوداء، وعلى مرأى من أحمد يستغرق السيد ليفي في حك قبضة يده بيده الأخرى. ويخبر أحمد، ربما كي يهدئ من مخاوفه بشيء من التملق:

– كبرت هذا الصيف وقويت، هل تذكر عندما زرتني في مكتبي الصيف الماضي وسلمت عليّ بيد نحيلة ضعيفة.

– نعم، لم أعد أخشى تايلنول.

– تايلنول؟

– زميل لي تخرج من سنترال، شاب كالثور فرض نفسه على البنت التي كنت أحبها وكانت تحبني، ولكنها استغربت تصرفاتي وتحولت إلى من هو أكثر قوة. أنت لست الوحيد الذي يعاني من مشاكل عاطفية.

– حدثني عن الحور العين، الاثنين وسبعين عذراء اللاتي تقمن على خدمتك في الآخرة.

– لم يحدد القرآن الكريم عددهن، كل ما ذكره أنهن كثيرات مقصورات في الخيام، سود العيون، قاصرات الطرف، ولم يمسسهن إنس من قبل ولا جان.

– جان، مرة أخرى! يا إلهي.

ويستشعر أحمد موجة من الكره تجتاح نفسه لهذا الساخر الغريب وهو يخبره:

– أنت تسخر لأنك لا تفهم لغة القرآن، قال لي الشيخ رشيد مرة إن الحور العين رموز يشير بها الله إلى حبه لنا، وهو الحب الذي يتجلى في كل مكان، ويتجدد على الدوام ولا يفهمه كل عبد فان.

– تمام التمام، إذا كنت ترى ذلك فأنت وما ترى، لن أناقشك، ومن يستطيع المناقشة والقنبلة ستنفجر في وجهه بعد لحظة.

– ما تسميه انفجارًا أسميه أنا شكة دبوس، أو كوة أرى من خلالها ملكوت الله في علاه.

تبدو لحظة الوصول بعيدة المنال وسط هذا الاختناق المروري المعقد، ورغم ذلك فإن انحناءة خفيفة في سقف النفق تنبئ أحمد بأن الهدف المنشود قد اقترب، وأن المنعطف الذي يرمز إليه بالحائط المكسو بالقرميد يلوح الآن من فوق أجساد الشاحنات المتعانقة. هنالك تقع النقطة التي ينبغي لهذا العدد من الأسطوانات البلاستيكية المحشوة أن تنفجر. تبتعد يده اليمنى عن مكانها على عجلة القيادة وتتسلل إلى الصندوق المعدني الأسمر القابع بينه وبين المقعد إلى البئر الصغير الذي سوف يضغط عليه بالإبهام. وعند الضغط سوف يعانق الخلاق، سوف يخصه الله بمقعد إلى جواره يؤنس به وحدته. أو كما كان الشيخ يقول لـــه: "سيلقاك كما يلقى الأب ابنه الغائب."

ويهتف به جاك ليفي مستفزاً:

– اضغط وخلصني، سأغمض عيني وأصلي: "يسوع، تعبت في أيامي الأخيرة."

– لن تشعر بشيء على أي حال.

ويجيبه ليفي وهو يتظاهر بالهدوء، ودون أن تواتيه القدرة على الصمت.

– لا، ولكن الألم سيكون من نصيب آخرين غيرنا. لم أكن أتصور نهايتي على هذا النحو.

– وماذا كنت تتصور؟

– لم أكن أتصور أن أموت إلا على فراشي، وربما لهذا السبب كنت أهرب من النوم على سريري في البيت.

يخاطب أحمد نفسه: "يريد أن يموت. يريدني أن أقوم عنه بالمهمة. يحدثنا القرآن الكريم في سورة الواقعة عن اللحظة التي تبلغ فيها روح الميت حلقومه. ما أشبه هذه بتلك، طابت الرحلة واستعد البراق، أرى جناحيه المتألقين يخفقان، ينطويان وينبسطان. وفي السورة نفسها يتوجه إلينا الخالق بالسؤال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ الله لا يريد الهلاك، إنه خالق العالم ومقدر الموت.

تتبدى أحجار الجدران والسقف الذي أعتمه الزمن، أشكال مربعة لا حصر لها في خيال أحمد، شيئًا عملاقًا كأنه موجة تدفع أخرى بعيدًا عن النقطة التي يتمركز في جوفها العدم، إلى حيث الوجود الرحب. قضت إرادة الله بترك العدم والتحول منه إلى الوجود. تلك هي إرادته منذ الأزل، هو الحي القيوم الكريم الذي لا يعتوره نقص، النور الهادي. وكذلك أمرنا ألا ندنس قدسية خلقه بإرادة الموت لأنه شاء الحياة.

يعيد أحمد يده اليمنى إلى عجلة القيادة. يتطلع إليه الطفلان الجالسان على مقعد "الفولفو" الخلفي في سمتهما الأنيق وثيابهما النظيفة التي تشي بعناية الأبويين، يتطلعان إليه بشيء من الأسى بعد ما رأيا، من خلال الزجاج الأمامي، في عينيه من الحزن والشرود، وعلى صفحة وجهه الهم والعبوس. وبينما يواصلان التحديق في وجهه الحزين، إذ يباغتهما بإشارة من يده اليمني كأنه يطمئنهما على حياتهما. وإذ يشرق وجها الطفلين بالابتسامات لا يجد أحمد بدًّا من أن يبادلهما الابتسام. ويتطلع إلى ساعته فيجدها قد تجاوزت التاسعة والثماني عشر دقيقة، وأن لحظة الدمار قد ولت، وأن منعطف النفق قد امتلأ بضوء النهار المنتشر. ويعتدل ليفي واقفًا في حيزه المحدود كأنه يتنفس الصعداء.

كأن الطفلين يشعران بنشوة النجاة التي يحس بها ليفي فيتوسدان النافذة الخلفية ويغطيان عيونهما بأصابعهما، ويلوحان بلسانيهما الناتئين لأحمد الذي يغالب ابتسامًا جديدًا ينتشر على صفحة وجهه، ويسري في جوارحه فيشير إليهما بأصابعه وإن بشيء من الضعف والوهن. تتسع فوهة النفق المتألقة بضياء الشمس لــه ولشاحنته وأشباحه لتقذف بهم جميعًا في عالم الشروق والبهجة: بهجة النهار والضوء الطازج ليوم جديد من أيام مانهاتن. وينفرج الاختناق المروري، وتتباعد المركبات في الفضاء الواسع على مرأى من العمارات المطلة، وارتفاعاتها المتفاوتة، ولوحات الإعلانات المعلقة، والمنازل المنخفضة المتراصة، والمساحات الفارغة التي تفصل ذلك كلــه عن ناطحات سحاب غطى الزجاج واجهاتها. ربما كانا في مكان لا تدل عليه علامة في شمال ولاية نيوجرسي، ولكنهما يريا من البعد شبح مبنى ناطحة السحاب التي تسمى "الإمباير ستيت" يلوح في الأفق وقد خملت

أضواؤه الباهرة، وحرم من زينته المتألقة، بعد أن أصبح، مرة أخرى، أطول مبنى في مدينة نيويورك.

وتنطلق الفولفو البرونزية إلى اليمين جنوباً، ويتسلى الطفلان بأضواء المدينة الباهرة، ويهزان رأسيهما نحو اليمين ونحو اليسار، ويتطلع إليهما أحمد في انتظار تحية الوداع التي لم تجئ، ويحس بخيبة أمل غصة في القلب بعد أن ضحى من أجلهما بمستقبله مع الحور العين. يهتف به جاك ليفي هتاف من نجا من موت محقق، يتعمد أن يبدو صوته كصوت صبي في المرحلة الثانوية.

– يا ولد! كنت قد استعددت، لقد أقنعتني.

ويشعر أنه لم يؤت نبرة الصوت الصحيحة وهو يتكلم، فيضيف في صوت أكثر نعومة:

– أحسنت صنعًا يا صديقي، مرحبًا بك في نيويورك.

يخفف أحمد من سرعته ويميل بشاحنته ثم يتوقف تماماً. ما فتئت السيارات خلفه، والشاحنات المنتشية بحرية الفضاء الواسع، تنحرف يمين أحمد ويساره، وترسل أبواقها استنكاراً، تنفتح نوافذ جانبية، وتنطلق منها إيماءات احتجاج ممزوجة بإهانات مقصودة، ويرى أحمد المرسيدس الغامقة خلفه ويبتسم إذ يجدها لم تبرح مكانها رغم سعيها الدءوب لتجاوزه.

ويدرك جاك ليفي أن دوره قد جاء، فيقول:

– ماذا نحن فاعلان الآن؟ لنعد بالشاحنة إلى نيوجرسي، سيفرح الجميع لرؤيتنا، أنت لم ترتكب جريمة، وأنا على ذلك شاهد. قد تواجه تهمة قيادة شاحنة تحمل مواد خطرة إلى خارج حدود ولاية نيوجرسي برخصة

قيادة درجة ثالثة، وقد تكون العقوبة إلغاء رخصتك، وهذا في صالحك فأنت لا تصلح لهذه المهنة على أي حال.

يبتعد أحمد بالشاحنة قليلاً عن تيار المرور المتدفق في انتظار التعليمات.

- عليك بالسير في خط مستقيم، وعليك باليسار كلما أمكن، لا أريد أن أعود إلى أي نفق معك وبهذه المواد اللعينة. سنسير فوق جسر جورج واشنطن. ومن فضلك ضع الزر في وضع الأمان مرة أخرى. هل تسمعني؟

يتلمس أحمد طريقه إلى الزر، ينتابه خوف الآن من أن تصطدم أصابعه بطريق الخطأ، الرافعة الصغيرة في انتظار لمسة واحدة، هنالك تستحيل الشاحنة إلى قنبلة، وينتشي السيد ليفي بالفرحة كلما تحسس جسده وعرف أنه لا يزال حيًا يرزق، يتنفس ويتحدث.

- التزم اليسار بعيدًا عن الضوء القادم، ستصبح في شارع عشرة بعد قليل. أحاول أن أتذكر هل الطريق الغربي السريع يتسع للشاحنات، سنضطر إلى التزام جانب النهر، أو نحاول الوصول إلى شارع برودواي والبقاء فيه حتى نصل إلى الجسر.

كأن أحمد يريد أن ينصاع لأوامر ليفي، فينعطف يسارًا فيجد الطريق مستقيماً.

- إنك تسير كأنك تتبعني وكفى، أبِكَ شيء؟

يهز أحمد رأسه بلا إجابة، ولكن ليفي يقول:

- أعلم أنك مصدوم، وأنا مثلك، ولكننا لن نجد مكانًا نركن فيه الشاحنة هنا، وعندما نصل إلى الجسر نكون وصلنا البيت تقريباً، لأن الجسر

ينعطف إلى شارع ٨٠، وهناك على اليمين سيوقفنا ضباط الشرطة خلف مجلس المدينة، ولكننا لن نأبه بهم، وأي ضابط يسألك قل لـــه إنك تعمل لحساب السي آي إيه في عملية سرية. أنت ضحية يا ولدي، شاب مخدوع، ولا أتصور أن وزارة الأمن الداخلي تريد التفاصيل لإذاعتها في وسائل الإعلام، أو تدفع بها إلى ساحات المحاكم. ويصمت السيد ليفي قليلاً، ولكنه يواصل:

– أعلم أن ذلك لم يحن وقته، ولكني لم أكن أمزح عندما قلت إنك تستطيع أن تكون محاميًا جيداً. أنت متحدث جيد وأعصابك هادئة. سيحتاج الأمريكيون العرب إلى الكثير من المحامين في السنوات المقبلة. أعتقد أننا وصلنا شارع الثمانين. كنت أعتقد أننا وصلنا شارع عشرة. استمر في السير حتى برودواي عند دوران كولومبس، ستجد محطة أتوبيس بورت أوثوروتي على شمالك. أنا متأكد من أنك ذهبت إلى هناك مرة أو مرتين، هناك سنعبر شارع ٤٢، أذكر أن هذا الشارع لم يكن نظيفاً، ولكن شركة ديزني أولته عناية خاصة.

يلملم أحمد شتات نفسه، ينشط ذاكرته، يشق طريقه وسط زحام السيارات، والتاكسيات، وإشارات المرور، والمارة المتواجدين في كل ركن من أركان هذا العالم المزدحم من حوله، ولكن السيد ليفي لا يزال لديه أفكار:

– عندي حب استطلاع يدفعني لأن أتأكد من أن هذه المواد اللعينة كانت فعلاً موصولة بجهاز تفجير!! أم كنا ضحية خداعة كبرى. كانت هذه بطاقة احتياطية أدخرها لوقتها، ولكني سعيد لأني لم أستخدمها، الحمد لله أن الخوف غلبك.

كان وقع ذلك ثقيلاً على أذني أحمد، فاستدرك ليفي:

- أو لنت جانباً، أو لنقل رأيت النور.[٦]

هنالك، على طريق ٨ العام المفضي إلى برودواي، تزدحم المدينة العظيمة بالناس، يرتدي بعضهم ثيابًا أنيقة، ويرتدي الكثير منهم ثيابًا رثة، قليل منهم جميل الطلعة، وكثير منهم زري الهيئة. اضمحل الجميع تحت المباني الشاهقة المطلة، إلى حجم الحشرات الصغيرة، ولكنهم مع ذلك يركضون أو يهرولون، مصممون على المضي كلٌ لشأنه، على مرأى من شمس الصباح المشرقة، كلٌ مصمم على إنفاذ خطته، أو تحقيق مشروعه، أو بلوغ أمل طال انتظاره، أو غاية ينشدها، أو هدف يسعى إليه، يمنحهم المبرر للعيش يومًا آخر، كلٌ يعيش مشدودًا على أوتاد وعيه، عينه على الارتقاء بنفسه، والحفاظ على ذاته. هذه هي الحياة، ولا شيء غير ذلك. يهتف أحمد مخاطبًا نفسه: "الشياطين! لقد سلبوني إلهي."

هوامش الفصل الأول:

[1] يقصد المؤلف الآية ٧٢ من سورة التوبة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِك هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأبدايك سطحي الفهم للقرآن الكريم؛ لأن أبدايك استقى معلوماته عن القرآن من صديقه شادي ناصر، طالب الدراسات العليا الذي لم ينس الإشادة به في صدر الكتاب. واعتمد على ترجمة رودويل (١٨٦١) وترجمة ن.ج. داوود (١٩٥٦)، وهي ترجمات تفتقر إلى الدقة. والسؤال عن القانون الثاني للديناميكا الحرارية سؤال استنكاري هنا؛ لأنه يريد أن يقول إن وصف الجنة والنار على ذلك النحو الذي جاء في القرآن لا يتسق مع القانون الثاني للديناميكا الحرارية الذي يقضي بميل الطبيعة إلى الفوضى في الأنساق وتحبيذها للأنساق التي تتميز بتعدد الاختيارات.

[٢] يورد المؤلف الآيات بأرقامها، ونردها إلى أسمائها.

[٣] لا توجد مدينة بهذا الاسم في أمريكا، ولكننا نجده يطلق على بعض المحال التجارية والمدارس التعليمية، وأغلب الظن أن أبدايك يقصد منطقة باترسون التي يكثر بها الأمريكيون العرب.

[٤] الكاندومليه ديانة أفريقية يمارسها أهل البرازيل خاصة. جاءت الديانة إلى البرازيل من خلال القساوسة الأفارقة وأتباعهم الذين جاءوا كعبيد بين عامي ١٥٤٩- ١٨٥٠. كانت تحرمها الكنيسة الكاثوليكية وتجرمها بعض الحكومات، ولكنها بقيت بعد تحرير العبيد في بدايات القرن التاسع عشر. ولا زالت إلى اليوم ديانة واسعة الانتشار بين جميع طبقات المجتمع الأمريكي. وقد دخلت مع الأيام ضمن الفولكلور البرازيلي.

[٥] في التوراة يأمر الله سيدنا إبراهيم يذبح ابنه إسحاق وليس إسماعيل كما جاء في القرآن الكريم.

[٦] جاشا هيفتز (١٩٠١- ١٩٨٧) عازف الكمان الروسي الأشهر في القرن العشرين. يهودي من لتوانيا التي أصبحت فيما بعد جزءًا من روسيا. كان أبوه مدرسًا لمادة الكمان في المدارس اللتوانية قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة. حصل هيفتز على الجنسية الأمريكية في عام ١٩٢٥ وزار إسرائيل في عام ١٩٥٣ وعزف قطعة للموسيقار الألماني الشهير ريتشارد شتراوس الذي كان متهمًا بالنازية ومنعت أعماله في إسرائيل بطريقة غير رسمية. ولكن هيفتز قال إن الموسيقى تعلو على كل هذه الضغائن. ولكن أحد المتطرفين لحق بيهيفتز خارج الفندق وراح يضرب يده اليمنى بقضيب حديدي مما أثر على قدرته على العزف طوال حياته بعد ذلك.

[٧] إسحاق سترن (١٩٢٠ – ٢٠٠١) عازف كمان شهير ولد في بلدة كريمنتز بأوكرانيا وهـاجرت أسرته إلى سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة عندما كان في شهره العاشر مـن عمـره. درس الكمان على يد ناحوم بلندر في كونسرفتوار سان فرانسيسكو. زار الصين ويرجع له الفضـل فـي اكتشاف عازف التشللو الصيني يو يو ما. أطلق اسمه على مسرح مدينة نيويورك الآن. وافته المنية إثر أزمة قلبية عن عمر يناهز الواحد والثمانين عاماً.

[٨] أنتونين دفوجاك (١٨٤١ – ١٩٠٤) موسيقار تشيكي قضى جزءًا من حياته في الولايات المتحدة مديرًا للكونسرفتوار القومي في نيويورك. كتب تسع سيمفونيات وتسع أوبريتات وكان يعزف البيانو التشللو والكمان. تميزت سيمفونياته وأغانيه بالطابع الغجري. شهد المد القومي في أوربـا أواخـر القرن التاسع عشر. جمع في موسيقاه بين الطابع الشعبي والموسيقى التقليدية.

[٩] وهو المنطقة الواقعة جنوب شارع هاوستن في منطقة مانهاتن في نيويورك.

[١٠] مركز تدريب المشاة في مقاطعة بيرلتون، تقدر مساحته بـ ١٣ ألف فدان.

[١١] يفصل خط ماسون دكسن بين أربع ولايات أمريكية وهي بنسلفانيا ووست فرجينيـا وديلاويـر وميريلاند حين كانت تلك الولايات تحت الاستعمار البريطاني. وبعـد أن ألغـت ولايـة بنسـلفانيا العبودية عام ١٧٨١أصبح هذا الخط مع نهر أوهايو يفصل بين الولايات الحرة وولايات العبودية، وأصبح الخط في الوعي الشعبي حدًا ثقافيًا فاصلاً بين الولايات الشمالية والجنوبية.

[١٢] مركز تدريب سلاح المدفعية في مدينة إلباسو، تكساس. وهي قاعدة صواريخ باتريوت المضادة للصواريخ. مساحتها ٤٧٦٠ كم٢.

[١٣] قانون أصدره الرئيس روزفلت لإنصاف العائدين من الخدمة العسكرية بعد الحـرب العالميـة الثانية لممارسة وظائفهم السابقة وتسهيل القروض لهم حتى يستطيعوا بناء مساكن. كمـا حصـلوا بموجب هذا القانون على تعويضات كبيرة بعثت الأمل في نفوسهم.

[١٤] تحطيم الزجاج عادة يهودية يمارسونها في الأعراس، وتدل فيما تدل علـى هشاشـة العلاقـات الإنسانية الشخصية. وتحطيم الزجاج يدل أيضًا على أن الزوج ينبغي أن يظل سليمًا معـافى رغـم الخطوب، ويدل أخيرًا على تحطيم غشاء البكارة عند العروس.

[١٥] شارات قيل إن اليهود كانوا يرتدونها في ألمانيا لعزلهم عن باقي سكان البلاد في أثناء الحـرب العالمية الثانية.

[١٦] أكبر مدن ولاية نيوميكسيكو في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة على حدود المكسيك، يبلغ عدد سكانها *1, 515, 070* نسمة.

[17] شريط بين المدن يمتد من كاليفورنيا إلى كارولاينا ويمتاز بسطوع أشعة الشـمس بقـوة علـى مناطقه.

[18] الجزء الأول من كتاب ملر الشهير "الصلب الوردي، غرائـز "Rosy Crucifixion, Sexus نشر في عام ١٩٤٩ ويتناول فيه حياته، خاصة الجنسية، في مانهاتن في العشرينيات، عنـدما كـان يناضل من أجل العناية بأسرته وإثبات وجوده ككاتب. وينتهي هذا الجزء بقراره الذي اتخذ بالسـفر إلى باريس.

[19] رئيس مجلسة إدارة شركة كرايسلر، ورئيس شركة فورد، ولد فـي أكتـوبر ١٩٢٤ بنسـلفانيا، وتخرج من كلية الهندسة في جامعة ليهاي، ثم حصل على الماجستير في الهندسـة مـن جامعـة برنستون. تقاعد عام ١٩٩٢.

[20] لاعب غولف مشهور، ولد في عام ١٩٢٩ في بتسبيرج، بنسلفانيا.

[21] Arabists المستعربون هم الذين يعرفون العربية لأنهم عاشوا جزءًا كبيرًا من حيـاتهم فـي الدول العربية، إما كدبلوماسيين أو ملحقين ثقافيين، أو رجال مخابرات، أو أساتذة.

هوامش الفصل الثاني:

[1] يظن الكاتب أن القرآن شعر كتبه محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهي التهمة نفسها التي اتهم بهـا الرسول في بداية الدعوة، حتى إن القرآن الكريم قال في ذلك: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَـهُ﴾ صدق الله العظيم.

[2] توفيلس يوجين بل كونر، ولد في ١١ يوليو من ١٨٩٧ في ولاية ألاباما الأمريكية، وتوفي فـي مارس من عام ١٩٧٣. كان ضابط شرطة في ولاية ألاباما أثناء حركة الحقوق المدنية الأمريكيـة، كما كان عضوًا في جماعة كوكلاس كلان السرية التي نشأت بعد الحرب الأهلية لتخويف السود في الجنوب الأمريكي، كما كان كونر من أشد دعاة الفصل العنصري، واستخدم خراطيم النار والكلاب البوليسية في مهاجمة المتظاهرين السود العزل. أصبح كونر فيما بعـد عضـوًا فـي الكـونجرس الأمريكي عن الحزب الديمقراطي عن ولاية ألاباما عام ١٩٢٠. لا يزال كونرز يُنظر إليـه الآن

على أنه رمز بغيض من رموز الفصل العنصري، ففي سبتمبر من عـــام ٢٠٠٥ صـــرح عضـــو الكونجرس تشارلز رانجل بعد أحداث كاترينا بأن الرئيس الجمهوري بوش يشبه كـــونر إلـــى حـــد كبير.

[٣] وفقًا لكتاب اليهود والنصارى المقدس هي ابنة رعوئيل كاهن مديان أبي البنات السبع اللائي سقى لهن موسى عند البئر. "وبينما موسى في الطريق لاقاه الرب في مكان للمبيت وحـــاول أن يميتـــه. فأخذت صفورة امرأته صوانة فختنت ابنها ومست بها رجل موسى وقال "أنت الآن عريس دم لـــي. فعفا عنه الرب عندما قالت: "عريس دم لي" من أجل الختان.

[٤] يزعم الباحثون أن ٢٠% من الأمريكيين يعتنقون ما يسمى معتقدات العصر الجديـــد New Age وهي مزيج من المعتقدات الدينية القديمة من الشرق والغرب وأفكار علمية حديثة. يأخـــذ العصـــر الجديد من جميع الأديان الكبيرة كالروحانية والبوذية والهندوسية والشـــامانية والصـــوفية والوثنيـــة الجديدة.

[٥] Above It All رواية للكاتب الأمريكي جورج دبليو موريسون يتناول فيها دور الغيبيات فـــي تشكيل شخصية البعض.

[٦] عرافة أو ضاربة الودع الإغريقية في الميثولوجيا الإغريقية.

[٧] مكان معروف عنه سوء السمعة والتعامل في الربا، يقصده من لديه شيك يحتاج إلى صرفه قبـــل موعده لأي سبب، فيقوم المكتب بصرف الشيك بنصف ثمنه أو ما أشبه.

[٨] كريستوفر لوكسمبورج هو الاسم المستعار لمؤلف كتاب "قراءة القرآن على ضوء اللغة الآرامية القديمة: محاولة لفك شفرة اللغة القرآنية." (٢٠٠٠)، ويزعم أن المؤلف اختار أن يكـــون مجهـــول الاسم تجنبًا لغضب المتشددين الإسلاميين.

[٩] يرثي الكاتب هنا لحال أمريكا وإسرائيل اللتين تعانيان من الإرهاب، ولا يذكر شيئًا عـــن الـــذين يموتون كل يوم في العراق وفلسطين ودول أخرى بسبب التحيز الأمريكي لإسرائيل.

هوامش الفصل الثالث:

[١] الكساد الكبير الذي أصاب الاقتصاد الأمريكي في أواخر الثلاثينيات، وأسفر عن مجاعـــات فـــي أمريكا قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

[2] هو لويس السادس عشر (١٧٥٤-١٧٩٣) ملك فرنسا الذي استدعى البرلمان في عام ١٧٨٩ ولكن البرلمان لم يقر بالإصلاحات التي أراد فرضها فرضًا وقامت الثورة التي انتهت بإعدام لويس وزوجته ماري أنطوانيت على المقصلة.

[3] شركة خرائط هاجستورم المعنية بطبع الخرائط والأطالس للمدن الكبرى وطرقاتها، ومشهورة بدقتها وسهولة قراءتها.

هوامش الفصل الرابع:

[1] يلوي أبدايك أعناق الآيات لتناسب غرضه، ويضيف إليها من عنده ما ليس موجودًا في ترجمة معروفة، والذين مكروا بالرسول هم قريش وليس اليهود، وقد حدث ذلك في ليلة الهجرة، يقول القرطبي: اجتمع رأي قريش على قتل النبي (صلى الله عليه وسلم) فبيتوه ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذ خرج فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ودعا الله عز وجل أن يعمي عليهم أثره فطمس الله على أبصارهم فخرج وقد غشيهم النوم فوضع على رؤوسهم ترابًا ونهض فلما أصبحوا خرج عليهم علي فأخبرهم أنه ليس في الدار أحد.

[2] الحق المسيحي (Christian right) اصطلاح سياسي يستخدم في الغالب للانتقاص من القدر إشارة إلى عدد من الحركات والمنظمات الاجتماعية والسياسية المسيحية اليمينية التي تقف بقوة إلى جانب القيم الاجتماعية التي يزعمون أنها تتسق مع القيم المسيحية الأساسية. ويشير المصطلح كذلك إلى الأصولية المسيحية التي تمزج التطرف الديني بالطموح السياسي، وأنصار هذه المنظمات كثيرون في الولايات المتحدة، وهم أقرب للحركة الصهيونية ومبادئها.

[3] كان إمرسن من رواد مذهب التعالية *Transcendentalism* ومما قاله عن الموت: الموت لا ينبغي أن يخيفنا لأن الموت ما هو إلا انعتاق الروح من الجسد في طريقها إلى الخالق.

[4] هو عالم الآثار والأنثروبولوجي البريطاني لويز سيمور بازت ليكي (١٩٠٣- ١٩٧٢) المولود في كينيا. تخصص في دراسات أصل الإنسان في أفريقيا الشرقية، وأسفرت حفرياته التي قام بها بعد الحرب العالمية الثانية عن هيكل عظمي يعود إلى الإنسان الأول Homo Sapiens في كهف أولدفاي في تنزنيا.

[5] القديس كريستوفر قديس يحترمه الرومان الكاثوليك والأرثوذكس المسيحيون على السواء. قتل في عهد الإمبراطور الروماني ديسيوس في القرن الثالث الميلادي. يعتبره المؤمنون به حامي المسافرين ويحملون صوره على صدورهم أو في سياراتهم لتحميهم أثناء الرحلات.

[6] (مجلس الفاتيكان الثاني الذي انعقد بين عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٥ وهو المجلس العالمي الحادي والعشرون في تاريخ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية رأسه البابا يوحنا الثالث والعشرون واستمر على أيام البابا بولس السادس وكان هدفه التجديد الروحي للكنيسة وإعادة النظر في وضع الكنيسة في العالم المعاصر. ومن أهم قراراته دعوة الكنائس البروتستانتية والأرذوكسية الشرقية لإرسال مراقبين، وكان من أهداف المؤتمر المعلنة الدعوة إلى إصلاح الطقوس الدينية ودعوة العلمانيين للمشاركة في الصلوات وكذلك إصلاح وظائف القساوسة.

هوامش الفصل الخامس:

[1] حوض تيدال Tidal Basin خليج من صنع الإنسان يقع بجوار نهر بوتوماك في واشنطن العاصمة، وهو جزء من منتزه غرب بوتوماك، يحيط به النصب التذكاري لجفرسون والنصب التذكاري لفرانكلين روزفلت، ومساحة الحوض ١٠٧ أفدنة وعمقه عشرة أقدام.

[2] سالي همنجز Sally Hemings ١٧٧٣-١٨٥٣) فتاة ربع زنجية يزعم أن لها طفلاً أو أكثر من توماس جيفرسون، كانت سالي تقيم مع جيفرسون طوال إقامته في باريس وهناك أنجبت أبناءها السبعة. وفي مقابلة عام ١٨٧٣ ذكر أحد أبنائها ماديسون همنجز أن جيفرسون أبوه وأبو جميع الأبناء الذين أنجبتهم سالي. وأما جيفرسون نفسه فلم يعلق على هذا الأمر.

[3] وهنا يضع علامة استفهام وهي خطأ في النص القرآني لأن الاستفهام في القرآن لا ينتظر جواباً.

[4] إشارة إلى الآية رقم عشرة من سورة الفتح ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾.

[5] إشارة إلى الآية رقم ٢٩ في سورة الفتح التي تقول ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

[6] إشارة إلى أغنية كتبها ولحنها هانك وليامز سنة ١٩٤٨.

المؤلف فى سطور:-

لم يحرز أبدايك تقدما كبيرا فى الشعر والنقد وكتابة المسرحيات، وإنما حقق نجاحًا ملحوظًا فى مجالي الرواية والقصة القصيرة. ومن ذلك نجاحه الملفت حين نشر روايته الأولى فى عام ١٩٦٨ التى سماها "أزواج"، وكانت من أكثر الكتب مبيعًا لمدة تزيد على العام، ثم باعها لدور السينما بمبلغ يزيد على ثلاثمائة وستين ألف دولار. وكتب أبدايك القصة القصيرة فنجح فى كتابتها نجاحًا واضحًا حتى إنه ليعرف بها دون أن يسعى إلى ذلك سعيه إلى المسرح والرواية الطويلة والشعر، ونشر الكثير من قصصه القصيرة فى مجلة النيويوركر ومجلة القصة، وظهرت قصصه القصيرة أكثر من مرة فى الكتاب السنوى الذى تصدره دار هوتون مفلن ويضم "أفضل القصص الأمريكية القصيرة فى القرن العشرين" والذى أصدرته الدار عام ١٩٩٩، كما ترجمت بعضًا من قصصه القصيرة ونشرت فى مجلة القصة والثقافة الجديدة ومجلة العصور الجديدة، وترجمت طائفة من كتاب "أفضل القصص الأمريكية القصيرة فى القرن العشرين" وضمها كتاب قام بمراجعته وتحريره الأستاذ طلعت الشايب، وصدر عن المشروع القومي للترجمة بعنوان "ربما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى: مختارات من القصة الأمريكية القصيرة فى القرن العشرين.

والواضح أن كثيرًا من قصص أبدايك القصيرة أفضل من كثير من رواياته الطويلة، والواضح أيضًا أن التاريخ الأدبى فى الوقت الراهن يحفل بقصصه القصيرة أكثر مما يحفل برواياته الطويلة أو دواوينه الشعرية أو مسرحياته، وأن التاريخ الأدبى فى المستقبل سوف يذكر له إنجازه كواحد

من كبار كتاب القصة القصيرة فى القرن العشرين دون أن يعترف له بشيء ذى بال فى مجالات الشعر والمسرح والنقد، وقد يجد من مؤرخى الأدب من يسجل له نجاحًا ما فى مجال الرواية، ويشيد بجهده فى هذا الفن، ولكن هذا الناقد نفسه لن يقارنه بآخرين من الروائيين الأمريكيين الراسخين ممن لهم فى بعد الصيت وقوة الفن باع طويل أمثال (همنجواى وجون ستاينبك وفولكنر ومارك توين) والمعاصرين أمثال توماس بنشن وجون فولز وأليس مونرو وفيليب روث ودون ديللو وإسماعيل ريد وجون أشبرى وجور فيدال وأليس ووكر ومارجريت آتوود وستيفن كنج وراى برادبرى و ج. د. سالنجر وجويس كارول أوتس وآخرين كثيرين.

المترجم فى سطور:-

أحمد عبد الله الشيمي أحمد

ولد في قرية باجا – سوهاج عام ١٩٥٧

حصل على الليسانس من جامعة أسيوط ١٩٧٩

حصل على الماجستير من جامعة أسيوط عام ١٩٨٧

حصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي من جامعتي رايس والقاهرة عام ١٩٩٦

العمل: مدرس الأدب الإنجليزي – جامعة بني سويف (١٩٩١-١٩٩٨)

أستاذ مساعد الأدب الإنجليزي – كلية اللغات والترجمة –

جامعة الملك خالد – المملكة العربية السعودية (١٩٩٩- وحتى تاريخه)

الخبرة في الترجمة

١- كتاب: نساء مفقودات: مختارات من القصة الأمريكية المعاصرة صادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة وتصدير الدكتور ماهر شفيق فريد (أغسطس ٢٠٠٠).

٢- كتاب يقظة امرأة The Awakening لـ كيت شوبان، صادر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة (يناير ٢٠٠٣).

٣- كتاب: هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة، لــ ستانلي فش، صادر عن المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٤).

٤- كتاب ربما في حلب ذات يوم..وقصص آخرى: مختارات من القصة الأمريكية في القرن العشرين صادر عن المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٥) مراجعة وتحرير الأستاذ طلعت الشايب.

٥- كتاب: اللغة والثقافة لــ كلير كرامش، تحت النشر في المجلس الأعلى للثقافة.

التصحيح اللغوى: أ   محمد عبده

الإشـــراف الفنى: حســـــن كـــامل



هذه رواية صدرت في يونيو من عام (2006) في الولايات المتحدة، وصدرت منها طبعة أخرى، في الوقت نفسه تقريباً، في المملكة المتحدة ؛ أي أن كثيراً من القراء يقرؤونها الآن في أمريكا وأوروبا. وهي رواية أراد بها كاتبها (جون أبدايك) أن يشارك في الحرب على الإرهاب التي بدأها جورج بوش في أعقاب هجوم الحادي عشر من سبتمبر من عام 2001. كتب أبدايك هذه الرواية (وهي روايته الثانية والعشرون) ليجاري الأحداث التاريخية التي تمر بها الولايات المتحدة الأمريكية، وحتى لا تفوته المشاركة في الحملة التي قادها الساسة ضد ما يسمونه بالإرهاب.. الإسلامي هذه المرة!! وقد أكد أبدايك نفسه ذلك في حديث له مع وكالة رويترز قبل نشر الرواية ببضعة أشهر: "أردت أن أجاري الأحداث وأتسق مع عالم اليوم. والإرهاب كما تعرفون يفرض نفسه على حياتنا. وأظن أن تناولي للموضوع في هذه الرواية سيكون مختلفاً؛ فقد سعيت إلى فهم الأمر من خلال وجهة نظر الإره... نفسه".

عندما يفرغ القارئ من قراءة هذه الرواية لن يجد ا... كبيراً بين ما كتبه أبدايك وما فعله الساسة الأمريكي... سعيهم لخداع الناس عن الأهداف المضمرة؛ وأن ا... لم يحسن رسم شخصية بطل روايته الإرهابي الأ... المصري!! فبدا وكأن هدفه تطويع الشخصيات ... تناسب ما يرمي إليه من اتهام المسلمين عامة والعرب بصفة خاصة بالإرهاب ومعاداة الحضارة الغربية.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح